الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

كامل محمد الخراط   محمد أنس مصطفى الخن

الجزء السادس عشر

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم


الجامع لأحكام القرآن
والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت-لبنان
للطباعة والنشر والتوزيع تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠
Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

سورة الشعراء

هي مكيةٌ في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدنِيٌّ؛ الآية التي يُذكَرُ فيها الشعراء، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]. وقال ابن عباس وقتادة: مكيةٌ إلَّا أربع آياتٍ منها نزلت بالمدينة، من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرها[2]. وهي مئتان وسبعٌ وعشرون آية[3]. وفي رواية: سِتٌّ وعشرون[4]. وعن ابن عباسٍ: قال النبيُّ ﷺ: «أُعطيتُ السورةَ التي تُذكَرُ فيها البقرة من الذِّكْرِ الأوَّلِ، وأُعطيتُ طه وطسم من ألواح موسى، وأُعطيتُ فواتحَ القُرآنِ وخواتيمَ سورةِ البقرة من تحت العرش، وأُعطيتُ المُفصَّلَ نافلةً[5]». وعن البراء بن عازب، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى أعطاني السَّبعَ الطِّوالَ مكانَ التوارةِ، وأعطاني المِئِين[6] مكانَ الإنجيل، وأعطاني الطَّواسين مكان الزبور، وفضَّلني بالحواميم والمُفصَّلِ ما قرأهُنَّ نبيٌّ قبلي[7]».

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٣ ، وزاد المسير ٦/ ١١٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ .

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١١٩ .

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٨ إلى ابن مردويه. وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٥٢٥) من حديث معقل بن يسار ﵁، وفيه: «الطور» بدل «طسم». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٠ : فيه عبيد الله بن أبي حميد، أجمعوا على ضعفه.

(٦) في (م): المبين .

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ إلى ابن نصر وابن مردويه من حديث أنس بن مالك ﵁. وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (١٦٩٨٢) من حديث واثلة بن الأسقع ﵁. وقال السندي في حاشيته على المسند: المثون: ما كان من سور القرآن عدد آيهِ مئة آية أو تزيد عليها شيئاً أو تنقص منها شيئاً يسيراً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ④ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑨﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمشُ ويحيى وأبو بكرٍ والمُفضَّلُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: بإمالة الطَّاءِ مُشبعاً في هذه السورة وفي أُختيها[١]. وقرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ وشيبةُ والزُّهريُّ: بين اللفظين، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم[٢]. وقرأ الباقون بالفتح مُشبَعاً. قال الثَّعلبي: وهي كلُّها لغاتٌ فصيحة. وقد مضى في «طه»[٣] قولُ النَّحاسِ في هذا. قال النَّحَّاس[٤]: وقرأ المدنيون[٥] وأبو عمرو وعاصم والكسائي: «طسم» بإدغام النون في الميم، والقُرَّاء يقولون[٦] بإخفاء النون[٧]. وقرأ الأعمش وحمزة:

(١) السبعة ص٤٧٠، والتيسير ص١٦٥ عن حمزة والكسائي، والنشر ٢/ ٧٠ عنهما وعن خلف، والبغوي ٦/ ١١٤ عن المفضل.

(٢) نقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٤ عن أبي حاتم أنه اختار فتح الطاء.

(٣) ١٤/ ١٢-١٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣.

(٥) هي قراءة نافع، أما قراءة أبي جعفر فهي بإظهار النون مثل قراءة حمزة الآتية. النشر ٢/ ١٩.

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٣، والكلام منه، ووقع في غير (ظ): والفراء يقول.

(٧) يعني الإخفاء بمعناه اللغوي، وليس المراد الإخفاء الاصطلاحي. قال أبو البقاء العكبري في اللباب في علل البناء والإعراب ٢/ ٤٦٩: أصل الإدغام في اللغة الإخفاء والإحكام.

«طسين ميم» بإظهار النون[١]. قال النَّحَّاس: للنون الساكنة والتنوين أربعةُ أقسامٍ عند سيبويه: يُبيَّنانِ عند حروف الحلق، ويُدْغَمانِ عند الرَّاءِ واللَّامِ والميمِ والواوِ والياء، ويُقلَبان ميماً عند الباءِ ويكونانِ من الخياشيم؛ أي: لا يُبيَّنان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصَّها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنَّه ليس هاهنا حرفٌ من حروف الحلق فتُبيَّنُ النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْهٌ: وهو أنَّ حروفَ المعجم حكمُها أنْ يُوقَفَ عليها، فإذا وُقِفَ عليها تبيَّنتِ النُّون. قال الثعلبيُّ: الإدغامُ اختيار أبي عبيدٍ وأبي حاتمٍ قياساً على كلِّ القرآن، وإنَّما أظهرها أولئك للتَّبيين والتَّمكين، وأدغمَها هؤلاء لمجاورتِها حروفَ الفم. قال النَّحَّاس[٢]: وحكى أبو إسحاق في كتابه «فيما يُجرى وفيما لا يُجرى» أنَّه يجوز أنْ يُقال: «طسينَ ميمُ» بفتح النون وضمِّ الميم، كما يُقال: هذا مَعْدي كربُ.

وقال أبو حاتم: قرأ خالد: «طسينَ ميمُ».

ابن عباس: «طسم» قَسَمٌ، وهو اسمٌ من أسماء الله تعالى[٣]، والمُقَسمُ عليه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾. وقال قتادة: اسمٌ من أسماء القرآن أقسمَ اللهُ به. مجاهد: هو اسمُ السورة[٤]. الحسن[٥]: افتتاح السورة[٦]. الربيع: حساب مُدَّة قوم. وقيل: قارعةٌ تَحُلُّ بقوم. «طسم» و«طس» واحد. قال:

وَفاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ ... بأن تُسْعِدا والدَّمعُ أَشْفاهُ ساجِمُهْ[٧]

---

(١) قراءة حمزة في السبعة ص٤٧٠، والتيسير ص١٦٥.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٣-١٧٤، وينظر الكتاب ٤/ ٤٤٥ فما بعده.

(٣) أسماء الله عز وجل توقيفية، يتوقف في إثباتها على ما صح من النصوص، ولم يثبت في ذلك نص.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٣، والوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٢.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ويحسن.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٦٣.

(٧) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ص٢٥٦. قال البرقوقي في شرحه ٤/ ٤٣: أشجاه: أشده شجواً، من =

وقال القُرظيُّ: أقسم الله بطَوْله وسنائه ومُلكه[١]. وقال عبد الله بن محمد بن عَقِيل: الطَّاءُ طورُ سيناء، والسِّينُ إسكندرية، والميم مكة[٢]. وقال جعفر بن محمد بن عليّ: الطَّاءُ شجرةُ طوبى، والسِّينُ سِدرةُ المنتهى، والميمُ محمدٌ ﷺ[٣]. وقيل: الطَّاء من الطَّاهر، والسِّينُ من القُدُّوس ـ وقيل: من السَّميع، وقيل: من السَّلام ـ والميمُ من المجيد. وقيل: من الرَّحيم. وقيل: من المَلِك[٤]. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة «البقرة[٥]». والطَّوَاسِيمُ والطَّواسِينُ سُوَرٌ في القرآن جُمِعَتْ على غير قياس. وأنشد أبو عُبيدة:

وبالطَّواسِيمِ التي قد ثُلِّثَتْ وبالحوامِيمِ التي قد سُبِّعتْ

قال الجوهري: والصوابُ أن تُجمَعَ بذواتِ وتُضافَ إلى واحد، فيُقال: ذوات طسم، وذواتُ حم[٦].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ رفعٌ على إضمار مبتدإٍ، أي: هذه «تِلْكَ آياتُ الكتابِ الْمُبين» التي كنتُم وعِدتُم بها؛ لأنَّهم قد وُعِدوا في التوراة والإنجيل

= قولك: شجاني هذا الأمر، أي: أحزنني. والطاسم: الطامس الدارس. بأن تسعدا: أي: تساعدا وتعاونا. وسجم الدمع: سال وهطل. يخاطب خليليه اللذين عاهداه على أن يساعداه على البكاء عند ربع الأحبة يقول لهما: إن وفاءكما بأن تساعداني على البكاء كهذا الربع، فإن الربع كلما تقادم عهده كان أشجى لزائره وأشد لحزنه؛ لأنه لا يتسلَّى به المحب، وكذلك وفاؤكما كلما ضعف وقلَّ إسعادكما لي على البكاء اشتدَّ حزني، إذ لا أجد من أتسلَّى به. ثم قال: والدمع أشفاه ساجمه، كأنه يقول: إن لي العذر في البكاء، أما أنتما فخليَّان، إذ لو كنتما محزونين مثلي لاستشفيتما بالدمع كما هو شأن المحزون مثلي.

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧٩، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٥ عن علي مرفوعاً.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ١٣٧، وزاد المسير ٦/ ١١٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٦٤.

(٥) ١/ ٢٣٥.

(٦) الصحاح (حمم) و(طسم).

بإنزال القرآن[١]. وقيل: «تِلْكَ» بمعنى هذه[٢].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: قاتلٌ نفسَك ومُهلِكُها. وقد مضى في «الكهف[٣]» بيانُه.

﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لتركهم الإيمان. قال الفرَّاء[٤]: «أنْ» في موضع نصب؛ لأنَّها جزاء. قال النَّحَّاس[٥]: وإنَّما يُقال: «إنْ» مكسورةً؛ لأنَّها جزاء، كذا المُتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: «أَنْ» في موضعِ نصبِ مفعولٍ من أجله، والمعنى: لعلَّكَ قاتِلٌ نفسَك لتركِهِمُ الإيمان.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي: معجزةً ظاهرةً وقدرةً باهرةً، فتصير معارفُهم ضروريةً، ولكِنْ سبقَ القضاءُ بأن تكون المعارفُ نظرية. وقال أبو حمزة الثُّماليُّ في هذه الآية: بلغني أنَّ هذه الآية صوتٌ[٦] يُسمَعُ من السماء في النِّصفِ من شهر رمضان، تخرجُ به العواتق من البيوت وتضِجُّ له الأرض[٧]. وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ المُرادَ قريشٌ لا غيرَهم.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ أي: فتظَلُّ أعناقُهم[٨] ﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قال مجاهد: أعناقهم: كبراؤهم[٩]. وقال النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة؛ يُقال: جاءني عُنُقٌ من النَّاس أي: رؤساءُ منهم. أبو زيد والأخفش: «أَعْنَاقُهُمْ» جماعاتهم؛ يقال: جاءني عُنُقٌ من الناس

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦١ .

(٣) ١٠/ ٣٤٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٦) في (م): بلغني أن لهذه الآية صوتاً. والمثبت من (ظ).

(٧) مجمع البيان ١٩/ ١٣٨ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨١ .

أي: جماعة[١]. وقيل: إنَّما أرادَ أصحابَ الأعناق، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامَه[٢]. وقال قتادة: المعنى: لو شاءَ لأنزلَ آيةً يذِلُّون بها، فلا يلوي أحدٌ منهم عُنُقَه إلى معصية[٣]. ابن عباس: نزلَتْ فينا وفي بني أمية، ستكون لنا عليهم الدُّوْلةُ فتَذِلُّ لنا أعناقُهم بعد معاوية. ذكره الثَّعلبي والغزنوي[٤]، والله أعلم. وخاضعينَ وخاضعةً هنا سواء. قاله عيسى بن عمر واختاره المُبرِّد[٥]. والمعنى: إنَّهم إذا ذَلَّتْ رقابُهم ذَلُّوا؛ فالإخبارُ عن الرقاب إخبارٌ عن أصحابها، ويسوغُ في كلام العرب أن تتركَ الخبرَ عن الأولِ وتُخبِرَ عن الثاني؛ قال الراجز:

طولُ اللَّيالي أسرعتْ في نَقْضي طَوَينَ طُولي وطَوَينَ عَرْضي[٦]

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير[٧]:

أرَى مَرَّ السنينَ أخَذْنَ مِنِّي كما أخَذَ السِّرارُ من الهِلالِ

وإنما جاز ذلك؛ لأنَّه لو أسقط مرَّ وطُولَ من الكلام لم يفسُدْ معناه، فكذلك ردَّ الفعلَ إلى الكناية في قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ لأنَّه لو أسقطَ الأعناقَ لَما فسدَ الكلام، ولأدَّى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلُّوا لها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفرَّاء وأبو عبيدة[٨]. والكسائيُّ يذهبُ إلى أنَّ المعنى: خاضِعيها هم، وهذا خطأٌ عند البصريِّين والفرَّاء. ومثل هذا الحذف لا يَقعُ في شيءٍ من الكلام. قاله النَّحّاس[٩].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٢-٦٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٦٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٠. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٣، والطبري ١٧/ ٥٤٤-٥٤٥.

(٤) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٣٨.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٣. واختيار المبرد في الكامل ٢/ ٦٦٨.

(٦) قائله الأغلب العجلي، وهو في خزانة الأدب ٤/ ٢٢٦.

(٧) في ديوانه ٢/ ٥٤٦، وقد سلف ٩/ ٣٠٤.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٣.

(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٦٢ و٦٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ تقدَّم في «الأنبياء[١]». ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أي: أعرضوا، ومَنْ أعرضَ عن شيءٍ ولم يقبَلْه فهو تكذيبٌ له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعيدٌ لهم، أي: فسوف يأتيهم عاقبةُ ما كذَّبوا والذي استهزؤوا به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبَّهَ على عظمتِه وقدرتِه وأنَّهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لَعلِموا أنَّه الذي يستحِقُّ أن يُعبَدَ؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيء. والزوج: هو اللون. قاله الفرَّاء[٢]. و«كَرِيم»: حسنٌ شريف، وأصل الكرم في اللغة: الشرف والفضل، فنخلةٌ كريمةٌ أي: فاضلةٌ كثيرةُ الثمر، ورجلٌ كريمٌ: شريفٌ فاضلٌ صفوح[٣]. ونبتتِ الأرضُ وأنبتَتْ بمعنًى. وقد تقدَّم في سورة «البقرة[٤]»، والله سبحانه هو المُخرِجُ للنبات[٥] والمُنبِتُ له. ورُوي عن الشَّعبيِّ أنه قال: الناسُ من نباتِ الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم[٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: فيما ذُكِرَ من الإنبات في الأرض؛ لدِلالتِه على أنَّ الله قادرٌ، ولا يُعجِزُه شيء[٧]. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مُصَدِّقين لِما سبقَ من علمي فيهم. و«كَانَ» هنا صلة في قول سيبويه[٨]؛ تقديره: وما أكثرُهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يُريد: المنيعُ المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه[٩].

---

(١) ١٤/ ١٧١-١٧٢ .
(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٨ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٤ .
(٤) بل في سورة النحل ١٢/ ٢٩٢ .
(٥) كلمة «للنبات» ليست في (م).
(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٦ .
(٧) الوسيط ٣/ ٣٥١ .
(٨) الكتاب ١/ ٧٣ .
(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ «إذْ» في موضع نصب؛ والمعنى: واتْلُ عليهم ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ويدلُّ على هذا أنَّ بعده: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ذكره النَّحَّاس[١]. وقيل: المعنى: واذكُرْ إذ نادى، كما صرَّح به في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف:٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ص:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم:١٦]. وقيل: المعنى: «وإذْ نادى ربُّكَ موسى» كان كذا وكذا. والنداء: الدعاء بيافلان، أي: قال ربُّكَ: يا موسى ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثمَّ أخبرَ مَنْ هم، فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فـ «قومَ» بدل[٢]، ومعنى «ألا يَتَّقُونَ»: ألا يخافون عقابَ الله؟ وقيل: هذا من الإيماء إلى الشيء؛ لأنَّه أمرَه أنْ يأتيَ القومَ الظالمين، ودلَّ قولُه: «يَتَّقُونَ» على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى: قُلْ لهم: «ألا تَتَّقُونَ» وجاء بالياء؛ لأنَّهم غُيَّبٌ وقتَ الخطاب، ولو جاء بالتاء لجاز. ومثله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران:١٢] بالتاء والياء[٣]. وقد قرأ عبيد بن عُمير وأبو حازم: «أَلَا تَتَّقُونَ» بتاءين[٤]، أي: قُلْ لهم: «أَلَا تَتَّقُونَ». ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي: قال موسى[٥]: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: في الرسالة والنبوة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ورويت هذه القراءة عن عبد الله بن مسلم وحماد بن سلمة وأبي قلابة كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٦ ، والمحتسب ٢/ ١٢٧ ، والشاذة ص١٠٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ .

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ لتكذيبهم إيَّاي[١]. وقراءة العامَّة «وَيَضيقُ» «وَلَا يَنْطَلِقُ» بالرفع على الاستئناف[٢]. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة: «ويَضِيقَ» «وَلَا يَنْطَلِقَ» بالنصب فيهما ردًّا على قوله: «أَنْ يُكَذِّبُونِ»[٣]. قال الكسائي: القراءةُ بالرفع؛ يعني في ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ من وجهين: أحدهما الابتداء، والآخر بمعنى: وإنِّي يضيقُ صدري ولا ينطلق لساني، يعني: نسَقاً على «إنِّي أخافُ»[٤]. قال الفرَّاء: ويُقرأُ بالنَّصب[٥]. حُكيَ ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر، وكلاهما له وجه. قال النَّحَّاس: الوجه الرفع؛ لأنَّ النَّصبَ عطفٌ على «يُكَذِّبُونِ» وهذا بعيدٌ يدلُّ على ذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨] فهذا يدل على أن هذا[٦] كذا[٧]. ومعنى، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ في المُحاجَّةِ على ما أُحِبُّ؛ وكان في لسانه عُقْدةٌ على ما تقدَّم في «طه[٨]». ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أرسِلْ إليه جبريلَ بالوحي، واجعَلْه رسولاً معي ليؤازِرَني ويُظاهِرَني ويُعاونني[٩]. ولم يذكُرْ هنا لِيُعينني؛ لأنَّ المعنى كان معلوماً، وقد صرَّح به في سورة «طه» [الآية: ٢٩]: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ وفي القصص [الآية: ٣٤]: ﴿أرسله مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾، وكأنَّ موسى أذِنَ له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استِعْفاءً من الرسالة، بل طلبَ مَنْ يُعِينُه. ففي هذا دليلٌ على أنَّ من لا يستقِلُّ بأمرٍ، ويخافُ من نفسه تقصيراً، أن يأخذَ مَنْ يستعين به عليه، ولا

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٢، وزاد المسير ٦/ ١١٨.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٧١.

(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٥.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٨ ورجح وجه الرفع.

(٦) في (م): هذه.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٧٥.

(٨) ١٤/ ٥١ - ٥٢.

(٩) الوسيط ٣/ ٣٥١ بنحوه.

يَلْحَقُه في ذلك لَوْم.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ الذنبُ هنا قتلُ القِبطي[١]، واسمه فاثور على ما يأتي في «القصص» بيانه[٢]، وقد مضى في «طه» ذِكْرُه[٣]. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودلَّ على أنَّ الخوفَ قد يصحَبُ الأنبياءَ والفُضَلاءَ والأولياءَ مع معرفتهم باللهِ، وأنْ لا فَاعِلَ إلا هو؛ إذ قد يُسلِّطُ من شاءَ على من شاء.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: كلَّا لن يقتلوك. فهو رَدْعٌ وزَجْرٌ عن هذا الظن[٤]، وأمْرٌ بالثِّقةِ بالله تعالى؛ أي: ثِقْ بالله، وانزجِرْ عن خوفِكَ منهم؛ فإنَّهم لا يقدرون على قَتْلِك، ولا يَقْوَون عليه. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي: أنتَ وأخوكَ، فقد جعلتُه رسولاً معك. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي: مع آياتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يريدُ نفسَه سبحانه وتعالى. ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: سامِعون ما يقولون وما يُجاوبون[٥]. وإنَّما أرادَ بذلك تقويةَ قلبَيْهما وأنه يُعينُهما ويحفظُهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يُوصَفُ الباري سبحانه بذلك[٦]. وقد وصفَ سبحانَه نفسَه بأنَّه السَّميعُ البصير. وقال في «طه» [الآية:٤٦]: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وقال: «مَعَكُمْ» فأجراهما مَجرى الجمع؛ لأنَّ الاثنين جماعة[٧]. ويجوزُ أن يكونَ لهما ولِمَنْ أُرسِلا إليه. ويجوزُ أن يكون لجميع بني إسرائيل[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٢) ١٣/ ٢٥٩ وما بعده.

(٣) ١٤/ ٦٠ وما بعده.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥١.

(٦) تفسير الرازي ٢٤/ ١٢٤.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة(١)، والتقديرُ على هذا: إنَّا ذَوو رسالةِ ربِّ العالمين. قال الهُذليُّ:

أَلِكْني إليها وخيرُ الرَّسو ... لِ أَعْلَمُهُم بنواحي الخَبَرْ(٢)

أَلِكْني إليها معناه: أرسِلْني. وقال آخرُ:

لقد كَذَبَ الواشونَ ما بُحْتُ عندهمْ ... بِسِرٍّ ولا أرسلتُهم برسولِ(٣)

آخر:

أَلا أَبْلِغْ بني عَمرٍو رسولاً ... بأنِّي عن فُتَاحَتِكُمْ غنيُّ(٤)

وقال العباس بن مِرْداس:

أَلا مَنْ مُبلِغٌ عنِّي خُفافاً ... رسولاً بَيتُ أهلِكَ مُنْتَهاها(٥)

يعني رسالةً؛ فلذلك أنَّثها. قال أبو عبيدة(٦): ويجوز أن يكون الرَّسولُ في معنى

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٤ .

(٢) الهذلي: هو أبو ذُؤيب، والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤٦ . قوله: أعلمهم بنواحي الخبر، أي: يعرف شواكل الأمور.

(٣) قائله كثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٧٨ ، وفيه «ليلى» بدل «بسرٍّ» و«رسيل» بدل «رسول». قال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٢٧٧ : يروى بالوجهين.

(٤) قائله الأسعر الجعفي، وهو في اللسان (فتح) وفيه: «بني بكر بن عبد» بدل «بني عمرٍو رسولاً»، وفي تاج العروس (فتح) وفيه: «ألا مَنْ مُبلِغٌ» بدل «ألا أبلغ بني»، ووقع في النسخ الخطية: «أبا» بدل «بني».

(٥) هو الحماسة البصرية ١/ ١٣ ، وخزانة الأدب ٤/ ٣٦٧ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): أبو عبيد .

الاثنين والجمع؛ تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقيل: معناه: إنَّ كلَّ واحدٍ منَّا رسولُ ربِّ العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلِقْهم وخَلِّ سبيلَهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبِدْهم، وكان فرعونُ استعبدهم أربعَ مئةِ سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستَّ مئةِ ألفٍ وثلاثينَ ألفاً. فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذَنْ لهما سنةً في الدخول عليه، فدخلَ البوَّابُ على فرعون فقال: هاهنا إنسانٌ يزعمُ أنَّه رسولُ ربِّ العالمين. فقال فرعون: ايذن له لعلَّنا نضحَكُ منه. فدخلا عليه وأدَّيا الرسالة[١]. وروى وَهْبٌ وغيرُه: أنَّهما لمَّا دخلا على فرعون وجَداه وقد أخرج سباعاً من أُسْدٍ ونُمورٍ وفُهودٍ يتفرَّج عليها، فخافَ سُوَّاسُها أن تبطِشَ بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعَتِ السِّباعُ إلى موسى وهارون، فأقبلَتْ تلحَسُ أقدامَهما، وتُبَصبِصُ إليهما بأذنابِها، وتُلْصِقُ خدودَها بفَخِذَيهما، فعجِبَ فرعونُ من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: «إنَّا رَسولُ رَبِّ العالمين» فعرفَ موسى؛ لأنَّه نشأ في بيته.

ف﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المَنِّ عليه والاحتقار، أي: ربَّيناكَ صغيراً ولم نقتُلْكَ في جُملةِ مَنْ قَتَلْنا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدَّعيه؟ ثم قرَّره بقَتْلِ القِبْطيِّ بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفَعْلَةُ بفتح الفاء: المرَّةُ من الفِعْل[٢]. وقرأ الشَّعبيُّ: «فِعْلَتَكَ» بكسر الفاء[٣]، والفتح أولى؛ لأنَّها للمرَّةِ الواحدة، والكسرُ بمعنى الهيئة والحال، أي: فِعْلَتَكَ التي تُعرَفُ، فكيف تَدَّعي مع عِلْمنا أحوالَكَ بأنَّ اللهَ أرسلَكَ؟ وقال الشاعر:

كأنَّ مِشيتَها مِنْ بيتِ جارتِها ... مَرُّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[٤]

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧.

(٣) المحتسب ٢/ ١٢٧، والشاذة ص١٠٦.

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص٦.

ويقال: كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة[١]. ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الضحَّاك: أي: في قتلِكَ القِبطي؛ إذ هو نفسٌ لا يحِلُّ قَتْلُه. وقيل: أي: بنعمتي التي كانت لنا عليكَ من التربية والإحسان إليك. قاله ابنُ زيد[٢]. الحسن: «مِنَ الكافرينَ» في أنّي إلهُكَ. السُّدِّي: «مِنَ الكافرينَ» باللهِ؛ لأنَّكَ كنتَ معنا على ديننا هذا الذي تَعيبُه[٣]. وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتلَ القِبطيَّ وبين رجوعِه نبيًّا أحدَ عشرَ عاماً غيرَ أشهر[٤]. فـ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: فعلتُ تِلْكَ الفَعْلَةَ يُريدُ قتلَ القِبطي ﴿وَأَنَا﴾ إذ ذاك ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الجاهلين[٥]، فنفى عن نفسِه الكفر، وأخبر أنَّه فعلَ ذلك على الجهل[٦]. وكذا قال مجاهد؛ «مِنَ الضَّالِّينَ»: من الجاهلين[٧]. ابن زيد: من الجاهلين بأنَّ الوَكْزَةَ تبلُغُ القتل[٨]. وفي مصحف عبد الله: «مِن الجاهِلِين»، ويُقال لِمن جَهِلَ شيئاً: ضلَّ عنه[٩]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ»: من النَّاسين. قاله أبو عبيدة[١٠]. وقيل: «وأنا مِنَ الضَّالِّينَ» عن النبوّةِ[١١] ولم يأتِني عن اللهِ فيه شيء[١٢]، فليس عليَّ فيما فعلْتُه في تلك الحالة توبيخٌ. وبيَّنَ بهذا أنَّ التربيةَ فيهم لا تُنافي النبوَّةَ والحِلْمَ على

---

(١) من قوله: وقرأ الشعبي... إلى هذا الموضع في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٦٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ بنحوه .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣ . وأخرج الطبري ١٧/ ٥٥٦ قول السدي.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٧ .

(٥) زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٥٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ .

(٩) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٧ - ٥٥٨ .

(١٠) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٧١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١١٩ .

(١١) النكت والعيون ٤/ ١٦٧ .

(١٢) الوسيط ٣/ ٣٥٢ .

الناس، وأنَّ القتلَ خطأٌ، أو في وقتٍ لم يكن فيه شرعٌ لا يُنافي النبوَّة.

قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: خرجتُ من بينكم إلى مَدْين[١] كما في سورة «القصص» [الآية: ٢١]: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وذلك حين القتل. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يعني النبوَّة. عن السُّدِّيِّ وغيرهِ[٢]. الزَّجَّاج: تعليمه[٣] التوراة التي فيها حكم الله[٤]. وقيل: علماً وفهماً[٥]. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ اختلف الناسُ في معنى هذا الكلام، فقال السُّدِّي والطَّبريُّ والفرَّاء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهةِ الإقرار بالنعمة، كأنَّه يقول: نعم، وتربيتُكَ نعمةٌ عليَّ من حيث عبَّدتَ غيري وتركتني، ولكن لا يدفَعُ ذلكَ رسالتي[٦]. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار، أي: أتمنُّ عليَّ بأن ربيّتني وليداً وأنتَ قدِ استعبدْتَ بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي: ليست بنعمة؛ لأنَّ الواجبَ كان ألَّا تقتُلَهم ولا تستعبِدَهم فإنَّهم قومي، فكيف تذكُرُ إحسانَكَ إليَّ على الخصوص؟! قال معناه قتادة وغيره[٧]. وقيل: فيه تقديرُ استفهام، أي: أوَ تِلكَ نعمةٌ؟ قاله الأخفش والفرَّاء أيضاً[٨]، وأنكره النَّحَّاس وغيره. قال النَّحَّاس[٩]: وهذا لا يجوز، لأنَّ ألِفَ الاستفهامِ تُحدِثُ معنى، وحَذْفُها مُحالٌ،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٥٩ عن السدي، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٧٢ وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن ابن السائب الكلبي.

(٣) في (م): تعليم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٦.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٢، وأبو الليث ٢/ ٤٧٢، والبغوي ٣/ ٣٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٠ عن مقاتل.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨. وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٩، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٩.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٦١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٨.

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٥ - ٦٤٦، وقول الفراء نقله عنه النحاس كما سيأتي قريباً.

(٩) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٦ - ١٧٧.

إلَّا أن يكون في الكلام أم، كما قال الشاعر:

تَـرُوحُ مِـنَ الـحَـيِّ أن تَـبْـتَـكِـرْ[١]

ولا أعلَمُ بين النَّحْويِّين اختلافاً في هذا، إلَّا شيئاً قاله الفرَّاء؛ قال: يجوزُ حَذْفُ ألفِ الاستفهامِ في أفعالِ الشَّكِّ، وحُكي: تُرَى زيداً مُنطلِقاً؟ بمعنى: أتُرى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنَّما أخَذَه من ألفاظ العامَّة.

قال الثعلبيُّ: قال الفرَّاء: ومن قالَ: إنَّها إنكارٌ قال: معناه: أوَ تِلْكَ نعمةٌ؟ على طريق الاستفهام، كقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. قال الشاعر:

رَفَوْنـي وقـالـوا يـا خُـوَيـلِـدُ لا تُـرَعْ فـقـلـتُ وأنـكـرتُ الـوجـوهَ هُـمُ هُـمُ[٢]

وأنشدَ الغَزنويُّ شاهداً على ترك الألف قولَهم:

لـم أنـسَ يـوم الـرَّحـيـلِ وِقْـفـتَـهـا وجَـفْـنُـهـا مـن دمـوعِـهـا شَـرِقُ

وقـولَـهـا والـرِّكـابُ واقـفـةٌ تَـركـتَـنـي هـكـذا وتَـنـطَـلِـقُ

قلتُ: ففي هذا حذفُ ألفِ الاستفهام مع عدمِ أم خلافَ قولِ النَّحَّاس. وقال الضحَّاك: إنَّ الكلام خرجَ مخرَجَ التبكيتِ، والتبكيتُ يكونُ باستفهامٍ وبغير استفهام[٣]، والمعنى: لو لم تَقتُلْ بني إسرائيلَ لرَبَّاني أبواي، فأيُّ نعمةٍ لكَ عليَّ؟! فأنت تمُنُّ عليَّ بما لا يجِبُ أن تمُنَّ به. وقيل: معناه: كيف تمنُّ عليَّ[٤] بالتربية وقد أهنتَ قومي؟ ومن أُهينَ قومُه ذَلَّ[٥]. و«أَنْ عَبَّدْتَ» في موضعِ رفعٍ على البدل من «نِعْمة». ويجوزُ أن تكونَ في موضع نصبٍ بمعنى: لِأَنْ عَبَّدْتَ بني إسرائيل[٦]، أي:

---

(١) هذا صدر بين عجزه: «وماذا يضيرُك لو تُنتظَرْ»، وقائله امرؤ القيس، وقد سلف ١/ ٢٨٣.

(٢) قائله أبو خراش الهذلي، وقد سلف ٦/ ٤٦٩.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٧٧.

(٤) كلمة «عليَّ» ليست في (م).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٤.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨٧.

اتَّخذْتَهم عبيداً[١]. يُقال: عبَّدتَه وأعبدْتَه بمعنى. قاله الفرَّاء[٢]، وأنشد:

عَـلَامَ يُعـبِـدُنـي قـومـي وقـد كَـثُـرَتْ   فـيـهـم أَبـاعِـرُ مـا شـاؤوا وعِـبْـدانُ[٣]

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمَّا غلبَ موسى فرعونَ بالحُجَّةِ ولم

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٨٥.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٩.

(٣) قائله الفرزدق، وهو في اللسان (عبد).

يجِدِ اللعينُ من تقريرِهِ على التربية وغيرِ ذلكَ حُجَّةً رجع إلى معارضة موسى في قوله: «رسولُ ربِّ العالمين» فاستفهمه استفهاماً عن مجهولٍ من الأشياء . قال مكيٌّ وغيرُه: كما يُستفهَمُ عَن الأجناس؛ فلذلك استفهمَ بـ «ما». قال مكي: وقد وردَ له استفهامٌ بـ «من» في موضعٍ آخر، ويُشبِهُ أنَّها مواطن، فأتى موسى بالصِّفاتِ الدالَّة على الله من مخلوقاته التي لا يُشارِكُه فيها مخلوق، وقد سأل فرعونُ عن الجنسِ ولا جِنْسَ للهِ تعالى؛ لأنَّ الأجناسَ مُحدَثة، فَعَلِمَ موسى جهلَه، فأضربَ عن سؤاله، وأعلَمَه بعظيم قدرة الله التي تُبيِّنُ للسامعِ أنَّه لا مشاركةَ لفرعونَ فيها. فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراءِ والتَّعجُّبِ من سفَهِ المقالةِ إذْ كانت عقيدةُ القومِ أنَّ فرعونَ ربُّهم ومعبودُهم، والفراعنةُ قبلَه كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] فجاء بدليلٍ يفهمونه عنه؛ لأنَّهم يعلمون أنه قد كان لهم آباءُ، وأنَّهم قد فَنَوا، وأنَّه لابُدَّ لهم من مُغَيِّر، وأنَّهم قد كانوا بعدَ أن لم يكونوا، وأنَّهم لابُدَّ لهم من مُكَوِّن[2]. فقال فرعون حينئذٍ على جهةِ الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[3] أي: ليس يجيبني عمَّا أسأل، فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأنْ قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي[4]: ليس ملكُه كمُلكِكَ؛ لأنَّكَ إنَّما تملِكُ بلداً واحداً لا يجوز أمرُكَ في غيره، ويموت من لا تُحِبُّ أن يموت، والذي أرسلني يملِكُ المشرقَ والمغرب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5] . وقيل: عَلِمَ موسى عليه السلام أنَّ قصْدَه في السؤال معرفةُ مَنْ سألَ عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الربِّ اليوم.

ثم لمَّا انقطعَ فرعونُ ـ لعنَه الله ـ في باب الحُجَّةِ رجعَ إلى الاستعلاءِ والتغلُّبِ، فتوعَّدَ موسى بالسَّجْنِ، ولم يقُلْ: ما دليلُكَ على أنَّ هذا الإلهَ أرسلَكَ؛ لأنَّ فيه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٩ .

(٤) في (م): إن .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨ .

الاعترافَ بأنَّ ثَمَّ إلهاً غيرُه. وفي تَوعُّدِه بالسِّجْنِ ضَعْفٌ. وكان فيما يُروى أنه يفزَعُ منه فزعاً شديداً حتى كان اللَّعينُ لا يُمسِكُ بولَه. ورُويَ أنَّ سَجْنَه كان أشدَّ من القتل. وكان إذا سجَنَ أحداً لم يُخرِجْه من سجنِهِ حتى يموت، فكان مَخُوفاً. ثم لمَّا كان عند موسى عليه السلام من أمرِ الله تعالى ما لا يُرِعْهُ تَوَعُّدُ فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهةِ اللُّطفِ به والطَّمعِ في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فيتَّضِحُ لكَ به صدقي. فلمَّا سمعَ فرعون ذلك طمِعَ في أن يجِدَ أثناءه موضِعَ معارضة ﴿فَقَالَ﴾ له: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1]. ولم يَحتَجِ الشَّرطُ إلى جوابٍ عند سيبويه؛ لأنَّ ما تقدَّم يكفي منه[2]. ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ من يدِه فكان ما أخبرَ الله من قصَّتِه. وقد تقدَّم بيانُ ذلك وشرحُه في «الأعراف[3]» إلى آخر القصة. وقال السَّحَرةُ لمَّا توعَّدهم فرعونُ بقَطْعِ الأيدي والأرجُلِ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضررَ علينا فيما يَلْحَقُنا من عذاب الدنيا[4]، أي: إنَّما عذابُكَ ساعةً فنصبرُ لها وقد لقينا اللهَ مؤمنين. وهذا يدُلُّ على شِدَّةِ استبصارِهم وقُوَّةِ إيمانهم.

قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعونَ أربعين سنةً إلى الإسلام، وأنَّ السَّحرةَ آمنوا به في يومٍ واحد[5]. يُقال: لا ضَيْرَ ولا ضَوْرَ ولا ضَرَّ ولا ضَرَرَ ولا ضارُورةَ بمعنًى واحد. قاله الهَرَوي[6]. وأنشدَ أبو عبيدة:

فإنَّكَ لا يَضُورُكَ بعدَ حَوْلٍ ... أظبيٌ كانَ أُمُّكَ أم حِمارُ[7]

وقال الجوهري[8]: ضَارَه يَضُورُه ويَضيرُه ضَيْراً وضَوْراً، أي: ضَرَّه. قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٩.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٧٨.

(٣) ٩/ ٢٩٢-٢٩٩.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٣.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣.

(٦) وقاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩١ دون قوله: ولا ضارورة.

(٧) قائله خداش بن زهير، وهو في خزانة الأدب ٩/ ٢٨٩.

(٨) في الصحاح (ضور).

الكسائي: سمعتُ بعضَهم يقول: لا ينفعني ذلكَ ولا يَضُورني. والتَّضوُّرُ: الصِّياحُ والتَّلَوِّي عند الضرب أو الجوع. والضُّورَة بالضمِّ: الرَّجلُ الحقيرُ، الصغيرُ الشأن.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يُريدُ: نتقلبُ إلى ربٍّ كريمٍ رحيمٍ.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ، أي: لأنْ كُنَّا. وأجاز الفرَّاءُ كسْرَها على أن تكون مُجازاةً[1]. ومعنى: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفرَّاء[2]: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزَّجَّاج[3] وقال: قد رُويَ أنه آمنَ معه ستُّ مئة ألفٍ وسبعون ألفاً، وهم الشِّرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. رُويَ ذلك عن ابن مسعودٍ وغيره[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لمَّا كان من سُنَّتهِ تعالى في عباده إنجاءُ المؤمنين المُصدِّقين من أوليائه، المعترفينَ برسالة رسلهِ وأنبيائه،

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٨٠ .

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٩١ .

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٧٣ عن ابن مسعود وأبي عبيدة.

وإهلاك الكافرين المُكذِّبين لهم من أعدائه، أمرَ موسى أن يخرُجَ ببني إسرائيل ليلاً وسمَّاهم عبادَه؛ لأنَّهم آمنوا بموسى. ومعنى: «إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ» أي: يتَّبعكم فرعونُ وقومُه لِيَرُدُّوكم[١]. وفي ضمنِ هذا الكلام تعريفُهم أنَّ اللهَ يُنجيهم منهم، فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً، فتركَ الطريقَ إلى الشام على يسارِه، وتوجَّه نحو البحر، فكان الرجلُ من بني إسرائيلَ يقول له في ترك الطريق، فيقول: هكذا أُمِرْتُ. فلمَّا أصبحَ فرعونُ وعَلِمَ بِسُرَى موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعثَ إلى مدائن مصر لِتلحَقَه العساكر، فرُوِيَ أنَّه لحِقَه ومعه مئةُ ألفِ[٢] أدْهَمٍ من الخيل حاشى[٣] سائر الألوان. ورُوِيَ أنَّ بني إسرائيل كانوا ستَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفاً. والله أعلمُ بصِحَّته، وإنَّما اللازمُ من الآيةِ الذي يُقطَعُ به أنَّ موسى عليه السلام خرجَ بجمعٍ عظيمٍ من بني إسرائيل، وأنَّ فرعونَ تَبِعَه بأضعافِ ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعونَ ألفُ جبَّارٍ كلُّهم عليه تاجٌ، وكلُّهم أميرُ خيل. والشِّرْذِمَةُ: الجمعُ القليلُ المحتقَرُ، والجمعُ الشَّراذِم[٤]. قال الجوهري: الشِّرذمة: الطائفةُ من الناس، والقِطعةُ من الشيء. وثوبٌ شراذمُ أي: قِطَع[٥]. وأنشدَ الثعلبيُّ قولَ الراجز:

جاءَ الشِّتاءُ وثِيَابي أخْلاقْ شَراذِمٌ يَضحَكُ منها النَّوَّاقْ

النَّوَّاقُ من الرجال: الذي يَروضُ الأمور ويُصلِحُها. قالَه في الصحاح[٦]. واللام في قوله: «لَشِرْذِمةٌ» لامُ توكيدٍ، وكثيراً ما تدخلُ في خبرِ إنَّ، إلَّا أن الكوفيين لا يُجيزونَ: إنَّ زيداً لَسوفَ يقوم. والدليل على أنه جائزٌ قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٦.

(٢) في المحرر الوجيز: ست مئة ألف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): سوى، وكلاهما بمعنى.

(٤) من قوله: فخرج موسى... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(٥) الصحاح (شرذم).

(٦) (نوق)، ويروى بالتاء (التَّوَّاق) على أنه اسم ابنه. اللسان (توق).

وهذه لامُ التوكيد بعينِها وقد دخلت على سوف. قاله النَّحَّاس[١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي: أعداءٌ لنا لمخالفتهم دينِنا وذهابِهم بأموالنِا التي استعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في «الأعراف» و«طه[٢]» مستوفًى. يُقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظُ: الغضبُ، ومنه التغيُّظُ والاغتياظ. أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن[٣]. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: مُجتمِعٌ مُستِعدٌّ أخَذْنا حِذْرَنا وأسلِحَتنا. وقُرِئَ: «حاذِرُونَ» ومعناه معنى «حَذِرُونَ[٤]» أي: فَرِقونَ خائفون. قاله الجوهري[٥]: وقُرِئَ: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ» و«حَذِرُونَ» و«حَذُرونَ» بضمِّ الذَّالِ. حكاه الأخفش، ومعنى «حَاذِرُونَ»: مُتأهِّبون، ومعنى «حَذِرُونَ»: خائفون. قال النَّحَّاس: «حَذِرُونَ» قراءةُ المدنيين وأبي عَمرو، وقراءةُ أهلِ الكوفة: «حَاذِرُونَ»[٦] وهي معروفةٌ عن عبد الله بن مسعود وابن عباس، و«حَادِرُونَ» بالدَّالِ غيرِ المُعجَمةِ قراءةُ أبي عباد[٧]، وحكاها المهدَويُّ عن ابن أبي عمار، والماورديُّ والثعلبيُّ عن سُمَيْط بن عجلان[٨]. قال النَّحَّاس: أبو عُبيدةَ يذهبُ إلى أنَّ معنى «حَذِرُونَ» و«حَاذِرُونَ» واحد. وهو قول سيبويه، وأجاز: هو حَذِرٌ زيداً، كما يُقال: حاذرٌ زيداً، وأنشد:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ .

(٢) ١٤/١٠٨-١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٧ دون قوله: ومنه التغيظ والاغتياظ . قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٩٢ : من قال: أغاظني، فقد لحن .

(٤) وهو قول أبي عبيدة كما سيأتي .

(٥) في الصحاح (حذر).

(٦) السبعة ص٤٧١ ، والتيسير ص١٦٥ ، والنشر ٢/ ٣٣٥ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٠ ، لكن الذي في مطبوعه: عن ابن أبي عمار بدل أبي عباد .

(٨) هذه القراءة في المحتسب ٢/ ١٢٨ عن ابن أبي عمار، وفي الشاذة ص١٠٦ عن ابن أبي عمار ومحمد ابن السميفع، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ عن ابن أبي عمار وسميط بن عجلان. وذكرها الأزهري في تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

حَــذِرٌ أُمــوراً لا تَــضِــيــرُ وآمِــنٌ ما لَيسَ مُنْجِيَهُ مِن الأقدارِ[(١)]

وزعم أبو عمر الجَرْميُّ أنه يجوز: هو حَذِرٌ زيداً على حَذْفِ مِنْ. فأمَّا أكثرُ النَّحْويِّينَ فيُفرِّقونَ بين حَذِرٍ وحاذِرٍ، منهم الكسائي والفرَّاء ومحمد بن يزيد، فيذهبون إلى أنَّ معنى حَذِرٍ: في خِلْقَتِه الحذرُ، أي: مُتيقِّظٌ مُتنبِّهٌ، فإذا كان هكذا لم يَتَعدَّ، ومعنى حاذرٍ مُستَعِدٌّ، وبهذا جاء التفسير عن المُتقدِّمين. قال عبد الله بن مسعود في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ قال: مُؤْدون في السلاحِ والكُراع مُقْوون، فهذا ذاك بعينِه. وقوله: مُؤْدون: معهم أداة. وقد قيل: إنَّ المعنى: معنا سلاحٌ وليس معهم سلاحٌ؛ يُحرِّضهم على القتال، فأمَّا «حادِرونَ» بالدَّال المهملة فمُشْتَقٌّ من قولِهم: عينٌ حَدْرَةٌ أي: ممتلِئَةٌ، أي: نحن ممتلئون غيظاً عليهم[(٢)]، ومنه قول الشاعر:

وعَــيْــنٌ لــهــا حَــدْرَةٌ بَــدْرَةٌ شُــقَّــتْ مــآقــيــهــمَــا مِــنْ أُخُــرْ[(٣)]

وحكى أهل اللغة أنَّه يُقال: رجلٌ حادِرٌ إذا كان مُمتلئَ اللحم[(٤)]، فيجوز أن يكون المعنى: الامتلاءُ من السلاح. المَهْدَويُّ: الحادر: القويُّ الشديد.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: من أرض مصر[(٥)]. وعن عبد الله ابن عَمرٍو قال: كانت الجنَّاتُ بحافتي النيل في الشِّقتين جميعاً من أسوانَ إلى رشيد، وبين الجنات زروعٌ. والنيل سبعةُ خِلجان: خليجُ الاسكندرية، وخليجُ سَخَا، وخليجُ دِمْياط، وخليجُ سَرْدُوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى، متصلةٌ لا ينقطِعُ منها شيءٌ عن شيء، والزُّروعُ ما بين الخِلْجان كلِّها. وكانت أرضُ مصرَ كلُّها

---

(١) سلف ١٠/ ٢٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨١ .

(٣) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦ . قال شارحه: بدرة: تبدُر بالنظر. شُقَّت مآقيهما: تفتحت، فكأنها انشقت. من أُخُر: من مآخير العين.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٤٠٧ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٤ .

تُروى من ستةَ عشرَ ذراعاً بما دبَّروا وقدَّروا من قناطِرها وجسورِها وخلجانها[١]؛ ولذلك سُمِّي النيلُ ـ إذا غلق ستةَ عشرَ ذراعاً ـ نيلَ السلطان، ويُخلَع على ابنِ أبي الردَّاد، وهذه الحال مستمِرَّةٌ إلى الآن. وإنما قيل: نيلُ السلطان؛ لأنَّه حينئذٍ يجب الخَراجُ على الناس. وكانت أرضُ مصرَ جميعُها تُروى من إصبعٍ واحدةٍ من سبعةَ عشرَ ذراعاً، وكانت إذا غلق النيلُ سبعةَ عشرَ ذراعاً ونُوديَ عليه إصبعٌ واحدٌ من ثمانيةَ عشرَ ذراعاً، ازدادَ في خَراجِها ألفُ ألفِ دينار. فإذا خرجَ عن ذلِكَ ونُوديَ عليه إصبعاً واحداً من تسعةَ عشرَ ذراعاً نقَصَ خَراجُها ألفُ ألفِ دينار. وسببُ هذا ما كان ينصرفُ في المصالح والخِلْجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأمَّا الآن فإنَّ أكثرَها لا يُروى حتى يُنادى إصبعٌ من تسعةَ عشرَ ذراعاً بمقياس مصر. وأمَّا أعمالُ الصعيد الأعلى، فإنَّ بها ما لا يتكاملُ رِيُّهُ إلَّا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى[٢].

قلتُ: أمَّا أرضُ مصرَ فلا تُروى جيمعُها الآن إلَّا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لِعلُوِّ الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جُسورِها، وهو من عجائب الدنيا، وذلك أنَّه يزيد إذا انصبَّتِ المياهُ في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلادُ كالأعلامِ لا يُوصَلُ إليها إلا بالمراكبِ والقياسات.

ورويَ عن عبد الله بن عَمرو بن العاص أنَّه قال: نِيلُ مصرَ سيدُ الأنهار، سخَّر اللهُ له كلَّ نهرٍ بين المشرق والمغرب، وذلَّلَ اللهُ له الأنهار، فإذا أرادَ اللهُ أن يُجريَ نيلَ مصرَ أمرَ كلَّ نهرٍ أن يَمُدَّه، فأمدَّتْهُ الأنهارُ بمائها، وفجَّرَ الله له عيوناً، فإذا انتهى إلى ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كلِّ ماءٍ أن يرجع إلى عنصره.

وقال قيس بن الحجاج [عمَّن حدَّثه][٣]: لمَّا افتتحَتْ مصرُ أتى أهلُها إلى عَمرو

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨١.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١، وأخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣.

(٣) ما بين حاصرتين من المصادر.

ابن العاص حين دخل بؤونةُ من أشْهُرِ العجم[١] فقالوا له: أيها الأميرُ، إنَّ لِنيلِنا هذا سُنَّةً لا يجري إلَّا بها. فقال لهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرةَ ليلةً تخلو من هذا الشهر عَمَدْنا إلى جاريةٍ بِكْرٍ بين أبويها، فأرضَيْنا أبويها، وحَمَلْنا عليها من الحُليِّ والثيابِ أفضلَ ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عَمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإنَّ الإسلامَ يهدُمُ ما قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب[٢] ومسرى لا يجري قليلٌ ولا كثير، وهمُّوا بالجَلاء، فلما رأى ذلك عَمرو بنُ العاص كتبَ إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فأعلَمه بالقِصَّة، فكتبَ إليه عُمر بن الخطاب: إنَّكَ قد أصبتَ بالذي فعلتَ، وإنَّ الإسلامَ يهدُمُ ما قبلَه، ولا يكونُ هذا. وبعثَ إليه ببطاقةٍ في داخلِ كتابه، وكتبَ إلى عَمرو: إني بعثتُ إليكَ ببطاقةٍ داخل كتابي، فألْقِها في النيل إذا أتاك كتابي. فلمَّا قَدِمَ كتابُ عُمر إلى عَمرو بن العاص أخذَ البطاقةَ ففتحَها فإذا فيها: من عبد الله أميرِ المؤمنين عمر إلى نيلِ مصر، أمَّا بعد: فإنْ كنتَ إنما تجري من قِبَلِكَ فلا تَجْرِ، وإنْ كان اللهُ الواحدُ القهَّارُ هو الذي يُجريكَ، فنسألُ اللهَ الواحدَ القهَّارَ أن يُجرِيَكَ. قال: فألقى البطاقة في النِّيل قبل الصليب بيوم واحد[٣]، وقد تهيَّأَ أهلُ مصر للجَلاء والخروجِ منها؛ لأنَّه لا تقومُ مصلحتُهم فيها إلَّا بالنِّيل. فلما ألقى البطاقةَ في النِّيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى في ليلةٍ واحدةٍ ستةَ عشر ذراعاً، وقطعَ اللهُ تلك السُّنَّةَ السُّوءَ[٤] عن أهل مصر من تِلكَ السَّنة[٥].

---

(١) في النسخ: القبط. والمثبت من المصادر.

(٢) في (د) و(م): فأقاموا أبيب.

(٣) كلمة «واحد» من (ظ).

(٤) المثبت من المصادر، وكلمة «السوء» ليست في النسخ، وفي (ظ): «السيرة» بدل: «السنة».

(٥) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٤، وأبو الشيخ في العظمة (٩٤١)، واللالكائي في كرامات الأولياء (٦٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/٣٣٧ من طريق ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، به. ابن لهيعة سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٢/٤١١-٤١٣ . وفي إسناده إبهام الراوي الذي روى عنه قيس بن الحجاج.

قال كعب الأحبار: أربعةُ أنهارٍ من الجنة وضعَها اللهُ تعالى في الدنيا: سَيْحان وجَيحانْ والنيل والفرات، فسَيْحانُ نهرُ الماءِ في الجنة، وجَيْحانُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة، والنِّيلُ نهرُ العسلِ في الجنة، والفراتُ نهر الخمرِ في الجنة[١]. وقال ابن لَهيعَة: الدِّجلةُ نهرُ اللَّبنِ في الجنة.

قلت: الذي في الصحيح من هذا حديثُ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ وجَيْحَانُ وَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ من أنهار الجنة» لفظ مسلم[٢]. وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة رجلٍ من قومه قال: وحدَّث نبيُّ اللهِ ﷺ «أنَّه رأى أربعةَ أنهارٍ يخرجُ من أصلِها نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنانِ، فقلتُ: يا جبريلُ ما هذه الأنهار؟ قال: أما النَّهرانِ الباطنانِ فنهرانِ في الجنة، وأمَّا الظَّاهرانِ فالنيلُ والفرات» لفظ مسلم[٣]. وقال البخاريُّ من طريق شَريك عن أنس: «فإذا هو في السماءِ الدُّنيا بنهرينِ يَطَّرِدان، فقال: ما هذانِ النَّهرانِ يا جبريل؟ قال: هذا النِّيلُ والفراتُ عنصرُهما، ثم مضى في السماء فإذا هو بنهرٍ آخرَ عليه قصرٌ من اللؤلؤِ والزَّبرجَدِ، فضرب بيده فإذا هو مِسْكٌ أذْفَرٌ، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا هو الكوثر الذي خَبأَ لكَ ربُّك». وذكر الحديث[٤]. والجمهورُ على أنَّ المُرادَ بالعيون عيونُ الماء. وقال سعيد بن جُبير: المرادُ عيون الذهب. وفي الدخان [٢٥-٢٦]: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾. قيل: إنَّهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أوَّلِ مصرَ إلى آخرها[٥]. وليس في الدخان «وكنوز». «وكنوز» جمع كنز، وقد مضى هذا في سورة «براءة»[٦]. والمُرادُ بها هاهنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحَّاك:

(١) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣، والحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١٠٤٢).

(٢) في صحيحه (٢٨٣٩). وأخرجه أحمد (٩٦٧٤).

(٣) في صحيحه (١٦٤): (٢٦٥). وأخرجه أحمد (١٧٨٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٧٥١٧). قوله: «يطَّرِدان» أي: يجريان. النهاية (طرد).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥١.

(٦) ١٠/ ١٨١.

الأنهار. وفيه نظر؛ لأنَّ العيونَ تشملها. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد: المقام الكريم: المنابر. وكانت ألفَ مِنْبرٍ لألفِ جبَّارٍ يُعظِّمون عليها فرعونَ ومُلْكَه. وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء. حكاه ابن عيسى، وهو قريبٌ من الأول. وقال سعيد بن جُبير: المساكن الحِسان[١]. وقال ابنُ لَهيعة: سمعتُ أنَّ المقام الكريم الفَيُّوم[٢]. وقيل: كان يوسفُ عليه السلام قد كتبَ على مجلسٍ من مجالسه: «لا إلهَ إلَّا اللهُ، إبراهيمُ خليلُ اللهِ» فسمَّاها اللهُ كريمةً بهذا. وقيل: مَرابِطُ الخيل، لتفرُّدِ الزُّعماء بارتباطها عُدَّةً وزينةً، فصار مقامُها أكرمَ منزلٍ بهذا. ذكره الماوردي[٣]. والأظهرُ أنَّها المساكنُ الحِسانُ كانت تُكرَمُ عليهم. والمَقامُ في اللغةِ يكون الموضعَ ويكون مصدراً. قال النَّحَّاس: المَقامُ في اللُّغةِ: الموضع؛ من قولك: قامَ يقومُ، وكذا المَقاماتُ واحِدُها مَقامة، كما قال:

وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ[٤]

والمقامُ أيضاً المصدَرُ من قامَ يقومُ. والمُقام بالضَّمِّ: الموضِعُ، مِنْ أقامَ. والمصدرُ أيضاً مِنْ أقامَ يُقيمُ[٥].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريدُ أنَّ جميعَ ما ذكره اللهُ تعالى من الجنَّاتِ والعُيونِ والكنوزِ والمقامِ الكريمِ أورثَه اللهُ بني إسرائيل. قال الحسنُ وغيره: رجعَ بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاكِ فرعونَ وقومِه. وقيل: أرادَ بالوراثة هنا ما استعاروه من حُليِّ آلِ فرعونَ بأمر الله تعالى. قلتُ: وكلا الأمرين حصلَ لهم. والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٢ و٥/ ٢٥١ ، وفيه: الحسن بدل ابن عمر.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٧٢ .

(٤) قائله زهير بن أبي سلمى، وسلف ٢/ ٣٧٤ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٢ .

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: فتَبِعَ فرعونُ وقومُه بني إسرائيل. قال السُّدِّيُّ: حين أشرقتِ الشَّمسُ بالشُّعاع. وقال قتادة: حين أشرقتِ الأرضُ بالضياء. قال الزَّجَّاج[1]: يقال: شَرَقَتِ الشمسُ إذا طلعَتْ، وأشرقَتْ إذا أضاءت.

واختُلِفَ في تأخُّرِ فرعونَ وقومِه عن موسى وبني إسرائيل على قولين: أحدهما ـ لاشتغالِهم بدَفْنِ أبكارِهم في تلك الليلة؛ لأنَّ الوباءَ في تلك الليلة وقعَ فيهم، فقوله: «مُشْرِقِينَ» حالٌ لقوم فرعون. الثاني ـ إنَّ سحابةً أظلَّتْهم وظُلْمة، فقالوا: نحنُ بَعْدُ في الليل، فما تقشَّعَتْ عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾: ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعَمرو بن ميمون: «فَاتَّبَعُوهُمْ مُشَرِّقِينَ» بالتشديد وألف الوصل[2]؛ أي: نحو المشرق؛ مأخوذٌ من قولهم: شرَّقَ وغرَّبَ إذا سارَ نحوَ المشرقِ والمغربِ[3]. ومعنى الكلام: قدَّرْنا أن يرِثَها بنو إسرائيل فاتَّبعَ قومُ فرعونَ بني إسرائيل مُشَرِّقين فهلكوا، وورِثَ بنو إسرائيلَ بلادَهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا[4]، بحيث يرى كلُّ فريقٍ صاحِبَه، وهو تفاعلٌ من الرؤية.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: قَرُبَ مِنَّا العدوُّ ولا طاقةَ لنا به[5]. وقراءةُ الجماعة: «لَمُدْرَكُونَ» بالتخفيف من أدرك. ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]. وقرأ عُبيد بن عمير والأعرج والزُّهري: «لَمُدَّرَكُونَ» بتشديد الدال من ادَّرك[6]. قال الفرَّاء[7]: حفَرَ واحتفَرَ بمعنًى واحد، وكذلك «لَمُدْرَكُونَ» و«لَمُدَّرَكُونَ»

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٩٢.

(٢) الشاذة ص١٠٧ عن الحسن والذماري، وزاد المسير ٦/ ١٢٦ عن الحسن وأيوب السختياني.

(٣) من قوله: قال السدي... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٧٣.

(٤) بعدها في النسخ: الجمعان.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٧.

(٦) المحتسب ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣ عن عبيد بن عمير والأعرج، وهي قراءة شاذة.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٠.

بمعنًى واحد. النَّحَّاس[١]: وليس كذلك يقولُ النَّحْويُّون الحُذَّاق، إنما يقولون: مُدْرَكون: مُلْحَقون، ومُدَّرَكون: مُجتَهدٌ في لَحاقهم، كما يُقال: كسبتُ بمعنى أصبْتُ وظَفِرْتُ، واكتسبْتُ بمعنى اجتهدْتُ وطلبْتُ، وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ لمَّا لحِقَ فرعونُ بجمعه جَمْعَ موسى وقَرُبَ منهم، ورأتْ بنو إسرائيلَ العدوَّ القويَّ والبحرَ أمامَهم ساءت ظُنونُهم، وقالوا لموسى على جهةِ التَّوبيخِ والجَفاء: «إِنَّا لَمُدْرَكُونَ»، فردَّ عليهم قولَهم وزَجَرهم وذكَّرهم وعْدَ اللهِ سبحانه له بالهداية والظَّفر[٢]. ﴿كَلَّآ﴾ أي: لم يُدْرِكوكم[٣] ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ أي: بالنصر على العدوِّ[٤]. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيدُلُّني على طريق النجاة[٥]، فلمَّا عَظُمَ البلاءُ على بني إسرائيل، ورأَوا من الجيوشِ ما لا طاقةَ لهم بها، أمرَ اللهُ تعالى موسى أنْ يضرِبَ البحرَ بعصاه، وذلك أنَّه عزَّ وجلَّ أرادَ أن تكون الآيةُ متصلةً بموسى ومُتعلِّقةً بفعلٍ يفعله، وإلَّا فضَرْبُ العصا ليس بفارقٍ للبحر، ولا معينَ على ذلك بذاتِه إلَّا بما اقترنَ به من قدرةِ الله تعالى واختراعه[٦]. وقد مضى في «البقرة»[٧] قصةُ هذا البحر. ولمَّا انفلقَ صار فيه اثنا عشرَ طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقفَ الماءُ بينها كالطَّودِ العظيم، أي: الجبل العظيم[٨]. والطَّوْدُ: الجبل، ومنه قول امرئ القيس[٩]:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨، وزاد المسير ٦/ ١٢٦.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨، وزاد المسير ٦/ ١٢٦.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣.

(٧) ٢/ ٨٩ - ٩٠.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٣.

(٩) في ديوانه ص٣١٠.

فبينا المرءُ في الأحياءِ طَوْدٌ رَماهُ الناسُ عن كَثَبٍ فمالا[١]

وقال الأسود بن يَعْفُر:

حَلُّوا بأنْقرةٍ يَسيلُ عليهمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ من أطْوَادِ

جمع طود أي: جبل[٢]. فصارَ لموسى وأصحابِه طريقاً في البحر يَبَساً، فلمَّا خرجَ أصحابُ موسى وتكامل آخِرُ أصحاب فرعون على ما تقدَّم في «يونس»[٣] انصَبَّ عليهم وغَرِقَ فرعونُ، فقال بعضُ أصحاب موسى: ما غَرِقَ فرعونُ؛ فنبذَ على ساحلِ البحرِ حتى نظروا إليه.

وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرجَ مع موسى عليه السلام رَجُلانِ من التُّجارِ إلى البحر، فلمَّا أتَوا إليه قالا له: بِمَ أمرَكَ الله؟ قال: أُمرتُ أن أضرِبَ البحرَ بعصايَ هذه فيَجِفَّ[٤]. فقالا له: افعَلْ ما أمرك الله فلن يُخلِفَكَ. ثم ألْقَيا أنفُسَهما في البحر تصديقاً له، فما زالَ كذلك البحرُ حتى دخلَ فرعونُ ومَنْ معه، ثم ارتدَّ كما كان[٥]. وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»[٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ أي: قرَّبناهم إلى البحر؛ يعني فرعونَ وقومه. قاله ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكلُّ يومٍ مَضى أو ليلةٍ سلَفَتْ فيها النفوسُ إلى الآجالِ تَزْدَلِفُ[٧]

أبو عبيدة[٨]: «أَزْلَفْنا»: جمعنا، ومنه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جَمْع.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٧٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٥ ، والبيت ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٦ من غير نسبة.

(٣) ١١/ ٤٥ .

(٤) المثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي، وفي (د) و(ز): فينغرق، وفي (م): فينغلق .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٣ .

(٦) ٢/ ٩٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٥ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٨٧ .

وقرأ عبد الله بن الحارثِ وأُبيٌّ بن كعب وابن عباس: «وَأَزْلَقْنَا» بالقاف[١] على معنى أهلكناهم، من قوله: أزلقَتِ الناقةُ وأزلقَتِ الفرسُ فهي مُزْلِقٌ إذا أزلقَتْ ولدَها[٢].

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه[٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: علامةً على قدرة الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنَّه لم يؤمن من قوم فرعونَ إلَّا مؤمن آل فرعون واسمه حِزْقيل[٤]، وابنتُه آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى[٥] العجوز التي دلَّت على قبر يوسف الصِّدِّيق عليه السلام[٦]. وذلك أنَّ موسى عليه السلام لمَّا خرجَ ببني إسرائيل من مصر أظلمَ عليهم القمرُ فقالَ لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسفَ عليه السلام لمَّا حضره الموتُ أخذَ علينا موثقاً من الله ألَّا نَخرُجَ من مصر حتى نَنقُلَ عظامَه معنا. قال موسى: فأيُّكم يدري أين[٧] قبرُه؟ قال: ما يعلَمُه إلَّا عجوزٌ لبني إسرائيل. فأرسلَ إليها، فقال: دُلِّيني على قبر يوسف. قالت: لا واللهِ لا أفعَلُ حتى تُعطيني حُكمي. قال: وما حُكمها؟ قالت: حُكمي أنْ أكونَ معكَ في الجنة. فثَقُلَ عليه، فقيل له: أعطِها حُكمَها. فدلَّتهُمْ عليه، فاحتفَروه واستخرَجوا عظامَه، فلمَّا أقلُّوها، فإذا الطريقُ مثلُ ضوءِ النهار[٨]. في روايةٍ: فأوحى الله إليه أنْ أعْطِها، ففعل، فأتَتْ بهم إلى بُحيرة، فقالت لهم: أنْضِبوا

---

(١) في المحتسب ٢/ ١٢٩ عن عبد الله بن الحارث، والشاذة ص١٠٧ عن أُبي وابن عباس رضي الله عنهما. وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٢٧ عن ابن مسعود وأبي رجاء والضحاك وابن يعمر.

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١ بنحوه.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥ .

(٤) في الوسيط: خربيل.

(٥) في الوسيط: موشا، وفي تفسير البغوي: مأمويا.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٥٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ .

(٧) كلمة «أين» من (ظ).

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٧٤ .

هذا الماء. فأنْضَبوه، واستخرجوا عظامَ يوسف عليه السلام، فتبيَّنت لهم الطريقُ مثلَ ضوءِ النهار[١]. وقد مضى في «يوسف»[٢].

وروى أبو بُردةَ عن أبي موسى، أنَّ رسول الله ﷺ نزلَ بأعرابيٍّ فأكرمَه، فقال رسول الله ﷺ: «حاجَتُكَ؟» قال: ناقةٌ أرحَلُها، وأعنزاً أحْلُبُها. فقال رسول الله ﷺ: «فلِمَ عَجَزْتَ أن تكونَ مثلَ عجوزِ بني إسرائيل؟» فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لهم حالَ هذه العجوز التي احتكمَتْ على موسى أن تكون معه في الجنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نبَّه المشركين على فَرْطِ جهلهم إذْ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينِه وهو أبوهم. والنبأُ الخبر[٤]؛ أي: اقصُصْ عليهم يا محمدُ خبرَه وحديثَه وعَيْبَه على قومه ما يعبدون[٥]. وإنما قال ذلك مُلزِماً لهم الحُجَّة. والجمهورُ من القُرَّاء على تخفيف الهمزة الثانية، وهو أحسن الوجوه؛ لأنَّهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمةٍ واحدةٍ نحو آدم. وإن شئتَ حقَّقتَهما فقلتَ: «نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ». وإن شئتَ خفَّفتَهما فقلتَ: «نبا ابراهيم». وإن شئتَ خفَّفتَ الأولى. وثَمَّ

(١) أخرجها أبو يعلى (٧٢٥٤)، وابن حبان (٧٢٣)، والحاكم ٢/ ٥٧١-٥٧٢ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف.

(٢) ١١/ ٤٦٢ .

(٣) هو تتمة حديث أبي موسى السالف.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٥ .

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٥٨٩ بنحوه .

خامسٌ إلا أنَّه بعيدٌ في العربية، وهو أن تُدْغَمَ الهمزةُ في الهمزة كما يُقال: رأَّاس للذي يبيع الرؤوس، وإنما بَعُدَ لأنك تجمَعُ بين همزتين كأنَّهما في كلمةٍ واحدة، وحَسُنَ في فَعَّال؛ لأنه لا يأتي إلا مُدغماً[١].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ تعبدون؟ ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وكانت أصنامُهم من ذهبٍ وفضةٍ ونحاسٍ وحديدٍ وخشب. ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي: فنقيمُ على عبادتها. وليس المرادُ وقتاً معيَّناً، بل هو إخبارٌ عمَّا هم فيه. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب. فيُقال: ظلَّ يفعل كذا، إذا فعلَه نهاراً، وبات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً[٢].

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ قال الأخفش: فيه حذف، والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو: هل يسمعون دعاءكم؟ قال الشاعر:

القائدُ الخيلَ مَنْكُوباً دَوابِرُها قد أُحْكِمتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقا[٣]

قال: والأَبَق الكَتَّان فحذف. والمعنى: وأُحكِمتْ حكماتِ الأَبَق[٤]. وفي الصحاح: والأَبَق بالتحريك: القِنَّب[٥]. ورُوي عن قتادة أنه قرأ: «هَلْ يُسْمِعُونَكُمْ» بضمِّ الياء، أي: هل يسمعونكم أصواتهم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾[٦]؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي: هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضرًّا إن

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٨ ببعضه.

(٣) قائله زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٤٩ . قال شارح الديوان: أي: قادها في الغزو فأبعد بها حتى نكبت دوابرها، والدوابر: مآخير الحوافر، أي: أكلت الأرضُ دوابرها. قد أُحكمت: أي: قد جُعل لها القِدُّ حَكَمات، والحَكَمة: التي تكون على الأنف.

(٤) نقله النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٢-١٨٣ عن الأخفش. وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٦ .

(٥) الصحاح (أبق).

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ ، وقراءة قتادة هذه في المحتسب ٢/ ١٢٩ ، والشاذة ص١٠٧ ، وفيه عن ابن يعمر أيضاً.

عصيتُم[١]؟! وهذا استفهامٌ لتقرير الحُجَّة، فإذا لم ينفعوكم ولم يضرُّوا فما معنى عبادتكم لها؟!

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فزعوا[٢] إلى التقليد من غير حُجَّةٍ ولا دليل. وقد مضى هذا القولُ فيه[٣].

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من هذه الأصنام[٤] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ الأوَّلون[٥] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ واحدٌ يؤدِّي عن جماعة، وكذلك يُقال للمرأة: هي عدوُّ الله وعدوَّةُ الله. حكاهما الفرَّاء. قال علي بن سليمان: من قال: عدوَّة الله وأثبتَ الهاء قال: هي بمعنى معادية، ومن قال: عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب[٦]. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدوٌّ لي إن عبَدْتُهم يوم القيامة، كما قال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]. وقال الفرَّاء: هو من المقلوب، مجازُه: فإنِّي عدوٌّ لهم؛ لأنَّ مَنْ عاديتَه عاداك[٧].

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الكلبيُّ: أي: إلَّا مَنْ عَبَدَ ربَّ العالمين، أي: إلا عابِدَ ربَّ العالمين، فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزَّجَّاج: قال النَّحويُّون: هو استثناءٌ ليس من الأوَّل، وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأوَّل على أنهم كانوا يعبدون اللهَ عزَّ وجلَّ، ويعبدون معه الأصنام، فأعلَمَهم أنه تبرَّأ مما يعبدون إلا الله. وتأوَّله الفرَّاء على الأصنام وحدَها، والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتُهم عدوٌّ لي يوم

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٠ بنحوه.

(٢) في (م): فنزعوا.

(٣) ١٤/ ٢١٦ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٥٩ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩ .

القيامة، على ما ذكرنا[١]. وقال الجُرْجاني: تقديرُه: أفرأيتُم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، إلَّا ربَّ العالمين، فإنهم عدوٌّ لي. وإلا بمعنى دون وسوى، كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] أي: دون الموتة الأولى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى الدين[٢]. ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ أي: يرزقني[٣]. ودخول «هو» تنبيهٌ على أنَّ غيرَه لا يُطعِمُ ولا يسقي، كما تقول: زيدٌ هو الذي فعل كذا، أي: لم يفعَلْه غيرُه.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: «مَرِضْتُ» رعايةً للأدب، وإلا فالمرضُ والشِّفاءُ من الله عزَّ وجلَّ جميعاً. ونظير هذا[٤] قولُ فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٥] [الكهف:٦٣]. ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ يريد البعثَ، وكانوا ينسِبون الموتَ إلى الأسباب، فبيَّن أنَّ الله هو الذي يميت ويُحيي.

وكلُّه بغير ياء: «يهدين» «يشفين»؛ لأنَّ الحذفَ في رؤوس الآيِ حسنٌ؛ لتتَّفِقَ كلُّها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحلِّه من العربية هذه كلَّها بالياء؛ لأنَّ الياءَ

---

(١) من قوله قال أبو إسحاق... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٨٣ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٩٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١ .

(٢) الوسيط ٣/ ٣٥٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٧٥ .

(٤) في (م): ونظيره .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٨٩ ، وذكر الآية (٧٩) من الكهف ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، والآية (٨٢) ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ بدلاً من تلك الآية.

اسمٌ، وإنما دخلتِ النونُ لِعلَّة[١]. فإن قيل: فهذه صفةٌ لجميع الخلق، فكيف جعلَها إبراهيمُ دليلاً على هدايته ولم يهتدِ بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأنَّ من أنعَمَ وجبَ أن يُطاعَ ولا يُعصى ليلتزمَ غيرُه من الطاعة ما قد التزمَها، وهذا إلزامٌ صحيح. قلت: وتجوَّز بعضُ أهل الإشارات في غوامض المعاني، فعدلَ عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بداهة[٢] العقول من أنه ليس المرادُ من إبراهيم. فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي: يُطعمني لذَّةَ الإيمان ويسقيني حلاوةَ القبول. ولهم في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وجهان: أحدهما ـ إذا مرضتُ بمخالفتِه شَفاني برحمته. الثاني ـ إذا مرضتُ بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحقِّ[٣]. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضتُ بالذنوب شفاني بالتوبة[٤]. وتأوَّلوا قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يُميتني بالمعاصي يُحييني بالطاعات. الثاني: يُميتني بالخوف يُحييني بالرجاء. الثالث: يُميتني بالطمع ويُحييني بالقناعة[٥]. وقول رابع: يُميتني بالعدل ويُحييني بالفضل. وقول خامس: يُميتني بالفراق ويُحييني بالتَّلاق. وقول سادس: يُميتني بالجهل ويُحييني بالعقل، إلى غير ذلك مما ليس بشيءٍ منه مرادٌ من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذَقَ وعرفَ الحقَّ، وأما من كان في عمًى عن الحقِّ ولا يعرف الحقَّ، فكيف تُرمَزُ له الأمورُ الباطنة، وتُترَكُ الأمورُ الظاهرة؟ هذا محالٌ، والله أعلم.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): بداية. وفي (م): بدائه. والمثبت من النكت والعيون.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٥-١٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٧٦ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ «أَطْمَعُ» أي: أرجو[١]. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقِّه، وبمعنى الرجاء في حقِّ المؤمنين سواه. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: «خَطَايَايَ» وقال: ليست خطيئةً واحدة. قال النَّحَّاس: خطيئةٌ بمعنى خطايا معروفٌ في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك:١١] ومعناه: بذنوبهم. وكذا: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣] معناه الصلوات، وكذا «خَطيئَتي» إن كانت خطايا. والله أعلم[٢]. قال مجاهد: يعني بخطيئتِه قولَه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقولَه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقولَه: إنَّ سارةَ أختُه[٣]. زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[٤] وقد مضى بيان هذا مستوفًى[٥]. وقال الزَّجَّاج: الأنبياء بشرٌ، فيجوز أن تقعَ منهم الخطيئة، نعم لا تجوز عليهم الكبائر؛ لأنَّهم معصومون عنها[٦].

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء حيث يُجازى العبادُ بأعمالهم. وهذا من إبراهيم إظهارٌ للعبودية، وإن كان يعلم أنه مغفورٌ له. وفي «صحيح مسلم» عن عائشة، قلتُ: يا رسول الله، ابنُ جَدْعانَ كان في الجاهلية يصِلُ الرَّحم، ويُطعِمُ المسكين، فهل ذلك نافِعُه؟ قال: «لا ينفَعُه، إنه لم يقُلْ يوماً: رَبِّ اغْفِرْ لي خطِيئتي يومَ الدِّين»[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٨٤، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٧-٨٨. وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٢-٥٩٣، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٢ - ٤٦٣. وقد سلف مرفوعاً ١٤/ ٢٢٢ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠.

(٥) ٨/ ٤٣٨.

(٦) معاني القرآن ٢/ ٩٤. قال الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٤٦: الجواب الصحيح أن يُحمل ذلك على ترك الأولى، وقد يُسمَّى ذلك خطأً، فإن من ملك جوهرةً وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فإن باعها بدينار قيل: إنه أخطأ. وتركُ الأولى على الأنبياء جائز.

(٧) صحيح مسلم (٢١٤). وأخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢٤٦٢١)، وأخرجه أحمد (٢٤٨٩٢) بنحوه.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ «حُكْماً» معرفةً بِكَ وبحدودِكَ وأحكامِكَ. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: فهماً وعلماً؛ وهو راجعٌ إلى الأول. وقال الكلبي: نبوَّةً ورسالةً إلى الخلق. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: بالنبيين من قبلي في الدرجة[1]. وقال ابن عباس: بأهل الجنة، وهو تأكيدُ قولِه: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه. وقال مجاهد: هو الثناء الحسن[2]. قال ابن عطية: هو الثناءُ وخُلْدُ المكانةِ بإجماع المفسرين، وكذلك أجابَ اللهُ دعوتَه، وكلُّ أمةٍ تتمسَّكُ به وتُعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمدٌ ﷺ. قال مكي: وقيل: معناه: سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقول الحق، فأُجيبتِ الدعوةُ في محمدٍ ﷺ. قال ابن عطية: وهذا معنًى حسنٌ، إلَّا أنَّ لفظ الآية لا يُعطيه إلا بتحكُّمٍ على اللفظ[3]. وقال القُشيري: أرادَ الدعاءَ الحسنَ إلى قيام الساعة، فإنَّ زيادةَ الثوابِ مطلوبةٌ في حقِّ كلِّ أحد.

قلتُ: وقد فعلَ اللهُ ذلك؛ إذ ليس أحدٌ يُصلِّي على النبيِّ ﷺ إلا وهو يُصلِّي على إبراهيم، وخاصَّةً في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات، والصلاة دعاءٌ بالرحمة. والمراد باللسان القول، وأصلُه جارحةُ الكلام.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ بنحوه، وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن عباس ومقاتل، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٠ قول مقاتل.

(٢) قول مجاهد في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥ .

قال القُتبيُّ: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تُكنِّي العربُ بها عن الكلمة؛ قال الأعشى[(١)]:

إنِّـي أتَـتْـنـي لـسـانٌ لا أُسَـرُّ بِـهـا   مِن عَلْوُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ[(٢)]

قال الجوهري: يُروى مِن علوُ، بضمِّ الواو وفتحها وكسرها، أي: أتاني خبر من أعلى ـ والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر[(٣)]. وروى أشهب عن مالكٍ قال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ لا بأس أن يُحِبَّ الرجلُ أن يُثنى عليه صالحاً ويُرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجهَ الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[(٤)] [طه: ٣٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي: حبًّا في قلوب عباده وثناءً حسناً، فنبَّه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يُورِثُ الذِّكرَ الجميل[(٥)]. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد ماتَ قومٌ وهُمْ في النَّاسِ أحْياءُ[(٦)]

قال ابن العربي[(٧)]: قال المحقِّقون من شيوخ الزهد: في هذا دليلٌ على الترغيب في العمل الصالح الذي يُكسب الثناء الحسن؛ قال النبيُّ ﷺ: «إذا مات ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلا من ثلاث» الحديث[(٨)]. وفي روايةٍ: إنه كذلك في الغرس والزرع، وكذلك

(١) وهو أعشى باهلة كما في إصلاح المنطق ص٣٠، والكامل ٣/ ١٤٣١.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص١١١.

(٣) الصحاح (سخر) من قوله: والتأنيث للكلمة... إلى هذا الموضع.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٤.

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٣٣.

(٦) هذا عجز بيتٍ صدره: «موت التقيِّ حياةٌ لا انقطاع لها»، وقائله سابق بن عبد الله البربري، وهو في زهر الأكم في الأمثال والحكم ١/ ١٧٤-١٧٥.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٤.

(٨) كلمة الحديث من (م)، والحديث سلف ١/ ٨.

فيمن ماتَ مرابطاً يُكتَبُ له عملُه إلى يوم القيامة. وقد بينّاه في آخر «آل عمران»[١] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ دعاءٌ بالجنة وبمن يرثها، وهو يردُّ قولَ بعضهم: لا أسألُ جنةً ولا ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان أبوه وعدَه في الظاهر أن يؤمن به، فاستغفرَ له لهذا، فلمَّا بانَ أنه لا يفي بما قال تبرَّأَ منه. وقد تقدَّم هذا المعنى[٢]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: المشركين[٣]. و«كان» زائدة.

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، ولا تعذبني يوم القيامة[٤]. وفي البخاري عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ إبراهيمَ يرى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرةُ والقَتَرةُ» والغبَرة هي القتَرة. وعنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يَلقى إبراهيمُ أباه فيقول: يا ربِّ، إنَّكَ وعدتَني ألَّا تُخزِني يومَ يُبعثون، فيقول الله تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين» انفرد بهما البخاري رحمه الله[٥].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يومَ» الأوَّل. أي: يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ أحداً[٦]. والمراد بقوله: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوانَ؛ لأنَّ الابنَ إذا لم ينفَعْ فغيرهُ متى ينفع؟! وقيل: ذكَرَ البنينَ؛ لأنَّه جرى ذِكْرُ والدِ إبراهيم، أي: لم ينفعه إبراهيم.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ هو استثناءٌ من الكافرين، أي: لا ينفعه مالُه ولا بنوه.

---

(١) ٥/ ٤٨٩ .

(٢) ١٠/ ٤٠٠-٤٠١ .

(٣) الوسيط ٣/ ٤٥٦ .

(٤) سلف هذا المعنى ٥/ ٤٧٧ .

(٥) في صحيحه (٤٧٦٨-٤٧٦٩) .

(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن للعكبري على هامش الفتوحات الإلهية ٤/ ١١٦ .

وقيل: هو استثناءٌ من غير الجنس، أي: لكن «مَنْ أتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ» ينفعه لسلامة قلبه[١]. وخصَّ القلبَ بالذكر؛ لأنه الذي إذا سَلِمَ سلِمَتِ الجوارح، وإذا فسدَ فسدَتْ سائرُ الجوارح. وقد تقدَّم في أوَّل «البقرة»[٢]. واختُلِفَ في القلب السليم فقيل: من الشكِّ والشرك، فأما الذنوبُ فليس يسلَمُ منها أحد. قاله قتادة وابن زيد وأكثرُ المفسرين. وقال سعيد بن المسيِّب: القلبُ السليم: الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأنَّ قلبَ الكافرِ والمنافقِ مريضٌ؛ قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:٧]. وقال أبو عثمان النَّيسابوري[٣]: هو القلبُ الخالي عن البدعة، المطمئن إلى السُّنَّة. وقال الحسين[٤]: سليمٌ من آفة المال والبنين[٥]. وقال الجُنيد: السليم في اللغة: اللديغ؛ فمعناه: أنه قلبٌ كاللديغ من خوف الله[٦]. وقال الضَّحَّاك: السليم: الخالص[٧].

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة، والله أعلم. وقد رُويَ عن عروة أنه قال: يا بَنيَّ لا تكونوا لعَّانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٨]. وقال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور[٩]. وفي «صحيح مسلم» من حديث

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٨ .

(٢) ١/ ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣) في (د) و(ز): الساري، وفي (ظ) و(م): السيَّاري، والصواب: أبو عثمان النيسابوري: واسمه سعيد بن أبي سعيد، المعروف بالعيَّار، وهو عالم زاهد، توفي سنة ٤٥٧هـ. السير ١٨/ ٨٦-٨٩ .

(٤) وهو ابن الفضل، وقد سلف مراراً. ووقع في (م): الحسن .

(٥) من قوله: واختلف في القلب السليم... إلى هذا الموضع في تفسير البغوي ٣/ ٣٩٠ . وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥٦ قول ابن المسيب.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٥-٢٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ١٣١ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٧٧ .

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥ .

(٩) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٩٠ .

أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئِدتُهم مثلُ أفئدةِ الطير»[١] يريد ـ والله أعلم ـ أنها مثلُها في أنَّها خاليةٌ من كلِّ ذنب، سليمةٌ من كلِّ عيب، لا خبرةَ لهم بأمور الدنيا، كما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ قال: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ» وهو حديث صحيح[٢]. أي: البُله عن معاصي الله. قال الأزهري[٣]: الأبلَهُ هنا: هو الذي طُبعَ على الخير، وهو غافلٌ عن الشَّرِّ لا يعرفه. وقال القُتبيُّ[٤]: البُلْهُ: هم الذين غلبَتْ عليهم سلامةُ الصُّدورِ وحسنُ الظَّنِّ بالناس.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبت وأُدنِيتْ ليدخلوها[٥]. وقال

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٤٠). وأخرجه أحمد (٨٣٨٢).

(٢) بل هو ضعيف، فقد أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٩٨٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٩٨٢)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٦٠، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٩٠)، والبيهقي في الشعب (١٣٦٧) من طريق سلامة بن روح، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس مرفوعاً. سلامة بن روح قال فيه أبو زرعة: منكر الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بالقوي محله عندي محل الغفلة، وقد عدَّ هذا من منكراته، ثم هو لم يسمع من جد أبيه عقيل بن خالد، إنما أخذ من كتبه.

وأخرجه القضاعي (٩٨٩) من طريق عبد السلام بن محمد الأموي، عن سعيد بن كثير بن عفير، عن يحيى بن أيوب، عن عقيل، به. عبد السلام بن محمد قال فيه الدارقطني: ضعيف جداً. وقال الخطيب: صاحب مناكير.

(٣) في تهذيب اللغة ٦/ ٣١٢.

(٤) في غريب الحديث ١/ ١٠٩.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٨٧.

الزَّجَّاج: قرب دخولهم إياها ونظرهم إليها .﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: أُظْهِرت[١] ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم. ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي: للكافرين الذين ضلُّوا عن الهدى. أي: تظهر جهنَّم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الرَّوعَ والحُزن، كما يستشعر أهلُ الجنة الفرحَ؛ لعِلْمِهم أنَّهم يدخلون الجنة.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد[٢] ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم[٣]. وهذا كلُّه توبيخ[٤] .﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ أي: قُلبوا على رؤوسهم. وقيل: دُهْوِروا وأُلقيَ بعضُهم على بعض . وقيل: جُمعوا. مأخوذٌ من الكَبْكَبَة وهي الجماعة. قاله الهرويّ . وقال النحَّاس: هو مُشتقٌّ من كَوْكَبِ الشيءِ أي: مُعظمه. والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبة[٥]. وقال ابن عباس: جُمِعوا فطُرِحوا في النار. وقال مجاهد: دُهْوِروا. وقال مقاتل: قُذِفوا[٦]. والمعنى واحد. تقول: دهورتَ الشيءَ إذا جمعته ثم قذفتَه في مَهْوَاةٍ. يُقال: هو يُدَهْوِرُ اللُّقَمَ إذا كبَّرها[٧]. ويقال في الدعاء: كَبَّ اللهُ عدوَّ المسلمين، ولا يُقال: أكَبَّه. وكَبْكَبهَ. أي: كبَّه وقلَبَه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾[٨] والأصل: كُبِّبوا، فأُبدِلَ من الباء الوسطى كافٌ استثقالاً لاجتماع الباءات[٩]. قال السُّدِّي: الضمير في «كُبْكِبُوا» لمشركي العرب ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الآلهة ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذُرِّيته[١٠]. وقيل: كلُّ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٤ ، وعبارة: «ونظرهم إليها» منه، وفي نسخة (ظ): «ونظرهم إياها».

(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٦١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ .

(٤) زاد المسير ٦/ ١٣١ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ، وقول ابن عباس ومجاهد أخرجهما الطبري ١٧/ ٥٩٧-٥٩٨ .

(٧) المحكم لابن سيده (دهر).

(٨) الصحاح (كبب) و(كبكب) و(قلب).

(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣١٨ .

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٨٩ .

مَنْ دعاه إلى عبادة الأصنام فاتّبعه[1]. وقال قَتادة والكلبي ومقاتل: «الْغَاوُونَ»: هم الشياطين[2]. وقيل: إنَّما تُلقى الأصنامُ في النار وهي حديدٌ ونحاسٌ لِيُعذَّبَ بها غيرُهم.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذٍ. ﴿تَٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خسارٍ وتَبارٍ وحَيْرةٍ عن الحقِّ بيِّنةٍ إذِ[3] اتَّخذنا مع الله آلهةً فعبدناها كما يُعبَدُ، وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: في العبادة، وأنتم لا تستطيعون الآنَ نصْرَنا ولا نَصْرَ أنفسكم.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادةَ الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلَّدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: «الْمُجْرِمُونَ» إبليس وابن آدم القاتل هما أوّل من سنَّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ﴾ أي: شفعاءَ يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين[4]. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: صديقٍ مُشفق[5]. وكان عليٌّ ﷺ يقول: عليكم بالإخوان، فإنَّهم عُدَّةُ الدنيا وعُدَّةُ الآخرة، ألا تسمَعُ إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. الزَّمخشري: وجَمَعَ الشافعَ؛ لكثرةِ الشافعين، ووحَّدَ الصديق؛ لقِلَّته، ألا ترى أنَّ الرجلَ إذا امتُحِنَ بإرهاق ظالمٍ مضَتْ جماعةٌ وافرةٌ من أهل بلده لشفاعته؛ رحمةً له وحسبةً، وإن لم تسبِقْ له بأكثرهم معرفة، وأما الصَّديق فهو الصادق في وِدادِكَ، الذي يُهِمُّه ما يُهمُّك فأعَزُّ من بيض الأَنُوق[6]؛ وعن بعض الحكماء أنه سُئِلَ عن الصَّديق فقال: اسمٌ لا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٤، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٩٨ بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١. وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩١، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٧٨ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٩٨.

(٣) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩١ ونسب القول الأول لمقاتل والقول الثاني للكلبي. وقول عكرمة أخرجه الطبري ١٧/ ٥٩٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٠ عن مجاهد بلفظ: شفيق.

(٦) قال الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٤٤: الأَنوق: الرَّخَمة، وعزَّ بيضُها لأنه لا يُظفر به؛ لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة.

معنى له . ويجوز أن يُريد بالصديق الجمع[١]. والحميم: القريبُ والخاصُّ، ومنه حامَّةُ الرجل، أي: أقرباؤه، وأصل هذا من الحميم: وهو الماء الحار، ومنه الحَمَّام والحُمَّى، فحامَّةُ الرَّجُلِ الذين يحرِقُهم ما أحرقَه؛ يقال: وهو حُزانَتُه، أي: يُحزِنُهم ما يُحزِنُه[٢]. ويقال: حُمَّ الشيء وأَحَمَّ إذا قَرُبَ، ومنه الحُمَّى؛ لأنها تُقَرِّبُ من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سُمِّيَ القريبُ حميماً؛ لأنَّه يَحْمَى لغضبِ صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحَمِيَّة. وقال قتادة: يُذهِبُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ مودَّةَ الصَّديق ورِقَّةَ الحميم[٣]. ويجوز: «ولا صَديقٌ حَميمٌ» بالرفع على موضع «مِن شافعينَ»؛ لأنَّ «مِن شافعينَ» في موضع رفع، وجَمْعُ صديقٍ أصدِقاءُ وصُدَقاءُ وصِداق، ولا يُقال: صُدُقٌ؛ للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيُّون أنه يُقال في جمعه: صُدْقان. النَّحَّاس: وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ هذا جمعُ ما ليس بنعتٍ، نحو: رغِيفٍ ورُغْفانٍ. وحكوا أيضاً: صديقٌ وأصادِقُ. وأَفاعِلُ إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو: أشْجَعُ وأشاجِعُ. ويُقال: صديقٌ للواحد والجماعة وللمرأة[٤]؛ قال الشاعر:

نَصَبْنَ الهوى ثم ارتمينَ قلوبَنَا ... بأعْيُنِ أعداءٍ وهُنَّ صَديقُ[٥]

ويُقال: فلانٌ صُدَيِّقي، أي: أخَصُّ أصدقائي، وإنما يُصَغَّرُ على جهة المدح، كقول حُباب بن المنذر: (أنا جُذَيْلُها المُحكَّك، وعُذَيْقُها المرَجَّب) ذكره الجوهري[٦]. النَّحَّاس: وجَمْعُ حميم أحِمَّاء وأَحِمَّة، وكرهوا أفِعْلاء للتضعيف. ﴿فَلَوْ

---

(١) الكشاف ٣/ ١١٩ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٧٨-١٧٩ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥ .

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٧٢ ، وفيه: «بِأَسْهُمٍ» بدل: «بأعيُنٍ». والمعنى كما يقول شارحه: استَمِلْنَ أهواءنا فمالَتْ إليهن .

(٦) في الصحاح (صدق). الجِذْل واحد الأجذال: وهي أصول الحطب العِظام، والجِذْل المحكك: الذي يُنصب في المعاطنِ لتُحكَّ به الإبل الجربى، أراد أنه يشفى برأيه وتدبيره. الصحاح (جذل) و(حكك). والعُذيق تصغير عَذْق: وهي النخلة. والترجيب هنا: إرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السقوط. المحكم لابن سيده (رجب).

أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ «أنَّ» في موضع رفع، المعنى: ولو وقع لنا رجوعٌ إلى الدنيا لآمنَّا حتى يكون لنا شفعاء[١]. تمنَّوا حين لا ينفعُهم التمنِّي. وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون؛ قال جابر بن عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليقول في الجنة: ما فَعَلَ فلانٌ وصديقُه في الجحيم[٢]، فلا يزالُ يشفَعُ له حتى يُشَفِّعَه اللهُ فيه، فإذا نجا قال المشركون: ﴿فما لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[٣]. وقال الحسن: ما اجتمعَ ملأٌ على ذِكْرِ الله، فيهم عبدٌ من أهلِ الجنة، إلَّا شفَّعَهُ اللهُ فيهم، وإنَّ أهلَ الإيمان لَيشفَعُ بعضُهم في بعضٍ وهم عند الله شافعونَ مُشَفَّعون. وقال كعب: إنَّ الرَّجُلينِ كانا صديقينِ في الدنيا، فيَمُرُّ أحدُهما بصاحبه وهو يُجَرُّ إلى النار، فيقول له أخوه: واللهِ ما بقي لي إلا حسنةٌ واحدةٌ أنجو بها، خُذْها أنتَ يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإيَّاكَ من أصحاب الأعراف. قال: فيأمرُ اللهُ بهما جميعاً فيدخلان الجنة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال: «كَذَّبَتْ» والقومُ مُذكَّر؛ لأنَّ المعنى:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٥.

(٢) في (م): الجحيم، وكلاهما بمعنى.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩١.

كذَّبت جماعةُ قومِ نوح، وقال: «المُرْسَلين» لأنَّ مَنْ كذَّبَ رسولاً فقد كذَّب الرسل؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يأمرُ بتصديقِ جميعِ الرسل. وقيل: كذَّبوا نوحاً في النبوَّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكَرَ الجنس والمُرادُ نوحٌ عليه السلام[1]. وقد مضى هذا في «الفرقان»[2].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: ابنُ أبيهم وهي أُخوَّةُ نسبٍ لا أُخوَّةَ دين[3]. وقيل: هي أُخوَّةُ المجانسة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد مضى هذا في «الأعراف»[4]. وقيل: هو من قولِ العرب: يا أخا بني تميم. يُريدون: يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيتُ الحماسة:

لا يَسْألونَ أخاهم حِينَ يَنْدُبُهمْ   في النَّائباتِ على ما قال بُرْهانا[5]

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تتَّقون اللهَ في عبادة الأصنام.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: صادقٌ فيما أُبلِّغُكم عن الله تعالى. وقيل: «أَمِينٌ» فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانتَه وصِدْقَه من قبل؛ كمحمدٍ ﷺ في قريش.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاستَتِروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُرُكم به من الإيمان.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: لا طمعَ لي في مالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي: ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّرَ تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فيه مسألتان:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٢) ١٥/ ٤١٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٤) ٩/ ٢٦٢.

(٥) الكشاف ٣/ ١٢٠، والبيت في الحماسة البصرية ١/ ٢٩، وقائله قُريط بن أُنيف كما في خزانة الأدب ٧/ ٤٤١.

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي: نُصدِّقُ قولَك[١]؟ ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الواو للحال، وفيه إضمارُ قد، أي: وقدِ اتَّبعَك[٢]. «الأَرْذَلُونَ» جمع الأرذَل، المُكَسَّر الأراذل، والأنثى الرُّذْلَى، والجمع الرُّذَّل. قال النحَّاس: ولا يجوز حذفُ الألفِ واللامِ في شيءٍ من هذا عند أحدٍ من النَّحْويين عَلِمْناه[٣]. وقرأ ابنُ مسعود والضحَّاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم: «وَأَتْباعُكَ الأَرْذَلُون»[٤]. النحَّاس: وهي قراءةٌ حسنةٌ، وهذه الواو أكثر ما[٥] تتبعها الأسماء، والأفعال بعد. وأتباع جمع تَبَع، وتَبَع[٦] يكون للواحد والجمع؛ قال الشاعر:

لـه تَـبَـعٌ قـد يـعـلـمُ الـنـاسُ أنَّـهُ عـلـى مـن يُـدانـي صَـيِّـفٌ ورَبِـيـعُ[٧]

وارتفاعُ «أتْباعُكَ» يجوز أن يكون بالابتداء، و«الأَرْذَلُونَ» الخبر، التقدير: أنؤمِنُ لكَ وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ والتقدير: أنؤمِنُ لكَ نحن وأتباعُكَ الأرذلون فنُعَدُّ منهم؛ وحَسُنَ ذلكَ الفصلُ بقوله: «لَكَ»[٨] وقد مضى القول في الأراذل في سورة «هود»[٩] مستوفًى. ونزيده هنا بياناً وهي:

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ١٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٦.

(٤) المحتسب ٢/ ١٣١، وذكر هذه القراءة أيضاً عن طلحة وابن السميفع وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري، وهي قراءة شاذة.

(٥) في (د) و(ز) و(م): أكثرها.

(٦) في (م): وتبيع.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٠ - ٩١، والبيت نُسب في المفضليات ص٢٧٢ إلى متمِّم بن نويرة.

(٨) المحتسب ٢/ ١٣١، ومجمع البيان ١٩/ ٦٤.

(٩) ١١/ ٩٨ - ١٠٠.

الثانية: فقيل: إنَّ الذين آمنوا به بَنوه ونساؤه وكَنَّاته وبنو أبيه[١]، واختُلِفَ هل كان معهم غيرهم أم لا؟ وعلى أن الوجهين كان فالكلُّ صالحون، وقد قال نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والذين معه هم الذين اتَّبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شَيْنٌ ولا ذَمٌّ، بل الأرذلون هم المكذِّبون لهم. قال السُّهيلي: وقد أُغريَ كثيرٌ من العوام بمقالةٍ رُوِيَتْ في تفسير هذه الآية: هم الحاكَة والحجَّامون، ولو كانوا حاكةً كما زعموا لكان إيمانُهم بنبيِّ الله واتِّباعُهم له مشرِّفاً لهم[٢] كما تشرَّف بِلالٌ وسَلْمانُ بسبقِهما للإسلام، فهما من وجوهِ أصحابِ النبيِّ ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذريةُ نوحٍ كانوا حاكةً ولا حجَّامين، ولا قولُ الكَفرةِ في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتِنا ذمًّا ولا نقصاً؛ لأنَّ هذه حكايةٌ عن قولِ الكفَرةِ إلَّا أن تُجعلَ الكفرةُ حجةً ومقالتُهم أصلاً، وهذا جهلٌ عظيم[٣]. وقد أعلم الله تعالى أنَّ الصناعات ليست بضائرةٍ في الدين[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «كان» زائدة، والمعنى: وما علمي بما يعملون، أي: لم أُكَلَّفِ العلمَ بأعمالهم، إنما كُلِّفتُ أن أدعوَهم إلى الإيمان[٥]، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصَّنائع، وكأنَّهم قالوا: إنما اتَّبعك هؤلاء الضعفاءُ طمعاً في العِزَّةِ والمال، فقال: إني لم أَقِفْ على باطن أمرهم، وإنما إليَّ ظاهِرُهم. وقيل: المعنى: إني لم أعلَمْ أنَّ اللهَ يهديهم ويُضِلُّكم، ويُرشِدُهم ويُغويكم، ويُوفِّقُهم ويخذلُكم[٦]. ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي: في أعمالهم وإيمانهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وجواب «لو» محذوف، أي: لو شعرتُم أنَّ حسابَهم على ربِّهم لَما عِبْتُموهم

(١) في (د) و(ز) و(م): ابنه.

(٢) كلمة «لهم» ليست في (د) و(ز) و(م).

(٣) التعريف والإعلام ص١٢٤-١٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٥٧، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣.

بصنائعهم[١]. وقراءة العامَّة: «تَشْعُرُونَ» بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر. وقرأ ابن أبي عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْفَع: «لو يَشعرون» بالياء[٢]، كأنَّه خبرٌ عن الكفارِ وتركِ الخطاب لهم، نحو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]. ورُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ سفيان عن امرأةٍ زنَتْ وقتلَتْ ولدَها وهي مسلمة هل يُقطَعُ لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طردَ الضُّعفاءِ كما طلبَتْه قريش.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: إنَّ الله ما أرسلني أَخُصُّ ذَوي الغنى دون الفقراء، إنما أنا رسولٌ أُبلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به، فمن أطاعني فذلك السعيدُ عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أي: عن سبِّ آلهتنا وعَيْبِ ديننا[٣] ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أي: بالحجارة. قاله قتادة. وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين[٤]. قال الثُّماليُّ: كلُّ رَجْمٍ[٥] في القرآن فهو القتل، إلا في مريم [الآية: ٤٦]: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأُسبَّنَّكَ. وقيل: «مِنَ المَرْجُومِينَ»: من المشتومين. قاله السُّدِّي. ومنه قول أبي داود[٦].

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ . فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ذلك

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٣٥ .

(٢) وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٧ عن الأعرج وأبي زرعة.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٣ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٣٥ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): مرجومين .

(٦) في (م): أبي دؤاد . وهذا الكلام في النكت والعيون ٤/ ١٧٩ ، وقول أبي داود هو:

صدَّت غُواةُ معدٍّ أن تُراجِمني ... كما يصدون عن لب كجفانِ

لمَّا يئِسَ من إيمانهم. والفتح الحكم وقد تقدم[١].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ يريدُ السفينة، وقد مضى ذِكْرُها[٢]. والمشحون: المملوء[٣]، والشحن: ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم[٤]. ولم يؤنِّثِ الفُلك هاهنا؛ لأنَّ الفُلكَ هاهنا واحدٌ لا جمع.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: بعد إنجائنا نوحاً ومَنْ آمن[٥].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة[٦]. وتكذيبُهم المرسلين كما تقدَّم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيِّنُ المعنى، وقد تقدَّم.

---

(١) ٢/ ٢١٤.

(٢) ٢/ ٤٩٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٥.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٥.

(٥) المصادر السابقة.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٦٩.

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرِّيعُ: ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباسٍ وغيره، جمع رِيعة. وكم رِيعُ أرضِكَ؟ أي: كم ارتفاعُها[1]. وقال قتادة: الرِّيع: الطريق. وهو قول الضحَّاك والكلبي ومقاتل والسُّدِّي. وقاله ابن عباسٍ أيضاً[2]. ومنه قول المُسيَّب بن عَلَس:

فـي الآلِ يَـخْـفِـضُـهـا ويَـرفَـعُـهـا رِيــعٌ يَــلُــوحُ كــأَنَّــهُ سَــحْــلُ[3]

شبَّه الطريقَ بثوبٍ أبيض[4]. النَّحَّاس: ومعروفٌ في اللغة[5] أن يُقال لِما ارتفعَ من الأرض: رِيعٌ، وللطريق: رِيعٌ؛ قال الشاعر:

طِـراقُ الـخَـوَافـي مـشـرِقٌ فَـوْقَ رِيـعَـةٍ نَـدَى لـيـلِـهِ فـي ريـشِـه يَـتَـرقْـرَقُ[6]

وقال عمارة: الرِّيع: الجبل، الواحد رِيعة، والجمع رِياع[7]. وقال مجاهد: هو الفَجُّ بين الجبلين. وعنه: الثنية الصغيرة. وعنه: المنظرة[8]. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة. وعن مجاهد: الرِّيع: بنيان الحَمَام؛ دليله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: تلعبون[9]؛ أي: تبنون بكلِّ مكانٍ مُرتفعٍ آيةً علَماً تلعبون بها على معنى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٢ ، والنكت والعيون ٤/ ١٨٠ ، والوسيط ٣/ ٣٥٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ . وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٠٨ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الصحاح (ريع) و(سحل).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨٠ .

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٩٢ .

(٦) قائله ذو الرمَّة، وهو في ديوانه ١/ ٤٨٨ ، وفيه: «واقعٌ» بدل «مشرقٌ»، وقد قاله وهو يصف بازياً. قال شارحه: طِراق: بعضه على بعض. الخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. يترقرق: يجيء ويذهب.

(٧) الصحاح (ريع).

(٨) أخرج تلك الأقوال الطبري ١٧/ ٦٠٨-٦٠٩ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٣ . وأخرج قول مجاهد الطبري ١٧/ ٦١٠ .

أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمرُّ في الطريق؛ أي: تبنون بكلِّ موضعٍ مُرتفعٍ لتشرفوا على السَّابلةِ فتسخروا منهم[١]. وقال الكلبي: إنَّه عبثُ العشَّارين بأموال من يَمرُّ بهم. ذكره الماوردي[٢]. وقال ابن الأعرابي: الرِّيع: الصَّومعة، والرِّيع: البرج من الحمام يكون في الصحراء. والرِّيع: التلُّ العالي. وفي الرِّيع لغتان: كسر الراء وفتحها، وجمعها أرياع. ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: منازل. قاله الكلبي. وقيل: حُصُوناً مُشَيَّدة. قاله ابن عباس ومجاهد[٣]. ومنه قول الشاعر:

تَـرَكْـنـا ديـارَهُـم مِـنـهـم قِـفَـاراً   وهَـدَّمْـنـا الـمـصـانـعَ وَالـبُـرُوجـا

وقيل: قصوراً مُشيَّدة. وقاله مجاهد أيضاً. وعنه: بروج الحمام. وقاله السُّدِّي[٤].

قلت: وفيه بُعدٌ عن مجاهد؛ لأنَّه تقدَّم عنه في الرِّيع أنه بنيان الحمام، فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجِلُ للماء تحت الأرض[٥]. وكذا قال الزَّجَّاج[٦]: إنها مصانع الماء، واحدتها مَصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ. ومنه قول لَبِيد[٧]:

بَلِينـا ومـا تَبْلَـى النـجـومُ الطـوالِـعُ   وتَـبـقَـى الـجـبـالُ بَـعْـدَنـا والـمـصـانِـعُ

الجوهري: المَصنَعةُ: كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنُعَة بضمِّ النون، والمصانع: الحصون[٨]. وقال أبو عبيدة: يُقال لكل بناء: مصنعة[٩]. حكاه

(١) الوسيط ٣/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٣، وزاد المسير ٦/ ١٣٦.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١١ عن مجاهد.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٨١.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وزاد المسير ٦/ ١٣٦. وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٤، والطبري ١٧/ ٦١١.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ٩٦.

(٧) في ديوانه ص١٦٨.

(٨) الصحاح (صنع).

(٩) مجاز القرآن ٢/ ٨٨.

المَهْدَوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن: القصور العادية.

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كي تخلدوا. وقيل: لعلَّ استفهامٌ بمعنى التوبيخ[١]، أي: فهل تَخْلُدونَ؟ كقولك: لعلَّكَ تشتمني، أي: هل تشتمني. رُوي معناه عن ابن زيد. وقال الفرَّاء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت[٢]. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها[٣]. وفي بعض القراءات «كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُون» ذكره النحاس[٤]. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات «كأنكم خالِدون»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطشُ: السَّطوةُ والأخذ بالعنف، وقد بَطَش به يبطُشُ ويبطِشُ بَطْشاً، وباطشَه مُباطشةً[٦]. وقال ابن عباس ومجاهد: البَطْشُ: العَسْفُ قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط[٧]. ومعنى ذلك: فعلتُم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضربٌ بالسياط[٨]. ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي[٩]. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سَلَّام. وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغضب من غير تَثبُّتٍ. وكلُّه يرجع إلى قول ابن عباس. وقيل: إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفوٍ ولا إبقاء[١٠]. قال ابن العربي[١١]: ويؤيِّد ما قال مالك قولُ الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨١ دون عبارة: لا تتفكرون بالموت، وهي في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٢ عنهما بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٩٣، ونسبها في المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٨ إلى أُبيّ، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨١، وهي قراءة شاذة أيضاً.

(٦) الصحاح (بطش).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٤ عن مجاهد.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٢.

(٩) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ١٨٢، وقول الكلبي ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١.

(١١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٥.

بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] وذلك أنَّ موسى عليه السلام لم يَسُلَّ عليه سيفاً ولا طعنَه بِرُمح، وإنما وَكَزه وكانت منيَّتُه في وَكْزَتِه. والبطش يكون باليد، وأقلُّه الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكلُّ مذمومٌ إلا بحقٍّ.

والآية نزلت خبراً عمَّن تقدَّم من الأمم، ووعظاً من الله عزَّ وجلَّ لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمَّهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثيرٍ من هذه الأمة، لا سيَّما بالديار المصرية منذ وَلِيَتْها البحرية[١]، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون، كما في «صحيح مسلم»[٢] عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفانِ من أهل النار لم أرَهُما: قومٌ معهم سِياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهُنَّ كأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائلة، لا يدخُلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها ليُوجَدُ من مسيرةِ كذا وكذا». وخرَّج أبو داود[٣] من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتُم بالعِينةِ، وأخذتُم أذناب البقر، ورضيتُم بالزرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّطَ اللهُ عليكم ذلًّا لا ينزِعُه حتى ترجعوا إلى دينكم».

«جَبَّارِينَ»: قتَّالين. والجبَّار: القتَّال في غير حقٍّ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قاله الهروي. وقيل: الجبَّار: المتسلِّط العاتي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: بمسلَّط. قال الشاعر:

سَلَبْنَا من الجَبَّارِ بالسَّيفِ مُلْكَهُ ... عَشِيًّا وأطرافُ الرِّمَاحِ شَوَارِعُ

---

(١) هم جماعة من الأتراك المماليك اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعلهم بطانته، وأمَّر بعضهم، وسبب تسميتهم البحرية أن التجار جلبوهم في البحر من بلاد القفجاق. السير ٢٣/ ١٩١-١٩٢.

(٢) (٢١٢٨)، وقد سلف ١٥/ ٣٤١.

(٣) في سننه (٣٤٦٢)، وقد سلف ٢/ ٢٩٦.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تقدَّم. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الخيرات، ثم فسَّرها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: سخَّر ذلك لكم وتفضَّل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يُعبدَ ويُشكر ولا يُكفر.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن كفرتُم به وأصررتُم على ذلك.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ كلٌّ ذلك عندنا سواءٌ، لا نسمع منك، ولا نلوي على ما تقولُه. وروى العباس عن أبي عمرو وبِشْر عن الكسائي: «أوَعَظتَّ» مدغمةَ الظَّاء في التاء[1]، وهو بعيد؛ لأنَّ الظَّاء حرفُ إطباق، إنما يُدغَمُ فيما قَرُبَ منه جدًّا وكان مثلَه ومخرجَه.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: دينُهم. عن ابن عباس وغيره[2]. وقال الفرَّاء[3]: عادةُ الأوّلين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «خَلْقُ الأوّلِينَ»، الباقون: «خُلُقُ»[4]. قال الهروي: وقولُه عز وجل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: اختلافهم وكذبهم، ومن قرأ: «خُلُقُ الأوّلِينَ» فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدَّثنا فلانٌ بأحاديثِ الخَلْق، أي: بالخرافات والأحاديث المفتعلة[5]. وقال ابن الأعرابي: الخلقُ: الدين، والخلقُ: الطبع، والخلقُ: المروءة. قال النَّحَّاس[6]: «خُلُقُ الأوّلِينَ» عند الفرَّاء يعني: عادةُ الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: «خُلُقُ الأوّلِينَ»: مذهبُهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان،

---

(١) وذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٣٣، وذكر أنها رُويت عن عاصم وقرأ بها ابن محيصن وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٦١٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٨١.

(٤) السبعة ص٤٧٢، والتيسير ص١٦٦.

(٥) وقاله الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨١.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٦-١٨٧.

ومنه الحديث عن النبيِّ ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلُقاً»[١] أي: أحسنُهم مذهباً وعادةً وما يجري عليه الأمرُ في طاعة الله عزَّ وجلَّ، ولا يجوز أن يكون مَنْ كان حسنَ الخُلُقِ فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكملَ إيماناً من السَّيِّىء الخُلُقِ الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: وحُكيَ لنا عن محمد بن يزيد أنَّ معنى «خُلُقُ الأوَّلِينَ»: تكذيبُهم وتخرُّصُهم، غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأنَّ فيها مدحَ آبائهم، وأكثرُ ما جاء القرآن في صفتهم مدحُهم لآبائهم، وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وعن أبي قِلابةَ أنه قرأ: «خُلْق» بضمِّ الخاء وإسكان اللام تخفيف «خُلُقُ». ورواها ابن جُبير عن أصحاب نافع عن نافع[٢]. وقد قيل: إن معنى «خُلُقُ الأَوَّلِينَ»: دين الأوّلين[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] أي: دين الله. و«خُلُقُ الأَوَّلِينَ» عادة الأولين، حياةٌ ثم موتٌ ولا بعث[٤]. وقيل: ما هذا الذي أنكرتَ علينا من البنيان والبطش إلا عادةُ من قبلنا، فنحن نقتدي بهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نفعل.

وقيل: المعنى: خَلْقُ أجسام الأوّلين، أي: ما خَلْقُنا إلا كخَلْقِ الأوّلين الذين خُلِقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيءٌ مما تُحذِّرنا به من العذاب[٥].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي: بريحِ صرصرٍ عاتيةٍ على ما يأتي في «الحاقة»[٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال بعضُهم: أسلمَ معه ثلاث مئة ألفٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٠٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٤٢٠٤)، والترمذي (٢٦١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣٩ ، وهي قراءة شاذة، والمشهور عن نافع مثل قراءة الجمهور: ﴿خُلُقُ الأوّلين﴾.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٦) عند تفسير الآية (٦).

ومئون، وهلَكَ باقيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكر قصةَ صالحٍ وقومِه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحِجْر كما تقدَّم في «الحجر»[١] وهي ذواتُ نخلٍ وزروعٍ ومياه.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ يعني: في الدنيا ﴿آمِنِينَ﴾ من الموت والعذاب[٢]. قال ابن عباس: كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم، ودلَّ على قوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] فقرَّعهم صالحٌ ووبَّخهم وقال: أتظنُّون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؟!

الزمخشري: فإن قلتَ: لِمَ قال: «ونَخْلٍ» بعد قوله: «في[٣] جنَّاتٍ» والجنةُ[٤] تتناولُ النخلَ أوَّلَ شيءٍ كما يتناول النَّعمُ الإبلَ كذلك من بين الأزواج، حتى إنهم

---

(١) ١٢/ ٢٣٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ١٣٨، ومجمع البيان ١٩/ ١٧٣.

(٣) في النسخ: «و» بدل «في».

(٤) في (د) و(ز) و(م): والجنات.

لَيذكرون الجنةَ ولا يقصدون إلا النَّخلَ، كما يذكرون النَّعم ولا يُريدون إلا الإبل؛ قال زهير:

كَأنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَي مُقَتَّلَةٍ من النَّواضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقا[١]

يعني النخل؛ والنخلة السَّحُوق: البعيدة الطول[٢].

قلت[٣]: فيه وجهان: أحدهما: أن يخُصَّ النخلُ بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها. والثاني: أن يريد بالجنَّاتِ غيرَها من الشجر؛ لأنَّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النَّخل. والطَّلْعَة: هي التي تطلع من النَّخلة كنصل السيف، في جوفه شماريخُ القِنوِ، والقِنو: اسمٌ للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشَماريخه[٤]. و«هَضِيمٌ» قال ابن عباس: لطيفٌ ما دام في كُفُرَّاه. والهضيمُ: اللطيف الدقيق، ومنه قولُ امرئ القيس:

عَليَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[٥]

الجوهري: ويُقال للطَّلع: هَضيم، ما لم يخرج من كُفُرَّاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيمُ من النساء: اللطيفةُ الكَشْحين[٦]. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المُنضَمُّ في وعائه قبل أن يظهر، ومنه رجلٌ هضيمُ الجنبين أي: مُنضَمُّهما؛ هذا قول أهل اللغة.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٢٣ ، والبيت في ديوان زهير ص٣٧ ، قال شارحه: المقتَّلة: المذلَّلة يعني الناقة. يقول: كأنَّ عينيَّ من كثرة دموعهما في غربَي ناقةٍ يُنضح عليها، قد قُتِّلت بالعمل حتى ذلَّت.

(٢) ينظر الصحاح (سحق).

(٣) يعني الزمخشري.

(٤) الكشاف ٣/ ١٢٣ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٥، وصدر البيت: «إذا قلتُ هاتي نوِّليني تمايَلَتْ». قال شارحه: نوِّليني من النوال: وهو العطية. تمايلت: عطفت. ريَّا: أي: ممتلئةٌ لحماً وشحماً في موضع الخلخال من ساقيها، أي: ليست بناتئة العظام.

(٦) الصحاح (هضم).

وحكى الماورديُّ وغيره في ذلك اثني عشر قولاً: أحدهما: أنه الرُّطَبُ اللَّيِّن. قاله عكرمة. الثاني: هو المُذَنَّبُ من الرُّطَبِ. قاله سعيد بن جُبَير. قال النَّحَّاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد ـ هو ابن أبي زياد كوفيٌّ ويزيد بن أبي مريم شاميٌّ ـ «ونَخْلٌ طَلْعُها هَضيمٌ» قال: منه ما قد أَرْطَبَ ومنه مُذَنَّب. الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى. قاله الحسن. الرابع: أنه المُتَهشِّمُ المُتفَتِّتُ إذا مُسَّ تَفتَّتَ. قاله مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشَّمُ في الفم. الخامس: هو الذي قد ضمَرَ بركوب بعضِه بعضاً. قاله الضحَّاك ومقاتل. السادس: أنَّه المتلاصقُ بعضُه ببعض. قاله أبو صخر. السابع: أنه الطَّلعُ حين يتفرَّقُ ويخضَرُّ. قاله الضحاك أيضاً. الثامن: أنَّه اليانِعُ النَّضيج. قاله ابن عباس. التاسع: أنَّه المُكتنِزُ قبل أن ينشَقَّ عنه القِشْرُ. حكاه ابن شجرة؛ قال:

كأنَّ حَمولةً تُجْلَى عليهِ ... هَضِيمٌ ما يُحَسُّ له شُقُوقُ

العاشر: أنه الرِّخو. قاله الحسن. الحادي عشر: أنه الرَّخْصُ اللطيف أوَّل ما يخرج، وهو الطَّلعُ النَّضِيدُ. قاله الهروي. الثاني عشر: أنه البَرْنِيُّ[1]. قاله ابن الأعرابي؛ فعيل بمعنى فاعل، أي: هنيءٌ مريءٌ من انهضام الطعام[2]. والطَّلع: اسمٌ مشتَقٌّ من الطُّلوع وهو الظهور، ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات[3].

قوله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ النَّحتُ: النَّجْرُ والبَرْي؛ نحتَه يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نَحْتاً أي[4]: بَراه، والنُّحَاتةُ: البُرايَة. والمِنْحَتُ: ما يُنحَتُ به[5].

---

(١) وهو ضرب من التمر، أصفر مدوَّر، وهو أجود التمر. اللسان (برن).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٨٢-١٨٣ دون القول الخامس والحادي عشر والثاني عشر. وذكر النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ القول الحادي عشر. وذكر البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٥ القول الأول والرابع والخامس والعاشر. وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٣٨ الأقوال الخمسة الأولى والقول الثامن والتاسع. وأخرج الطبري القول الأول والرابع والسادس والثامن. وقال النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٦ : هاضم مريء ولطيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٨٣ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): إذا.

(٥) الصحاح (نحت).

وفي «وَالصَّافَّاتِ» [٩٥] قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾. وكانوا ينحِتونها من الجبال لمَّا طالَتْ أعمارُهم وتهدَّم بناؤهم من المَدَرِ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[١]: «فَرِهِينَ» بغير ألف، الباقون: «فَارِهِينَ» بألف[٢]، وهما بمعنًى واحدٍ في قول أبي عبيدة وغيره، مثل: «عِظَاماً نَخِرَةً» و «نَاخِرَة». وحكاه قطرب، وحكى: فَرُهَ يفرُهُ فهو فارِهٌ، وفَرِهَ يَفْرَهُ فهو فَرِهٌ وفارِهٌ إذا كان نشيطاً. وهو نصبٌ على الحال[٣]. وفرَّق بينهما قومٌ فقالوا: «فَارِهِينَ»: حاذقين بنَحْتِها. قاله أبو عبيدة[٤] ورُوِيَ عن ابن عباس وأبي صالح وغيرهما[٥]. وقال عبد الله بن شدَّاد: «فَارِهِينَ»: مُتجبِّرين[٦]. ورُوِيَ عن ابن عباس أيضاً أن معنى: «فَرِهِينَ» بغير ألف: أشِرِينَ بَطِرين. وقاله مجاهد[٧]. ورُوِيَ عنه: شرهين[٨]. الضحاك: كيِّسين[٩]. قتادة: مُعْجَبين. قاله الكلبي[١٠]. وعنه: ناعمين[١١]. وعنه أيضاً: آمنين. وهو قول الحسن. وقيل: مُتخيِّرين. قاله الكلبي والسُّدِّي. ومنه قول الشاعر:

إلى فَرِهٍ يُماجِدُ كلَّ أمرٍ قَصَدتُ له لأختَبِرَ الطِّباعا

وقيل: مُتَعجِّبين. قاله خُصيف[١٢]. وقال ابن زيد: أقوياء[١٣]. وقيل: فَرِهين

(١) قوله: «ونافع» من (م).

(٢) السبعة ص٤٧٢، والتيسير ص١٦٦.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٨٩.

(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٨٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣: وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٢١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٨٧ ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن مجاهد، والنكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.

(٩) النكت والعيون ٤/ ١٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٢.

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٦ عن قتادة. وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٦٢٣.

(١١) ذكره البغوي ٣/ ٣٩٦ عن عكرمة.

(١٢) من قوله: وعنه أيضاً... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٨٣.

(١٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠. وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢٣.

فَرِحين. قاله الأخفش. والعرب تُعاقِبُ بين الهاء والحاء؛ تقول: مَدَهْتُه ومَدَحْتُه[١]، فالفَرِهُ: الأشِرُ الفَرِحُ، ثم الفرح بمعنى المَرح مذمومٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

قوله تعالى[٢]: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المُرادُ الذين عقَروا الناقة. وقيل: التسعةُ رهطٍ[٣] الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[٤]. قال السُّدِّيُّ وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إنَّ قومَكَ سيَعْقِرون ناقتَك. فقال لهم ذلك، فقالوا: ما كُنَّا لِنَفْعل. فقال لهم صالح: إنَّه سيولَدُ في شهركم هذا غلامٌ يَعقِرُها ويكون هلاكُكم على يديه. فقالوا: لا يولَدُ في هذا الشهر ذَكَرٌ إلا قتلناه. فوُلِدَ لتسعةٍ منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبناءهم، ثم وُلِدَ للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولَدْ له قبل ذلك. وكان ابنُ العاشرِ أزرقَ أحمرَ، فنبتَ نباتاً سريعاً، وكان إذا مَرَّ بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياءً لكانوا مثل هذا. وغضبَ التسعة على صالح؛ لأنَّه كان سببَ قتْلِهم أبناءَهم، فتعصَّبوا وتقاسموا بالله لنُبيِّتَنَّه وأهلَه. قالوا: نخرجُ إلى سفرٍ فيرى الناسُ سفرَنا فنكونُ في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالحٌ إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا: ما شَهِدْنا مَهلِكَ أهلِه وإنَّا لَصادقون، فيُصدِّقوننا ويعلمون أنَّا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالحٌ لا ينام معهم في القرية، وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظَهم، فلمَّا دخلوا الغارَ أرادوا أن يخرجوا، فسقطَ عليهم الغارُ فقتلَهم، فرأى ذلك ناسٌ ممَّن كان قدِ اطَّلَعَ على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عبادَ الله، أما رضيَ صالحٌ أن أمرَ بقتل أولادِهم حتى قتلَهم. فأجمعَ أهلُ القريةِ على قتل الناقة. وقال ابن إسحاق: إنما اجتمعَ التِّسعةُ على سبِّ صالحٍ بعد

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٦.

(٢) هذه العبارة من (ظ).

(٣) في (م): الرهط.

(٤) هما قول واحد، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن مقاتل.

عَقْرِهُم الناقةَ وإنذارِهم بالعذاب[١] على ما يأتي بيانُه في سورة النمل[٢] إن شاء الله تعالى.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ هو من السِّحرِ في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي[٣]. أي: أُصِبتَ بالسِّحرِ فبَطَلَ عقلُكَ[٤]؛ لأنَّكَ بشرٌ مثلُنا فَلِمَ تدَّعي الرسالةَ دوننا؟ وقيل: من المعلَّلين بالطعام والشراب. قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي[٥]. وهو على هذا القول من السَّحْرِ وهو الرئة[٦]، أي: بشَرٌ، لك سَحْرٌ أي: رئة، تأكل وتشرب مثلنا، كما قال لبيد[٧]:

فإنْ تسألينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

قال امرؤ القيس[٨]:

ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ[٩]

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولك.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس: إن كنتَ صادقاً فادْعُ اللهَ يُخرِجْ لنا من هذا الجبل ناقةً حمراءَ عُشَراء[١٠]، فتضعُ ونحن ننظر، وترِدُ

---

(١) عرائس المجالس ص٧٠-٧١ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٨) وما بعدها.

(٣) وذكر هذا القول عنهما البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ ، وذكره عن مجاهد النحاس في معاني القرآن ٥/ ٩٧ .

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٧٣ .

(٥) وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٩٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٠ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): امرؤ القيس ، والمثبت من (م).

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): أيضاً، والمثبت من (م).

(٩) سلف وما قبله ٢/ ٢٧٢ .

(١٠) وهي التي بلغت في حملها عشرة أشهر. تهذيب اللغة ١/ ٤١٠ .

هذا الماء فتشرَبُ وتغدو علينا بمثله لبناً[١]. فدعا الله وفعل الله ذلك فـ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ أي: حظٌّ من الماء[٢]، أي: لكم شِرْبُ يومٍ ولها شِرْبُ يوم، فكانت إذا كان يوم شِرْبِها شربت ماءَهم كلَّه أوَّلَ النهار، وتسقيهم اللَّبنَ آخِرَ النهار، وإذا كان يومُ شِرْبِهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم[٣]، ليس لهم في يوم وُرودِها أن يشربوا من شِرْبها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفرَّاء: الشِّرب: الحظُّ من الماء[٤]. قال النَّحَّاس: فأمَّا المصدرُ فيقال فيه: شَرِبَ شَرْباً وشُرْباً وشِرْباً وأكثرها المضمومة؛ لأنَّ المكسورةَ والمفتوحةَ يشتركان مع شيءٍ آخر، فيكون الشِّرْبُ الحظَّ من الماء، ويكون الشَّرْبُ جمعَ شاربٍ، كما قال:

فقلتُ للشَّرْبِ في دُرْنَى وقد ثَمِلُوا[٥]

إلَّا أنَّ أبا عَمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرْبَ بالفتح في المصدر، ويحتجَّان برواية بعض العلماء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّها أيامُ أكلٍ وشَرْبٍ»[٦]. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا؛ لأنَّهما حرفان مُتحرِّكان من جنسٍ واحد. ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذفُ الفاءِ منه، والجزم كما جاء في الأمر إلَّا شيئاً رُويَ عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: على عَقْرِها لمَّا أيقَنوا بالعذاب، وذلك أنَّه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامةُ في كلِّ يوم، وندموا ولم ينفَعْهُم النَّدمُ عند مُعاينةِ العذاب. وقيل: لم ينفَعْهم النَّدمُ؛ لأنهم لم

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٠.

(٢) قوله: «من الماء» من (م).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٠ عن مقاتل.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٨.

(٥) هذا صدر بيت قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٧، وعجزه: «شيموا وكيف يشيب الشاربُ الثَّمِلُ».

قال الأصمعي: كانت دُرنى باباً من أبواب فارس دون الحيرة. وقال غيره: باليمامة. معجم ما استعجم ٢/ ٥٥٠.

(٦) سلف ٤/ ٤٦.

يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لمّا أيقنوا بالعذاب[١]. وقيل: كانت ندامتُهم على تَرْكِ الولدِ إذْ لم يقتُلوه معها. وهو بعيد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى آخرها. تقدَّم. ويُقال: إنه ما آمنَ به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانُ مئةِ رجلٍ وامرأة. وقيل: كانوا أربعةَ آلاف. وقال كعب: كان قومُ صالحٍ اثني عشرَ ألفَ قبيلٍ، كلُّ قبيلٍ نحْو اثني عشرَ ألفاً من سوى النساء والذُّرِّية، ولقد كان قومُ عادٍ مثلَهم ستَّ مرات.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مضى معناه وقصته في «الأعراف»[٢] و«هود»[٣] مستوفًى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم، وكانوا يفعلون ذلك بالغُرباء على ما تقدَّم في «الأعراف». ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يعني فروجَ النساء، فإنَّ الله خلقَها للنكاح[٤]. قال إبراهيم بن مُهاجر: قال لي مجاهد: كيف يقرأ عبد الله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾؟ قلتُ:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٨٨.

(٢) ٨/ ٢٧٣ - ٢٨٠.

(٣) ١١/ ١٧٣ - ١٩٠.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٦١.

«وتذرونَ ما أصلحَ لكم ربُّكم من أزواجِكم» قال: الفرج، كما قال: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾[1] [البقرة: ٢٢٢]. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: متجاوزون لحدود الله.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن قولك هذا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: من بلدنا وقريتنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني اللواط ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المُبغِضين[2]، والقِلى البغض؛ قلَيتُه أقليه قِلًى وقَلاءً[3]. قال:

فلستُ بمقليِّ الخِلالِ ولا قَالي[4]

وقال آخر:

عليكِ السلامُ لا مُلِلْتِ قريبةً ... ومَا لَكِ عندي إنْ نأيتِ قَلَاءُ[5]

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عذابِ عملهم[6]. دعا اللهَ لمَّا أيِسَ من إيمانهم ألَّا يُصيبَه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدَّم في «هود»[7]. ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرَتْ في عذاب الله عزَّ وجلَّ. أي: بقيَتْ. وأبو عبيدة يذهب إلى أنَّ المعنى: من الباقين في الهَرَمِ، أي: بَقِيَتْ حتى هَرِمَتْ[8]. قال النَّحَّاس[9]: يُقال للذاهب: غابر، والباقي: غابر، كما قال:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغْبارِها ... إنَّكَ لا تَدْري مَنِ النَّاتِجُ[10]

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٩٨، وهذه القراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٦، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) الصحاح (قلا).

(٤) قائله امرؤ القيس، وقد سلف ١٢/ ١٤٣.

(٥) قائله نُصيب بن رباح، وهو في ديوانه ص٥٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٧) ١١/ ١٧٧.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨٩. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٨٩.

(٩) في معاني القرآن له ٥/ ٩٩.

(١٠) قائله الحارث بن حلزة، وقد سلف ١٢/ ٢٢٥.

وكما قال:

فما وَنَى محمدٌ مُذْ أنْ غَفَرْ لهُ الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ[١]

أي: ما بقي. والأغبار: بقيَّات الألبان.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم بالخَسْفِ والحَصْبِ[٢]؛ قال مقاتل: خسفَ اللهُ بقوم لوطٍ، وأرسل الحجارةَ على مَنْ كان خارجاً من القرية.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني الحجارة[٣] ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. وقيل: إنَّ جبريلَ خسَفَ بقريتهم وجعلَ عاليها سافلها، ثم أتبعَها اللهُ بالحجارة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمنٌ إلا بيت لوطٍ وابنتاه.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكُ: الشجرُ المُلتَفُّ الكثيرُ، الواحدة أيكة. ومن قرأ: «أصحابُ الأيكةِ» فهي الغَيضة. ومن قرأ: «لَيْكَةِ» فهو اسم

---

(١) الرجز للعجاج بن رؤبة، وقد سلف ٩/ ٢٧٩.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦١، وزاد المسير ٦/ ١٤٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ١٤٠.

القرية. ويُقال: هما مثلُ بَكَّةَ ومكَّة. قاله الجوهري[١]. وقال النَّحَّاس[٢]: وقرأ أبو جعفر ونافع: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ» وكذا قرأا[٣] في «ص»[٤]. وأجمعَ القُرَّاءُ على الخفضِ في التي في سورة «الحِجرِ»[٥] والتي في سورة «ق»[٦]، فيجب أن يُرَدَّ ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذْ كان المعنى واحداً. فأمَّا ما حكاه أبو عبيد من أنَّ «لَيْكَةَ» هي اسمُ القرية التي كانوا فيها، وأنَّ «الأيكة» اسمُ البلد فشيءٌ لا يثبتُ ولا يُعرَفُ من قالَه فيثبُتُ علمُه، ولو عُرِفَ مَنْ قالَه لكان فيه نظر؛ لأنَّ أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافِه.

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قَتادة قال: أُرسِلَ شعيبٌ عليه السلام إلى أُمَّتين: إلى قومِه من أهل مَدْيَن، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكةُ: غَيضَةٌ من شجرٍ مُلْتفٍّ. وروى سعيد عن قَتادة قال: كان أصحابُ الأيكةِ أهلَ غَيضَةٍ وشَجَرٍ، وكانت عامَّةُ شجرِهم الدَّومَ، وهو شجَرُ المُقْل. وروى جُوَيبر[٧] عن الضَّحَّاك قال: خرجَ أصحابُ الأيكةِ ـ يعني حين أصابهم الحرُّ ـ فانضَمُّوا إلى الغَيضَةِ والشَّجر، فأرسلَ اللهُ عليهم سحابةً فاستَظَلُّوا تحتَها، فلمَّا تتامُّوا[٨] تحتَها أُحرقوا. ولو لم يكن هذا إلا ما رُوِيَ عن ابن عباس قال: والأيكةُ: الشَّجَرُ. ولا نعلمُ بين أهل اللغة اختلافاً أنَّ الأيكةَ الشَّجرُ المُلتَفُّ، فأمَّا احتجاجُ بعضٍ منِ احتَجَّ بقراءةِ مَنْ قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنَّه في الشواذِّ[٩] «ليكة» فلا حُجَّةَ له؛ والقول فيه: إنَّ

---

(١) في الصحاح (أيك).

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٨٩-١٩٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): قرأ.

(٤) الآية (١٣)، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر أيضاً. السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦، والنشر ٢/ ٣٣٦.

(٥) الآية (٧٨).

(٦) الآية (١٤).

(٧) في جميع النسخ: ابن جبير، والصواب ما أُثبت من إعراب القرآن.

(٨) في (د) و(ز) و(م): تكاملوا. وكلاهما بمعنى.

(٩) في (د) و(ز) و(م): السواد.

أصلَه «الأيكة» ثمَّ خُفِّفَتِ الهمزةُ فأُلقيَتْ حركتُها على اللام فسقطَتْ، واستغنيتَ[١] عن ألفِ الوصلِ؛ لأنَّ اللامَ قد تحرَّكتْ، فلا يجوز على هذا إلَّا الخفض، كما تقول: بالأحمر تُحقِّقُ الهمزةَ، ثم تُخفِّفُها: بِلَحْمرِ، فإن شئتَ كتبتَ في الخَطِّ على ما كتبتَه أوَّلاً، وإن شئتَ كتبتَه بالحذف، ولم يَجُزْ إلا الخفضُ. قال سيبويه[٢]: واعلم أنَّ ما لا ينصرفُ إذا دخلَتْ عليه الألفُ واللامُ أو أُضيفَ انصرفَ. ولا نعلمُ أحداً خالفَ سيبويه في هذا.

وقال الخليل[٣]: الأيكةُ: غَيْضَةٌ تُنبِتُ السِّدرَ والأراكَ ونحوَهما من ناعم الشجر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقُلْ أخوهم شعيب؛ لأنَّه لم يكن أخاً لأصحابِ الأيكة في النَّسب، فلمَّا ذكر مَدْيَنَ قال: «أخاهُمْ شُعَيْباً»؛ لأنَّه كان منهم[٤]. وقد مضى في «الأعراف»[٥] القولُ في نسبه. قال ابنُ زيد: أرسلَ اللهُ شُعيباً رسولاً إلى قومِه أهلِ مدين، وإلى أهلِ البادية وهم أصحابُ الأيكة[٦]. وقاله قتادة، وقد ذكرناه[٧].

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ تخافون الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الآية. وإنَّما كان جوابُ هؤلاءِ الرُّسُلِ واحداً على صيغةٍ واحدة؛ لأنَّهم مُتَّفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع عن أخذ الأجر على تبليغ الرسالة[٨].

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين للكيلِ والوزن[٩]. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

---

(١) في النسخ: واستغنت. والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) في الكتاب ٣/ ٢٢١ .

(٣) في العين ٥/ ٤٢٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٤١ عن مقاتل.

(٥) ٩/ ٢٨١ .

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٣ .

(٧) ٩/ ٢٨٦ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ ، ومجمع البيان ١٩/ ١٧٩ بنحوه .

(٩) الوسيط ٣/ ٣٦٢ ، وزاد المسير ٦/ ١٤٢ .

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: أعطوا الحقَّ. وقد مضى في «سبحان»[١] وغيرها.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم في «هود»[٢] وغيرها. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: الجِبِلَّة: هي الخَليقة. وجُبِلَ فلانٌ على كذا، أي: خُلِقَ؛ فالخُلُقُ جِبِلَّةٌ وجُبُلَّةٌ وجِبْلَةٌ وجُبْلَةٌ وجَبْلَةٌ. ذكره النَّحَّاس في «معاني القرآن»[٣]. «والجِبِلَّة» عطفٌ على الكاف والميم[٤]. قال الهروي: الجِبِلَّةُ والجُبْلَةُ والجِبِلُّ والجُبُلُّ والجَبْلُ لغات، وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]. قال النَّحَّاس في كتاب «إعراب القرآن» له[٥]: ويُقال: جُبُلَّةٌ والجمعُ فيهما جَبَّالٌ، وتُحذَفُ الضَّمَّةُ والكسرةُ من الباء، وكذلك التشديدُ من اللام، فيُقال: جُبْلَةٌ وجُبَلٌ، ويُقال: جِبْلَةٌ وجِبَالٌ، وتُحذَفُ الهاءُ من هذا كلِّه.

وقرأ الحسن باختلافٍ عنه: «والجُبُلَّةَ الأوَّلينَ» بضمِّ الجيم والباء؛ ورُوي عن شيبةَ والأعرج[٦]. الباقون بالكسر. قال:

والموتُ أعظمُ حادثٍ ... فيما يَمرُّ على الجِبِلَّه[٧]

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين يأكلون الطعامَ والشرابَ على ما تقدَّم. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي: ما نظنُّك إلَّا من الكاذبين في أنَّكَ رسولُ الله تعالى. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جانباً من السماء وقطعةً منه، فننظر إليه، كما

---

(١) ١٣/ ٧٦.

(٢) ١١/ ١٩٢.

(٣) ٥/ ١٠٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٣٩١.

(٥) ٣/ ٣٩١.

(٦) المحتسب ٢/ ١٣٢ والشاذة ص١٠٧ عن الحسن وأبي حصين، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢ عن الحسن وابن محيصن، وزاد المسير ٦/ ١٤٢ عن الحسن وأبي مجلز وأبي رجاء وابن يعمر وابن أبي عبلة.

(٧) قائله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو في ديوانه ص٧٣.

قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[١] [الطور: ٤٤]. وقيل: أرادوا: أنزِلْ علينا العذاب. وهو مبالغةٌ في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكِسْفُ: جمع كِسْفةٍ مثل سِدْرٍ وسِدْرةٍ[٢]. وقرأ السُّلَميُّ وحفص: «كِسَفاً» جمع كِسْفَة أيضاً: وهي القطعة والجانب، تقديره كِسْرة وكِسَر. قال الجوهري: الكِسْفة: القِطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفةً من ثوبك، والجمع كِسْفٌ وكِسَفٌ. ويُقال: الكِسْفُ والكِسْفَةُ واحد. وقال الأخفش: من قرأ «كِسْفاً» جعله واحداً، ومن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً. وقد مضى هذا في سورة «سبحان»[٣]. وقال الهروي: ومن قرأ: «كِسْفاً» على التوحيد فَجمعُه أكساف وكسوف، كأنه قال: أو تُسقِطَه علينا طبقاً واحداً، وهو من كسفتَ الشيء كَسْفاً إذا غطَّيتَه[٤]. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد؛ أي: إنَّما عليَّ التبليغُ وليس العذابُ الذي سألتُم إليَّ، وهو يُجازيكم[٥]. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ قال ابن عباس: أصابهم حرٌّ شديد، فأرسلَ اللهُ سبحانه سحابةً فهربوا إليه ليستَظِلُّوا بها، فلمَّا صاروا تحتَها صِيحَ بهم فهلَكوا[٦]. وقيل: أقامَها اللهُ فوقَ رؤوسهم، وألهبَها حرًّا حتى ماتوا من الوَمَدِ[٧]. وكان من أعظمِ يومٍ في الدنيا عذاباً. وقيل: بعثَ اللهُ عليهم سَموماً، فخرجوا إلى الأيكة يستظِلُّون بها، فأضرَمَها اللهُ عليهم ناراً فاحترقوا.

وعن ابن عباسٍ أيضاً وغيرِه: إنَّ الله تعالى فتحَ عليهم باباً من أبواب جهنَّم،

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٦، وأخرج عن ابن عباس ﷺ أنه قال: ﴿كِسَفًا﴾: قطعاً. وأخرج أيضاً عن الضحاك أنه قال: جانباً من السماء.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٩١.

(٣) عند تفسير الآية (٩٢).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٥. وقد سلف أيضاً في سورة الإسراء.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٧ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٣.

(٧) في النسخ: الرمد. والوَمَدُ: الحر الشديد مع سكون الريح. تاج العروس (ومد).

وأرسلَ عليهم هَدَّة[١] وحرًّا شديداً فأخذَ بأنفاسِهم، فدخلوا بيوتَهم، فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فأنضجهمُ الحرُّ، فخرجوا هرباً إلى البريَّة، فبعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ سحابةً فأظَلَّتْهم، فوجدوا لها برداً ورُوحاً ورِيحاً طيبةً، فنادى بعضُهم بعضاً، فلمَّا اجتمعوا تحتَ السحابة ألهبَها اللهُ تعالى عليهم ناراً، ورجفَتْ بهمُ الأرض، فاحترقوا كما يحترقُ الجرادُ في المقلى، فصاروا رَماداً، فذلك قولُه: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقولُه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقيل: إنَّ الله تعالى حبسَ عنهمُ الريحَ سبعةَ أيام، وسلَّط عليهم الحرَّ حتى أخذَ بأنفاسِهم، ولم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماءٌ، فكانوا يدخلون الأسرابَ ليتبرَّدوا فيها فيجدوها أشدَّ حرًّا من الظاهر، فهربوا إلى البريَّة، فأظلَّتهم سحابةٌ وهي الظُّلَّة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرَتْ عليهم ناراً فاحترقوا. وقال يزيد الجُرَيْريُّ: سلَّطَ اللهُ عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ ولياليهنَّ، ثم رُفِعَ لهم جبلٌ من بعيد، فأتاه رجلٌ، فإذا تحتَه أنهارٌ وعيونٌ وشجرٌ وماءٌ بارد، فاجتمعوا كلُّهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظُّلَّة. وقال قتادة: بعثَ اللهُ شُعيباً إلى أُمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة، فأهلكَ اللهُ أصحابَ الأيكة بالظُّلَّة، وأمَّا أصحاب مدين فصاح بهم جبريلُ صيحةً فهلكوا أجمعين[٢]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل: آمنَ بشعيبٍ من الفئتين تِسعُ مئة نفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عادَ إلى ما تقدَّم بيانه[٣] في أوَّل السُّورةِ من إعراض المشركين عن القرآن. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ «نَزَلَ» مخفَّفاً قرأ نافع

---

(١) الهَدَّة: صوتٌ ما يقع من السماء. تاج العروس (هدد).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ١٨٢.

(٣) كلمة «بيانه» من (م).

وابن كثير وأبو عمرو. الباقون: «نَزَّلَ» مشدَّداً «بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ» نصباً[(١)]، وهو اختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ وهو مصدر نزَّلَ. والحُجَّةُ لمن قرأ بالتخفيفِ أنْ يقول: ليس هذا بمصدر[(٢)]؛ لأنَّ المعنى: وإنَّ القرآنَ لَتنزيلُ ربِّ العالمين، نزَلَ به جبريلُ إليك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[(٣)] [البقرة:٩٧] أي: يتلوه عليكَ، فيعيه قلبُك. وقيل: ليثبُتَ قلبُكَ[(٤)].

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: لئلَّا يقولوا: لَسْنا نفهمُ ما تقول. ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: وإنَّ ذِكْرَ نُزولِهِ لَفي كُتُبِ الأوَّلين، يعني الأنبياء[(٥)]. وقيل: أي: إنّ ذِكْرَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام في كتُبِ الأوَّلين، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] والزُّبُر: الكُتُب، الواحد زَبُور، كرسول ورُسُل[(٦)]، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال مجاهد: يعني عبدالله بن سَلام وسلمان وغيرهما ممَّن أسلم[(٧)]. وقال ابن عباس: بَعثَ أهلُ مكة

---

(١) وقرأ عاصم في رواية حفص عنه «نزل» بالتخفيف و«الروح» بالرفع. السبعة ص٤٧٣، والحجة للقراء السبعة ٥/٣٦٩.

(٢) في (م): بمقدر.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩١.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٣.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤.

(٧) أخرجه الطبري ٧/ ٦٤٤ - ٦٤٥ بنحوه، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٦٦.

إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إنَّ هذا لَزمانُه، وإنَّا لَنجِدُ في التوراة نعتَه وصفتَه[١]. فيرجِعُ لفظُ العلماء إلى كلٍّ من كان له عِلْمٌ بكتُبِهِم أسلَمَ أو لم يُسلِمْ على هذا القول. وإنما صارت شَهادة أهلِ الكتاب حُجَّةً على المشركين؛ لأنَّهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم علمٌ.

وقرأ ابن عامر: «أَوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ». الباقون: «أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً»[٢] بالنصب على الخبر، واسم يكن «أَنْ يَعْلَمَهُ» والتقدير: أوَ لَمْ يكُنْ لهم عِلمُ علماءِ بني إسرائيل الذين أسلموا آيةً واضحةً؟ وعلى القراءة الأولى اسم كان «آيةٌ» والخبر «أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ إسرائيل»[٣]. وقرأ عاصم الجَحْدَرِيُّ: «أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَماءُ بني إسرائيل»[٤].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي: على رجلٍ ليس بعربيِّ اللسان ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ بغيرِ لُغةِ العرب لَمَا آمنوا ولَقالوا: لا نفقَه، نظيرُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ الآية [فصلت: ٤٤]. وقيل: معناه: ولو نَزَّلناه على رجلٍ ليس من العرب لَما آمنوا به أَنَفَةً وكِبراً[٥]. يُقال: رجلٌ أعجمٌ وأعجميٌّ إذا كان غيرَ فصيحٍ وإن كان عربيًّا، ورجلٌ عجميٌّ وإن كان فصيحاً يُنسَبُ إلى أصله؛ إلا أنَّ الفرَّاءَ أجازَ أن يُقال: رجلٌ عجميٌّ بمعنى أعجميٍّ[٦].

وقرأ الحسن: «على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ» مشدَّدةً بياءينِ جعلَه نِسْبةً. ومن قرأ: «الأعْجَمِينَ» فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بُعد؛ لأنَّ ما كانَ من الصفات الذي مؤنَّثه فعلاء لا يُجمَعُ بالواو والنون، ولا مؤنَّثُه[٧] بالألف والتاء؛ لا يُقال: أحمرون ولا

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٨، وزاد المسير ٦/ ١٤٥.

(٢) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠١.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢، والشاذة ص١٠٧، وزاد المسير ٦/ ١٤٥ وذكر هذه القراءة أيضاً عن الشعبي والضحاك.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٢. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٣.

(٧) كلمة «مؤنَّثه» من النسخ الخطية، وهي ليست في (م).

حَمْراوات. وقيل: إنَّ أصلَه الأعجميِّين[١] ـ كقراءة الحسن[٢] ـ ثم حُذِفَتْ ياءُ النَّسب، وجُعِلَ جَمْعُه بالياءِ والنونِ دليلاً عليها. قاله أبو الفتح عثمان بن جِنِّي[٣]. وهو مذهب سيبويه[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ يعني القرآن، أي: الكفر به ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾. وقيل: سلَكْنا التكذيبَ في قلوبهم، فذلك الذي منعَهم من الإيمان. قاله يحيى بن سلَّام. وقال عكرمة: القسوة[٥]. والمعنى متقارب، وقد مضى في «الحجر»[٦]. وأجاز الفرَّاء الجزمَ في «لا يُؤمِنُونَ»؛ لأنَّ فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعَمَ أنَّ من شأن العرب إذا وضعتْ لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جَزَمَتْ ما بعدها وربما رفعَتْ؛ فتقول: ربطتُ الفرسَ لا ينفلِت بالرفع والجزم؛ لأنَّ معناه: إنْ لم أربِطْه ينفلِتْ، والرفعُ بمعنى: كيلا ينفلِتُ[٧]. وأنشدَ لبعضِ بني عُقيل:

وحتى رأينا أحسنَ الفِعْلِ بيننا ... مُساكَنَةً لا يقرِفُ الشرَّ قارِفُ[٨]

بالرفعِ لمَّا حذَفَ كي. ومن الجزم قول الآخر:

لَطالَما حَلَّأْتُماها[٩] لا تَرِدْ ... فخلِّياها والسِّجالَ[١٠] تَبْتَرِدْ[١١]

---

(١) في (د) و(ز) و(م): الأعجمين. بياءٍ واحدة.

(٢) في النسخ: الجحدري، والصواب: الحسن، كما يقتضيه السياق.

(٣) في المحتسب ٢/ ١٣٢ دون قوله: (ومن قرأ: «الأعجمين» فقيل: إنه جمع أعجم) وقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٣.

(٤) الكتاب ٣/ ٦٤٥.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٨٨.

(٦) ١٢/ ١٨٣.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٨) في (د) و(ز) و(ظ): «يقرب» و«قارب» بدل «يقرف» و«قارف»، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٠٥.

(٩) حلَّأتَ الإبل عن الماء: إذا حبستها عن الورود. تهذيب اللغة ٥/ ٢٣٧.

(١٠) جمع سَجْل: وهي الدلو الضخمة المملوءة ماءً. اللسان (سجل).

(١١) أي: تشرب الماء لتبرد به كبدها. اللسان (برد).

قال النَّحَّاس[١]: وهذا كلُّه في «يُؤْمِنُونَ» خطأٌ عند البصريِّين، ولا يجوزُ الجزمُ بلا جازم، ولا يكونُ شيءٌ يعملُ عملاً فإذا حُذِفَ عَمِلَ عملاً أقوى من عملِه وهو موجود، فهذا احتجاجٌ بيِّنٌ.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي العذاب[٢]. وقرأ الحسن: «فَتَأْتِيَهُمْ» بالتاء، والمعنى: فتأتيهم الساعةُ بغتةً، فأُضمِرَتْ لدلالة العذابِ الواقعِ فيها، ولكثرةِ ما في القرآن من ذِكْرِها[٣]. وقال رجلٌ للحسن وقد قرأ: «فَتَأْتِيَهُمْ»: يا أبا سعيد، إنَّما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهرَه وقال: إنَّما هي الساعةُ تأتيهم بغتةً أي: فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها. ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: مؤَخَّرون ومُمْهلون[٤]. يطلبون الرجعة هنالك فلا يُجابونَ إليها. قال القُشيري: وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ليس عطفاً على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ بل هو جوابُ قولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلمَّا كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك قوله: ﴿فَيَقُولُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبيِّ ﷺ: يا محمد، إلى متى تَعِدُنا بالعذاب ولا تأتي به؟ فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[٥].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا[٦]. والمرادُ أهلَ مكةَ في قول

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٣.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

(٣) المحتسب ٢/ ١٣٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩، وزاد المسير ٦/ ١٤٦.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩.

الضَّحَّاك وغيره. ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ «ما» الأولى استفهامٌ معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ «أغنى»، و«ما» الثانية في موضع رفع، ويجوزُ أن تكون الثانيةُ نفياً لا موضِعَ لها[١]. وقيل: «ما» الأولى حرفُ نفيٍ، و«ما» الثانية في موضع رفعٍ بـ «أغنى»[٢] والهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمانُ الذي كانوا يُمَتَّعونَه[٣]. وعن الزُّهري: إن عُمرَ بنَ عبد العزيزِ كانَ إذا أصبحَ أمسكَ بلحيتِه ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... ولَيلُكَ نومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ
فلا أنتَ في الأَيقاظِ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنتَ في النُّوَّامِ ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى ... كما سُرَّ باللَّذاتِ في النومِ حالمُ
وتَسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ «مِن» صلة، المعنى: وَمَا أَهْلَكْنَا قرية[٥]. ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: رسل[٦]. ﴿ذِكْرَىٰ﴾. قال الكِسائي: «ذِكْرَى» في موضعِ نصبٍ على الحال[٧]. النَّحَّاس: وهذا لا يُحَصِّل، والقول فيه قول الفرَّاء وأبي إسحاق أنها في موضع نصبٍ على المصدر؛ قال الفرَّاء: أي: يَذَّكَّرون ذِكْرَى؛ وهذا قولٌ صحيح؛ لأنَّ معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: إلَّا لها مُذَكِّرون. «وذِكْرَى» لا يتبيَّنُ فيه الإعراب؛ لأنَّ

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ .
(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢١٧ .
(٣) الوسيط ٣/ ٣٦٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .
(٤) أخرج هذه الأبيات أبو نعيم في الحلية ٥/ ٣١٩ - ٣٢٠ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٤٣ .
(٥) مجمع البيان ١٩/ ١٨٥ .
(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .
(٧) وقع في مطبوع إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ : في موضع نصبٍ على القطع، والصواب ما أثبتناه كما في مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٤٤ .

فيها ألفاً مقصورة. ويجوز «ذِكْرًى» بالتنوين، ويجوز أن يكون «ذِكرى» في موضعِ رفعٍ على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي: إنذارُنا ذكرى. وقال الفرَّاء: أي: ذلِكَ ذكرى، وتلِكَ ذكرى[١]. وقال ابن الأنباري[٢]: قال بعض المفسِّرين: ليس في «الشعراء» وقفٌ تامٌّ إلَّا قولُه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ وهذا عندنا وقفٌ حسن، ثم تبتدئ «ذِكْرَى» على معنى: هي ذكرى، أو[٣]: يُذَكِّرهم ذكرى، والوقف على «ذِكْرَى» أجود.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيثُ قدَّمنا الحُجَّةَ عليهم وأعذَرْنا إليهم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ يعني القرآن، بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: برمي الشُّهُبِ كما مضى في سورة «الحِجرِ» بيانه[٥]. وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وما تَنزَّلَتْ بهِ الشَّياطُون»[٦] قال المهدَوي: وهو غيرُ جائزٍ في العربية ومخالفٌ للخطِّ. وقال النَّحَّاس[٧]: وهذا غلطٌ عند جميع النَّحْويِّين، وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعتُ محمد بن يزيد يقول: هذا غلطٌ عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لمَّا رأى الحسنُ في آخره ياءً ونوناً وهو في موضعِ رفعٍ اشتبه عليه بالجمع المُسَلَّمِ فغَلِطَ، وفي

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ١٩٣ -١٩٤ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٤ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٢-١٠٣ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٤ .

(٣) في (د) و(م): أي.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٩٩ .

(٥) ١٢/ ١٨٧-١٩٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥ ، وهي في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ ، والمحتسب ٢/ ١٣٣ عن الحسن، وفي الشاذة ص١٠٨ عن الحسن والأعمش.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ١٩٤ .

الحديث: «احذروا زلَّة العالم»[1] وقد قرأ هو مع الناس: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]، ولو كان هذا بالواو في موضعِ رفعٍ لَوَجبَ حذفُ النُّونِ للإضافة.

وقال الثعلبي: قال الفرَّاء: غلِطَ الشيخُ ـ يعني الحسن ـ فقيل ذلك للنَّضرِ بن شُمَيل، فقال: إنْ جازَ أنْ يُحتَجَّ بقولِ رؤبة والعجَّاج وذويهما، جاز أن يُحتَجَّ بقول الحسن وصاحبه، مع أنَّا نعلَمُ أنَّهما لم يقرأا بذلك إلَّا وقد سمِعا في ذلك شيئاً[2]. وقال المؤرِّج: إنْ كان الشيطانُ من شاطَ يشيطُ كان لقراءتِهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعتُ أعرابيًّا يقول: دخَلْنا بساتينَ من ورائها بَساتون، فقلتُ: ما أشبهَ هذا بقراءة الحسن[3]!

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: المعنى: قُلْ لِمَنْ كفر هذا. وقيل: هو مخاطبةٌ له عليه الصلاة والسلام وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنَّه معصومٌ مختارٌ، ولكنَّه خُوطِبَ بهذا والمقصودُ غيره. ودلَّ على هذا قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: لئلَّا[4] يتَّكِلوا[5] على نسبِهم فيَدَعوا[6] ما يجِبُ عليهم[7].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨١، والبيهقي ١٠/ ٢١١ من حديث عمرو بن عوف ﷺ، بلفظ: «اتقوا زلَّة العالم»، وفي إسناده كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، وهو متروك، واتهمه الشافعي وأبو داود بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٠٢) من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن معاذ مرفوعاً بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاث: جدال منافق، وزلة عالم، ودينار تقطع أعناقكم». ثم قال: قال الدارقطني: وقد وقفه شعبة عن عمرو بن مرة، والموقوف هو الصحيح.

(٢) وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ١٣١.

(٣) قول يونس بن حبيب أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٥.

(٤) في النسخ: لا، والمثبت من إعراب القرآن.

(٥) في (م): يتكلون.

(٦) في (م): فيدعون.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خَصَّ عشيرتَه الأقربين بالإنذار؛ لِتنحَسِمَ أطماعُ سائرِ عشيرتِه وأطماعُ الأجانبِ في مُفارقته إيَّاهم على الشِّرك[١]. وعشيرتُه الأقربون قريش. وقيل: بنو عبد مناف. ووقع في «صحيح مسلم»: «وأنذِر عشِيرتَكَ الأقربِينَ، ورَهطَكَ مِنهم المُخلَصِين»[٢]. وظاهرُ هذا أنَّه كان قرآناً يُتلى وأنه نُسِخَ؛ إذ لم يثبُتْ نقلُه في المصحفِ ولا تواتر، ويَلزَمُ على ثبوتِه إشكالٌ، وهو أنَّه كان يَلزَمُ عليه ألَّا يُنذِرَ إلَّا مَنْ آمنَ من عشيرتِه؛ فإنَّ المؤمنينَ هم الذين يُوصَفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حبِّ النبيِّ ﷺ لا المشركون؛ لأنَّهم ليسوا على شيءٍ من ذلك، والنبيُّ ﷺ دعا عشيرتَه كلَّهم مؤمِنَهم وكافِرَهم، وأنذَرَ جميعَهم ومَنْ معهم ومَنْ يأتي بعدَهم ﷺ، فلم يثبُتْ ذلك نقلاً ولا معنًى[٣]. وروى مسلمٌ من حديث أبي هريرةَ قال: لمَّا نزلَتْ هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعبِ بن لؤيٍّ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني مُرَّةَ بن كعب، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ شمسٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبد مَنافٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني هاشمٍ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا بني عبدِ المُطَّلبِ، أنقِذوا أنفُسَكم من النَّار، يا فاطمةُ أنقذي نفسَكِ من النَّار، فإنِّي لا أملِكُ لكم من الله شيئاً غيرَ أنَّ لكم رَحِماً سأَبُلُّها بِبَلالها»[٤].

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٨٧ بنحوه.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ. وأخرجه البخاري أيضاً (٤٩٧٢).

(٣) المفهم ٧/ ٣٨٥.

(٤) صحيح مسلم (٢٠٤). وأخرجه أحمد (٨٧٢٦). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «بِبَلالها» =

الثانية: في هذا الحديث والآية دليلٌ على أنَّ القُرْبَ في الأنساب لا ينفَعُ مع البُعدِ في الأسباب، ودليلٌ على جواز صِلَةِ المؤمنِ الكافرَ وإرشادِه ونصيحتِه؛ لقوله: «إنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها ببِلالها»[١]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية [الممتحنة:٨]، على ما يأتي بيانُه هناكَ إن شاء الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم في سورة «الحِجرِ»[٣] و«سبحان»[٤] يُقال: خفضَ جناحَه إذا لانَ. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: خالفوا أمرَكَ. ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بريءٌ من معصيتِكم إيَّايَ؛ لأنَّ عصيانَهم إيَّاه عصيانٌ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلَّا بما يرضاه، ومَنْ تبرَّأ منه فقد تبرَّأ اللهُ منه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: فَوِّضْ أمركَ إليه، فإنَّه العزيزُ الذي لا يُغالَبُ، الرَّحيمُ الذي لا يخذُلُ أولياءه[٦].

وقرأ العامَّة: «وتوكَّلْ» بالواو، وكذلك هو في مصاحفهم. وقرأ نافع وابن عامر: «فَتَوَكَّلْ» بالفاء، وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام[٧]. ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقومُ إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين: ابن عباس وغيره. وقال مجاهد:

= قيل: بكسر الباء، جمع بَلَل: وهو كلُّ ما بلَّ الحلقَ من ماءٍ أو لبنٍ أو غيره. ويُروى بفتحها على المصدر، أي: أصِلُكم في الدنيا. قيل: شبَّه القطيعة بالحرارة تُطفأ بالماء.

(١) المفهم ٧/ ٣٨٤.

(٢) قوله: «إن شاء الله» من (م).

(٣) ١٢/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) ١٣/ ٥٩ - ٦٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ١٨٩.

(٧) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٧.

يعني: حينَ تقومُ حيثُما كُنْتَ[١].

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: في المُصلِّين[٢]. وقال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ حتى أخرجَه نبيًّا[٣]. وقال عكرمة: يراك قائماً وراكعاً وساجداً. وقاله ابنُ عباسٍ أيضاً[٤]. وقيل: المعنى: إنَّكَ ترى بقلبِكَ في صلاتِكَ مَنْ خلفَكَ كما ترى بعينِكَ مَنْ قُدَّامَكَ. ورُوِيَ عن مجاهد؛ ذكره الماورديُّ[٥] والثعلبيُّ. وكان عليه الصلاة والسلام يَرى مَنْ خلفَه كما يَرى مَنْ بين يديه، وذلك ثابتٌ في الصحيح[٦]، وفي تأويل الآية بعيد. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إنَّما قال: «تَنَزَّلُ» لأنها أكثرُ ما تكون في الهواء، وأنها تمرُّ في الريح[٧].

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ تقدَّم في «الحجر»[٨]. فـ «يُلْقُونَ السَّمْعَ» صفةُ الشياطين «وَأَكْثَرُهُمْ» يرجِعُ إلى الكهنة[٩]. وقيل: إلى الشياطين[١٠].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٥ . وأخرج الطبري ١٧/ ٦٦٦ قول مجاهد .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧-٦٦٨ عن مجاهد .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠٧ .

(٤) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٦٦-٦٦٧ .

(٥) في النكت والعيون ٤/ ١٨٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٦٧ .

(٦) صحيح البخاري (٧١٨)، وصحيح مسلم (٤٣٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه أحمد (١٢٠١١).

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥ .

(٨) ١٢/ ١٨٧-١٨٨ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤ .

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ١٩٥ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ **فيه ستُّ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ جمع شاعر، مثل جاهل وجُهَلاء. قال ابن عباس: هم الكفار يَتَّبِعُهُم ضُلَّالُ الجِنِّ والإنس[١]. وقيل ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: الزائِلونَ عن الحقِّ، ودَلَّ بهذا أنَّ الشعراءَ أيضاً غاوون؛ لأنَّهم لو لم يكونوا غاوينَ ما كان أتباعُهم كذلك[٢]. وقد قدَّمنا في سورة «النور»[٣] أنَّ من الشِّعر ما يجوزُ إنشادُهُ، ويُكرَهُ، ويَحرُمُ. روى مسلمٌ من حديث عَمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رَدِفتُ رسولَ اللهِ ﷺ يوماً[٤] فقال: «هل معَك من شعرِ أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟» قلتُ: نعم. قال: «هِيه» فأنشدتُه بيتاً. فقال: «هِيه» ثم أنشدتُه بيتاً، فقال: «هِيه» حتى أنشدتُه مئةَ بيت[٥]. هكذا صوابُ هذا السندِ وصحيحُ روايَتِه. وقد وقعَ لبعضِ رُواةِ كتابِ مُسلم: عن عمرو بن الشَّريد عن الشَّريدِ أبيه، وهو وَهَمٌ؛ لأنَّ الشَّريدَ هو الذي أردفَه رسولُ الله ﷺ، واسمُ أبي الشَّريدِ سُوَيْد. وفي هذا دليلٌ على حفظِ الأشعارِ والاعتناءِ بها إذا تضمَّنَتِ الحِكَمَ والمعاني المُستحسنةَ شرعاً وطبعاً، وإنَّما استكثَر النبيُّ ﷺ من شعر أمية؛ لأنَّه كان حكيماً؛ ألا ترى قولَه عليه الصلاة والسلام: «وكاد أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسْلِمَ[٦]»

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٣، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٣) ١٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤) كلمة «يوماً» من صحيح مسلم.

(٥) صحيح مسلم (٢٢٥٥). وأخرجه أحمد (١٩٤٧٦).

(٦) أخرجه البخاري (٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦) (٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن قوله: هكذا صواب هذا السند... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/ ٥٢٦-٥٢٧. وقال مؤلفه: قوله: «هِيه» بكسر الهاء الأولى، وسكون الثانية للوقف. وهي «إيه» التي للاستزادة، وأبدل من الهمزة هاءً، =

فأما ما تضمَّنَ ذِكْرَ اللهِ وحمدَه والثناءَ عليه فذلك مندوبٌ إليه، كقول القائل:

الحمدُ للهِ العليِّ المنان صارَ الشريدُ في رؤوس العيدان

أو ذِكْرَ رسولِ الله ﷺ أو مَدْحَه كقول العباس:

مِن قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي مُسْتودَعٍ حيثُ يُخصَفُ الورَقُ

ثمَّ هبطتَ البلادَ لا بشرٌ أنتَ ولا مُضغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفةٌ تركَبُ السَّفِينَ وقَدْ أَلْجَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرَقُ

تُنقَلُ مِن صَالبٍ إلى رَحِمٍ إذا مَضَى عالَمٌ بَدا طَبَقُ

فقال له النبيُّ ﷺ: «لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ»[1].

أو الذبَّ عنه، كقول حسان:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ

وهي أبياتٌ ذكَرها مسلمٌ في «صحيحه»[2] وهي في السير أتَمُّ.

أو الصلاةَ عليه، كما روى زيدُ بن أسلم: خرجَ عمرُ ليلةً يحرُسُ، فرأى مِصباحاً في بيتٍ، وإذا عجوزٌ تَنفِشُ صوفاً وتقول:

على محمدٍ صلاةُ الأبرارْ صلَّى عليه الطيِّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوَّاماً بُكاً بالأسحارْ يا ليتَ شِعْري والمنايا أطوارْ

هل يَجمَعنِّي وحبيبيَ الدارْ

يعني النبيَّ ﷺ؛ فجلس عمرُ يبكي[3].

= وهي اسمٌ لفعل الأمر الذي هو: زِدْ. وهي مبنيةٌ على الكسر؛ لوقوعها موقع المبني الذي هو الأمر. وفي الصحاح: إذا قلت: إيهِ يا رجل، فإنما تأمره بأن يزيدك من حديثه المعهود. وإن قلت: إيهٍ بالتنوين، كأنك قلت: هاتِ حديثاً؛ لأن التنوين تنكير.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٧ - ١٤٢٨ . وأخرجه الطبراني في الكبير (٤١٦٧)، والحاكم ٣/ ٣٢٨ وقال: هذا حديث تفرد به رواتُه الأعراب عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون.

(٢) برقم (٢٤٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٤).

وكذلك ذِكْرَ أصحابِه ومَدْحَهم ﷺ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيثُ قال:

إنِّي رضيتُ عليًّا للهُدَى عَلَماً كما رضيتُ عَتيقاً صاحبَ الغارِ
وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَهُ وما رضيتُ بقتلِ الشيخِ في الدارِ
كلُّ الصحابةِ عندي قُدوةٌ عَلَمٌ فهل عليَّ بهذا القولِ من عارِ
إنْ كُنتَ تعلمُ أنِّي لا أحِبُّهمُ إلَّا مِنَ اجلِكَ فاعْتِقْني من النارِ[1]

وقال آخرُ فأحسَنَ:

حُبُّ النبيِّ رسولِ الله مُفْتَرَضٌ وحُبُّ أصحابِه نورٌ بِبُرهانِ
من كان يعلَمُ أنَّ اللهَ خالِقُهُ لا يَرمِيَنَّ أبا بكرٍ بِبُهتانِ
ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحِبَهُ ولا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفَّانِ
أمَّا عليٌّ فمشهورٌ فضائِلُهُ والبيت لا يَستوِي إلا بأركانِ

قال ابن العربي[2]: أمَّا الاستعاراتُ في التشبيهاتِ فمأذونٌ فيها وإنِ استغرَقَتِ الحدَّ وتجاوزتِ المُعتادَ؛ فبِذلِكَ يضرِبُ المْلَكُ المُوكَّلُ بالرؤيا المثَلَ، وقد أنشد كعب بن زهير النبيَّ ﷺ:

بانَتْ سعادُ فقلبي اليومَ مَتبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ
وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ رَحَلُوا إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ
تَجلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعاراتِ والتشبيهاتِ بكلِّ بديع، والنبيُّ ﷺ يسمع ولا يُنكِرُ في تشبيهه رِيقَها بالرَّاح.

وأنشد أبو بكر ﷺ:

فَقَدْنا الوحيَ إذْ وَلَّيتَ عنَّا ووَدَّعَنا مِنَ اللهِ الكلامُ

(١) الأبيات دون البيت الثالث في تاريخ ابن عساكر ٤٢/ ٥٣٣.
(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٤.

سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً ... توارثُهُ القراطيسُ الكرامُ
فقد أورَثْتَنا ميراثَ صِدْقٍ ... عليكَ به التَّحيةُ والسَّلامُ

فإذا كان رسولُ الله ﷺ يسمَعُه وأبو بكر يُنشِدُه، فهل للتقليدِ والاقتداءِ موضعٌ أرفَعُ من هذا؟! قال أبو عمر: ولا يُنكِرُ الحسَنَ من الشِّعرِ أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى، وليس أحدٌ من كبار الصَّحابةِ وأهلِ العلم وموضعِ القُدوةِ إلَّا وقد قال الشعر، أو تمثَّلَ به، أو سمِعَه فرَضِيَه، ما كان حكمةً أو مباحاً، ولم يكن فيه فُحْشٌ ولا خنا ولا لمسلمٍ أذى، فإذا كان كذلِكَ فهو والمنثورُ من القول سواءٌ لا يحِلُّ سماعُه ولا قولُه. وروى أبو هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ على المنبر يقول: «أصدقُ كَلِمةٍ ـ أو أَشْعَرُ كلمةٍ ـ قالَتْها العربُ قولُ لَبِيد:

أَلَا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ

أخرجه مسلم، وزاد: «وكادَ أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ أنْ يُسلِمَ»[1]. ورُوي عن ابن سيرينَ أنه أنشدَ شعراً فقال له بعضُ جُلسائه: مثلُكَ يُنشِدُ الشِّعرَ يا أبا بكر؟! فقال: ويلَكَ يا لُكَع، وهلِ الشِّعرُ إلَّا كلامٌ لا يُخالِفُ سائرَ الكلامِ إلَّا في القوافي، فحَسَنُه حسنٌ وقبيحُه قبيح؟! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشِّعر. قال: وسمعتُ ابنَ عُمرَ يُنشِدُ:

يُحِبُّ الخمرَ من مالِ النَّدامَى ... ويَكرهُ أنْ يُفارِقَهُ الغَلُوسُ[2]

وكان عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود ـ أحدُ فُقهاءِ المدينةِ العشرة ثم المشيخةِ السبعة ـ شاعراً مجيداً مُقدَّماً فيه[3]. وللزُّبير بن بكّار القاضي في أشعاره كتاب، وكانتْ له زوجةٌ حسنةٌ تُسمَّى عَثْمة، فعتِبَ عليها في بعض الأمر فطلقَّها، وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله:

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٥٦) (٣). وأخرجه أيضاً البخاري (٦١٤٧) بتلك الزيادة، وقد سلفت قريباً.

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٩٤-١٩٥ . والغَلوس تصغير الغَلَس: وهو ظلمة آخر الليل. الصحاح (غلس). وأثر ابن سيرين أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٧١).

(٣) التمهيد ٩/ ٧ .

تـغَـلـغَـلَ حُـبُّ عَـثْـمـةَ فـي فـؤادي فـبـادِيـهِ مـع الـخـافـي يَـسـيـرُ
تـغَـلـغَـلَ حـيـثُ لـم يـبـلُـغْ شَـرابٌ ولا حُـزنٌ ولـم يـبـلُـغْ سُـرورُ
أكـادُ إذا ذكـرتُ الـعـهـدَ مـنـهـا أطـيـرُ لَـوَ انَّ إنـسـانـاً يَـطـيـرُ[1]

وقال ابن شهاب: قلتُ له: تقول الشِّعر في نُسكِكَ وفضلِكَ؟! فقال: إنَّ المصدورَ إذا نَفَثَ بَرَأ.

الثانية: وأمَّا الشِّعرُ المذمومُ الذي لا يَحِلُّ سماعُه وصاحبُه مَلومٌ، فهو المُتكلِّمُ بالباطل حتى يُفضِّلوا أجبنَ الناس على عنترة، وأشحَّهم على حاتم، وأن يَبهتوا البريء ويُفسِّقوا التَّقيَّ، وأن يُفرِّطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبةً في تسلية النَّفْسِ وتحسينِ القول[2]، كما رُويَ عن الفَرَزدقِ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملك سمِعَ قولَه:

فـبِـتْـنَ بـجـانـبـيَّ مُـصَـرَّعـاتٍ وبِـتُّ أَفُـضُّ أغـلاقَ الـخـتـامِ

فقال: قد وجبَ عليك الحَدُّ. فقال: يا أمير المؤمنين، قد درأ اللهُ عني الحَدَّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[3]. وروي أنَّ النعمانَ بنَ عديِّ بنِ نَضْلةَ كان عاملاً لعمر بن الخطاب ﷺ فقال:

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنَّ حليلَها بمَيْسَانَ[4] يُسقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنَّتْني دَهاقينُ[5] قريةٍ ورقَّاصةٌ تَجْذو[6] على كلِّ مَنْسِمِ[7]

---

(١) الأبيات سلفت ٢/ ٢٥٦ .

(٢) من قوله: أن يفرطوا... إلى هذا الموضع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩ .

(٣) الأغاني ٢١/ ٣٧٣ .

(٤) اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط . معجم البلدان ٥/ ٢٤٢ .

(٥) كلمة فارسية معرَّبة، جمع دهقان: وهو التاجر. اللسان (دهقن).

(٦) من الجُذو: وهو القيام على رؤوس الأصابع . اللسان (جذا).

(٧) أي: مِفْصل. اللسان (نسم).

فإن كنتَ نَدْماني فبِالأكْبَرِ اسْقِني ... ولا تَسْقِني بالأصغرِ المُتثَلِّمِ[١]

لعَلَّ أميرَ المؤمنينَ يَسوءُه ... تَنادُمُنا بالجَوْسَقِ[٢] المُتهدِّمِ

فبلغَ ذلِكَ عُمرَ، فأرسلَ إليه بالقُدوم عليه. وقال: إي واللهِ إني ليَسوءُني ذلك. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما فعلتُ شيئاً مما قلتُ، وإنَّما كانَتْ فضلةً من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له عمر: أمَّا عُذرُكَ فقد درأَ عنكَ الحَدَّ، ولكِنْ لا تعمَلْ لي عملاً أبداً وقَدْ قُلتَ ما قُلتَ[٣]. وذكر الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ قال: حدَّثني مصعب بن عثمان أنَّ عُمرَ ابنَ عبد العزيز لمَّا وَليَ الخلافةَ لم يكن له هَمٌّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتبَ إلى عامله على المدينة: إنِّي قد عرفتُ عُمرَ والأحوصَ بالشَّرِّ والخُبثِ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاشدُدْ عليهما واحمِلْهما إليَّ. فلمَّا أتاه الكتابُ حملَهما إليه، فأقبل على عمر فقال: هِيه!

فلم أرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظرٍ ... ولا كَليالي الحجِّ أفْلَتْنَ ذا هَوى

وكم مالئٍ عينيه من شيءِ غيرِه ... إذا راحَ نحوَ الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أمَّا واللهِ لِو اهتممتَ بحجِّكَ لم تنظُرْ إلى شيءٍ غيرِك، فإذا لم يفلَتِ الناسُ منكَ في هذه الأيام فمتى يفلَتون؟! ثم أمر بنَفْيِه، فقال: يا أمير المؤمنين، أوَ خَيرٌ من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أُعاهِدُ اللهَ أنِّي لا أعودُ إلى مثل هذا الشِّعر، ولا أذكرُ النِّساءَ في شعرٍ أبداً، وأُجدِّدُ توبةً، فقال: أوَ تفعَلُ؟ قال: نعم. فعاهدَ اللهَ على توبتِه وخلَّاه، ثم دعا بالأحوص، فقال: هِيه!

اللهُ بيني وبينَ قَيِّمِها ... يَفِرُّ منِّي بها وأَتْبَعُ

بَلِ اللهُ بين قَيِّمِها وبينَك. ثم أمرَ بنَفْيِه، فكلَّمه فيه رجالٌ من الأنصار فأبى، وقال:

---

(١) من ثَلِمَ الإناء إذا كُسِرَ حرفُه. اللسان (ثلم).

(٢) وهو القصر. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩-١٤٣٠ .

واللهِ لا أردُّه ما كان لي سلطان، فإنَّه فاسقٌ مُجاهِرٌ[١]. فهذا حُكم الشِّعرِ المَذْمومِ وحُكمُ صاحبِه، فلا يحِلُّ سماعُه ولا إنشادُه في مسجدٍ ولا غيرِه، كمنثورِ الكلامِ القبيحِ ونحوِه. وروى إسماعيل بن عَيَّاش، عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «حَسَنُ الشِّعرِ كَحسَنِ الكلامِ، وقبيحُه كقَبيحِ الكلام[٢]» رواه إسماعيل عن عبد الله الشَّامي، وحديثُه عن أهل الشَّام صحيحٌ فيما قال يحيى بنُ مَعينٍ وغيرُه[٣]. وروى عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الشِّعرُ بمنزلةِ الكلامِ، حَسَنُه كحَسَنِ الكلام، وقبيحُه كَقبيحِ الكلام»[٤].

الثالثة: روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يمتلئَ جَوفُ أحدِكُمْ قَيْحاً يَرِيهِ[٥] خيرٌ مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعْراً»[٦]، وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ قال: بينا نحنُ نسيرُ مع رسولِ الله ﷺ إذْ[٧] عرَضَ شاعِرٌ يُنشِدُ، فقال رسول الله ﷺ: «خُذوا الشَّيطانَ ـ أو: أمْسِكوا الشَّيطان ـ لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له مِنْ أنْ يمتلِئَ شِعراً»[٨]. قال عُلماؤنا: وإنما فعلَ النبيُّ ﷺ هذا مع هذا الشاعرِ لِما عَلِمَ من حاله، فلعلَّ هذا الشاعرَ كان مِمَّنْ قد عُرِفَ من حاله أنَّه قدِ اتَّخذَ الشِّعرَ طريقاً للتكسُّبِ، فُيفرِطُ في المدحِ إذا أُعطي، وفي الهَجْوِ والذَّمِّ إذا مُنِعَ، فيؤذي

(١) الأغاني ٩/ ٦٤-٦٥ .

(٢) أخرجه الدارقطني (٤٣٠٩). وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو يعلى (٤٧٦٠)، والدارقطني (٤٣٠٦) و(٤٣٠٧).

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ١٦٣ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٥)، والطبراني في الأوسط (٧٦٩٢)، والدارقطني (٤٣٠٨).

(٥) قبلها في (د) و(م): حتى.

(٦) صحيح مسلم (٢٢٥٧). وأخرجه أحمد (٧٨٧٤)، والبخاري (٦١٥٥).

(٧) في (م): إذا.

(٨) صحيح مسلم (٢٢٥٩). وأخرجه أحمد (١١٠٥٧).

الناسَ في أموالِهم وأعراضِهم، ولا خلافَ في أنَّ مَنْ كان على مِثْلِ هذه الحالة فكلُّ ما يكتسِبُه بالشِّعرِ حرام، وكلُّ ما يقولُه من ذلك حرامٌ عليه، ولا يحِلُّ الإصغاءُ إليه، بل يجبُ الإنكارُ عليه، فإنْ لم يمكِنْ ذلِكَ لمن خافَ من لسانه قطعاً تعيَّنَ عليه أن يُداريَه بما استطاع، ويُدافِعَه بما أمكن، ولا يحِلُّ أن[1] يُعطى شيئاً ابتداءً؛ لأنَّ ذلك عونٌ على المعصية، فإنْ لم يجِدْ من ذلك بُدًّا أعطاه بنِيَّةِ وقاية العِرض، فما وَقَى به المرءُ عِرْضَه كُتِبَ له به صدقة. وقوله[2]: «لَأَنْ يمتلِئَ جوفُ أحدِكم قيحاً يَرِيهِ[3]» القيح: المِدَّة يُخالِطُها دم. يُقال منه: قاحَ الجُرْحُ يَقِيحُ وتَقيَّحَ وقَيَّحَ. و«يَرِيه» قال الأصمعي: هو من الوَرْيِ على مثال الرَّمْيِ، وهو أن يَدْوَى جوفُه، يُقال منه: رجلٌ مَوْرِيٌّ، مُشدَّدٌ غيرُ مهموز. وفي الصِّحاح: ورى القيحُ جوفَه يَرِيهِ وَرْياً إذا أكله[4]. وأنشد اليَزيديُّ:

قـالـتْ لـه وَرْيـاً إذا تَـنـحـنـحَـا[5]

وهذا الحديث أحسنُ ما قيلَ في تأويله: إنَّه الذي قد غلَبَ عليه الشِّعرُ، وامتلأ صدرُه منه دونَ عِلْمٍ سواه ولا شيءٍ من الذِّكْرِ مِمَّن يخوضُ به في الباطل، ويسلكُ به مسالكَ لا تُحمَدُ له، كالمُكثرِ من اللَّغَطِ والهَذَرِ والغِيبةِ وقَبيحِ القول[6]. ومَنْ كان الغالبُ عليه الشِّعرُ لَزِمَتْه هذه الأوصافُ المذمومةُ الدَّنِيَّةُ، لحكم العادة الأدبيَّة. وهذا المعنى هو الذي أشارَ إليه البخاريُّ في «صحيحه» لمَّا بوَّبَ على هذا الحديث «باب ما يُكرَهُ أن يكون الغالِبُ على الإنسانِ الشِّعرُ». وقد قيل في تأويله: إنَّ المُرادَ بذلك

---

(١) قبلها في (م): له.

(٢) قبلها في (م): قلت.

(٣) قبلها في النسخ: حتى. وهي ليست في لفظ الحديث كما سلف.

(٤) الصحاح (ورى).

(٥) من قوله: قال علماؤنا... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/٥٢٨-٥٢٩ .

(٦) التمهيد ٢٢/١٩٦ .

الشِّعرُ الذي هُجيَ به النبيُّ ﷺ أو غيرُه. وهذا ليس بشيء؛ لأنَّ القليلَ من هَجْوِ النبيِّ ﷺ وكثيرَه سواءٌ في أنَّه كفرٌ ومذموم، وكذلك هَجْوُ غيرِ النبيِّ ﷺ من المسلمين مُحرَّمٌ قليلُه وكثيرُه، وحينئذٍ لا يكون لتخصيص الذَّمِّ بالكثيرِ معنًى[١].

الرابعة: قال الشافعي: الشِّعرُ نوعٌ من الكلام، حَسَنُه كحسَنِ الكلام، وقبيحُه كقبيحِ الكلام، يعني أنَّ الشِّعرَ ليس يُكرَهُ لذاتِه، وإنَّما يُكرَهُ لمُضمَّناتِه، وقد كان عند العرب عظيمَ الموقع؛ قال الأوَّلُ منهم:

وجُرحُ اللِّسانِ كجُرْحِ اليدِ[٢]

وقال النبيُّ ﷺ في الشِّعر الذي يَرُدُّ به حسَّان على المشركين: «إنَّه لأسرَعُ فيهم من رَشْقِ بالنَّبْل» أخرجه مسلم[٣]. وروى التِّرمِذيُّ[٤] وصحَّحه عن أنس[٥] أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ مكَّةَ في عُمرة القضاء وعبدُ اللهِ بنُ رَوَاحةَ يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بني الكفَّارِ عن سبيلِهِ اليومَ نَضْرِبْكُمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فقال عمر: يا ابن رَوَاحة، في حرَمِ اللهِ، وبينَ يدَيْ رسول الله ﷺ؟! فقال رسول الله ﷺ: «خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرَعُ فيهم من نَضْحِ النَّبْل»[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ لم يختلفِ القُرَّاءُ في رفع «وَالشُّعَرَاءُ» فيما علمتُ. ويجوز النصب على إضمار فعلٍ يُفسِّره «يَتَّبِعُهُمُ»[٧]، وبه قرأ

(١) المفهم ٥/ ٥٣٠.

(٢) عجز لبيت، صدره: ولو عن نثا غيره جاءني. قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٨٥. والنَّثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن وسيئ. اللسان (نثا).

(٣) في صحيحه (٢٤٩٠).

(٤) في سننه (٢٨٤٧).

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس.

(٦) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

عيسى بن عمر؛ قال أبو عبيد: كان الغالبَ عليه حبُّ النصب؛ قرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨] و﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤] و﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور:١]. وقرأ نافعٌ وشيبةُ والحسن والسُّلَمِيّ: «يَتْبَعُهُمْ»[١] مُخففاً. الباقون «يَتَّبِعُهُمُ»[٢]. وقال الضَّحَّاك: تهاجى رَجُلانِ أحدُهما أنصاريٌّ والآخرُ مهاجريٌّ على عهد رسول الله ﷺ، مع كلِّ واحدٍ غُواةُ قومِه وهم السفهاء، فنزلت. وقاله ابن عباس[٣]. وعنه: هم الرُّواةُ للشِّعر[٤]. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة أنَّهم هم الكفار يَتْبعُهم ضُلَّالُ الجِنِّ والإنس. وقد ذكرناه. وروى غُضَيْف عن النبيِّ ﷺ: «من أحدثَ هجاءً في الإسلام فاقطعوا لسانه»[٥]. وعن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا افتتحَ مكةَ رنَّ إبليسُ رنَّةً وجمع إليه ذُرِّيَته، فقال: «ايئسوا أن تُريدوا أمةَ محمدٍ على الشِّركِ بعدَ يومِكم هذا، ولكِنْ أفْشوا فيهما ـ يعني مكة والمدينة ـ الشِّعْرَ[٦]».

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كلِّ لغوٍ يخوضون[٧]، ولا يتَّبعون سَنَنَ الحقِّ؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ الحقَّ وَعلِمَ أنَّه يُكتَبُ عليه ما يقولُه تَثَبَّتَ، ولم يكن هائماً يذهبُ على وجهه لا يُبالي ما قال[٨]. نزلت في عبد الله ابن الزِّبَعْرى ومُسافِعِ بن عبد مناف وأميَّة بن أبي الصلت[٩].

---

(١) الشاذة ص١٠٨، والكشاف ٣/ ١٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦. وقراءة نافع في السبعة ص٤٧٤، والتيسير ص١١٥.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٦٧٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٣.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨/ (٦٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٢٣: فيه إسحاق بن أبي فروة، وهو متروك.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٣١٨)، وفيه: «النَّوح» بدل «الشِّعر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٣: رجاله موثقون.

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٦٧٦ عن ابن عباس ﷺ. ونقله الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٠ عن قطرب.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٦.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون، أي: يدلُّون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عَزَّةَ الجُمَحيِّ حيث قال:

ألَا أبلِغا عنِّي النبيَّ محمداً بأنَّكَ حَقٌّ والمليكُ حَميدُ
ولَكِنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ تَأوَّهَ منِّي أعظُمٌ وجُلودُ[١]

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم[٢] ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ وإنما يكون الانتصار بالحقِّ، وبما حدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، فإن تجاوزَ ذلكَ فقدِ انتصرَ بالباطل[٣].

وقال أبو الحسن البرَّاد[٤] لمَّا نزلَتْ: «والشُّعراءُ»: جاءَ حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا نبيَّ الله، أنزلَ اللهُ تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلمُ أنَّا شُعراءُ؟ فقال: «اقرؤوا ما بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ـ الآية ـ أنتم ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ أنتم»[٥] أي: بالردِّ على المشركين.

قال النبيُّ ﷺ: «انْتَصِروا ولا تقولوا إلَّا حقًّا، ولا تذكروا الآباءَ والأُمَّهات» فقال حسان لأبي سفيان:

هجوتَ محمداً فأجَبْتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ
وإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضي لعِرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتشتُمُهُ ولستَ له بِكُفءٍ فشَرُّكما لخيرِكما الفِداءُ

---

(١) البيتان في طبقات فحول الشعراء ٢١/ ٢٥٣-٢٥٤ ، وجمهرة الأمثال ٢/ ٣٨٧ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٧ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

(٤) واسمه سالم مولى تميم الداري كما وقعت تسميته في رواية الطبري، وقد ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٥٦ . وتحرف في النسخ إلى: المبرد.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥١٨ ، والطبري ١٧/ ٦٨٢ .

لِسَانِي صَارِمٌ لا عَيبَ فِيهِ وبَحرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ[١]

وقال كعب: يا رسول الله، إنَّ الله قد أنزل في الشعر ما قَدْ علمتَ، فكيف ترى فيه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ يُجاهِدُ بنفْسِه وسيفِهِ ولسانِهِ، والذي نفسي بيدِهِ لَكأنَّ ما ترمونَهم به نَضْحُ النَّبْل»[٢].

وقال كعب:

جاءت سَخِينةُ كي تُغالِبَ ربَّها وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ

فقال النبيُّ ﷺ: «لقد مدحَكَ اللهُ يا كعبُ في قولِكَ هذا»[٣].

وروى الضَّحَّاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾: منسوخٌ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤]. قال المَهْدَويُّ: والصحيح[٥] عن ابن عباس أنَّه استثناء.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ في هذا تهديدٌ لمنِ انتصرَ بظلم[٦]. قال شُرَيح[٧]: سيعلَمُ الظالمون كيفَ يَخْلُصون من بين يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النُّصرةَ. وقرأ ابن عباس: «أيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ» بالفاء والتاء[٨]، ومعناهما واحد. ذكره الثعلبي[٩].

---

(١) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٧٤) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٨٩ من حديث البراء بن عازب ﷺ بنحوه. والسَّخينة: طعام حار يصنع من دقيق وسمن، أغلظُ من الحساء، وأرقُّ من العصيدة. اللسان (سخن).

(٤) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٢ . وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٧١)، وأبو داود (٥٠١٦) من طريق عكرمة، عن ابن عباس ﷺ.

(٥) في (م): وفي الصحيح.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

(٧) قوله: «قال شريح» من (م).

(٨) زاد المسير ٦/ ١٥٢ .

(٩) الشاذة ص١٠٨ . وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٥٢ عن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي =

ومعنى: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: أيَّ مصيرٍ يصيرون، وأيَّ مَرْجِعٍ يرجعون؛ لأنَّ مصيرَهم إلى النَّار، وهو أقبَحُ مصير، ومرجِعُهم إلى العقاب[1] وهو شرُّ مَرْجِع. والفرق بين المُنقلَبِ والمَرجِعِ أنَّ المُنقلبَ الانتقالُ إلى ضِدِّ ما هو فيه، والمرجعُ العَوْدُ من حالٍ هو فيها إلى حالٍ هو فيها إلى حالٍ كان عليها، فصار كلُّ مرجعٍ مُنقلَباً، وليس كلُّ مُنقلَبٍ مرجِعاً، والله أعلم، ذكره الماوردي[2]. و«أَيَّ» منصوبٌ بـ «يَنْقَلِبُونَ» وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ «سَيَعْلَمُ» لأنَّ أيًّا وسائرَ أسماءِ الاستفهامِ لا يعمَلُ فيها ما قبلَها فيما ذكَر النَّحْويُّون؛ قال النَّحَّاس: وحقيقةُ القولِ في ذلك أنَّ الاستفهام معنًى وما قبله معنًى آخر، فلو عمِلَ فيه ما قبلَه لَدخَلَ بعضُ المعاني في بعض[3].

= العالية، وأبي مجلز، وأبي عمران الجوني، وعاصم الجحدري.

(١) في (م): العقاب.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ١٩١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٩٦ .

سورة النمل

مكيةٌ كلُّها في قول الجميع، وهي ثلاثٌ وتسعون آية. وقيل: أربعٌ وتسعون آية[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مضى الكلام في الحروف المُقطَّعة في «البقرة»[2] وغيرها. و«تِلْكَ» بمعنى هذه، أي: هذه السورةُ آياتُ القرآن وآياتُ كتابٍ مبين[3]. وذَكَرَ القرآنَ بلفظ المعرفة، وقال: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بلفظ النَّكِرة، وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول: فلانٌ رجلٌ عاقل، وفلانٌ الرجلُ العاقلُ.

والكتاب: هو القرآن، فجمَعَ له بين الصِّفتين: بأنَّه قرآنٌ وأنَّه كتاب؛ لأنَّه ما يظهر بالكتابة، ويظهر بالقراءة[4]. وقد مضى اشتقاقُهما في «البقرة»[5]. وقال في سورة الحجر [1-2]: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأخرجَ الكتابَ بلفظ المعرفة والقرآنَ بلفظِ النَّكِرة؛ وذلك لأنَّ القرآنَ والكتابَ اسمانِ يصلُحُ لكلِّ واحدٍ منهما أن يُجعَلَ معرفةً، وأن يُجعَلَ صفةً.

---

(1) الكشاف ٣/ ١٣٤ .

(2) ١/ ٢٣٧-٢٤٢ .

(3) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١١٣ .

(4) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(5) ١/ ١٦١-١٦٢ و ٢٤٥ .

ووصفَه بالمبين لأنَّه بَيَّنَ فيه أمرَه ونهيَه وحلالَه وحرامَه ووعدَه ووعيدَه[١]، وقد تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ «هُدًى» في موضع نصبٍ على الحال من الكتاب، أي: تلكَ آياتُ الكتابِ هاديةً ومُبَشِّرة[٣]. ويجوزُ فيه الرفعُ على الابتداء، أي: هو هدى[٤]. وإن شئتَ على حذفِ حرف الصِّفة، أي: فيه هدى. ويجوزُ أن يكون الخبرُ «لِلْمُؤْمِنِينَ».

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾وقد مضى في أوّل «البقرة»[٥] بيانُ هذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بالبعث. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ قيل: أعمالَهم السيئةَ حتى رأوها حسنة[٦]. وقيل: زيَّنَّا لهم أعمالَهم الحسنةَ فلم يعملوها. وقال الزَّجَّاج[٧]: جعلنا جزاءَهم على كفرهم أنْ زيَّنَّا لهم ما لهم فيه. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتردَّدون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم. عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادَون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيَّرون؛ قال الراجز:

وَمَــهْــمَــهٍ أطــرافُــهُ فــي مَــهْــمَــهِ   أَعْمَى الهُدى بالحائرينَ العُمَّهِ[٨]

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو جهنم. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٩٢ .

(٢) ١١/ ٢٤١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠٧ .

(٤) يعني: في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر كما في المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٨ .

(٥) ١/ ٢٥١ - ٢٧٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٦٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٩٣ . والرجز قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص١٦٦ .

﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. «فِي الآخِرَةِ» تبيينٌ وليس بمتعلِّقٍ بالأخسرين، فإنَّ من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم، فهم أخسَرُ كلِّ خاسِرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يُلقى عليك فتلقَّاه وتعلَمُه وتأخذُه[١]. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ «لَدُنْ» بمعنى عند، إلَّا أنَّها مبنِيَّةٌ غيرُ مُعرَبة؛ لأنَّها لا تتمكَّن[٢]، وفيها لغاتٌ ذُكِرَتْ في «الكهف»[٣]. وهذه الآية بساطٌ وتمهيدٌ لِما يُريد أن يسوق من الأقاصيص[٤]، وما في ذلك من لطائفِ حكمتِه، ودقائقِ علمِه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ «إِذْ» منصوبٌ بِمُضمَرٍ وهو اذْكُرْ؛ كأنَّه قال على أثر قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾: خُذْ يا محمدُ من آثار حكمتِه وعلمِه قصةَ موسى إذ قال لأهله[٥]: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتُها من بعد. قال الحارث بن حِلِّزَة:

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٢ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ١٩٨ .

(٣) عند تفسير الآية (٦٥).

(٤) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٠ .

(٥) الكشاف ٣/ ١٣٧ .

آنَسْتُ نَبْأَةً وَأَفْزَعَها الْقُنّـ ـاصُ عصراً وقَدْ دَنا الإمساءُ[١]

﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» بتنوين «شِهابٍ». والباقون بغير تنوين على الإضافة[٢]، أي: بشعلة نار[٣]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وزعمَ الفرَّاءُ في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم: ولَدارُ الآخرة، ومسجد الجامع، وصلاة الأولى، يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماؤه. قال النحَّاس: إضافةُ الشيء إلى نفسِه مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى الإضافة في اللغة: ضمُّ شيءٍ إلى شيءٍ، فمُحالٌ أن يُضَمَّ الشيءُ إلى نفسه، وإنَّما يُضافُ الشيءُ ليتبيَّنَ به معنى الملك أو النوع، فمُحالٌ أن يتبيَّنَ أنه مالِكٌ نفسَه أو من نوعها. و«شِهابِ قبسٍ» إضافةُ النوع إلى الجنس[٤]، كما تقول: هذا ثوبُ خَزٍّ، وخاتمُ حديدٍ، وشبهه. والشهابُ: كلُّ ذي نُور، نحو: الكوكبُ والعُود الموقَدُ. والقَبسُ: اسمٌ لما يُقتَبس من جمرٍ وما أشبهه؛ فالمعنى: بشهاب من قبس. يقال: قبست[٥] قبساً؛ والاسم قبس. كما تقول: قبضت قبضاً. والاسم القبض. ومن قرأ: «بِشِهابٍ قَبَسٍ» جعله بدلاً منه[٦]. المهدوي: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسماً غير صفة، ويجوز أن يكون صفة؛ فأما كونه غير[٧] صفة فلأنهم قالوا: قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس؛ وإذا كان صفةً فالأحسن أن يكون نعتاً. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرئ

---

(١) سلف ١٥/ ١٨٩ .

(٢) السبعة ص٤٧٨ ، والتيسير ١٦٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٣٧ .

(٤) في النسخ: والجنس. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) في (د): اقتبست. وفي (ظ) و(م): أقبست. والمثبت من إعراب القرآن.

(٦) من قوله: وزعم الفراء... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ١٩٨-١٩٩ . وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٦ .

(٧) كلمة «غير» يقتضيها السياق، وهي من (م)، وليست في بقية النسخ.

بنصب قبس على البيان أو الحال لجاز[١]. النَّحَّاس[٢]: ويجوز في غير القرآن بشهابٍ قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال. «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أصل الطاء تاءٌ فأبدلَ منها هنا طاءٌ؛ لأنَّ الطاءَ مُطبَقةٌ والصادَ مُطبَقةٌ فكان الجمعُ بينهما حسناً.

ومعناه: يستدفئون من البرد[٣]. يقال: اصطلى يصطلي إذا استدفأ. قال الشاعر:

النَّارُ فاكهةُ الشِّتاءِ فمن يُرِدْ أكلَ الفواكهِ شاتياً فليصْطَلِ

الزَّجَّاج[٤]: كل أبيض ذي نُور فهو شهاب. أبو عبيدة[٥]: الشهاب النار. قال أبو النَّجم:

كأنَّما كان شهاباً واقِدا أضاءَ ضوءاً ثمَّ صارَ خامِدا

أحمد بن يحيى: أصلُ الشهاب: عُودٌ في أحدِ طَرفيه جمرةٌ والآخرُ لا نارَ فيه، وقولُ النحَّاسِ فيه حسن. والشهابُ: الشُّعاعُ المُضيء، ومنه الكوكب الذي يمدُّ ضوءَه في السماء. وقال الشاعر:

في كفِّهِ صَعْدَةٌ مُثقَّفةٌ فيها سِنانٌ كشُعلةِ القَبَسِ[٦]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: فلمَّا جاءَ موسى الذي ظنَّ أنَّه نارٌ وهي نور؛ قال[٧] وهب بن مُنبِّه: فلمَّا رأى موسى النَّارَ وقفَ قريباً منها، فرآها تخرجُ من فرع شجرةٍ خضراءَ شديدةِ الخُضْرةِ يُقال لها: العُلَّيق، لا تزدادُ النَّارُ إلَّا عِظَماً وتضَرُّماً،

(١) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: كان. وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣١.

(٢) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أحسن. والكلام الآتي في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٨٩.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٠٨.

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٢.

(٦) قائله أبو زبيد الطائي كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦١٠، ولفظه فيه:

فجالَ في كفِّه مُثقَّفةٌ تلمعُ فيها كشعلةِ القبسِ

(٧) في النسخ: قاله. والمثبت من النكت والعيون.

ولا تزدادُ الشَّجرةُ إلا خُضرةً وحُسناً، فعجب منها وأهوى إليها بضِغْثٍ في يده ليقتبِسَ منها، فمالَتْ إليه، فخافَها، فتأخَّرَ عنها، ثم لم تزَلْ تُطْمِعهُ ويطمَعُ فيها إلى أن وضَحَ أمرُها على أنَّها مأمورةٌ لا يُدرى مَنْ أمَرَها، إلى أن ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1]. وقد مضى هذا المعنى في «طه»[2]. ﴿نُودِىَ﴾ أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ قال الزَّجَّاج: «أنْ» في موضعِ نصب، أي: بأنه. قال: ويجوزُ أن تكون في موضعِ رَفْعٍ جعلها اسمَ ما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ. وحكى أبو حاتم أنَّ في قراءة أُبيٍّ وابنِ عبَّاسٍ ومجاهد: «أن بُورِكَتِ النَّارُ ومَنْ حولها»[3]. قال النحَّاس: ومِثْلُ هذا لا يوجَدُ بإسنادٍ صحيح، ولو صَحَّ لكان على التفسير، فتكونُ البركةُ راجعةً إلى النَّارِ ومَنْ حولَها الملائكة وموسى. وحكى الكسائيُّ عن العرب: باركَكَ اللهُ، وبارك فيك[4]. الثعلبي: العربُ تقول: باركَكَ الله، وبارَكَ فيك، وبارَكَ عليك، وبارَكَ لكَ، أربع لغات[5]. قال الشاعر:

فَبُورِكْتَ مولوداً وبُورِكْتَ ناشِئاً ... وبُورِكْتَ عند الشَّيْبِ إذْ أنتَ أشْيَبُ[6]

الطبري: قال: «بُورِكَ مَنْ في النَّارِ» ولم يقُلْ: بُورِكَ في مَنْ في النار[7]، على لغةِ من يقول: باركَكَ الله[8]. ويُقال: بارَكَه اللهُ، وبارَكَ له، وبارَكَ عليه، وبارَكَ فيه

---

(١) من قوله: والشهاب الشعاع... إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ١٩٤-١٩٥ .

(٢) ١٤/ ١٨-١٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ عن أُبيٍّ وحده، وهي قراءة شاذة.

(٤) من قوله: أن بورك... إلى هذا الموضع من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٩٩ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٠٩.

(٥) وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٦ ثلاث لغات، يعني: لم يذكر الأخيرة.

(٦) قائله الكميت، وهو في ديوانه ٢/ ١٨٧ (طبعة عالم الكتب).

(٧) في النسخ: بورك على النار. والمثبت من تفسير الطبري.

(٨) تفسير الطبري ١٨/ ١٢ .

بمعنًى، أي: بُورِكَ على مَنْ في النَّار وهو موسى، أو على مَنْ في قُرْبِ النَّار، لا أنَّه كان في وسطها ـ وقال السُّدِّي: كان في النار ملائكة ـ فالتبريكُ عائدٌ إلى موسى والملائكة، أي: بُورِكَ فيكَ يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها. وهذا تحيةٌ من الله تعالى لموسى وَتكْرِمَةٌ له، كما حيًّا إبراهيمَ على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[1] [هود: ٧٣]. وقولٌ ثالثٌ قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جُبَير: قُدِّس مَنْ في النار، وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسَه تقدَّس وتعالى[2]. قال ابن عباس ومحمد بن كعب: النَّارُ نورُ الله عزَّ وجلَّ[3]، نادى الله موسى وهو في النور[4]، وتأويل هذا: أنَّ موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنَّه ناراً[5]؛ وهذا لأنَّ الله تعالى ظهرَ لموسى بآياتِه وكلامِه من النَّار لا أنَّه يتحيَّزُ في جهة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. لا أنَّه يتحيَّزُ فيهما، ولكن يظهر في كلِّ فعلٍ فيعلَمُ به وجودَ الفاعل. وقيل على هذا: أي: بُورِكَ مَنْ في النار سلطانُه وقدرتُه[6]. وقيل: أي: بُورِكَ ما في النَّارِ من أمرِ الله تعالى الذي جعلَه علامةً.

قلتُ: ومما يدلُّ على صِحَّة قولِ ابن عباس ما خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه»، وابن ماجه في «سننه» واللفظ له عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفعُه، حجابُه النُّور، لو كشفَها لأحرقَتْ سُبحاتُ وجهِه كلَّ شيءٍ أدركَهُ بصَرُه» ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٦٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٦ بنحوه. وقول السدي في النكت والعيون ٤/ ١٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٠٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٢٦) و(١٦١٢٧) عن ابن عباس، و(١٦١٣٤) عن محمد بن كعب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦١٣١) عن سعيد بن جبير.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٦٩.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٩٩.

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظُ مسلم عن أبي موسى قال: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ بخمسِ كلمات، فقال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القِسْطَ ويرفعُه، يُرفَعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ عملِ النَّهار، وعملُ النهار قبلَ عملِ الليل، حجابُه النور ـ وفي رواية أبي بكر[1]: النار ـ لو كشفَه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه مِنْ خَلْقِه»[2] قال أبو عبيد[3]: يقال: السُّبُحات إنَّها جلالُ وَجْهِهِ، ومنها قيل: «سُبحانَ اللهِ» إنَّما هو تعظيمٌ له وتنزيه. وقوله: «لو كشفَها» يعني: لو رفعَ الحجابَ عن أعينهم ولم يُثبِّتْهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها[4].

قال ابن جُرَيج: النارُ حِجابٌ من الحُجُب وهي سبعة حُجُب: حِجابُ العِزَّة، وحِجابُ المُلْك، وحِجابُ السلطان، وحِجاب النَّار، وحِجابُ النُّور، وحِجابُ الغمام، وحِجابُ الماء. وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب، واللهُ لا يَحجُبه شيء[5]، فكانتِ النارُ نوراً، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأنَّ موسى حسِبَه ناراً، والعربُ تضَعُ أحدَهما موضِعَ الآخر.

وقال سعيد بن جُبَير: كانتِ النَّارُ بعينِها، فأسمعَه تعالى كلامَه من ناحيتِها، وأظهرَ له ربوبيتَه من جهتِها. وهو كما رُوِيَ أنَّه مكتوبٌ في التوراة: «جاء اللهُ من سيناء، وأشرفَ من ساعير، واستعلى من جبال فاران». فمجيئه من سيناء بِعثةُ موسى منها، وإشرافُه من ساعير بِعثةُ المسيحِ منها، واستعلاؤه من فاران بِعثةُ محمدٍ ﷺ، وفاران مكة[6]. وسيأتي في «القصص» بإسماعه سبحانَه كلامَه من الشجرة زيادةُ بيانٍ

---

(١) يعني ابن أبي شيبة، وهي رواية عند مسلم.

(٢) صحيح مسلم (١٧٩): (٢٩٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٦)، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٩١) و(٣٩٢). وأخرجه أحمد (١٩٦٣٢) بلفظ مسلم، و(١٩٥٨٧) بلفظ ابن ماجه.

(٣) في غريب الحديث ٣/ ١٧٣.

(٤) إكمال المعلم ١/ ٥٣٧ بنحوه.

(٥) واضح في النص أعلاه إثبات الحجاب لله، وأنه النور أو النار وقد تكلم ابن أبي زمنين في هذه المسألة في كتابه: أصول السنة ص ١٠٦. فليراجع.

إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيهاً وتقديساً للهِ ربِّ العالمين. وقد تقدَّم في غير موضع، والمعنى: أي: ويقول مَنْ حولها: «وسُبْحانَ اللهِ» فحذف. وقيل: إنَّ موسى عليه السلام قاله حين فرغَ من سماع النداء؛ استعانةً بالله تعالى وتنزيهاً له. قاله السُّدِّي. وقيل: هو من قول الله تعالى. ومعناه: وبُورِكَ فيمَنْ سبَّحَ اللهَ تعالى ربَّ العالمين. حكاه ابن شجرة[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الهاء عمادٌ وليست بكنايةٍ في قول الكوفيين[2]. والصحيح أنَّها كنايةٌ عن الأمرِ والشأن[3] «أنا اللهُ العزيزُ» الغالبُ الذي ليس كمثله شيء «الحَكِيمُ» في أمرِه وفِعْلِهِ[4]. وقيل: قال موسى: يا ربِّ، مَنِ الذي نادى؟ فقال له: «إِنَّهُ» أي: إنِّي أنا المُنادي لك، أَنا اللهُ[5].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال وهب بن مُنبِّه: ظَنَّ موسى أنَّ الله أمرَه أنْ يرفُضَها فرفَضَها[6]. وقيل: إنَّما قال له ذلك؛ ليعلم موسى أنَّ المُكَلِّمَ له هو الله، وأنَّ موسى رسوله؛ وكلُّ نبيٍّ لابُدَّ له من آيةٍ في نفسه يعلم بها نبوَّتَه.

وفي الآية حذف: أي: وألْقِ عصاكَ، فألقاها من يدِه فصارت حَيَّةً[7] تهتز كأنَّها جانٌّ: وهي الحيَّةُ الخفيفةُ الصغيرةُ الجسم[8]. وقال الكلبي: لا صغيرةً ولا كبيرة[9].

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٩٥ .

(٢) وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٨٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ . ونقل الطبري ١٨/ ١٤ عن بعض نحويِّي الكوفة أنهم يسمُّونها الهاء المجهولة.

(٤) مجمع البيان ١٩/ ١٩٩ بنحوه .

(٥) زاد المسير ٦/ ١٥٦ عن السدي .

(٦) النكت والعيون ٤/ ١٩٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٥٦ .

(٨) تفسير الرازي ٢٤/ ١٨٤ .

(٩) وقاله الفراء في معاني القراء ٢/ ١٨٧ .

وقيل: إنَّها قُلِبَتْ له أوّلاً حيَّةً صغيرةً، فلمَّا أنَسَ منها قُلِبَتْ حيَّةً كبيرة[١]. وقيل: انقلبت مرَّةً حيَّةً صغيرة، ومرَّةً حيَّةً تسعى وهي الأنثى، ومرَّةً ثعباناً وهو الذَّكرُ الكبيرُ من الحيَّات. وقيل: المعنى: انقلبَتْ ثعباناً تهتزُّ كأنَّها جانٌّ، لها عِظَمُ الثُّعبان وخِفَّةُ الجانِّ واهتزازُه وهي حيَّةٌ تسعى[٢]. وجمع الجانِّ جِنَّان[٣]؛ ومنه الحديث: نهى عن قتل الجِنَّانِ التي في البيوت[٤]. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفاً على عادة البشر ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجِعْ. قاله مجاهد[٥]. وقال قتادة: لم يلتفِتْ[٦]. ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي: من الحية وضررها. ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وتمَّ الكلامُ ثم استثنى استثناءً منقطعاً فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾. وقيل: إنه استثناءٌ من محذوف، والمعنى: إنِّي لا يخافُ لديَّ المرسلون، وإنَّما يخاف غيرُهم مِمَّن ظَلم ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنَّه لا يخاف. قاله الفرَّاء.

قال النَّحَّاس: استثناءٌ من محذوفٍ مُحال؛ لأنَّه استثناءٌ من شيءٍ لم يُذكَرْ، ولو جازَ هذا لجازَ: إنِّي لأَضرِبُ القومَ إلَّا زيداً، بمعنى: إنِّي لا أضرِبُ القومَ، وإنَّما أضرِبُ غيرَهم إلَّا زيداً، وهذا ضِدُّ البيان، والمجيءُ بما لا يُعرَفُ معناه. وزعمَ الفرَّاء أيضاً أنَّ بعضَ النَّحْويِّين يجعل إلَّا بمعنى الواو، أي: ولا مَنْ ظلم؛ قال:

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُه أخوهُ ... لَعَمْرُ أبيكَ إلَّا الْفَرْقَدانِ[٧]

قال النَّحَّاس: وكَوْنُ «إلَّا» بمعنى الواو لا وجهَ له، ولا يجوز في شيءٍ من الكلام، ومعنى «إلَّا» خلافُ الواو؛ لأنَّكَ إذا قلتَ: جاءني إخوتُكَ إلَّا زيداً ممَّا دخلَ

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٦ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٠ .

(٣) الصحاح (جنن).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٥٤٧)، والبخاري (٣٣١٢)، ومسلم (٢٢٣٣) من حديث أبي لبابة ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٥ ، وهو في تفسيره ٢/ ٤٦٩ .

(٦) أخرجه عبد الرازق في تفسيره ٢/ ٧٩ ، والطبري ١٨/ ١٥ .

(٧) سلف ١١/ ٥٤ .

فيه الإخوةُ، فلا نِسبةَ بينهما ولا تقارُبَ[١]. وفي الآية قولٌ آخر: وهو أن يكون الاستثناءُ متصلاً، والمعنى: إلَّا مَنْ ظلمَ من المرسلين بإتيان الصغائرِ التي لا يَسلَمُ منها أحد، سوى ما رُويَ عن يحيى بن زكريا عليهما السلام، وما ذكره الله تعالى في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ذكره المَهدَويُّ واختاره النحَّاس، وقال: عَلِمَ اللهُ من عصى منهم يُسِرُّ الخيفةَ[٢]، فاستثناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنه يخافُ وإنْ كنتَ قد غفرتَ له[٣]. الضَّحَّاك: يعني آدمَ وداودَ عليهما السلام. الزَّمخشري[٤]: كالذي فَرَطَ من آدمَ ويونسَ وداودَ وسليمانَ وإخوةِ يوسف، ومن موسى عليه السلام بِوَكزِه القِبطي.

فإن قال قائلٌ: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيلُ العلماءِ بالله عزَّ وجلَّ أن يكونوا خائفين من معاصيهم وَجِلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيءٌ لم يأتوا به، فهم يخافون من المُطالبةِ به[٥]. وقال الحسن وابن جُريج: قال الله لموسى: إني أَخَفْتُكَ لقتلِكَ النفس. قال الحسن: وكانتِ الأنبياءُ تُذنِبُ فتُعاقَبُ[٦]. قال الثعلبي والقشيري والماوردي[٧] وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح، أي: إلَّا مَنْ ظلمَ نفسَه من النبيِّين والمرسلين فيما فعَلَ من صغيرةٍ قبلَ النبوة. وكان موسى خافَ من قتل القِبطيِّ وتابَ منه. وقد قيل: إنَّهم

---

(١) من قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾... إلى هذا الموضع دون ذكر البيت من إعراب القرآن ٣/ ١٩٩-٢٠٠. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٧.

(٢) قوله: «يُسِرُّ الخيفة» من إعراب القرآن وهو ليس في النسخ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٤) في الكشاف ٣/ ١٣٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٠.

(٦) هذا بتمامه من قول الحسن وحده كما أخرجه الطبري ١٨/ ١٦، أما قول ابن جريج فلفظه: لا يُخيف الله الأنبياء إلا بذنبٍ يصيبُه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ١٩٧ بنحو ما سيرد.

بعد النبوة معصومونَ من الصغائر والكبائر. وقد مضى هذا في «البقرة»[١].

قلتُ: والأوّلُ أصَحُّ لِتنصُّلِهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة، فإذا أحدثَ المُقرِّبُ حدَثاً فهو وإنْ غُفِرَ له ذلك الحدَثُ فأثرُ ذلك الحدثِ باقٍ، وما دام الأثرُ والتُّهمَةُ قائمةً فالخوف كائنٌ، لا خَوْفَ العقوبةِ ولكِنْ خَوْفَ العَظِمةِ، والمُتَّهمُ عند السلطان يجِدُ لِلتُّهمَةِ حزازةً تؤدِّيه إلى أن يُكَدِّر عليه صفاءُ الثقة. وموسى عليه السلام قد كان منه الحدَثُ في ذلك الفِرعوني، ثم استغفر وأقرَّ بالظلم على نفسه، ثم غفَرَ له، ثم قال بعد المغفرة: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧] ثم ابتُلِيَ من الغدِ بالفرعونيِّ الآخَرِ وأراد أن يبطِشَ به، فصار حدَثاً آخر بهذه الإرادة. وإنَّما ابتُلِيَ من الغدِ؛ لقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وتلك كلمةُ اقتدارٍ من قولهِ: لن أفعل، فعُوقِبَ بالإرادة حينَ أرادَ أن يبطِشَ ولم يفعل، فسُلِّطَ عليه الإسرائيليُّ حتى أفشى سرَّه؛ لأنَّ الإسرائيليَّ لمَّا رآه تشمَّرَ للبطش ظنَّ أنه يُريدُه، فأفشى عليه ف ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩] فهربَ الفِرعونيُّ وأخبر فرعونَ بما أفشى الإسرائيليُّ على موسى، وكان القتيلُ بالأمس مكتوماً أمْرُه لا يُدْرَى مَنْ قتَلَه، فلمَّا عَلِمَ فرعونُ بذلك، وجَّه في طلب موسى يقتُلَه، واشتدَّ الطَّلَبُ، وأخذوا مَجامِعَ الطُّرُق؛ جاءَ رجلٌ يسعى ف ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآية [القصص:٢٠]، فخرج كما أخبر الله. فَخوفُ موسى إنَّما كان من أجل هذا الحدَثِ، فهو وإن قَرَّبه ربُّه وأكرَمَه واصطفاه بالكلام فالتُّهمَةُ الباقيةُ ولَّتْ به ولم يُعقِّبْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ تقدَّم في «طه»[٢] القولُ فيه. ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ قال النَّحّاس[٣]: أحسَنُ ما قيل فيه أنَّ المعنى: هذه الآيةُ داخلةٌ

---

(١) ١/٤٥٨ - ٤٦٠ .

(٢) ١٤/٤٩ - ٥٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/٢٠١ .

في تسع آيات. المهدَويُّ: المعنى: «أَلْقِ عَصاكَ» «وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ»، فهما آيتانِ من تسع آيات[١]. وقال القُشَيريُّ: معناه: كما تقول: خرجتُ في عشرة نَفَرٍ وأنتَ أحَدُهم. أي: خرجتُ عاشِرَ عشرة.

ف «في» بمعنى «من» لِقُرْبها منها، كما تقول: خُذْ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي: منها. وقال الأصمعيُّ في قول امرئ القيس:

وهل يَنْعَمَنْ مَنْ كان آخِرُ عهدِهِ ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ أحوالِ[٢]

في بمعنى من. وقيل: في بمعنى مع[٣]، فالآيات عشرةٌ منها اليد، والتسع: الفَلْقُ والعصا والجرادُ والقُمَّلُ والطُّوفانُ والدَّمُ والضفادعُ والسِّنينَ والطَّمْسُ. وقد تقدَّم بيانُ جميعِه[٤]. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء: في الكلام إضمارٌ لدِلالةِ الكلامِ عليه، أي: إنك مبعوثٌ أو مُرسلٌ إلى فرعونَ وقومه[٥]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحةً بيِّنة[٦]. قال الأخفش[٧]: ويجوزُ مَبْصَرة وهو مصدر، كما يُقال: الولدُ مَجْبَنة. ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ جَرَوا على عادتهم في التكذيب؛ فلهذا قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: تيقَّنوا أنَّها من عند الله وأنَّها ليست سحراً، ولكنَّهم كفروا بها وتكبَّروا أن يؤمنوا بموسى[٨]. وهذا يدلُّ على أنهم كانوا مُعانِدين. و«ظُلْماً» و«عُلُوًّا» منصوبان على نعتِ

(١) وقاله النحاس في معاني القرآن ٥/١١٨ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٧ ، وفيه: وهل يَعِمَنْ من كان أحدثَ عهدِهِ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/١١٨ .

(٤) عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الإسراء .

(٥) معاني القرآن للفراء ٤/٢٨٨ بنحوه .

(٦) تفسير البغوي ٣/٤٠٨ ، وزاد المسير ٦/١٥٨ .

(٧) فيما نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/٢٠١ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٤/١١١ بنحوه .

مصدرٍ محذوف، أي: وجَحدوا بها جُحوداً ظلماً وعُلُوًّا. والباء زائدة، أي: وجحدوها. قاله أبو عبيدة(١). ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخِرُ أمرِ الكافرين الطاغين، انظر ذلك بِعَينِ قلبِكَ وتدَبَّرْ فيه. الخطابُ له والمُرادُ غيرُه(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ أي فهماً. قاله قتادة. وقيل: علماً بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقيل: صنعة الكيمياء. وهو شاذ(٣). وإنَّما الذي آتاهما اللهُ النبوَّةُ والخلافةُ في الأرض والزَّبورُ. ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الآية دليلٌ على شرف العلم وإنافةِ مَحلِّه وتَقدُّمِ حَملتهِ وأهلهِ، وأنَّ نعمةَ العلم من أجَلِّ النِّعَم وأجْزَلِ القِسَم، وأنَّ مَنْ أُوتِيَه فقد أُوتيَ فضلاً على كثيرٍ من عباد الله المؤمنين؛ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١]. وقد تقدَّم هذا في غيرِ موضع.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ قال الكلبي: كان لداودَ ﷺ تسعةَ عشرَ ولداً، فوَرِثَ سليمانُ من بينهم نُبوَّتَه ومُلْكَه، ولو كان وراثةَ مال لَكانَ جميعُ أولادِهِ فيه سواء(٤). وقاله ابنُ العربي(٥)؛ قال: فلو كانت وراثةَ مالٍ لانقسمَتْ على العدد، فَخصَّ اللهُ سليمانَ بما كان لداودَ

---

(١) فيما نقله عنه الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٤ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٩٧ - ١٩٨. وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٧٩).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٩٨.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٦.

من الحكمة والنبوَّة، وزادَه من فضله ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. قال ابن عطية[١]: داودُ من بني إسرائيل، وكان ملِكاً، وورِثَ سليمانُ مُلكَه ومنزِلَتَه من النبوَّة، بمعنى: صار إليه ذلكَ بعد موتِ أبيه، فسُمِّي ميراثاً تجوُّزاً، وهذا نحوُ قوله: «العلماءُ ورَثَةُ الأنبياء»[٢]. ويَحتمِلُ قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشَرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»[٣] أنْ يُريدَ أنَّ ذلِكَ مِنْ فِعْلِ الأنبياءِ وسيرتِهم، وإن كان فيهم مَنْ وُرِثَ مالُه كزكرياء على أشهرِ الأقوال فيه، وهذا كما تقول: إنَّا معشرَ المسلمين إنَّما شغَلَتْنا العبادةُ، والمُرادُ أنَّ ذلِكَ فِعْلُ الأكثر. ومنه ما حكى سيبويه: إنَّا معشرَ العربِ أقرى النَّاسِ لِلضَّيف.

قلتُ: قد تقدَّم هذا المعنى في «مريم»[٤] وأنَّ الصحيحَ القولُ الأوَّلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّا معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ» فهو عامٌّ، ولا يخرجُ منه شيءٌ إلَّا بدليل.

قال مقاتل: كان سليمانُ أعظمَ مُلكاً من داودَ وأقضى منه، وكان داودُ أشدَّ تعبُّداً من سليمان[٥]. قال غيرُه: ولم يبلُغْ أحدٌ من الأنبياء ما بلَغَ ملكُه؛ فإنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى سخَّر له الإنسَ والجِنَّ والطيرَ والوحشَ، وآتاه ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين، ووَرِثَ أباه في المُلْكِ والنبوَّة، وقام بعدَه بشريعتِه، وكلُّ نبيٍّ جاء بعد موسى مِمَّنْ بُعِثَ أو لم يُبعَثْ فإنَّما كان بشريعة موسى، إلى أن بُعِثَ المسيحُ عليه السلام فنسخَها. وبينَه وبينَ الهجرة نحوٌ من ألفٍ وثمانِ مئة سنة. واليهودُ تقول: ألفٌ وثلاثُ مئةٍ واثنتانِ وسِتُّون سنة. وقيل: إنَّ بين موتِه وبينَ مولدِ النبيِّ ﷺ نحواً من ألفٍ وسبعِ مئة، واليهودُ تُنقِصُ منها ثلاثَ مئةِ سنة، وعاش نَيِّفاً وخمسين سنة.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٢) سلف ٥/ ٦٤.

(٣) سلف ١١/ ٧٨.

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١، وعرائس المجالس ص٢٩٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: قال سليمانُ لبني إسرائيل على جهةِ الشُّكرِ لنِعَمِ الله: «عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» أي: تفضَّلَ اللهُ علينا على ما ورَّثنا من داود من العلمِ والنبوَّةِ والخلافةِ في الأرض في أنْ فهَّمَنا من أصواتِ الطيرِ المعاني التي في نفوسنا.

قال مقاتلٌ في الآية: كان سليمانُ جالساً ذاتَ يومٍ إذْ مرَّ به طائرٌ يطوف، فقال لجُلسائه: أتدرونَ ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ والنبيُّ لبني إسرائيل، أعطاكَ اللهُ الكرامةَ، وأظهركَ على عدوِّكَ، إني منطلِقٌ إلى أفراخي ثم أمُرُّ بكَ الثانية ـ وإنه سيرجعُ إلينا الثانية ـ ثمَّ رجعَ فقال: إنَّه يقول: السلامُ عليكَ أيُّها الملِكُ المُسَلَّطُ، إنْ شئتَ أن تأذَنَ لي كيما أكتسِبَ على أفراخي حتى يشِبُّوا، ثم آتيكَ فافعَلْ بي ما شئتَ. فأخبرَهم سليمانُ بما قال، وأذِنَ له فانطلَقَ. وقال فَرْقَد السَّبَخِيُّ: مرَّ سليمانُ على بلبلٍ فوقَ شجرةٍ يُحرِّكُ رأسَه ويُميلُ ذَنَبَه، فقال لأصحابه: أتدرونَ ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا نبيَّ الله. قال: إنَّه يقول: أكلتُ نِصْفَ تمرةٍ فعلى الدنيا العَفَاء[1].

ومرَّ بهُدهدٍ فوق شجرة وقد نصبَ له صبيٌّ فخًّا، فقال له سليمان: احذَرْ يا هُدْهُدُ. فقال: يا نبيَّ الله، هذا صبيٌّ لا عقْلَ له فأنا أسخَرُ به. ثم رجعَ سليمانُ فوجدَه قد وقَعَ في حِبالةِ الصبيِّ وهو في يده، فقال: هُدْهُدُ ما هذا؟ قال: ما رأيتُها حتى وقعتُ فيها يا نبيَّ الله. قال: ويحك! فأنتَ ترى الماء تحتَ الأرض أما ترى الفَخَّ؟! قال: يا نبيَّ الله، إذا نزلَ القضاءُ عميَ البصرُ[2].

وقال كعب: صاحَ وَرَشان[3] عند سليمانَ بنِ داود، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لِدُوا للموتِ وابْنوا للخراب. وصاحَتْ فاختة[4]، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: ليتَ هذا الخَلْقَ لم يُخلَقوا، وليتَهم إذْ خُلِقوا عَلِموا

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧ ، وتفسير البغوي ٣/٤٠٩ .

(٢) سيرد نحوه عند تفسير الآية (٢٠).

(٣) الوَرَشان: طائر يشبه الحمامة. اللسان (ورش).

(٤) جمعها فواخت: وهي ضربٌ من الحمام المُطوَّق. اللسان (فخت).

لماذا خُلِقوا. وصاح عنده طاوس، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: كما تَدينُ تُدان. وصاح عنده هُدهد، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنَّه يقول: من لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ. وصاحَ صُرَدٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفِروا اللهَ يا مذنبين، فمِنْ ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله ـ وقيل: إن الصُّرَدَ هو الذي دلَّ آدمَ على مكان البيت، وهو أوَّلُ من صام؛ ولذلك يُقال للصُّردِ: الصوَّام. رُويَ عن أبي هريرة ـ وصاحت عنده طِيطَوى[1]، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: كلُّ حيٍّ ميِّتٌ، وكلُّ جديدٍ بالٍ. وصاحت خُطَّافةٌ عنده، فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: قدِّموا خيراً تجدوه. فمِنْ ثمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها ـ وقيل: إنَّ آدمَ خرجَ من الجنة فاشتكى إلى اللهِ الوَحشة، فآنَسه اللهُ تعالى بالخُطَّافِ وألزمَها البيوت، فهي لا تُفارقُ بني آدمَ أُنْساً لهم. قال: ومعها أربعُ آياتٍ من كتاب اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ [الحشر: ٢١] إلى آخرِها وتمدُّ صوتَها بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ـ وهدرَتْ حمامةٌ عند سليمانَ فقال: أتدرونَ ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّها تقول: سُبحانَ ربيَ الأعلى عدد ما في سماواتِه وأرضِه. وصاح قُمْريٌّ عند سليمان، فقال: أتدرونَ ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنَّه يقول: سُبحان ربيَ العظيم المهيمن[2]. وقال كعب: وحدَّثَهم سليمانُ فقال: الغرابُ يقول: اللهمَّ الْعَنِ العَشَّار. والحِدأةُ تقول: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ. والقَطاةُ تقول: مَنْ سكتَ سَلِمَ. والببغاءُ تقول: ويلٌ لمن الدُّنيا هَمُّه. والضفدع يقول: سُبحانَ ربِّيَ القُدُّوس. والبازي يقول: سُبحانَ ربِّي وبحمدِه. والسرطان[3] يقول: سُبحانَ المذكورِ بكلِّ لسانٍ في كلِّ مكان[4].

وقال مكحول: صاحَ دُرَّاجٌ[5] عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا.

---

(١) الطيطوى: طائر من طيور الماء لا يفارق الآجام وكثرة الماء. معجم متن اللغة ٣/ ٦٤٨ .

(٢) في عرائس المجالس: «سبحان الحي الذي لا يموت أبداً» وفي تفسير البغوي: «سبحان ربي الأعلى».

(٣) في عرائس المجالس: والعصفور. وفي تفسير البغوي: والضفدعة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ . وما بين اعتراض ليس فيهما.

(٥) الدُّرَّاج: طائرٌ ظاهرُ جناحه أغبر، وباطنه أسود، وهو شبيهٌ بالحجل. معجم متن اللغة (درج).

قال: إنه يقول: الرَّحمنُ على العرشِ استوى[١]. وقال الحسن: قال النبي ﷺ: «الديك إذا صاح قال: اذكروا الله يا غافلين[٢]». وقال الحُسين[٣] بن علي بن أبي طالب: قال النبيُّ ﷺ: «النَّسرُ إذا صاحَ قال: يا ابنَ آدمَ، عِشْ ما شئتَ فآخِرُكَ الموتُ. وإذا صاحَ العُقَابُ قال: في البُعْدِ من النَّاسِ الرَّاحة. وإذا صاحَ القُنْبرُ قال: إلهي الْعَنْ مُبغِضي آلِ محمدٍ. وإذا صاحَ الخُطَّاف قرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخرها، فيقول: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ويمدُّ بها صوتَه كما يمدُّ القارئ»[٤].

قال قَتادة والشَّعبي: إنَّما هذا الأمرُ في الطير خاصَّةً؛ لقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ والنَّملةُ طائرٌ إذ قد يُوجَدُ له أجنحة. قال الشَّعبي: وكذلِكَ كانت هذه النَّملةُ ذاتَ جناحين. وقالت فرقةٌ: بل كان في جميع الحيوان، وإنَّما ذكر الطير؛ لأنَّه كان جُنداً من جند سليمان يحتاجه في التَّظليلِ عن الشمس وفي البعث في الأمور، فخُصَّ بالذِّكرِ لكثرة مداخَلتِه، ولأنَّ أمْرَ سائرِ الحيوان نادرٌ وغيرُ مُترَدِّدٍ تَرداد أمرِ الطير[٥].

وقال أبو جعفر النَّحَّاس[٦]: والمنطِقُ قد يقَعُ لِما يُفهِمُ بغير كلام، واللهُ جلَّ وعزَّ أعلَمُ بما أراد. قال ابن العربي[٧]: من قال: إنه لا يعلم إلَّا منطقَ الطير فنُقصانٌ عظيم، وقدِ اتَّفقَ الناسُ على أنَّه كان يفهمُ كلامَ مَنْ لا يتكلَّمُ ويُخلَقُ له فيه القولُ من النبات، فكان كلُّ نبتٍ يقول له: أنا شَجَرُ كذا، أنفَعُ من كذا، وأضُرُّ من كذا، فما ظنُّكَ بالحيوان؟!

---

(١) عرائس المجالس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩.

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٩٧ من طريق صالح بن بشير المري، عن الحسن ـ وهو البصري ـ مرفوعاً. إسناده منقطع، وصالح المري ضعيف. تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٩-١٩٠. وذكره الديلمي في الفردوس (٣١٢٩) موقوفاً، وقال: عن الحسن، وربما هو ابن علي.

(٣) في النسخ: الحسن. والمثبت من المصادر.

(٤) هو في عرائس ص٢٩٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٩ موقوف على الحسين ﷺ.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠١.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٩.

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾ «حُشِرَ» جُمِعَ[1]، والحَشْرُ: الجَمْعُ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. واختلفَ الناسُ في مقدارِ جُنْدِ سليمانَ عليه السلام، فيُقال: كان معسكرُه مئةَ فرسَخٍ في مئة: خمسةٌ وعشرون للجنِّ، وخمسةٌ وعشرون للإنس، وخمسةٌ وعشرون للطير، وخمسةٌ وعشرون للوحش، وكان له ألفُ بيتٍ من قواريرَ على الخشب، فيها ثلاثُ مئةِ منكوحةٍ وسبعُ مئة سُرِّيَّة[2]. ابن عطية: واختُلِفَ في مُعسكرِه ومقدارِ جُنْدِهِ اختلافاً شديداً، غيرَ أنَّ الصحيحَ أنَّ مُلْكَه كان عظيماً مِلأَ الأرض، وانقادت له المعمورةُ كلُّها. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناهُ: يُرَدُّ أوَّلُهم إلى آخرهم ويُكَفُّون. قال قتادة: كان لكلِّ صنفٍ وَزَعةٌ في رتبتهم ومواضعهم من الكرسيِّ ومن الأرض إذا مَشَوا فيها[3]. يقال: وزِعْتُه أُوزِعُه وزَعاً أي: كفَفْتُه. والوازعُ في الحرب: المُوكَلُ بالصفوف يزَعُ مَنْ تَقدَّمَ منهم[4]. روى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: لمَّا وقفَ رسولُ الله ﷺ بذي طُوى ـ تعني يوم الفتح ـ قال أبو قُحافة ـ وقد كُفَّ بصرُه يومئذٍ ـ لابنتِه: اظْهَري بي على أبي قُبَيْس. قالت: فأشَرفْتُ به عليه، فقال: ما تَرَيْنَ؟ قالت: أرى سواداً مُجتمِعاً. قال: تلكَ الخَيلُ. قالت: وأرى رجلاً من السَّواد مُقبِلاً ومُدبِراً. قال: ذلِكَ الوازِعُ يمنعُها أن تنتشِرَ. وذكر تمام الخبر[5]. ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «ما رُؤِيَ الشيطانُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٠ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٧٢ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤١٠ عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٩٩ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٧-١١٨ . وأخرجه أحمد (٢٦٩٥٦).

يوماً هو فيه أصغَرَ ولا أدْحَرَ ولا أحقَرَ ولا أغْيَظَ منه في يوم عرفةَ، وما ذاكَ إلَّا لِما رأى من تَنزُّلِ الرحمةِ وتَجاوُزِ اللهِ عن الذنوبِ العِظامِ، إلَّا ما رأى يومَ بدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «أما أنَّه رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكة» خرَّجه الموطأ[1].

ومن هذا المعنى قولُ النَّابغة[2]:

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

آخر:

ولمَّا تلاقَينا جَرَتْ من جُفونِنا دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَها بالأصابعِ[3]

آخر:

ولا يَزَعُ النَّفْسَ اللَّجوجَ عن الهوى من النَّاسِ إلَّا وافِرُ العقلِ كامِلُهْ

وقيل: هو من التوزيع، بمعنى التفريق. والقوم أوزاع، أي: طوائف.

وفي القصة: إنَّ الشياطين نسجَتْ له بساطاً فرسخاً في فرسخٍ ذهباً في إبريسَم، وكان يُوضَعُ له كرسيٌّ من ذهبٍ وحولَه ثلاثةُ آلافِ كُرسيٍّ من ذهبٍ وفضَّةٍ، فيقعدُ الأنبياءُ على كراسيِّ الذَّهب، والعلماءُ على كراسيِّ الفِضَّة[4].

الثانية: في الآية دليلٌ على اتِّخاذِ الإمامِ والحُكَّام وَزَعةً يكُفُّون الناسَ ويمنعونَهم من تطاولِ بعضِهم على بعض؛ إذ لا يُمكِنُ الحكام ذلك بأنفسهم.

وقال ابن عون: سمعتُ الحسنَ يقول وهو في مجلس قضائه لمَّا رأى ما يصنعُ الناسُ قال: واللهِ ما يُصلِحُ هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ[5]. وقال الحسنُ أيضاً: لا بُدَّ

---

(١) ١/ ٤٢٢، وقد سلف ٣/ ٣٣٩.

(٢) وهو الذبياني، وقد سلف ٨/ ٣٠٨.

(٣) قائله المعلوط السعدي كما في التمهيد ١/ ١١٧. وذكر البيت الذي يليه من غير نسبة.

(٤) عرائس المجالس ص٢٩٦.

(٥) التمهيد ١/ ١١٨.

للناس من وازع، أي: من سلطانٍ يَكُفُّهم[١]. وذكرَ ابنُ القاسم قال: حدَّثنا مالكٌ أنَّ عثمانَ بن عفان كان يقول: ما يَزَعُ الإمامُ أكثرُ ممَّا يزعُ القرآن، أي: من الناس. قال ابن القاسم: قلتُ لمالك: ما يَزَعُ؟ قال: يَكُفُّ[٢]. قال القاضي أبو بكر ابن العربي[٣]: وقد جهِلَ قومٌ المُرادَ بهذا الكلام، فظنُّوا أنَّ المعنى فيه[٤] أنَّ قُدرة السلطانِ تردَعُ الناسَ أكثرَ ممَّا تردَعُهم حدودُ القرآن، وهذا جهلٌ باللهِ وحكمتِه. قال: فإنَّ اللهَ ما وضعَ الحدودَ إلَّا مصلحةً عامَّةً كافَّةً قائمةً لِقوامِ الخلق، لا زيادةَ عليها، ولا نقصانَ معها، ولا يصلُحُ سواها، ولكنَّ الظَّلَمةَ خاسوا بها، وقَصَّروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصِدوا وجهَ الله في القضاء بها، فلم يرتدِعِ الخلقُ بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامَتِ الأمور، وصلَحَ الجمهور.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه وادٍ بأرض الشام. وقال كعب: هو بالطائف. ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ قال الشَّعبي: كان للنملةِ جناحانِ فصارت من الطير؛ فلذلِكَ عَلِمَ منطِقَها، ولولا ذلك لَما عَلِمَه[٥]. وقد مضى هذا ويأتي. وقرأ سليمان التَّيمي بمكة: «نَمُلَةٌ» و«النَّمُلُ» بفتح النون وضمِّ الميم.

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩١.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ١١٨.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٨-١٤٣٩.

(٤) كلمة «فيه» من (م) ومن أحكام القرآن.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٩٩.

وعنه أيضاً ضَمُّهما جميعاً[١]. وسُمِّيتِ النَّملةُ نملةً لتنمُّلِها وهو كثرةُ حركتِها وقِلَّةِ قرارِها[٢]. قال كعب: مرَّ سليمانُ عليه السلام بوادي السَّدير من أوديةِ الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملةٌ تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس[٣]، [وكانت[٤]] مثلَ الذِّئب في العِظَم، فنادت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ الآية[٥]. الزمخشري: سمعَ سليمانُ كلامَها من ثلاثةِ أميال، وكانت تمشي وهي عرجاءُ تتكاوس. وقيل: كان اسمُها طاخية[٦].وقال السُّهيلي[٧]: ذكروا اسمَ النَّملةِ المُكلِّمةِ لسليمانَ عليه السلام، وقالوا: اسمها حرميا، ولا أدري كيف يُتَصَوَّرُ للنملة اسمُ عَلمٍ، والنمل لا يُسمِّي بعضُهم بعضاً، ولا الآدميُّون يمكنهم تسمية واحدةٍ منهم باسم عَلَم؛ لأنَّه لا يتميَّز للآدميين بعضُهم من بعض، ولا هم أيضاً واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإنَّ العلَميةَ فيما كان كذلك موجودةٌ عند العرب. فإن قلتَ: إنَّ العلميةَ موجودةٌ في الأجناس كثُعَالة وأُسَامة وجَعَارِ وقَثَامِ في الضَّبع ونحو هذا كثير، فليس اسمُ النملةِ من هذا؛ لأنَّهم زعموا أنه اسمُ عَلَمٍ لنملةٍ واحدةٍ معينةٍ من بين سائر النمل، وثُعالةُ ونحوُه لا يختَصُّ بواحدٍ من الجنس، بل كلُّ واحدٍ رأيتَه من ذلك الجنس فهو ثُعالة، وكذلك أُسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك. فإنْ صَحَّ ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملةُ الناطقةُ قد سُمِّيتْ بهذا الاسم في التوراة أو

(١) المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣، وهما قراءتان شاذتان. والقراءة الأولى ذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٨ عن طلحة بن مصرف والمعتمر بن سليمان، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن طلحة وأبي مجلز وأبي رجاء وعاصم الجحدري.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٠.

(٣) من الكَوْس: وهو المشي على رجلٍ واحدة، ومن ذوات الأربع على ثلاث قوائم. اللسان (كوس).

(٤) كلمة «وكانت» من عرائس المجالس.

(٥) عرائس المجالس ص٢٩٨-٢٩٩.

(٦) الكشاف ٣/ ١٤١. وهكذا وردت تسمية النملة في عرائس المجالس ص٢٩٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤١١ عن الضحاك.

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٦-١٢٧.

في الزَّبور أو في بعض الصُّحُف سمَّاها اللهُ تعالى بهذا الاسم، وعرَفَها به الأنبياءُ قبل سليمانَ أو بعضُهم. وخُصَّتْ بالتسمية لنطقها وإيمانِها، فهذا وجه. ومعنى قولنا: بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتةُ مؤمن.أي: مِنْ عدل سليمانَ وفضلِه وفضلِ جنوده لا يحطمون نملةً فما فوقها إلا بألَّا يشعروا. وقد قيل: إن تبسُّمَ سليمانَ سرورٌ بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكَّدَ التبُّسمَ بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسُّمُ من غيرِ ضحكٍ ولا رضا، ألا تراهم يقولون: تبسَّمَ تبسُّمَ الغضبان، وتبسَّمَ تبسُّمَ المستهزئين. وتبسُّمُ الضحكِ إنَّما هو عن سرور، ولا يُسَرُّ نبيٌّ بأمر دنيا، وإنما سُرَّ بما كان من أمر الآخرة والدِّين. وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارةٌ إلى الدِّين والعدل والرأفة. ونظيرُ قولِ النَّملةِ في جندِ سليمانَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قولُ اللهِ تعالى في جند محمدٍ ﷺ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥] التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هَدْرَ مؤمن. إلَّا أنَّ المُثني على جندِ سليمانَ هي النملة بإذن الله تعالى، والمُثني على جندِ محمدٍ ﷺ هو اللهُ عزَّ وجلَّ بنفسِه؛ لِما لجنودِ محمدٍ ﷺ من الفضل على جندِ غيرِه من الأنبياء، كما لمحمدٍ ﷺ فضلٌ على جميع النبيِّين صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وقرأ شهر بن حَوْشب: «مَسْكَنَكُمْ» بسكون السين على الإفراد. وفي مصحف أُبيٍّ: «مَسَاكِنَكُنَّ لا يَحْطِمَنْكُمْ»[1]. وقرأ سليمان التَّيمي: «مَسَاكِنَكُنَّ[2] لَا يَحْطِمَنْكُنَّ» ذكره النَّحَّاس[3]. أي: لا يكسِرُنَّكم بوَطْئِهم عليكم وهم لا يعلمون بكم[4].

قال المهدوي: وأفهمَ اللهُ تعالى النملةَ هذا لتكون معجزةً لسليمان. وقال وهب:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وقراءة شهر في الشاذة ص١٠٨، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ عن أبي بن كعب وأبي المتوكل وعاصم الجحدري.

(٢) في النسخ: مساكنكم. والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ١٢١.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٨.

أمر اللهُ تعالى الريحَ ألَّا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده. وقد قيل: إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد. قاله الكلبيّ. وقال نَوْف الشامي وشَقيق بن سَلَمة: كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم[١]. وقال بُرَيْدَة الأسلمي: كهيئة النعاج[٢]. قال محمد بن علي التِّرمذي: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قلت: وقوله «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ» يدلُّ على صحة قول الكلبي؛ إذ لو كانت لهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت بالوطء؛ والله أعلم. وقال: «ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» فجاءَ على خطاب الآدميِّين؛ لأنَّ النملَ هاهنا أُجْرِيَ مجرى الآدميِّين حين نطَقَ كما ينطِقُ الآدميُّون. قال أبو إسحاق الثعلبي: ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ سليمانَ قال لها: لِمَ حذَّرتِ النَّملَ؟ أخِفْتِ ظلمي؟ أما علِمْتِ أني نبيٌّ عدل؟ فَلِمَ قلتِ: ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾؟ فقالتِ النَّملةُ: أما سمعتَ قولي: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مع أني لم أُرِدْ حَطْمَ النفوس، وإنَّما أردتُ حَطْمَ القلوبِ خشيةَ أن يتمنَّينَّ مثلَ ما أُعطيتَ، أو يُفتتَنَ بالدنيا، ويشتغِلَنَّ بالنظر إلى مُلكِكَ عن التسبيح والذِّكر. فقال لها سليمان: عِظيني. فقالتِ النَّملة: أما علمتَ لِمَ سُمِّي أبوكَ داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحةَ فؤاده؛ هل علمتَ لِمَ سُمِّيتَ سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليمُ الناحية على ما أوتيتَه بسلامةِ صدرك، وحُقَّ[٣] لكَ أن تلحق بأبيك داود[٤]. ثم قالت: أتدري لِمَ سخَّرَ اللهُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٨ عن نوف.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦١ من غير نسبة.

(٣) في النسخ: وإن. والمثبت من عرائس المجالس.

(٤) كلمة داود من عرائس المجالس.

لكَ الريح؟ قال: لا. قالت: أخبركَ أنَّ الدُّنيا كلَّها ريح. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ مُتعجِّباً[١]. ثم مضت مُسرعةً إلى قومها، فقالت: هل عندكم من شيءٍ نُهديه إلى نبيِّ الله؟ قالوا: وما قَدْرُ ما نُهدي له؟ واللهِ ما عندنا إلَّا نَبقةٌ واحدة! قالت: حسنة، ايتوني بها. فأتَوها بها، فحملَتْها بفيها، فانطلقَتْ تجرُّها، فأمر اللهُ الرِّيحَ فحملَتْها، وأقبلت تشُقُّ الإنس والجِنَّ والعلماء والأنبياءُ على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعتْ تلك النَّبقةَ من فيها في كفِّه، وأنشأت تقول:

ألم تَرنا نُهدِي إلى اللهِ مَالَهُ ... وإن كان عنه ذا غنًى فهو قابِلُهْ

ولو كان يُهدَى للجليلِ بقَدْرِهِ ... لَقصَّرَ عنه البحرُ يوماً وساحِلُهْ

ولكنَّنا نُهدي إلى مَنْ نُحبُّهُ ... فيَرضى به عنَّا ويشكرُ فاعِلُهْ

وما ذاكَ إلا من كريمٍ فِعالُهُ ... وإلَّا فما في مُلْكِنا ما يُشاكِلُهْ

فقال لها: باركَ اللهُ فيكم. فهم بتلك الدعوة أشكرُ خلْقِ الله وأكثرُ خلْقِ الله. وقال ابن عباس: نهى النبيُّ ﷺ عن قتلِ أربعٍ من الدواب: الهدهد، والصُّرَد، والنَّملة، والنحلة. خرَّجه أبو داود[٢]، وصحَّحه أبو محمد عبد الحق[٣]. ورُويَ من حديث أبي هريرة، وقد مضى في «الأعراف»[٤]. فالنملة أثنتْ على سليمانَ وأخبرت بأحسنَ ما تقدِرُ عليه بأنهم لا يشعرون إنْ حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمدٍ منهم، فنفَتْ عنهم الجور؛ ولذلك نهى عن قتلِها، و عن قتل الهدهد؛ لأنَّه كان دليلَ سليمانَ على الماء ورسولَه إلى بِلقيس. وقال عكرمة: إنما صرف اللهُ شرَّ سليمان عن الهدهد؛ لأنه كان بارًّا بوالديه.

والصُّرَد يقال له: الصوَّام. ورُويَ عن أبي هريرة قال: أوَّلُ من صامَ الصُّرَد، ولمَّا

(١) كلام الثعلبي من أوله إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٢٩٩ ، وما بعده لم نجده فيه.

(٢) في سننه (٥٢٦٧).

(٣) في الأحكام الوسطى ٤/٢٤٩ ، والأحكام الصغرى ٢/٨٤٨ .

(٤) ٩/٣١٣ .

خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السَّكِينةُ معه والصُّرد، فكان الصُّرد دليلَه على الموضع، والسَّكِينةُ مقدارَه، فلمَّا صار إلى البقعة وقعت السَّكِينةُ على موضع البيت ونادت وقالت: ابْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلِّي[1]. وقد تقدَّم في «الأعراف»[2] سببُ النهيِ عن قتل الضفدع، وفي «النحل»[3] النهيُ عن قتل النحل. والحمد لله.

الثانية: قرأ الحسن: «لا يَحَطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً: «لا يَحِطِّمَنَّكُمْ»، وعنه أيضاً وعن أبي رجاء: «لا يُحَطِّمَنَّكُمْ»[4] والحَطْمُ: الكسر[5]. حطَمتُه حَطْماً أي: كسَرْتُه وتَحطَّم، والتَّحطيمُ: التكسير[6].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يجوز أن يكون حالاً من سليمانَ وجنودِه، والعاملُ في الحال «يَحْطِمَنَّكُمْ». أو حالاً من النَّملة، والعامل «قَالَتْ»، أي: قالت ذلكَ في حال غفلةِ الجنود، كقولك: قمتُ والناسُ غافلون. أو حالاً من النمل أيضاً، والعامل «قَالَتْ» على أنَّ المعنى: والنَّملُ لا يشعرون أنَّ سليمانَ يفهَمُ مقالَتها. وفيه بُعْدٌ، وسيأتي.

الثالثة: روى مسلمٌ من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «أنَّ نملةً قرصَتْ نبيًّا من الأنبياء فأمر بقريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحى الله تعالى إليه: أفي أنْ قرصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبِّحُ؟![7]» وفي طريقٍ آخر: «فهَلَّا نملةً واحدةً»[8]. قال

---

(١) نوادر الأصول ص١٣٢.

(٢) ٩/ ٣١٣.

(٣) ١٢/ ٣٦٥.

(٤) هذه القراءات الثلاث كلها شاذة، والأولى في المحتسب ٢/ ١٣٧، والشاذة ص١٠٨. والثانية في المحتسب ٢/ ١٣٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٢ نسبتها إلى أبي المتوكل وأبي مجلز. والقراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٨ عن الحسن وحده، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ عن الحسن وأبي رجاء.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١١، وزاد المسير ٦/ ١٦٢.

(٦) الصحاح (حطم).

(٧) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٨). وأخرجه أحمد (٩٢٢٩)، والبخاري (٣٠١٩).

(٨) صحيح مسلم (٢٢٤١): (١٤٩) و(١٥٠). وأخرجه أحمد (٨١٣٠)، والبخاري (٣٣١٩).

علماؤنا: يقال: إنَّ هذا النبيَّ هو موسى عليه السلام، وإنه قال: يا ربِّ، تُعذِّبُ أهلَ قريةٍ بمعاصيهم وفيهم الطائع. فكأنَّه أحبَّ أن يُريَهُ ذلك من عنده، فسلَّط عليه الحرَّ حتى التجأ إلى شجرةٍ مُستَرْوِحاً إلى ظِلِّها، وعندها قرية النمل، فغلبَه النوم، فلمَّا وجدَ لذَّةَ النَّومِ لدَغَتْه النَّملةُ فأضجَرتْه، فدلكهُنَّ بقدمِه فأهلكهُنَّ، وأحرق تلك الشجرةَ التي عندها مساكنهم، فأراه الله العبرة في ذلك آيةً: لمَّا لدَغَتْكَ نملةٌ فكيفَ أصبتَ الباقين بعقوبتها؟! يريد أن يُنبِّهه أنَّ العقوبةَ من الله تعالى تعُمُّ فتصيرُ رحمةً على المطيع وطهارةً وبركةً، وشرًّا ونِقمةً على العاصي. وعلى هذا فليس في الحديث ما يدلُّ على كراهةٍ ولا حَظْرٍ في قتل النمل؛ فإنَّ مَنْ آذاكَ حَلَّ لك دفعه عن نفسك، ولا أحدَ مِنْ خَلْقِه أعظَمُ حرمةً من المؤمن، وقد أُبيحَ لك دَفْعُه عنكَ بقتلٍ وضربٍ على المقدار، فكيف بالهوامِّ والدوابِّ التي قد سُخِّرَتْ لكَ وسُلِّطتَ عليها، فإذا آذاكَ أُبيحَ لك قَتْلُه. ورُويَ عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتُلْه. وقولُه: «ألا نملةً واحدةً» دليلٌ على أنَّ الذي يُؤذي يُؤذَى ويُقتَلُ، وكلَّما كان القتلُ لنفعٍ أو دفعِ ضررٍ فلا بأس به عند العلماء. وأطلق له نملةً ولم يَخُصَّ تلكَ النملةَ التي لدغت من غيرِها؛ لأنَّه ليس المرادُ القصاصَ؛ لأنَّه لو أرادَه لَقالَ: ألا نملتَكَ التي لدغَتْكَ؟ ولكن قال: ألا نملةً مكانَ نملةٍ؟ فعَمَّ البريءَ والجاني بذلك؛ ليعلم أنَّه أرادَ أن يُنبِّهه لمسألته ربَّه في عذاب أهل قريةٍ وفيهم المطيع والعاصي. وقد قيل: إنَّ هذا النبيَّ كانت العقوبةُ للحيوانِ بالتحريقِ جائزةٌ في شرعه؛ فلذلك إنَّما عاتبَهُ اللهُ تعالى في إحراق الكثيرِ من النَّملِ لا في أصل الإحراق. ألا ترى قولَه: «فهلَّا نملةً واحدةً» أي: هلَّا حرقْتَ نملةً واحدة. وهذا بخلافِ شرعِنا، فإنَّ النبيَّ ﷺ قد نهى عن التعذيب بالنار، وقال: «لا يُعذِّبُ بالنَّارِ إلا الله»[1]. وكذلك أيضاً كان قتلُ النملِ مُباحاً في شريعة ذلك النبيِّ؛ فإنَّ اللهَ لم يُعْتِبْه على أصلِ قتلِ النَّمل. وأمَّا شرعُنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهيُ عن ذلك. وقد كرِهَ مالكٌ قتلَ النَّملِ إلَّا أن يضُرَّ ولا يقدِرَ على دفعِه إلَّا بالقتل. وقد

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٦٨)، والبخاري (٣٠١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قيل: إنَّ هذا النبيَّ إنَّما عاتبَه اللهُ حيثُ انتقمَ لنفسِه بإهلاك جَمْعٍ آذاهُ واحدٌ [منه[١]]، وكان الأَوْلى الصبرُ والصَّفحُ، لكن وقع للنبيِّ أنَّ هذا النوعَ مُؤذٍ لبني آدم، وحرمةُ بني آدمَ أعظمُ من حُرمةِ غيرهِ من الحيوان غيرِ الناطق، فلو انفردَ له هذا النَّظرُ ولم ينضمَّ إليه التشفِّي الطبيعي[٢] لم يُعاتَب. والله أعلم. لكن لمَّا انضافَ إليه التشفِّي الذي دلَّ عليه سياقُ الحديثِ عُوتِبَ عليه.

الرابعة: قوله: «أفي أن قرصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمةً من الأممِ تُسبِّحُ» مقتضى هذا أنَّه تسبيحٌ بمقالٍ ونُطْقٍ، كما أخبر اللهُ عن النَّملِ أنَّ لها منطقاً، وفَهِمَه سليمانُ عليه السلام ـ وهذا معجزةٌ له ـ وتبسَّمَ من قولِها. وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ للنَّملِ نُطقاً وقولاً، لكن لا يسمَعُه كلُّ أحد، بل مَنْ شاء الله تعالى مِمَّن خرقَ له العادةَ من نبيٍّ أو وليٍّ. ولا يُنكَرُ[٣] هذا مِنْ حيثُ أنَّا لا نسمع ذلك؛ فإنَّه لا يلزَمُ مِنْ عَدَمِ الإدراكِ عَدَمُ المُدرَكِ في نفسه. ثم إنَّ الإنسانَ يجِدُ في نفسِه قولاً وكلاماً ولا يُسمَعُ منه إلَّا إذا نطَقَ بلسانِه. وقد خرقَ اللهُ العادةَ لنبيِّنا محمدٍ ﷺ فأسمعَه كلامَ النَّفْسِ من قومٍ تحدَّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم، كما قد نقلَ منه الكثيرَ أئِمَّتُنا[٤] في كتب معجزاتِ النبيِّ ﷺ، وكذلك قد[٥] وقع لكثيرٍ ممَّنْ أكرَمه اللهُ تعالى من الأولياء مثلُ ذلِكَ في غير ما قضية. وإيَّاه عنى النبيُّ ﷺ بقوله: «إنَّ في أمتي مُحدَّثين وإنَّ عمرَ منهم»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في تسبيح[٧] الجمادِ في «سبحان»[٨] وأنَّه تسبيحُ لسانٍ ومقالٍ لا

(١) ما بين حاصرتين من المفهم.

(٢) في (م): الطبعي.

(٣) في (م): ننكر.

(٤) قبلها في (د) و(ز) و(م): من.

(٥) كلمة «قد» من (ظ) والمفهم.

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٢٨٥)، ومسلم (٢٣٩٨) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. ومن قوله: وقد قيل: إن هذا النبي كانت العقوبة... إلى هذا الموضع من المفهم ٥/٥٤٢ - ٥٤٣ .

(٧) كلمة «تسبيح» من (م).

(٨) ١٣/٩٢ .

تسبيح دلالةِ حال. والحمد لله.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقرأ ابن السَّمَيفَع: «ضحكاً» بغير ألف[(١)]، وهو منصوبٌ على المصدر بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه تبسَّمَ، كأنَّه قال: ضَحِكَ ضحكاً، هذا مذهب سيبويه. وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس «تَبَسَّمَ»؛ لأنَّه في معنى ضحك. ومن قرأ: «ضَاحِكاً» فهو منصوبٌ على الحال من الضمير في «تَبَسَّمَ»[(٢)]. والمعنى: تبسَّم مقدارَ الضَّحِك؛ لأنَّ الضَّحِكَ يستغرِقُ التبسُّمَ، والتبسُّمُ دون الضَّحك، وهو أوَّله. يقال: بَسَمَ (بالفتح) يَبْسِمُ بَسْمَاً فهو باسمٌ وابتسمَ وتبسَّم، والمَبْسِمُ: الثَّغْرُ، مثل المجلس من جلَسَ يجلِسُ، ورجلٌ مِبسامٌ وبسَّامٌ كثيرُ التبسُّمِ[(٣)]، فالتبسُّم ابتداءُ الضَّحِك، والضَّحِكُ عبارةٌ عن الابتداء والانتهاء، إلَّا أنَّ الضَّحِكَ يقتضي مزيداً على التبسُّم، فإذا زاد ولم يضبِطِ الإنسانُ نفسَه قيل: قَهْقَهَ.

والتبسُّم ضَحِكُ الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم[(٤)]. وفي الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له: أكنتَ تُجالِسُ النبيَّ ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقومُ من مُصلَّاه الذي يصلِّي فيه الصبحَ ـ أو الغداةَ ـ حتى تطلعَ الشَّمسُ، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدَّثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ[(٥)]. وفيه عن سعد قال: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين[(٦)]، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارمِ فِداكَ أبي وأمِّي» قال: فنزعتُ له بسهمٍ ليس فيه نَصْلٌ فأصبتُ جنبَه، فسقط فانكشفَتْ عورَتُه، فضحِكَ رسولُ الله ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذِه[(٧)]. فكان عليه الصلاة والسلام في أكثر

---

(١) المحتسب ٢/ ١٣٩ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ بنحوه.

(٣) الصحاح (بسم) ببعضه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٤ .

(٥) صحيح مسلم (٦٧٠) و(٢٣٢٢). وأخرجه أحمد (٢٠٨٤٤).

(٦) أي: أثخن فيهم، وعمل فيهم ما تفعله النار. وقد يكون معناه: أغاظهم. إكمال المعلم ٧/ ٤٢٣ .

(٧) صحيح مسلم (٢٤١٢).

أحواله يتبسم، وكان أيضاً يضحك في أحوالٍ أُخَرَ ضحِكاً أعلى من التبسُّم وأقلَّ من الاستغراق الذي تبدو فيه اللَّهوات، وكان في النادر عند إفراطِ تعجُّبِه رُبما ضحِكَ حتى بدَتْ نواجِذُه. وقد كرِهَ العلماءُ منه الكثرة، كما قال لقمان لابنه: يا بنيَّ، إياكَ وكثرةَ الضَّحكِ فإنَّه يُميتُ القلبَ. وقد رُويَ مرفوعاً من حديث أبي ذرٍّ وغيره[١]. وضَحِكُ النَّبيِّ ﷺ حتى بدَتْ نواجِذُه حين رمى سعدٌ[٢] الرجلَ فأصابه، إنما كان سروراً بإصابتِه لا بانكشافِ عورَتِه؛ فإنَّه المُنَزَّهُ عن ذلك ﷺ.

السادسة: لا اختلافَ عند العلماء أنَّ الحيواناتِ كلَّها لها أفهامٌ وعقول. وقد قال الشافعيُّ: الحمامُ أعقَلُ الطير[٣]. قال ابن عطية[٤]: والنَّملُ حيوانٌ فَطِنٌ قويٌّ شمَّامٌ جِدًّا، يدَّخِرُ ويتَّخِذُ القِرى، ويشقُّ الحبَّ بقطعتين لئلاً ينبُتَ، ويشقُّ الكُزْبُرَةَ بأربع قطع؛ لأنَّها تَنبتُ إذا قُسِمتْ شِقَّتين، ويأكل في عامه نصفَ ما جمع ويستبقي سائِرَه عُدَّة. قال ابن العربي[٥]: وهذه غوامض[٦] العلومِ عندنا، وقد أدركَتْها النَّملُ بِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ لها؛ قال الأستاذ أبو المظفَّر شاهنور الإسفرايني: ولا يَبعُدُ أن تُدرِكَ البهائمُ حدوثَ العالَمِ، وحدوثَ المخلوقات، ووحدانيةَ الإله، ولكنَّنا لا نفهَمُ عنها ولا تفهَمُ عنَّا، أمَّا أنَّا نطلبُها وهي تفِرُّ مِنَّا فبِحُكمِ الجنسية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ فـ «أن» مصدرية. و«أَوزِعْني» أي: ألهِمْني ذلك. وأصلُه من وزَعَ، فكأنَّه قال: كُفَّني عما يُسخِط[٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٠٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م): سعداً.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٣٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٣ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٣٧ .

(٦) في النسخ: خواص، والمثبت من أحكام القرآن.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٢-١١٣ بنحوه.

وقال محمد بن إسحاق: يزعُمُ أهلُ الكتاب أنَّ أمَّ سليمانَ هي امرأة أوريا التي امتحنَ اللهُ بها داود، أو أنَّه بعد موت زوجها تزوَّجها داودُ فولَدَتْ له سليمانَ عليه السلام. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة «صَ»[١] إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: مع عبادك. عن ابن زيد[٢]. وقيل: المعنى: في جملة عبادك الصالحين[٣].

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثمانية عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيرهِ الذي كان فيه من النَّمل ما تقدَّم. والتفقُّدُ: تطلُّبُ ما غابَ عنكَ من شيء. والطير: اسمٌ جامعٌ، والواحد طائر، والمرادُ بالطَّيرِ هنا جِنسُ الطَّيرِ وجماعتُها. وكانت تصحبُه في سفره وتُظِلُّهُ بأجنحتها[٤]. واختلفَ الناسُ في معنى تفقُّدِه للطَّير، فقالت فرقةٌ: ذلك

---

(١) عند تفسير الآية (٢١) منها.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ٢٠٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٩ .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٣ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٧٣ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

بحسبِ ما تقتضيه العنايةُ بأمور الملك، والتَّهمُّمِ بكل جزءٍ منها، وهذا ظاهر الآية. وقالت فرقةٌ: بل تفقَّدَ الطيرَ لأنَّ الشمسَ دخلتْ من موضع الهُدهُدِ حين غاب، فكان ذلك سببَ تفقُّدِ الطير؛ ليتبيَّنَ من أين دخلتِ الشمس. وقال عبد الله بن سَلَام: إنَّما طلبَ الهُدْهُدَ لأنه احتاجَ إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنَّه كان نزل في مفازةٍ عُدِمَ فيها الماء، وأنَّ الهُدهُدَ كان يرى باطِنَ الأرضِ وظاهِرَها؛ فكان يُخبرُ سليمانَ بموضع الماء، ثم كانتِ الجِنُّ تُخرِجُه في ساعةٍ يسيرة، تَسلَخُ عنه وجهَ الأرض كما تُسلَخُ الشاة. قاله ابن عباس فيما روى عن ابن سَلَام[1]. قال أبو مِجْلَز: قال ابن عباس لعبد الله بن سَلَام: أُريدُ أنْ أسألَكَ عن ثلاثِ مسائل. قال: أتسألُني وأنتَ تقرأ القرآن؟ قال: نعم. ثلاث مرات. قال: لِمَ تَفَقَّدَ سليمانُ الهدهدَ دون سائرِ الطير؟ قال: احتاج إلى الماء ولم يعرِفْ عُمقَه ـ أو قال: مسافته ـ وكان الهدهدُ يعرِفُ ذلك دونَ سائرِ الطير فتفقَّدَه[2]. وقال في كتاب النَّقَّاش: كان الهُدهُد مهندساً. ورُوِيَ أنَّ نافع بن الأزرق سمعَ ابنَ عباسٍ يذكر شأنَ الهُدهُدِ فقال له: قِفْ يا وقَّاف، كيف يرى الهُدهُدُ باطِنَ الأرض وهو لا يرى الفَخَّ حين يقع؟! فقال له ابن عباس: إذا جاء القَدَر عَمِيَ البصر[3]. وقال مجاهد: قيل لابن عباس: كيف تفقَّدَ الهُدْهُدَ من الطير؟ فقال: نزل منزلاً ولم يَدْرِ ما بُعْدُ الماء، وكان الهُدهُدُ مهتدياً إليه، فأراد أن يسأله. قال مجاهد: فقلت: كيفَ يهتدي والصبيُّ يضَعُ له الحِبَالةَ فيصيدُه؟! فقال: إذا جاء القَدَرُ عَمِيَ البصر[4]. قال ابن العربي[5]: ولا يقدِرُ على هذا الجواب إلَّا عالمُ القرآن.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٢-١٢٣ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٦٦-٥٦٧ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٣٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ . وأثر ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٣٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١٣).

(٤) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢١١).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٣ .

قلت: هذا الجوابُ قد قاله الهُدْهُدُ لسليمانَ كما تقدَّم. وأنشدوا:

إذا أرادَ اللهُ أمراً بامرئٍ وكانَ ذا عقلٍ ورأيٍ ونَظَرْ
وحيلةٍ يعملُها في دَفْعِ ما يأتي بِهِ مكروهُ أسبابِ القَدَرْ
غَطَّى عليه سمعَهُ وعقلَهُ وسَلَّهُ من ذهنِه سلَّ الشَّعَرْ
حتى إذا أنفذَ فيه حُكمَهُ ردَّ عليه عقلَهُ لِيعتبِرْ

قال الكلبي: لم يكن في مسيره إلَّا هُدْهدٌ واحد. والله أعلم.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على تفقُّدِ الإمامِ أحوالَ رعيَّتِهِ، والمحافظةِ عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صِغَرِه كيف لم يَخْفَ على سليمانَ حالُه، فكيف بعظام المُلْك. ويرحَمُ اللهُ عمرَ فإنه كان على سيرته؛ قال: لو أنَّ سخلةً على شاطئ الفرات أخذَها الذئبُ لَيُسأَلُ عنها عمر[١]. فما ظنُّك بوالٍ تذهَبُ على يديه البلدان، وتضيع الرَّعيةُ ويضيع الرُّعيان[٢]. وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ خرجَ إلى الشام، حتى إذا كان بِسَرْغٍ[٣] لقيَه أمراءُ الأجناد: أبو عبيدة وأصحابُه، فأخبروه أنَّ الوباءَ قد وقع بالشام. الحديث[٤]. قال علماؤنا: كان هذا الخروجُ من عمر بعد ما فتحَ بيتَ المقدس سنة سبعَ عشْرَةَ على ما ذكره خليفة بن خياط، وكان يتفقَّدُ أحوالَ رعِيَّته وأحوالَ أمرائِه بنفسه[٥]. فقد دلَّ القرآنُ والسُّنَّةُ وبيَّنا ما يجب على الإمام مِنْ تفقُّدِ أحوالِ رعِيَّته، ومباشرةِ ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال. ورحِمَ اللهُ ابنَ المبارك حيث يقول:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ١٣٧ ، والبيهقي في الشعب (٧٤١٥) عن الأوزاعي قال: بلغني أن عمر ابن الخطاب قال ... فذكره بنحوه. إسناده فيه انقطاع.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٢ .

(٣) سَرْغ: قرية بوادي تبوك. وقيل: هي آخر عمل الحجاز الأول. وقيل: مدينة بالشام. إكمال المعلم ٦/ ١٣٦ .

(٤) صحيح البخاري (٥٧٢٩)، وصحيح مسلم (٢٢١٩) (٩٨). وأخرجه أحمد (١٦٨٣).

(٥) المفهم ٥/ ٦١٥ .

وهــل أفـسـدَ الـديـنَ إلّا الـمـلـوكُ   وأحــبــارُ ســوءٍ ورهــبــانُــهــا[١]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي: ما لِلهُدهُدِ لا أراه، فهو من القَلْبِ الذي لا يُعرَفُ معناه، وهو كقولك: ما لي أراكَ كئيباً؟ أي: ما لَكَ؟ والهُدهدُ: طيرٌ معروف[٢]، وهَدْهَدَتُه صوتُه. قال ابن عطية[٣]: إنَّما مقصِدُ الكلامِ: الهُدهدُ غابَ لكنَّه أخذَ اللازمَ عن مَغيبِه وهو أن لَّا يراه، فاستفهمَ على جهة التوقيفِ على اللَّازمِ، وهذا ضَرْبٌ من الإيجاز، والاستفهام الذي في قوله: ﴿مَا لِىَ﴾ نابَ مَنابَ الألفِ التي تحتاجُها أَمْ. وقيل: إنما قال: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ لأنَّه اعتبرَ حالَ نفسِه، إذْ عَلِمَ أنَّه أُوتيَ المُلكَ العظيم، وسُخِّرَ له الخلق، فقد لزِمَه حقُّ الشكر بإقامة الطاعة وإدامةِ العمل[٤]، فلما فقَدَ نِعمةَ الهُدْهُدِ توقَّعَ أن يكون قَصَّرَ في حقِّ الشكر، فلأجله سُلِبَها فجعل يتفقَّد نفسه، فقال: ﴿مَا لِىَ﴾. قال ابن العربي[٥]: وهذا يفعله شيوخُ الصوفية إذا فقدوا ما لهم[٦]، تفقَّدوا أعمالَهم، هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نُقصِّر في الفرائض؟!

وقرأ ابنُ كثير وابن مُحَيصِن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب: «مَا لِيَ» بفتح الياء، وكذلك في «يس» [الآية: ٢٢]: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. وأسكنَها حمزة ويعقوب. وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التي في «يس»، وإسكان هذه[٧]. قال أبو عمرو: لأن هذه التي في «النمل» استفهام، والأخرى انتفاء. واختار أبو حاتم

---

(١) سلف ١٠/ ١٧٧ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٢ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٣ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٤) في (د) و(ز): للعدل، وفي (ظ) و(م): العدل. والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٢ .

(٦) في أحكام القرآن: آمالهم.

(٧) السبعة ص٤٧٩ ، والتيسير ص٦٨ ، والنشر ٢/ ١٧٤-١٧٥ .

وأبو عبيد الإسكان «فقالَ مَا ليْ». وقال أبو جعفر النَّحاس[١]: زعمَ قومٌ أنَّهم أرادوا أن يُفرِّقوا بين ما كان مبتدأً، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله، وهذا ليس بشيء، وإنَّما هي ياءُ النَّفْس، من العربِ من يفتَحُها ومنهم من يُسكِنُها، فقرؤوا باللغتين، واللغة الفصيحة في ياء النَّفْس أن تكون مفتوحةً؛ لأنَّها اسمٌ وهي على حرفٍ واحد، وكان الاختيار ألا تُسكنَ فيُجْحَفَ بالاسم[٢]. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ بمعنى: أَبَلْ[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ الحدَّ على قَدْرِ الذَّنْبِ لا على قَدْرِ الجسد، أما إنه يُرفَقُ بالمحدود في الزمان والصفة[٤].

رُويَ عن ابن عباس ومجاهد وابن جُريج أنَّ تعذيبَه للطير كان بأن ينتُفَ ريشَه. قال ابن جُريج: ريشه أجمع. وقال يزيد بن رومان: جناحاه. فعلَ سليمان هذا بالهدهدِ إغلاظاً على العاصين، وعقاباً على إخلالهِ بنَوْبته ورتبته[٥]. وكأنَّ اللهَ أباحَ له ذلك، كما أباحَ ذبح البهائم والطير للأكلِ وغيرهِ من المنافع[٦]. والله أعلم. وفي «نوادر الأصول» قال: حدَّثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال: حدَّثنا عون بن عُمارة، عن الحسين الجُعْفيِّ، عن الزُّبير بن الخِرِّيت، عن عكرمة، قال: إنَّما صرفَ اللهُ شرَّ سليمانَ عن الهدهدِ لأنَّه كان بارًّا بوالديه. وسيأتي.

وقيل: تعذيبُه أن يُجعَلَ مع أضدادهِ. وعن بعضهم: أَضيَقُ السجونِ معاشرةُ الأضداد. وقيل: لَألزِمَنَّه خِدمةَ أقرانِه. وقيل: إيداعُه القفص[٧]. وقيل: بأن يجعلَه

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢ .

(٢) في (م): الاسم.

(٣) في (د) و(م): بل.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ . والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٣٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٢٤) عن ابن عباس ﷺ. وقول يزيد بن رومان أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤ ، وابن أبي حاتم (١٦٢٢٩).

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٣ .

(٧) الكشاف ٣/ ١٤٣ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ١٨٩ ، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٤ القول الأخير عن الثعلبي.

للشمس بعد نتفِه[١]. وقيل: بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدِّبون بالهجرانِ الجسدَ بتفريقِ إلْفِه[٢].

وهو مؤكَّدٌ بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة. قال أبو حاتم: ولو قُرئَتْ: «لأعَذِّبَنْهُ عَذاباً شَديداً أَوْ لأَذْبَحَنْهُ» جاز[٣]. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجةٍ بيِّنة[٤]. وليست اللامُ في «لَيَأْتيَنِّي» لامَ القسم؛ لأنَّه لا يُقسِمُ سليمانُ على فعل الهدهد، ولكن لمَّا جاء في أثر قوله: «لَأُعَذِّبَنَّهُ» وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه. وقرأ ابن كثير وحدَه «لَيَأْتيَنَّني» بنونين[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي الهدهد[٦]. والجمهور من القُرَّاء على ضمِّ الكاف، وقرأ عاصم وحدَه بفتحها[٧]. ومعناه في القراءتين أقام[٨]. قال سيبويه: مَكَث يمكُث مُكُوثاً كما قالوا: قعد يقعد قعوداً. قال: ومَكُث مثل ظَرُف[٩]. قال غيره: والفتحُ أحسنُ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ [الكهف:٣] إذ هو من مَكَث؛ يقال: مَكَثَ يَمكُثُ فهو ماكثٌ، ومَكُثَ يمكُث مثل عَظُمَ يعظُمُ فهو مكِيثٌ؛ مثل عظيم. ومَكُث يَمكُثُ فهو ماكثٌ، مثل حَمُضَ يَحمُضُ فهو حامِض.

والضمير في «مَكَثَ» يَحْتَمِلُ أن يكون لسليمان[١٠]، والمعنى: بقي سليمانُ بعد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٤ عن عبد الله بن شداد.

(٢) ذكر هذا المعنى البغوي ٣/ ٤١٢ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٤٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٤ .

(٥) السبعة ص٤٧٩ ، والتيسير ص١٦٧ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٢ .

(٧) السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٧ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

(٩) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣ .

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥ .

التفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ، أي: غيرَ وقتٍ طويل[١]. ويَحتَمِلُ أن يكون للهدهد[٢] وهو الأكثر. فجاء: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وهي:

السادسة: أي: علمتُ ما لم تعلَمْه من الأمر[٣]، فكان في هذا ردٌّ على مَنْ قال: إنَّ الأنبياءَ تعلَمُ الغيب. وحكى الفرَّاء «أَحَطُّ» يُدغِمُ التَّاءَ في الطَّاء. وحكى «أَحَتُّ» بقلب الطاء تاءً وتُدغَمُ[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أعلَمَ سليمانَ ما لم يكُنْ يعلَمُه، ودفعَ عن نفسِه ما توعَّدَه من العذاب والذبح. وقرأ الجمهور: «سبإٍ» بالصَّرف، وابن كثير وأبو عمرو: «سَبَأَ» بفتح الهمزة وتَرْكِ الصَّرف[٥]، فالأوَّلُ على أنَّه اسمُ رجلٍ نُسِبَ إليه قوم، وعليه قول الشاعر:

الـــواردونَ وتَـــيْـــمٌ فـــي ذُرَا ســـبـــإٍ   قد عَضَّ أعناقَهُمْ جِلْدُ الجواميسِ[٦]

وأنكر الزَّجَّاجُ أن يكونَ اسمَ رجلٍ، وقال: «سبأ»: اسمُ مدينةٍ تُعرَفُ بمأربِ باليمن، بينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاثةِ أيام.

قلتُ: وقع في عيون المعاني للغزنوي: ثلاثة أميال. قتادة والسدي: بعثَ إليه اثنا عشر نبيًّا[٧]. وأنشدَ للنابغة الجَعْدي[٨]:

مِــن سَــبَــأَ الــحــاضِــريــنَ مَــأرِبَ إذْ   يَــبْــنُــونَ مِــن دونِ سَــيْــلِــهِ الــعَــرِمَــا

قال: فمن لم يصرِفْ قال: إنَّه اسمُ مدينة، ومن صَرَفَ وهو الأكثر فلأنَّه اسمُ

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ٢١٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٨٩.
(٥) السبعة ص ٤٨٠، والتيسير ص١٦٧.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٥، والبيت قائله جرير، وسلف ١٢/ ٣٣٤.
(٧) من قوله: وقع في... إلى هنا من (م).
(٨) في ديوانه ص١٣٤، ويُنسب البيت أيضاً إلى امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٩٠.

البلد، فيكون مُذَكَّراً سُمِّي به مُذَكَّر[١]. وقيل: اسم امرأة سُمِّيتْ بها المدينة[٢]. والصحيح أنَّه اسمُ رجل[٣]، كذلك في كتاب الترمذي من حديث فَرْوَةَ بنِ مُسَيْكٍ المرادي عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي إن شاء الله تعالى[٤]. قال ابن عطية: وخَفيَ هذا الحديث على الزَّجَّاجِ فخبطَ عشواء[٥]. وزعمَ الفرَّاءُ أنَّ الرُّؤاسيَّ سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبإ فقال: ما أدري ما هو. قال النَّحَّاس: وتأوَّلَ الفرَّاءُ على أبي عمرو أنَّه منعَه من الصرف لأنَّه مجهول، وأنَّه إذا لم يعرفِ الشيء لم ينصرف. وقال النَّحَّاس: وأبو عمرو أجَلُّ من أن يقول مثلَ هذا، وليس في حكاية الرُّؤاسي عنه دليلٌ أنَّه إنَّما منعَه من الصَّرفِ لأنَّه لم يعرِفْه، وإنَّما قال: لا أعرِفُه، ولو سُئِلَ نَحْويٌّ عن اسمٍ فقال: لا أعرِفُه، لم يكن في هذا دليلٌ على أنه يمنعُه من الصرف، بلِ الحقُّ على غير هذا، والواجب إذا لم يعرِفْه أن يصرِفَه؛ لأنَّ أصلَ الأسماء الصَّرفُ، وإنَّما يُمنعُ الشيءُ من الصَّرفِ لِعلَّةٍ داخلةٍ عليه، فالأصل ثابتٌ بيقينٍ فلا يزولُ بما لا يُعرَفُ. وذكر كلاماً كثيراً عن النُّحاةِ وقال في آخره: والقولُ في «سبإ» ما جاء التوقيفُ فيه أنَّه في الأصلِ اسمُ رجل، فإن صرَفْتَه فلأنَّه قد صار اسماً للحيِّ، وإن لم تصرِفْه جعلْتَه اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلَّا أنَّ الاختيارَ عند سيبويه الصرفُ، وحُجَّته في ذلك قاطعةٌ؛ لأنَّ هذا الاسمَ لمَّا كان يقع له التَّذكيرُ والتأنيثُ كان التذكيرُ أولى؛ لأنَّه الأصلُ والأخفُّ[٦].

الثامنة: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الصغيرَ يقول للكبيرِ والمتعلِّمَ للعالمِ: عندي ما ليسَ عندك، إذا تحقَّق ذلك وتيَقَّنه[٧]. هذا عمر بن الخطاب مع جلالتِه ـ ؓ ـ وعلمِه

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٤ .

(٤) عند تفسير الآية (١٥) من سورة سبأ، والحديث في سنن الترمذي (٣٢٤٢).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٣-٢٠٤ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٤ .

لم يكن عندَه علمٌ بالاستئذان. وكان عِلْمُ التيمم عند عمَّارٍ وغيره، وغابَ عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمَّم الجُنب. وكان حكم الإذنِ في أن تنفِرَ الحائضُ عند ابن عباس، ولم يعلَمْه عمرُ ولا زيدُ بن ثابت. وكان غَسْلُ رأسِ المُحرِمِ معلوماً عند ابن عباس وخَفيَ عن المِسْوَر بن مَخْرَمة. ومثلُه كثيرٌ فلا يُطوَّلُ به.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ لمَّا قال الهدهد: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ قال سليمان: وما ذلِكَ الخبر؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل تملِكُ أهل سبأ[1]. ويُقال: كيفَ خَفِيَ على سليمان مكانَها وكانت المسافةُ بين مَحطِّهِ وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاثٍ بين صنعاء ومأرب؟ والجواب: أنَّ اللهَ تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوبَ مكان يوسف[2]. ويُروى أنَّ أحدَ أبوَيها كان من الجنِّ[3]. قال ابن العربي[4]: وهذا أمرٌ تُنكِره المُلْحِدة، ويقولون: الجِنُّ لا يأكلون ولا يَلِدون، كذَبوا لعنهم الله أجمعين، ذلك صحيحٌ، ونكاحُهُم جائزٌ عقلاً، فإن صَحَّ نقلاً فَبِها ونِعْمَتْ.

قلتُ: خرَّج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنَّه قال: قَدِمَ وفدٌ من الجِنِّ على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، انْهَ أُمَّتكَ أن يستنجوا بعَظْمٍ أو رَوْثةٍ أو حُمَمَةٍ[5]، فإنَّ الله تعالى جاعِلٌ لنا فيها رزقاً[6]. «وفي صحيح مسلم»: فقال «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه يقع في أيديكم أوفَرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بَعْرةٍ علَفٌ

(١) المصدر السابق، والنكت والعيون ٤/ ٢٠٣ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٤٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٤٩) عن قتادة، وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٣ أن أمها جنيَّة، واسمها فارعة، وأنها بنت أربعين ملِكاً.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٤ .

(٥) في النسخ: جمجمة، والمثبت من سنن أبي داود. والحُمَمُ: الفحم وما أُحرِقَ من الخشب والعظام ونحوهما. معالم السنن ١/ ٢٧ .

(٦) سنن أبي داود (٣٩).

لِدوابِّكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستَنْجوا بهما، فإنَّهما طعامُ إخوانكم الجن»[١] وفي البخاري من حديث أبي هريرة قال: فقلتُ: ما بالُ العَظْمِ والرَّوثةِ؟ فقال: «هما من طعام الجنِّ، وإنَّه أتاني وفدُ جِنِّ نَصِيبين ـ ونِعْمَ الجِنُّ ـ فسألوني الزَّادَ، فدعوتُ اللهَ تعالى ألَّا يمرُّوا بعظمٍ ولا رَوْثةٍ إلَّا وجدوا عليها طعاماً»[٢]. وهذا كلُّه نَصٌّ في أنهم يَطعمون، وأما نكاحهم فقد تقدَّمتِ الإشارةُ إليه في «سبحان» عند قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الآية: ٦٤]. وروى وُهَيب بن جَرير بن حازم، عن الخليل بن أحمد، عن عثمان بن حاضر قال: كانت أمُّ بلقيس من الجِنِّ يُقال لها بلقمة[٣] بنت شيصان[٤]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

العاشرة: روى البخاريُّ من حديث أبي بَكْرة[٥] أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا بلَغَه أنَّ أهلَ فارس قد ملَّكوا بنتَ كسرى قال: «لن يُفلِحَ قومٌ وَلَّوا أمرَهم امرأة»[٦] قال القاضي أبو بكر بن العربي[٧]: هذا نصٌّ في أنَّ المرأةَ لا تكون خليفةً، ولا خِلافَ فيه، ونُقِلَ عن محمد بن جرير الطبري أنَّه يُجوِّزُ أن تكون المرأةُ قاضيةً، ولم يصِحَّ ذلك عنه، ولعلَّه نُقِلَ عنه كما نُقِلَ عن أبي حنيفة أنها إنَّما تقضي فيما تشهدُ فيه وليس بأن تكون قاضيةً على الإطلاق، ولا بأن يُكتَبَ لها مسطورٌ[٨] بأنَّ فلانةَ مُقدَّمةٌ على الحُكم، وإنَّما سبيلُ ذلك التحكيمُ[٩] والاستنابةُ في القضية الواحدة، وهذا هو الظَّنُّ بأبي حنيفة

---

(١) صحيح مسلم (٤٥٠). وأخرجه أحمد (٤١٤٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٦٠).

(٣) في (د): تلعمة، وفي (م): بلعمة. والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الدر المنثور.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠٥ إلى الحكيم الترمذي وابن مردويه.

(٥) تحرف في النسخ إلى: ابن عباس. والتصويب من صحيح البخاري.

(٦) صحيح البخاري (٤٤٢٥)، وسلف ٢/ ٤٢ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٥-١٤٤٦ .

(٨) في أحكام القرآن: منشور.

(٩) في (ظ) وأحكام القرآن: ذلك كسبيل التحكيم.

وابن جرير. وقد رُوِيَ عن عمر أنه قدَّم امرأةً على حِسبة السوق، ولم يصِحَّ فلا تلتفتوا إليه، فإنَّما هو من دسائس[١] المبتدعة في الأحاديث. وقد تناظرَ في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليلُ على أنَّ المرأة يجوزُ أن تحكُمَ أنَّ الغرضَ من الأحكام تنفيذُ القاضي لها، وسماعُ البيِّنةِ عليها، والفصلُ بين الخصوم فيها، وذلك ممكنٌ من المرأة كإمكانه من الرجل. فاعترض عليه القاضي أبو بكر، ونقضَ كلامه بالإمامة الكبرى؛ فإنَّ الغرضَ منه حِفْظُ الثُّغور، وتدبيرُ الأمور، وحمايةُ البَيْضة، وقبضُ الخَراج وردُّه على مستحِقِّه، وذلك لا يتأتَّى من المرأة كتأتِّيه من الرجل. قال ابن العربي: وليس كلامُ الشيخين في هذه المسألة بشيء؛ فإنَّ المرأةَ لا يتأتَّى منها أن تبرُزَ إلى المجلس، ولا تُخالِطَ الرجال، ولا تفاوضَهم مفاوضةَ النَّظير للنظير؛ لأنَّها إن كانت فتاةً حَرُمَ النَّظرُ إليها وكلامُها، وإن كانت بَرْزَةً[٢] لم يجمَعْها والرجالَ مجلسٌ واحدٌ تزدحِمُ فيه معهم، وتكون مناظرةً لهم، ولن يُفلِحَ قَطُّ مَنْ تصوَّرَ هذا ولا مِن اعتقدَه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبالغة، أي: ممَّا تحتاجُه المملكة[٣]. وقيل: المعنى: أُوتيت من كلِّ شيءٍ في زمانها شيئاً فُحذِفَ المفعول؛ لأنَّ الكلام دلَّ عليه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير[٤]، ووصفه بالعِظَمِ في الهيئة ورُتبةِ السلطان[٥]. قيل: كان من ذهبٍ تجلس عليه[٦]. وقيل: العرش هنا: المُلك[٧]، والأوَّل أصحُّ؛

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): وساوس. والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) أي: إذا كانت كهلةً لا تحتجب احتجاب الشوابِّ، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم. اللسان (برز).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن قتادة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٦) زاد المسير ٦/ ١٦٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ عن ابن بحر، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤ عن أبي مسلم.

لقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾. الزمخشري: فإن قلتَ: كيفَ سوَّى الهُدهدُ بين عرشِ بِلْقيس وعرشِ الله في الوصف بالعظيم؟ قلتَ: بين الوصفين بَوْنٌ عظيم؛ لأنَّ وَصْفَ عرشِها بالعظيم تعظيمٌ له بالإضافة إلى عروش أبناء جِنْسِها من الملوك، ووَصْفَ عرشِ الله بالعظيم تعظيمٌ له بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض[١]. قال ابن عباس: كان طولُ عرشِها ثمانينَ ذراعاً، وعرضُه أربعينَ ذراعاً، وارتفاعُه في السماء ثلاثينَ ذراعاً، مُكلَّلٌ بالدُّرِّ والياقوتِ الأحمر، والزَّبَرْجَدِ الأخضر[٢]. قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستَّراً بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق[٣]. مقاتل: كان ثمانينَ ذراعاً، في ثمانينَ ذراعاً[٤]، وارتفاعُه من الأرض ثمانونَ ذراعاً، وهو مُكلَّلٌ بالجواهر[٥]. ابن إسحاق: وكان يخدِمُها النساء، وكان معها لخدمتها ستُّ مئة امرأة[٦]. قال ابن عطية[٧]: واللازمُ من الآية أنَّها امرأةٌ مُلِّكَتْ على مدائن اليمن، ذاتُ مُلكٍ عظيم، وسريرٍ عظيم، وكانت كافرةً من قومٍ كُفَّار.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قيل: كانت هذه الأمَّةُ ممَّن يعبد الشمس؛ لأنَّهم كانوا زنادقةً فيما يُروى. وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. ورُويَ عن نافعٍ أنَّ الوقْفَ على «عرش»[٨]. قال المَهْدَوي: فعظيمٌ على هذا متعلِّقٌ بما بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون: عظيمٌ أن وَجْدتُها،

(١) هذا كلام الرازي في تفسيره ٢٤/ ١٩٠ ، وأما كلام الزمخشري فهو في الكشاف ٣/ ١٤٤ بغير هذا السياق.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢١٤ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ .

(٤) قوله: «في ثمانين ذراعاً» من (م).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٠٤ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

(٨) المصدر السابق.

أي: عظيمٌ[١] وجودي إيَّاها كافرة. وقال ابن الأنباري[٢]: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وقْفٌ حسن، ولا يجوز أن يقِفَ على «عرش» ويبتدئ «عَظِيمٌ وَجَدْتُها» إلَّا على من فتح؛ لأنَّ عظيماً نعتٌ للعرش[٣] فلو كان متعلِّقاً بوَجَدْتُها لقُلتَ: عظيمةً وجدتُها، وهذا مُحالٌ من كلِّ وجه. وقد حدَّثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شَهْرَيار، قال: حدَّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجليُّ، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على «عرش» والابتداء «عظيم» على معنى: عظيمٌ عبادَتُهم الشمسَ والقمر. قال: وقد سمعت مَنْ يُؤيِّدُ هذا المذهب، ويَحتَجُّ بأنَّ عرشَها أحقَرُ وأدَقُّ شأناً من أن يصِفَه الله بالعظيم. قال ابن الأنباري: والاختيارُ عندي ما ذكَرْتُه أوَّلاً؛ لأنَّه ليس على إضمارِ عبادةِ الشمسِ والقمرِ دليلٌ. وغيرُ مُنكَرٍ أن يصِفَ الهدهدُ عرشَها بالعظيم إذ رآه مُتناهي الطولِ والعرض؛ وجَرْيُه على إعراب «عرش» دليلٌ على أنَّه نَعْتُه.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ما لهم فيه من الكفر. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق التوحيد. وبيَّن بهذا أنَّ ما ليسَ بسبيل التوحيد فليسَ بسبيلٍ ينتفع به على التحقيق. ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الله وتوحيده.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» بتشديد «أَلَّا»[٤]؛ قال ابن الأنباري[٥]: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ غيرُ تامٍّ لمن شدَّد «أَلَّا»؛ لأنَّ المعنى: وزيَّنَ لهم الشيطانُ أَلَّا يسجدوا. قال النَّحَّاس: هي «أن» دخلَتْ عليها «لا» و«أن» في موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ«زين» أي: وزيَّنَ لهم لئِلَّا يسجدوا لله. وقال الكسائي: بـ«فَصدَّهم» أي: فصَدَّهم أَلَّا يسجدوا.

---

(١) كلمة «عظيم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٥-٨١٦.

(٣) في (م): لعرش. والمثبت من باقي النسخ.

(٤) السبعة ص٤٨٠، والتيسير ص١٦٨.

(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٦.

وهو في الوجهين مفعولٌ له. وقال اليزيدي وعلي بن سليمان: «أن» بدل من «أعمالهم» في موضع نصب. وقال أبو عمرو: و«أن» في موضع خَفْضٍ على البدل من السبيل[١].

وقيل: العامل فيها «لا يَهْتَدُونَ» أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، أي: لا يعلمون أنَّ ذلك واجبٌ عليهم. وعلى هذا القول «لا» زائدة[٢]، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] أي: ما منعكَ أنْ تسجُدَ. وعلى هذه القراءة فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الاهتداء[٣].

وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما: «أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ»[٤] بمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا؛ لأن «يا» ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيبويه:

يـا لـعـنـةُ الـلـهِ والأقـوامِ كـلِّـهِـمِ والـصَّـالـحين عـلى سِمْعَانَ من جَارِ

قال سيبويه: «يا» لغير اللعنة؛ لأنَّه لو كان للَّعنةِ لنَصَبَها؛ لأنَّه كان يصير مُنادًى مُضافاً، ولكن تقديره: يا هؤلاء، لعنةُ اللهِ والأقوامِ على سِمْعان[٥]. وحكى بعضُهم سماعاً عن العرب: ألا يا ارحموا ألا يا اصدقُوا. يريدون: ألا يا قومُ ارحموا اصدُقوا، فعلى هذه القراءة «اسْجُدُوا» في موضع جزمٍ بالأمر، والوقف على «أَلَا يَا»،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ بنحوه دون قوله: «وهو في الوجهين مفعول له» وهو في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ . وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٩ .

(٢) البيان ٢/ ٢٢١ ، والكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٣) هذا معنى قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٠ .

(٤) قراءة الكسائي في السبعة ص٤٨٠ ، والتيسير ص١٦٧ . وذكر النحاس هذه القراءة في معاني القرآن ٥/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ عن الكسائي والزهري وابن عباس وأبي جعفر وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن وحميد الأعرج وطلحة. وزاد عليه ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٦٦ : عن قتادة وأبي العالية والأعمش وابن أبي عبلة.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢٠٦ ، وتأويل مشكل القرآن ص١٧٢ . وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٢١٩-٢٢٠ .

ثم تبتدئ فتقول: «اسْجُدُوا»[(١)]. قال الكسائي [عن عيسى الهَمْداني قال:[(٢)]]: ما كنتُ أسمَعُ الأشياخ يقرؤونها إلَّا بالتخفيف على نيَّة الأمر. وفي قراءة عبد الله: «هلَّا[(٣)] تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» بالتاء والنون. وفي قراءة أبيٍّ: «أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ» فهاتان القراءتان حُجَّةٌ لمن خَفَّف[(٤)]. الزَّجَّاج: وقراءةُ التخفيف تقتضي وجوبَ السجود دون التشديد[(٥)]. واختار أبو حاتم وأبو عبيد[(٦)] قراءة التَّشديد. وقال: التخفيف وجهٌ حسنٌ إلَّا أنَّ فيه انقطاعَ الخبر من أمر سبأ، ثم رجع بَعْدُ إلى ذِكْرِهم، والقراءةُ بالتشديد خبرٌ يتبعُ بعضُه بعضاً لا انقطاعَ في وسطه[(٧)]. ونحوه قال النحاس؛ قال: قراءةُ التَّخفيفِ بعيدة؛ لأنَّ الكلامَ يكون معترِضاً، وقراءةُ التشديدِ يكون الكلامُ بها مُتَّسقاً، وأيضاً فإنَّ السَّواد على غير هذه القراءة؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها أَلِفان، وإنَّما يُختصَرُ مثلُ هذا بحَذْفِ ألفٍ واحدةٍ نحو: يا عيسى بن مريم[(٨)]. ابن الأنباري: وسقطت أَلِفُ «اسجدوا» كما تسقطُ مع هؤلاءِ إذا ظهر، ولمَّا سقطت ألفُ «يا» واتَّصلت بها ألفُ «اسْجُدُوا» سقطت، فَعُدَّ سقوطُها دِلالةً على الاختصارِ وإيثاراً لِما يَخِفُّ وتَقِلُّ ألفاظُه. وقال الجوهري في آخر كتابه[(٩)]: قال بعضهم: إن «يا» في هذا الموضع إنَّما هو للتنبيهِ، كأنَّه قال: ألا اسجدوا للهِ، فلمَّا أَدخَلَ عليه «يا» للتنبيه سقطتِ الألفُ التي

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤١٥ بنحوه.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ، وأُثبتَ من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ .

(٣) في (ظ): «هل»، وفي (م): «ألا هل»، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ ، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٤ ، والكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٤) من قوله: قال الكسائي... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٠ . قلنا: وكلا القراءتين شاذَّتان لا حُجَّة فيهما.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١٥ .

(٦) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: أبو عبيدة.

(٧) نقله عنه ابن الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٧٣-١٧٤ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٧ .

(٩) الصحاح (يا).

في «اسْجُدُوا»؛ لأنَّها أَلِفُ وَصْلٍ، وذهبتِ الألفُ التي في «يا» لاجتماع الساكنين؛ لأنَّها والسين ساكنتان. قال ذو الرُّمَّة[١]:

أَلَا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيٍّ على البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلًّا بَجْرعَائِكِ القَطْرُ

وقال الجُرجانيُّ: هو كلامٌ معترِضٌ من الهُدهُدِ أو سليمانَ أو من الله[٢]. أي: لا لِيسجدوا، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قيل: إنه أمرٌ، أي: ليغفِروا. وتنتظم على هذا كتابةُ المصحف، أي: ليس هاهنا نداء. قال ابن عطية[٣]: قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله: «العظِيم» وهو قول ابن زيد وابن إسحاق، ويُعترَضُ بأنَّه غيرُ مخاطَبٍ فكيف يتكلم في معنى شرع؟! ويَحتمِلُ أن يكون من قول سليمان لمَّا أخبره الهدهد عن القوم. ويَحتمِلُ أن يكون من قول[٤] الله تعالى، فهو اعتراضٌ بين الكلامين، وهو الثابتُ مع التأمُّلِ، وقراءةُ التشديد في «أَلَّا» تُعطي أنَّ الكلامَ للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيفُ يقتضي الأمرَ بالسجودِ لله عزَّ وجلَّ للأمرِ على ما بيَّنَّاه. وقال الزَّمخشري[٥]: فإن قلتَ: أسَجدةُ التلاوةِ واجبةٌ في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلتُ: هي واجبةٌ فيهما جميعاً؛ لأنَّ مواضِعَ السجدة إمَّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمرٌ بالسجود والأخرى ذَمٌّ للتارك.

قلتُ: وقد أخبرَ اللهُ عن الكفَّار بأنهم لا يسجدون كما في «الانشقاق»، وسجدَ النبيُّ ﷺ فيها، كما ثبت في البخاريِّ وغيره[٦]، فكذلك «النمل». والله أعلم.

الزمخشري[٧]: وما ذكَرهُ الزَّجَّاجُ من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغيرُ

---

(١) في ديوانه ١/ ٥٥٩.

(٢) وذكر هذا الكلام الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢١٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦.

(٤) كلمة «قول» من (م) والمحرر الوجيز.

(٥) في الكشاف ٣/ ١٤٥.

(٦) صحيح البخاري (٧٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧١٤٠)، ومسلم (٥٧٨).

(٧) في الكشاف ٣/ ١٤٥.

مَرجوعٍ إليه.

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ خَبْءُ السماء: قَطْرُها، وخَبْءُ الأرض: كنوزُها ونباتها. وقال قتادة: الخَبْءُ: السِّرُّ. النحَّاس: وهذا أولى. أي: ما غاب في السماوات والأرض، ويدلُّ عليه ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[١]. وقرأ عكرمة ومالك بن دينار: «الخَبَ» بفتح الباء من غير همز[٢]. قال المهدوي: وهو التخفيف القياسي، وذُكِرَ مَنْ يترُكُ الهمزَ في الوقف. وقال النَّحَّاس[٣]: وحكى أبو حاتم أنَّ عكرمةَ قرأ: «الَّذي يُخْرِجُ الخَبَا» بألف غير مهموزة[٤]، وزعمَ أنَّ هذا لا يجوز في العربية، واعتلَّ بأنَّه إن خفَّفَ الهمزةَ ألقى حركتَها على الباء وحذفها[٥] فقال: «الْخَبَ في السَّماواتِ والأَرْضِ» وأنَّه إنْ حوَّلَ الهمزةَ قال: الْخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء. قال النَّحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: كان أبو حاتم دونَ أصحابِه في النَّحْوِ ولم يلحَقْ بهم، إلَّا أنَّه إذا خرجَ من بلدِهِ لم يُلْقَ أعلمَ منه. وحكى سيبويه عن العرب أنها تُبدِلُ من الهمزة ألِفاً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مفتوحة، وتُبدِلُ منها واواً إذا كان قبلَها ساكنٌ وكانت مضمومة، وتُبدِلُ منها ياءً إذا كان قبلها ساكنٌ وكانت مكسورة، فتقول: هذا الْوَثْوُ[٦]، وعجبتُ من الوَثْيِ، ورأيتُ الْوَثا، وهذا من وَثِئَتْ يدُه، وكذلك هذا الْخَبْوُ، وعجبتُ من الْخَبْي، ورأيت الخَبَا؛ وإنَّما فُعِلَ هذا لأنَّ الهمزةَ خفيفةٌ، فأُبدِلَ منها هذه الحروف. وحكى سيبويه عن قومٍ من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون: هذا الخبُؤ، يضمُّون الساكنَ إذا كانت الهمزةُ مضمومةً،

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٧ .

(٢) الشاذة ص١٠٩ عن عيسى: وهو ابن عمر الهمداني، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ عن أبي بن كعب.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠٧-٢٠٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ ، وذكرها ابن خالويه في الشاذة ص١٠٩ عن مالك بن دينار، وسترد قريباً من قراءة ابن مسعود.

(٥) كلمة «وحذفها» ليست في (م).

(٦) والوثءُ: الضرب حتى يَرْهَصَ الجلدُ اللحمُ ويصل الضربُ إلى العظم من غير أن ينكسر. اللسان (وثأ).

ويُثبِتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزةُ مكسورةً، ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزةُ مفتوحةً. وحكى سيبويه أيضاً أنهم يكسرون وإن كانت الهمزةُ مضمومةً، إلَّا أنَّ هذا عن بني تميم، فيقولون: الرِّدِيءُ، وزعمَ أنَّهم لم يضُمُّوا الدَّالَ لأنَّهم كرِهوا ضمةً ما قبلها كسرة؛ لأنَّه ليس في الكلام فِعُلٌ. وهذه كلُّها لغاتٌ داخلةٌ على اللغة التي قرأ بها الجماعة.

وفي قراءة عبد الله «الَّذي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّماواتِ» و «من» و «في» يتعاقبان؛ تقول العرب: لأستخرجنَّ العِلمَ فيكم يريدُ منكم. قاله الفرَّاء[١]. ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قراءة العامة فيهما بياء الغائب[٢]، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيَةَ من كلام الهدهد[٣]، وأنَّ الله تعالى خصَّه من المعرفة بتوحيدِه ووجوبِ السجود له، وإنكارِ سجودهم للشمس، وإضافتِه للشيطان، وتزيينِه لهم، ما خَصَّ به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقولُ الراجحةُ تهتدي لها. وقرأ الجَحْدرِيُّ وعيسى بن عمر وحفص والكسائي: «تُخْفُونَ» و«تُعْلِنُونَ» بالتاء على الخطاب، وهذه القراءة[٤] تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ[٥].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قرأ ابن مُحَيصِن: «العظِيمُ» رفعاً[٦] نعتاً لله. الباقون: بالخفض نعتاً للعرش. وخُصَّ بالذِّكرِ لأنه أعظمُ المخلوقات، وما عداه في ضمنِه وقبضتِه[٧].

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١ . وقراءة عبد الله بن مسعود في الشاذة ص١٠٩ ، وذكرها المصنف قريباً عن عكرمة.

(٢) كلمة «الغائب» من (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٤) قراءة حفص والكسائي في السبعة ص٤٨١ ، وفي التيسير ص١٦٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٦) الشاذة ص١٠٩ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٦ ونسبها أيضاً إلى الضحاك.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٦ .

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمُّلُ والتصفُّح[١]. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتِك[٢]. و«كنت» بمعنى أنت. وقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يقل: سننظر في أمرك؛ لأنَّ الهدهدَ لمَّا صرَّحَ بفخر العلم في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ صرَّحَ له سليمان بقوله: ﴿سننظر أصدقت أم كذبت﴾ فكان ذلك كُفؤاً[٣] لما قالَه.

الخامسة عشرة: في قوله: «أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» دليلٌ على أنَّ الإمام يجب عليه أن يقبلَ عذرَ رعيَّته، ويدرأ العقوبةَ عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم[٤]؛ لأنَّ سليمان لم يُعاقبِ الهُدهدَ حين اعتذر إليه، وإنَّما صارَ صدقُ الهدهدِ عذراً؛ لأنَّه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حُبِّبَ إليه الجهاد. وفي الصحيح: «ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أنزلَ الكتابَ وأرسلَ الرُّسلَ[٥]». وقد قبِلَ عمرُ عذرَ النُّعمان بنَ عديٍّ ولم يُعاقِبْه[٦]. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلَّق به حكمٌ من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان؛ فإنه لمَّا قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ لم يستفِزَّه الطمع، ولا استجَرَّه حُبُّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فغاظَه حينئذٍ ما سمع، وطلبَ الانتهاءَ إلى ما أخبر، وتحصيلَ علمِ ما غابَ عنه من ذلك، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٧]، ونحوٌ منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن مَخْرَمة، حين استشارَ عمرُ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٤ .

(٣) في (م): كفاء. وفي بقية النسخ: حقاً. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧ .

(٥) صحيح البخاري (٧٤١٦)، وصحيح مسلم (٤١٩٩) بنحوه من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. وهو في مسند أحمد (١٨١٦٨).

(٦) وقد سلفت قصته ١٦/ ٩٠ - ٩١ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٦ .

الناسَ في إملاصِ المرأة ـ وهي التي يُضرَبُ بطنُها فتلقي جنينَها ـ فقال المغيرةُ بنُ شعبة: شهدتُ النبيَّ ﷺ قضى فيه بغرَّةِ عبدٍ أو أمة. قال: فقال عمر: ايتني بمَنْ يشهدُ معك. قال: فشهِدَ له محمد بن مسلمة[1]. وفي روايةٍ فقال: لا تبرَحْ حتى تأتيَ بالمخرَجِ من ذلك. فخرجتُ فوجدتُ محمد بن مسلمة، فجئتُ به فشَهِدَ[2]. ونحوه حديثُ أبي موسى في الاستئذان[3]، وغيرُه.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزَّجَّاج: فيها خمسةُ أوجه: «فَأَلْقِهِي إِلَيْهِمْ» بإثبات الياء في اللفظ. وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالَّةً عليها «فَأَلْقِهِ إِلَيْهِم». وبضَمِّ الهاء وإثبات الواو على الأصل «فَأَلْقِهُو إِلَيْهِمْ». وبحذف الواو وإثبات الضمَّة «فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ». واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء «فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ». قال النَّحَّاس: وهذا عند النَّحْويِّين لا يجوزُ إلَّا على حيلةٍ بعيدةٍ تكون: يُقدِّر الوقف. وسمعتُ علي بن سليمان يقول: لا تلتفِتْ إلى هذه اللغة[4]، ولو جازَ أن يصِلَ وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذِفَ الإعرابَ من الأسماء[5]. وقال: «إليهِم» على لفظ الجمع، ولم يقُلْ: إليها؛ لأنَّه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ فكأنه قال: فألقِه إلى الذين هذا دينهم؛ اهتماماً منه بأمر الدِّين، واشتغالاً به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك[6].

---

(١) صحيح مسلم (١٦٨٣). وأخرجه أحمد (١٨٢١٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٣١٧).

(٣) سلف ١٥/ ١٩٠ .

(٤) في (م): العلة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٠٨-٢٠٩ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١١٦ . والقراءة الأولى والثانية والخامسة من القراءات السبعة المشهورة، فالقراءة الأولى قرأ بها ابن كثير والكسائي وابن عامر في رواية هشام عنه، ونافع في رواية ورش عنه. والقراءة الثانية قرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان عنه، ونافع في رواية قالون عنه. والقراءة الخامسة قرأ بها حمزة وعاصم وأبو عمرو. وأما القراءتان الثالثة والرابعة فهما شاذتان، وذكر ابن خالويه القراءة الثالثة في الشاذة ص١٠٩ عن مسلم بن جندب.

(٦) الكشاف ٣/ ١٤٦ .

ورُوِيَ في قصص هذه الآية أنَّ الهدهدَ وصل فألفى دون هذه الملكة حُجب جدران فعمدَ إلى كُوَّةٍ كانت بِلْقيسُ صنَعْتها لتدخل منها الشمسُ عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاها، فدخَلَ منها ورمى الكتاب على بِلْقيسَ وهي ـ فيما يُروى ـ نائمة، فلمَّا انتبهَتْ وجَدَتْه فراعَها، وظنَّتْ أنَّه قد دخل عليها أحد، ثم قامَتْ فوجدَتْ حالها كما عهِدَتْ، فنظرَتْ إلى الكُوَّةِ تَهمُّماً بأمر الشمس، فرأَتِ الهدهدَ فعلِمَتْ[1]. وقال وهب وابن زيد: كانت لها كُوَّةٌ مستقبلةً مطلع الشمس، فإذا طلعت سجدت، فسدَّها الهدهدُ بجناحه، فارتفعتِ الشمسُ ولم تعلم، فلما استبطأتِ الشمسَ قامتْ تنظرُ، فرمى الصحيفةَ إليها، فلما رأتِ الخاتمَ ارتعدَتْ وخضعَتْ؛ لأنَّ مُلك سليمان عليه السلام كان في خاتمه، فقرأَتْه، فجمعتِ الملأَ من قومها فخاطَبتْهم بما يأتي بعد[2]. وقال مقاتل: حملَ الهدهدُ الكتابَ بمنقارِه، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولَها الجنود والعساكر، فرفرف ساعةً والناس ينظرون إليه، فرفعتِ المرأةُ رأسَها فألقى الكتاب في حجرها[3].

السابعة عشرة: في هذه الآية دليلٌ على إرسالِ الكتبِ إلى المشركين وتبليغِهم الدعوة، ودعائِهم إلى الإسلام. وقد كتبَ النبيُّ ﷺ إلى كسرى وقيصرَ وإلى كلِّ جبَّار كما تقدَّم في «آل عمران»[4].

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمْرُه بالتولِّي حُسْنُ أدبٍ ليتنحَّى حسْبَ ما يتأدَّبُ به مع الملوك. بمعنى: وكُنْ قريباً حتى ترى مراجعتَهم. قاله وهب بن منبِّه. وقال ابن زيد: أمْرُه بالتولِّي بمعنى الرجوع إليه، أي: ألقِهِ وارجِعْ. قال: وقوله ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ واتِّساقُ رتبةِ الكلامِ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨ عن وهب بن منبه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٤ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤) ٥/ ١٦١ .

أظهر؛ أي: ألقِهِ ثم تولَّ، وفي خلالِ ذلك فانظر[١] أي: انتظر. وقيل: فاعلم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي: اعلم ماذا يرجعون، أي: يُجيبون وماذا يردُّون من القول. وقيل: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يتراجعون بينهم من الكلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ في الكلام حَذْفٌ، والمعنى: فذهبَ فألقاه إليهم، فسمعها وهي تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾[٢]. ثم وصفتِ الكتابَ بالكريم إمَّا لأنَّه من عند عظيمٍ في نفسِها ونفوسِهم، فعظَّمته إجلالاً لسليمان عليه السلام. وهذا قول ابن زيد. وإمَّا أنها أشارت إلى أنَّه مطبوعٌ عليه بالخاتم، فكرامةُ الكتابِ خَتْمُه، ورُوِيَ ذلك عن رسول الله ﷺ[٣]. وقيل: لأنَّه بدأ فيه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد قال ﷺ: «كلُّ كلامٍ لا يُبدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجْذَم»[٤]. وقيل: لأنَّه بدأَ فيه بنفسِه، ولا يفعلُ ذلكَ إلا الجُلَّة. وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك ابن مروان يبايعه: مِنْ عبد الله لعبد الملك بن مروان أميرِ المؤمنين، إنِّي أُقِرُّ لكَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٢٨ .

(٣) سيرد لفظه قريباً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ . والحديث أخرجه أحمد (٨٧١٢)، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٩٤)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وابن حبان (١) وغيرهم من طريق قرة بن عبد الرحمن، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «بحمد الله»، وفي رواية أبي داود: «أجذم»، ورواية أحمد: «أبتر» أو «أقطع»، ورواية الباقين: «أقطع». وقرة بن عبد الرحمن ضعيف.

وأخرجه النسائي (٤٩٥) و(٤٩٦) و(٤٩٧) من طرق عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً، بلفظ: «بذكر الله». ورجَّح الدارقطني في سننه ١/ ٤٢٧ وفي العلل ٨/ ٣٠ هذه الرواية المرسلة على الموصولة. قلنا: ومراسيل الزهري غير معتبرة عند جمهور أهل العلم.

وللحديث طرق أخرى معلولة تنظر في مسند أحمد.

بالسمع والطاعة ما استطعتُ، وإن بَنيَّ قد أقرُّوا لكَ بذلك[١]. وقيل: توهَّمَتْ أنَّه كتابٌ جاء من السماء؛ إذ كان الموصِّل طيراً. وقيل: «كَرِيمٌ»: حسن، كقوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي: مجلسٍ حسن. وقيل: وصَفَتْه بذلك؛ لِما تضمَّنَ من لينِ القول والموعظةِ في الدعاء إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وحُسنِ الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سَبّاً ولا لَعْناً، ولا ما يُغيِّرُ النفس، ومن غير كلامٍ نازلٍ ولا مُستغْلَق؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ ألا ترى إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وكلُّها وجوه حسان وهذا أحسَنُها.

وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحدٌ قبل سليمان[٢]. وفي قراءة عبد الله: «وَإِنَّهُ مِنْ سُليمان» بزيادة واو[٣].

الثانية: الوصف بالكريم في الكتب غاية الوصف؛ ألا ترى قولَه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ وأهلُ الزَّمانِ يصفون الكتابَ بالخطير وبالأثير وبالمبرور؛ فإن كان لملِكٍ قالوا: العزيز، وأسقطوا الكريم غفلةً، وهو أفضلُها خَصلةً. فأمَّا الوصْفُ بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] فهذه عِزَّتُه وليست لأحدٍ إلا له، فاجتنبوها في كتبكم، واجعلوا بدلَها العالي؛ توفيةً لحَقِّ الولاية، وحياطةً للديانة. قاله القاضي أبو بكر بن العربي[٤].

الثالثة: كان رسمُ المتقدِّمين إذا كتبوا أن يبدؤوا بأنفسهم: من فلانٍ إلى فلان،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٧ - ١٤٤٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ ، والكشاف ٣/ ١٤٦ ، وهي قراءة شاذة. ووقع في (د) و(ز) و(ظ): وفي قراءة أبي: «وإنه» بزيادة واو. والمثبت من (م).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٤٨ .

وبذلك جاءت الآثار. وروى الربيع عن أنس قال: ما كانَ أحدٌ أعظمَ حُرمةً من النبيِّ ﷺ، وكان أصحابُه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم[١]. وقال ابن سيرين: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهلَ فارس إذا كتبوا بدؤوا بعُظَمائهم فلا يبدأِ الرجلُ إلَّا بنفسِه»[٢]. قال أبو الليث في كتاب «البستان» له: ولو بدأ بالمكتوبِ إليه جاز[٣]؛ لأنَّ الأمةَ قد اجتمعَتْ عليه وفعلوه لمصلحةٍ رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسنُ في زمانِنا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأنَّ البدايةَ بنفسِه تُعَدُّ منه استخفافاً بالمكتوب إليه، وتكبُّراً عليه، إلَّا أنْ يكتبَ إلى عبدٍ من عبيدِه، أو غُلامٍ من غِلْمانِه.

الرابعة: وإذا وردَ على إنسانٍ كتابٌ بالتحية أو نحوِها ينبغي أن يرُدَّ الجواب؛ لأنَّ الكتابَ من الغائبِ كالسلامِ من الحاضر. ورُوِيَ عن ابن عباسٍ أنَّه كان يرى رَدَّ الكتابِ واجباً كما يرى رَدَّ السلام. والله أعلم.

الخامسة: اتَّفقوا على كَتْبِ «بسم الله الرحمن الرحيم» في أوَّل الكتب والرسائل، وعلى ختْمِها؛ لأنَّه أبعَدُ من الرِّيبة، وعلى هذا جرى الرَّسمُ، وبه جاء الأثرُ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما كتابٍ لم يكن مختوماً فهو أغلَفُ. وفي الحديث: «كَرمُ الكتابِ خَتْمُه»[٤]. وقال بعض الأدباء هو ابن المُقفَّع: مَنْ كتبَ إلى أخيه كتاباً فقدِ استخَفَّ به[٥]؛ لأنَّ الختمَ حَتْمٌ[٦]. وقال أنس: لمَّا أرادَ النبيُّ ﷺ أن

---

(١) وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٨) من حديث سلمان ﷺ.

(٢) إسناده منقطع؛ محمد بن سيرين تابعي، وقد رواه عن النبي ﷺ دون ذكر الصحابي.

(٣) في (م): لجاز.

(٤) من بداية المسألة الثالثة إلى هذا الموضع من بستان العارفين ص٦٣ -٦٤ . والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٨٤) عن ابن عباس ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٩٩ : فيه محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٩) وفيه السدي، وفيه الكلبي وهو متروك أيضاً.

(٥) الكشاف ٣/ ١٤٦ .

(٦) في (م): ختم.

يكتُبَ إلى العجم فقيل له: إنَّهم لا يقبلون إلَّا كتاباً عليه ختم. فاصطنعَ خاتماً، ونقشَ على فَصِّه: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأنِّي أنظرُ إلى وَبِيصِه[1] وبياضِه في كَفِّه[2].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ «وَإِنَّهُ» بالكسر فيهما، أي: وإنَّ الكلام، أو: إن مُبتدأَ الكلامِ «بسم الله الرحمن الرحيم». وأجازَ الفرَّاءُ «أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ» بفَتحِهما جميعاً على أن يكونا في موضع رفع بدلٍ من الكتاب بمعنى: ألقى إليَّ أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصبٍ على حذف الخافض[3]، أي: لأنَّه من سليمان ولأنَّه؛ كأنَّها علَّلتْ كَرمَه بكونه من سليمان وتصديرِه بسم الله. وقرأ الأشهب العُقَيليُّ ومحمد بن السَّمَيْفع: «أَلَّا تَغْلُوا» بالغين المعجمة. ورُويَ عن وهب بن مُنبِّه[4]؛ من غلا يغلو إذا تجاوزَ وتكبَّر[5]. وهي راجعةٌ إلى معنى قراءة الجماعة ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنقادين طائعين مؤمنين[6].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ الملأُ: أشرافُ

---

(١) الوبيص: البريق. اللسان (وبص).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٧٣٨)، والبخاري (٥٨٧٢)، ومسلم (٢٠٩٢). وفي الحديث أن النقش كان: محمد رسول الله.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ عن الأشهب العقيلي، والمحتسب ٢/ ١٣٩ ، والشاذة عن وهب بن منبه، وذكرا أنها قراءة ابن عباس.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٠٩ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١١٦ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٨ ، والكشاف ٣/ ١٤٦ .

القوم[١]. وقد مضى في سورة «البقرة»[٢] القولُ فيه. قال ابن عباس: كان معها ألفُ قَيْل. وقيل: اثنا عشرَ ألفِ قَيْل مع كل قَيْلٍ مئة ألف[٣]. والقَيْلُ: الملِكُ دون الملِكِ الأعظم[٤]. فأخذت في حُسنِ الأدبِ مع قومها، ومشاورتِهم في أمرها، وأعلَمتْهم أنَّ ذلك مُطَّرِدٌ عندها في كلِّ أمرٍ يَعرِضُ، بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فكيفَ في هذه النازلة الكبرى. فراجَعَها الملأُ بما يُقِرُّ عينَها، من إعلامهم إيَّاها بالقوَّة والبأس، ثم سلَّموا الأمرَ إلى نظَرِها؛ وهذه محاورةٌ حسنةٌ من الجميع[٥]. قال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّه كان لها ثلاثُ مئة وثلاثةَ عشَر رجلاً هم أهلُ مشورَتِها، كلُّ رجلٍ منهم على عشرة آلاف[٦].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صِحَّةِ المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ في «آل عمران» [الآية: ١٥٩] إمَّا استعانةً بالآراء، وإمَّا مُداراةً للأولياء. وقد مدحَ اللهُ تعالى الفُضَلاءَ بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٧] [الشورى: ٣٨]. والمشاورةُ من الأمر القديم وخاصَّةً في الحرب، فهذه بلقيس امرأةٌ جاهليةٌ كانت تعبد الشمس ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ لتختبِرَ عَزْمَهم على مقاومة عدوِّهم، وحَزْمَهم فيما يُقيمُ أمرَهم، وإمضاءَهم على الطاعةِ لها، بعلمها بأنَّهم إن لم يبذُلوا أنفُسَهم وأموالَهم ودماءَهم دونها لم يكن لها طاقةٌ بمقاومة عدوِّها، وإن لم يجتمع أمرُهم وحزمُهم وجِدُّهم كان ذلك عوناً لعدوِّهم عليهم، وإن لم تختبِرْ

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٧٧ ، وزاد المسير ٦/ ١٦٨ .

(٢) ٤/ ٢٢٨ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦ . وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٥١ . والقول الثاني أخرجه الطبري ١٨/ ٥٠ – ٥١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٢٠) عن مجاهد. قال الألوسي في روح المعاني ١٩/ ١٩٨ : ولعمري إن أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذي تضمَّنه الخبر .

(٤) الصحاح (قول).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٦ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٨ .

ما عندهم، وتعلَمْ قَدْرَ عزمِهم لم تكن على بصيرةٍ من أمرِهم، وربما كان في استبدادِها برأيها وَهْنٌ في طاعتها، ودخيلةٌ في تقديرِ أمرِهم، وكان في مشاورتهم وأخْذِ رأيهم عونٌ على ما تريده من قوَّةِ شوكَتِهم، وشِدَّةِ مُدافعتِهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. قال ابن عباس: كان من قُوَّةِ أحدِهم أنه يَرْكُضُ فرسَه حتى إذا احتدَّ ضَمَّ فَخِذَيه فحبسه بِقُوَّته.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سلَّموا الأمرَ إلى نظرِها ـ مع ما أظهروا لها من القوَّةِ والبأسِ والشِّدَّة ـ فلمَّا فعلوا ذلك أخبرَتْ عند ذلِكَ بفِعْلِ الملوكِ بالقُرى التي يتغلَّبون عليها. وفي هذا الكلام خَوفٌ على قومِها، وحيطةٌ لهم[1]، واستعظامٌ لأمر سليمان عليه السلام. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادَتْه. وقال ابن عباس: هو من قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ مُعَرِّفاً لمحمدٍ ﷺ وأمَّتِه بذلِكَ ومُخبِراً به[2]. وقال وهب: لمَّا قرأَتْ عليهم الكتابَ لم تعرفِ اسمَ الله، فقالت: ما هذا؟! فقال بعضُ القوم: ما نظُنُّ هذا إلَّا عفريتاً عظيماً من الجِنِّ يقتدِرُ به هذا الملِكُ على ما يُريده. فسكَّتوه. وقال آخر[3]: أراهُمْ ثلاثةً من العفاريت. فسكَّتوه، فقال شابٌّ قد عَلِمَ: يا سيِّدةَ الملوك، إنَّ سليمانَ مَلِكٌ قد أعطاه مَلِكُ السماء مُلْكاً عظيماً، فهو لا يتكلَّم بكلمةٍ إلَّا بدأ فيها بتسمية إلهه، واللهُ اسمُ مَليكِ السماء، والرَّحمنُ الرحيمُ نعوتُه. فعندها قالت: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ فقالوا: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ﴾ في القتال ﴿وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[4] في الحربِ واللقاء ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ ردُّوا أمرَهم إليها لمَّا جرَّبوا على رأيها من البركة ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ف ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أهانوا شُرفاءَها لتستقيمَ لهم الأمور،

---

(١) كلمة «لهم» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٨ .

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الآخر.

(٤) قبلها في (م) كلمة: قوة.

فصدقَ اللهُ قولَها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وقال ابن الأنباري(١): ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ هذا وقفٌ تامٌّ. فقال الله عزَّ وجلَّ تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وشبيهٌ به في سورة «الأعراف» [١٠٩-١١٠]: «قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» تمَّ الكلام، فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. وقال ابن شجرة(٢): هو قول بلقيس، فالوقف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي: وكذلك يفعل سليمانُ إذا دخلَ بلادَنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حُسنِ نظَرِها وتدبيرِها، أي: إنِّي أُجرِّبُ هذا الرجل بهدية، وأُعطيه فيها نفائسَ الأموال(٣)، وأُغرِبُ عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكاً دُنياويًّا أرضاه المالُ وعمِلْنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبيًّا لم يُرضِهِ المالُ ولازَمَنا في أمر الدِّين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتَّبِعَه على دينه، فبعثَتْ إليه بهديةٍ عظيمةٍ أكثرَ الناسُ في تفصيلها(٤)، فقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: أرسلَتْ إليه بلَبِنةٍ من ذهب، فرأتِ الرسلُ الحيطان من ذهبٍ فصَغُر عندهم ما جاؤوا به(٥). وقال مجاهد: أرسلَتْ إليه بمئتي غلامٍ ومئتي جارية(٦). ورُوي عن ابن عباس: باثنتي عشرةَ وصيفةً مُذكَّرين قد ألبسَتْهُم زيَّ الغِلمان، واثني عشر غلاماً مُؤَنَّثين قد ألبسَتْهُم زيَّ النِّساء، وعلى يد الوصائف أطباقُ مِسْكٍ وعنبر، وباثنتي عشرةَ

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٧.

(٢) فيما نقل عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٠٦.

(٣) قبلها في (م): من.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠.

(٦) عرائس المجالس ص ٣١٧، والوسيط ٣/ ٣٧٧.

نَجيبةٍ تحمِلُ لَبِنَ الذَّهب، وبخرزتين إحداهما غيرُ مثقوبة، والأخرى مثقوبةٌ ثَقْباً مِعْوَجًّا، وبقدحٍ لا شيء فيه، وبعصًا كان يتوارثها ملوكُ حِمْيَر، وأنفذَتِ الهدية مع جماعةٍ من قومها. وقيل: كان الرسولُ واحداً، ولكن كان في صحبتِه أتباعٌ وخدم. وقيل: أرسلت رجُلاً من أشرافِ قومِها يُقال له: المنذر بن عمرو، وضمَّتْ إليه رجالاً ذَوي رأيٍ وعقل، والهدية مئةُ وصيفٍ ومئةُ وصيفة، قد خُولِفَ بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلَّمَكم سليمانُ فكلِّموه بكلامٍ فيه تأنيثٌ يُشبِهُ كلامَ النساء، وقالت للجواري: كلِّمْنَه بكلامٍ فيه غِلَظٌ يشبه كلام الرجال، فيُقال: إنَّ الهُدهدَ جاء وأخبر سليمان بذلك كلِّه. وقيل: إنَّ اللهَ أخبرَ سليمانَ بذلك، فأمرَ سليمانُ عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بِلَبنات الذهب والفضة، ثم قال: أيُّ الدوابِّ رأيتُم أحسنُ في البرِّ والبحر؟ قالوا: يا نبيَّ الله، رأينا في بحرٍ كذا دوابَّ مُنقَّطةً مختلفةً ألوانُها، لها أجنحةٌ وأعرافٌ ونواصي. فأمَرَ بها فجاءت فشُدَّت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبِنات الذهب والفضة، وألقَوا لها علوفاتها، ثم قال للجنِّ: عليَّ بأولادكم. فأقامهم ـ أحسنَ ما يكون من الشباب ـ عن يمين الميدان ويساره. ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيِّه في مجلسه، ووضعَ له أربعةَ آلاف كرسيٍّ من ذهبٍ عن يمينه ومثلَها عن يساره، وأجلَسَ عليها الأنبياءَ والعلماء، وأمرَ الشياطينَ والجِنَّ والإنسَ أن يَصطَفُّوا صفوفاً فراسِخَ، وأمرَ السِّباعَ والوحوشَ والهوامَّ والطيرَ فاصطَفُّوا فراسخَ عن يمينه وشماله، فلما دنا القومُ من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدوابَّ التي لم ترَ أعينُهم أحسنَ منها تَروثُ على لَبِناتِ الذهبِ والفضة، تقاصرت إليهم أنفسُهم، ورَموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات: إنَّ سليمانَ لما أمرهم بفرش الميدان بلَبِناتِ الذهبِ والفضة أمرَهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قَدْرِ موضعِ بساطٍ من الأرض غيرَ مفروش، فلمَّا مَرُّوا به خافوا أن يُتَّهموا، بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلمَّا رأوا الشياطينَ رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: جُوزُوا لا بأسَ عليكم. فكانوا

يمرُّون على كُرْدُوسٍ كُرْدُوسٍ من الجِنِّ والإنسِ والبهائمِ والطيرِ والسِّباعِ والوحوشِ حتى وقفوا بين يدَي سليمان، فنظر إليهم سليمانُ نظراً حسناً بوجهٍ طَلْقٍ ـ وقد[١] كانت قالت لرسولها: إنْ نظرَ إليك نظرَ مُغْضَبٍ فاعلَمْ أنَّه مَلِكٌ فلا يهولنَّك منظرُه فأنا أعَزُّ منه، وإنْ رأيتَ الرجلَ بَشّاً لطيفاً فاعلم أنه نبيٌّ مرسلٌ، فتفهَّمْ قولَه ورُدَّ الجواب ـ فأخبر الهدهدُ سليمانَ بذلك على ما تقدَّم. وكانت عمدت إلى حُقَّةٍ من ذهبٍ فجعلت فيها دُرَّةً يتيمةً غيرَ مثقوبة، وخرزةً مُعْوَجَّة الثَّقْبِ، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه: إنْ كنتَ نبيّاً فميِّزْ بين الوُصفاءِ والوصائف، وأخبِرْ بما في الحُقَّة، وعرِّفني رأسَ العصا من أسفلها، وأَثقُبِ الدُّرَّةَ ثَقْباً مستوياً، وأدخِلْ خيطَ الخرزة، واملأِ القدحَ ماءً من ندًى ليس من الأرض ولا من السماء، فلمَّا وصلَ الرسولُ ووقف بين يدَي سليمانَ أعطاهُ كتابَ الملِكة فنظر فيه، وقال: أين الحُقَّة؟ فأتى بها فحرَّكها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان، فقال له الرسول: صدقْتَ، فاثقُبِ الدُّرَّة، وأدخلِ الخيطَ في الخَرَزة. فسأل سليمانُ الجِنَّ والإنسَ عن ثَقْبها فعجزوا، فقال للشياطين: ما الرأيُ فيها؟ فقالوا: تُرسلُ إلى الأَرَضة، فجاءتِ الأَرضةُ فأخذت شعرةً في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تصيرُ رزقي في الشجرة. فقال لها: لكِ ذلك. ثم قال سليمان: مَنْ لهذه الخَرَزة يسلُكها الخيط؟ فقالت دودةٌ بيضاء: أنا لها يا نبيَّ الله. فأخذتِ الدودةُ الخيطَ في فيها ودخلتِ الثَّقْبَ حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتُكِ؟ قالت: تجعل رزقي في الفواكه. قال: ذلكَ لكِ. ثم ميَّز بين الغلمان والجواري[٢]. قال السُّدِّيُّ: أمرَهم بالوضوء، فجعلَ الرجلُ يَحدُرُ الماءَ على اليدِ والرجل حَدْراً، وجعل الجواري يَصبُبْنَ من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميَّزَ بينهم بهذا. وقيل: كانتِ الجاريةُ تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تحمِلُه على الأخرى، ثم

---

(١) كلمة «قد» ليست في (م)، وأثبتت من باقي النسخ.

(٢) كلمة «والجواري» من (م) ومن المصادر.

تضرِبُ به على الوجه، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه، والجاريةُ تصُبُّ على بطن ساعدها، والغلامُ على ظهر الساعد، والجاريةُ تصُبُّ الماءَ صبًّا، والغلام يحدُرُ على يديه؛ فميَّزَ بينهم بهذا[١]. وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جُبير قال: أرسلت بلقيس بمئتي وصيفةٍ ووصيفٍ، وقالت: إنْ كان نبيًّا فسيعلم الذكورُ من الإناث.فأمرهم فتوضَّؤوا، فمَنْ توضَّأ منهم فبدأ بِمِرْفَقِه قبل كفِّه قال: هو من الإناث، ومَنْ بدأ بكفِّه قبل مِرْفَقِه قال: هو من الذُّكور[٢]. ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أيُّ الرأسين سبقَ إلى الأرض فهو أصلُها، وأمر بالخيل فأُجْرِيتْ حتى عَرِقتْ ومُلِأَ القدحُ من عَرَقِها[٣]، ثم ردَّ سليمان الهدية[٤]، فرُوِي أنَّه لمَّا صرف الهدية إليها وأخبرها رسولُها بما شهد؛ قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية: كان النبيُّ ﷺ يقبل الهديةَ ويُثيب[٥] عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائرُ الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنَّما جَعلَتْ بِلقيسُ قبولَ الهدية أو ردَّها علامةً على ما في نفسها، على ما ذكرناه من كونِ سليمانَ مِلِكاً أو نبيًّا؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهذا لا تُقبلُ فيه فدية، ولا يُؤخذُ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تَقرَّر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنَّما هي رِشوةٌ وبيعُ الحقِّ بالباطل، وهي الرِّشوة التي لا تحِلُّ. وأما الهديةُ المُطلَقةُ للتحبُّبِ والتواصل فإنَّها جائزةٌ من كلِّ أحدٍ وعلى كلِّ حال، وهذا ما لم يكن من مشرك.

---

(١) عرائس المجالس ص٣١٨ - ٣١٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٧ - ٤١٩ .قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، والظاهر أن سليمان لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٠ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٢ .

(٤) عرائس المجالس ص٣١٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٩ .

(٥) في (م): ويثبت.

الثالثة: فإن كانت من مشركٍ ففي الحديث: «نُهيتُ عن زَبْدِ المشركين» يعني رِفدَهم وعطاياهم[١]. ورُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قبِلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيليّ[٢]وغيره[٣]، فقال جماعةٌ من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخٌ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هديةً من يطمع بالظهورِ عليه وأخْذِ بلده ودخولِه في الإسلام[٤]. وبهذه الصفة كانت حالةُ سليمان عليه السلام، فعَنْ مثل هذا نهى أن تُقبَلَ هديَّته حملاً على الكفّ عنه، وهذا أحسنُ تأويلٍ للعلماء في هذا؛ فإنَّه جمعَ بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة: الهدية مندوبٌ إليها، وهي مما تُورِثُ المودةَ وتُذهِبُ العداوة؛ روى مالكٌ عن عطاء بن عبد الله الخُراساني قال: قال رسول الله ﷺ: «تَصافحوا يَذهبِ الغِلُّ، وتَهادوا تحابُّوا وتذهَبِ الشَّحناء»[٥]. وروى معاوية بن الحكم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَهادوا فإنَّه يُضعِّفُ الوُدَّ، ويَذهَبُ بغوائلِ الصَّدر». وقال

---

(١) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٩ . والحديث بهذا اللفظ أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذي (١٥٧٧) من حديث عياض بن حمار ﷺ. وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (١٧٤٨٢) بلفظ: «إنا لا نقبل زبد المشركين».

(٢) موطأ مالك ٢/ ٤٥٩ عن ثور بن زيد الديلي، عن أبي الغيث سالم مولى ابن مطيع، عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر... فأهدى رفاعة بن زيد لرسول الله صلى لله عليه وسلم غلاماً أسود يقال له: مِدْعَم... الحديث. وقد أخرجه بنحوه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم(١١٥). وينظر الاستذكار ١٤/ ٢٠١ .

(٣) أخرج أحمد (١٣١٤٨)، والبخاري (٢٦١٥ - ٢٦١٦)، ومسلم (٢٤٦٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، أن أكيدر دومة الجندل أهدى للنبي ﷺ جُبَّةً من سندس.

(٤) التمهيد ٢/ ١٢ ، والاستذكار ١٤/ ٢٠٢ .

(٥) الموطأ ٢/ ٩٠٨ .وإسناده مرسل، ولكن قوله: «تهادوا تحابُّوا» له شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨). وقوله: «وتذهب الشحناء» له شاهد من حديث أبي هريرة ـ أيضاً ـ أخرجه أحمد (٩٢٥٠)، والترمذي (٢١٣٠) بلفظ: «تهادوا فإن الهدية تذهب وغَرَ ـ أو: وَحَرَ ـ الصدر».

الدَّارَقُطْنيُّ: تفرَّدَ به ابن بَحير[١] عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرَّضيِّ، ولا يصِحُّ عن مالكٍ ولا عن الزُّهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «تَهادوا بينكم فإنَّ الهديةَ تُذهِبُ السَّخِيمة». قال ابن وَهْب: سألتُ يونس عن السَّخيمة ما هي؟ فقال: الغِلُّ. وهذا الحديثُ وصلَه الوقَّاصي عثمان عن الزُّهري وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبتَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقبل الهدية، وفيه الأُسوة الحسنة. ومن فضل الهدية مع اتباع السُّنَّةِ أنَّها تزيلُ حزازاتِ النفوس، وتُكسِبُ المُهدي والمُهدَى إليه رنَّةً[٢] في اللقاء والجلوس. ولقد أحسَنَ مَنْ قال:

هدايا الناسِ بعضِهمُ لبعضٍ ... تُوَلِّدُ في قلوبهمُ الوِصالا

وتزرعُ في الضمير هَوًى ووُدّاً ... وتُكسِبُهمْ إذا حضروا جَمالا[٣]

آخر:

إنَّ الهدايا لها حَظٌّ إذا وَرَدتْ ... أحظى من الابن عند الوالدِ الحَدِبِ[٤]

الخامسة: رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «جُلساؤكم شُركاؤكم في الهدية» واختُلِفَ في معناه، فقيل: هو محمولٌ على ظاهره. وقيل: يُشاركهم على وجه الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يُجبَرُ عليه[٥]. وقال أبو يوسف: ذلك في الفواكه ونحوها. وقال بعضهم: هم شركاؤه في السرور لا في الهدية. والخبر محمولٌ في أمثال أصحاب الصُّفَّة والخوانق والرِّباطات؛ أمَّا إذا كان فقيهاً من الفقهاء اختصَّ بها فلا شركةَ فيها لأصحابه، فإنْ أشرَكَهم فذلك كرمٌ وجودٌ منه.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي: منتظرة[٦] ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قال قتادة:

---

(١) في (م): بجير.

(٢) هكذا في النسخ، ولم يتضح لنا معناها، ولعلها: رغبة.

(٣) قائلهما دعبل الخزاعي، وهما في ديوانه ص١٢٠ .

(٤) المسألة كلها في التمهيد ٢١/ ١٧ - ١٩ سوى قوله: ومن فضل الهدية.... في اللقاء والجلوس.

(٥) من بداية المسألة إلى هنا من التمهيد ٢١/ ١٢٤ ، وقال ابن عبد البر عن الحديث: إسناده فيه لين.

(٦) معجم البيان ١٩/ ٢٢٠ .

يَرحمُها الله أن كانت لَعاقلةً في إسلامها وشركها؛ قد علمت أنَّ الهديةَ تقع مَوقعاً من الناس[١]. وسقطتِ الألفُ في «بِمَ» للفرق بين «ما» الخبرية. وقد يجوز إثباتُها[٢]؛ قال:

على ما قامَ يشتمني لئيمٌ كخنزيرٍ تمرَّغ في رَمادِ[٣]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: جاء الرسولُ سليمانَ بالهدية[٤]. قال: «أتُمِدُّونَني بِمالٍ». قرأ حمزة ويعقوب والأعمش: بنونٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ وياءٍ ثابتةٍ بعدها[٥]. الباقون بنونين، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لأنَّها في كلِّ المصاحف بنونين[٦]. وقد روى إسحاق عن نافع أنه كان يقرأ: «أتُمِدُّونِ» بنونٍ واحدةٍ مُخفَّفةٍ بعدها ياءٌ في اللفظ[٧]. قال ابن الأنباري: فهذه القراءة يجب فيها إثباتُ الياء عند

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٠٩.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٠ - ٢١١. ومذهب جواز إثباتها مذهب الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٢.

(٣) قائله حسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص١٩٩.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٣.

(٥) قراءة حمزة في السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١٧٠، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠.

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٦٧.

(٧) الشاذة ص١٠٩، وزاد المسير ٦/ ١٧٢.

الوقف؛ ليصِحَّ لها موافقةُ هجاء المصحف. والأصل في النون التشديد، فُخفِّفَ التشديدُ من ذا الموضع كما خُفِّفَ من: أشهدُ أنْكَ عالِمٌ، وأصله: أنْكَ عالم. وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ: «يُشَاقُّونِ فِيهِم»[١]، «أَتُحَاجُّونِ فِي اللهِ»[٢]. وقد قالتِ العرب: الرجالُ يضربونِ ويقصدونِ، وأصله: يضربونِّي ويقصدونِّي؛ لأنَّه إدغامُ يضربونني ويقصدونني؛ قال الشاعر:

تَرْهبينِ والجِيدُ مِنكِ لِلَيْلَى والحَشَا والبُغَامُ[٣] والعينانِ

والأصلُ ترهبينني فخُفِّفَ. ومعنى «أَتُمِدُّونَنِي»: أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوَّة خيرٌ مما أعطاكم، فلا أفرَحُ بالمال[٤]. و«آتانِ» وقعت في كلِّ المصاحف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص: «آتانِيَ اللهُ» بياءٍ مفتوحة، فإذا وقفوا حذفوا. وأما يعقوب فإنه يُثبِتُها في الوقف ويحذِفُ في الوصل لالتقاء الساكنين. الباقون بغير ياء في الحالين[٥]. ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم أهلُ مفاخرةٍ ومُكاثرةٍ في الدنيا[٦].

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ارجع إليهم بهديتهم[٧]. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لامُ قسَمٍ، والنونُ لها لازمة. قال النَّحَّاس[٨]: وسمعتُ أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لامُ توكيد، وكذا كان عنده أنَّ

---

(١) سلف ١٢/ ٣١٥.

(٢) سلف ٨/ ٤٤٣.

(٣) هو صوت الناقة. اللسان (بغم).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩.

(٥) السبعة ص٤٨٢، والتيسير ص١٧٠ وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٤٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩.

(٧) المصدر السابق.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢١١.

اللاماتِ كلَّها ثلاثٌ لا غير؛ لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض، وهذا قول الحُذَّاقِ من النَّحويِّين؛ لأنهم يردُّون الشيء إلى أصله، وهذا لا يتهيَّأ إلا لمن درب في العربية. ومعنى ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقةَ لهم عليها. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي: من أرضهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ وقيل: «مِنْهَا» أي: من قرية سبأ[1].

وقد سبق ذكر القرية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. ﴿أَذِلَّةً﴾ قد سُلِبوا مُلكَهم وعِزَّهم. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: مُهانون أذلَّاءُ ـ من الصَّغرِ: وهو الذلُّ ـ إن لم يُسلِموا، فرجعَ إليها رسولُها فأخبرها، فقالت: قد عرفتُ أنَّه ليس بملِكٍ ولا طاقةَ لنا بقتال نبيٍّ من أنبياء الله. ثم أمرَتْ بعرشِها فُجعِلَ في سبعة أبياتٍ بعضُها في جوف بعض، في آخر قصرٍ من سبعة قصور، وغلَّقتِ الأبواب، وجعلتِ الحرسَ عليه، وتوجَّهت إليه في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن، تحت كل قَيْلٍ مئة ألف. قال ابن عباس: وكان سليمانُ مَهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فنظر ذات يومٍ رَهَجاً[2] قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بِلقيسُ يا نبيَّ الله[3]. فقال سليمان لجنوده ـ وقال وهب وغيره: للجِنِّ ـ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الله بن شداد: كانت بِلقيسُ على فرسَخٍ من سليمان لمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾[4] وكانت خلَّفَتْ عرشَها بسبأ، ووكَّلت به حَفَظة. وقيل: إنَّها لمَّا بعثت بالهدية بعثت رسُلَها في جندها لِتُغافِصَ[5] سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهَّبَ سليمانُ لها إن كان طالِبَ مُلْكٍ، فلمَّا علم ذلك قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾. قال ابن عباس: كان أمرُه بالإتيان بالعرش قبل أن يكتُبَ الكتابَ إليها، ولم يكتُبْ إليها حتى جاءه العرش.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

(٢) الرهج: الغبار. اللسان (رهج).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤١٩، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ بنحوه.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٤٧٠.

(٥) أي: أخذه على غرة. اللسان (غفص).

وقال ابن عطية: وظاهر الآيات أنَّ هذه المقالةَ من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديَّتها وردِّه إيَّاها، وبَعْثِه الهدهدَ بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأوِّلين. واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها، فقال قتادة: ذُكِرَ له بعِظَمٍ وجَوْدة، فأراد أخْذَه قبل أن يعصِمَها وقومَها الإسلامُ ويحميَ أموالَهم؛ والإسلامُ على هذا: الدِّين. وهو قول ابن جُريج. وقال ابن زيد: استدعاه ليُرِيَها القدرةَ التي هي من عند الله، ويجعلَه دليلاً على نبوَّتِه؛ لأخذه من بيوتها[١] دون جيشٍ ولا حرب، و«مسلِمِينَ» على هذا التأويل بمعنى مستسلمين. وهو قول ابن عباس[٢]. وقال ابن زيد أيضاً: أراد أن يختبر عقلَها؛ ولهذا قال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾[٣]. وقيل: خافتِ الجِنُّ أن يتزوَّجَ بها سليمانُ عليه السلام فيولَدُ له منها ولد[٤]، فلا يزالون في السُّخرة والخِدمة لنسلِ سليمان، فقالت لسليمان: في عقلِها خلل. فأراد أن يمتحِنَها بعرشها[٥]. وقيل: أراد أن يختبر صِدْقَ الهدهدِ في قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. قاله الطبري[٦]. وعن قتادة: أحبَّ أن يراه لمَّا وصفَه الهدهد. والقول الأوَّلُ عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، ولأنَّها لو أسلمت لحظَرَ عليه مالُها فلا يُؤتى به إلَّا بإذنها[٧]. رُويَ أنه كان من فضةٍ وذهبٍ مُرصَّعاً بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان في جوف سبعة أبياتٍ عليه سبعة أغلاق[٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كذا قرأ الجمهور، وقرأ أبو رجاء وعيسى

---

(١) في (ظ): ثقافها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ .

(٤) كلمة «ولد» من (م).

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهو في تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ .

(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ - ٦٤ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

الثقفي: «عِفْرِيَةٌ» ورُويَتْ عن أبي بكر الصديق ﷺ[١]. وفي الحديث: «إنَّ الله يُبغِضُ العِفرِيَةَ النِّفرِية»[٢]. النِّفرية إتباعٌ لعفرية[٣]. قال قتادة: هي الداهية. قال النَّحَّاس: يُقال للشديد إذا كان معه خُبْثٌ ودهاءٌ: عِفْرٌ وعِفْرِيَةٌ وعِفرِيتٌ وعُفَارِيَةٌ. وقيل: «عفريت» أي: رئيس[٤]. وقرأت فِرقة: «قال عِفْرٌ» بكسر العين. حكاه ابن عطية[٥]؛ قال النَّحَّاس: من قال: عِفْرِيةٌ جمَعَه على عِفارٍ، ومن قال: عِفريتٌ كان له في الجمع ثلاثةُ أوجه؛ إن شاء قال: عفاريت، وإن شاء قال: عَفار؛ لأنَّ التَّاءَ زائدة، كما يُقال: طواغٍ في جمع طاغوت، وإن شاء عوَّضَ من التاء ياءً فقال: عَفارِي[٦]. والعفريت من الشياطين: القويُّ المارد، والتاء زائدة. وقد قالوا: تَعَفْرَتَ الرجلُ. إذا تخلَّقَ بخُلُقِ الأذاية[٧]. وقال وهب بن منبّه: اسم هذا العفريت كودن. ذكره النحَّاس[٨]. وقيل: ذكوان. ذكره السُّهيلي[٩]. وقال شعيب الجُبَّائي: اسمه دعوان[١٠]. ورُويَ عن ابن عباس أنه صخر الجِنِّي. ومن هذا الاسم قولُ ذي الرُّمَّة:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهذه القراءة في المحتسب عن أبي رجاء وعيسى الثقفي، وفي الشاذة ص١٠٩ عن أبي رجاء وأبي السمال.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الأمثال (١٣٨) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، مرفوعاً.

وأخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٩٩١٠) من طريق عاصم الأحول، عن أبي عثمان، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٨) في معاني القرآن ٥/ ١٣٣ .

(٩) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(١٠) أخرج الطبري ١٨/ ٦٦ - ٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٦٧) عن شعيب الجبائي أن اسم العفريت: كوزن.

كــأنّــه كــوكــبٌ فــي إِثْــرِ عِــفْــرِيَــةٍ مُصَوَّبٌ في سوادِ الليل مُنْقَضِبُ[١]

وأنشد الكسائيُّ:

إذ قـالَ شـيـطـانُـهُـمُ الـعِـفْـرِيـتُ لـيـسَ لـكـمْ مُـلـكٌ ولا تـثـبِـيـتُ[٢]

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عِفريتاً من الجِنِّ جعل يَفْتِكُ[٣] عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ الصلاةَ، وإنَّ اللهَ أمكنني منه فَذَعَتُّه»[٤] وذكر الحديث، وفي البخاري: «تفلَّت عليَّ البارحةَ» مكان «جعَل يَفْتِكُ»[٥]. وفي «الموطأ» عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسرِيَ برسول الله ﷺ، فرأى عِفريتاً من الجِنِّ يطلبه بشعلةٍ من نار، كُلَّما التفتَ رسولُ الله ﷺ رآه، فقال جبريل: أفلا أُعلِّمكَ كلماتٍ تقولُهنَّ إذا قُلتَهنَّ طُفِئتْ شُعلَتُه وخَرَّ لِفيه؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقال: أعوذُ باللهِ الكريمِ وبكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ التي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ من شرِّ ما ينزل من السماء، وشرِّ ما يَعرُجُ فيها، وشرِّ ما ذرأ في الأرض، وشرِّ ما يخرجُ منها، ومن فتَنِ الليل والنهار، ومن طوارقِ الليلِ والنهارِ، إلَّا طارقاً يَطرُقُ بخيرٍ يا رحمن[٦].

قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: في مجلسه الذي يحكم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ١١١، وفيه «مسوَّم» بدل «مصوَّب». قال شارحه: «مسوم» يريد: الكوكبُ مُعلَّم، ويكون بمعنى: مُخلًّى عنه و«منقضب»: مُنقضٌّ.

(٢) قائله رؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه في مجموع أشعار العرب ص٢٦.

(٣) من الفتك، وأصله: القتل على غفلةٍ وغرَّة. إكمال المعلم ٢/ ١٥٠.

(٤) أي: خنقتُه، والذَّعتُ والدَّعتُ بالذال والدال: الدفع العنيف، والذعتُ أيضاً: المعك في التراب. النهاية (ذعتَ).

(٥) صحيح البخاري (١٢١٠)، وصحيح مسلم (٥٤١). وهو في مسند أحمد (٧٩٦٩). بلفظ البخاري.

(٦) الموطأ ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١. وإسناده معضل. وقد رُوي موصولاً فيما أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٣) عن أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن الأوزاعي، عن إبراهيم بن طريف، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري، عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً. قلنا: أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة له مناكير فيما قاله الذهبي في الميزان ١/ ١٥١.

وللحديث شاهد ضعيف أخرجه أحمد (١٥٤٦٠) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ﷺ.

فيه[١]. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ أي: قويٌّ على حمله، أمينٌ على ما فيه[٢]. ابن عباس: أمينٌ على فرج المرأة. ذكره المَهدوي[٣]. فقال سليمان: أُريدُ أسرعَ من ذلك. ف ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أكثرُ المفسِّرين على أنَّ الذي عنده علمٌ من الكتاب آصف بن بَرْخيا وهو من بني إسرائيل، وكان صِدِّيقاً يحفظُ اسمَ الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أَعْطى، وإذا دُعيَ به أجاب[٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «إنَّ اسمَ اللهِ الأعظَمَ الذي دعا به آصف بن بَرْخيا: يا حيُّ يا قيُّوم»[٥] قيل: وهو بلسانهم: أهيا شراهيا. وقال الزُّهري: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم: يا إلهنا وإله كلِّ شيءٍ إلهاً واحداً لا إله إلا أنتَ، ايتني بعرشها. فمثُلَ بين يديه. وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلهنا وإله كلِّ شيء، يا ذا الجلال والإكرام[٦]. قال السُّهَيليُّ[٧]: الذي عنده علمٌ من الكتاب هو آصف بن بَرْخيا ابن خالة سليمان، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى. وقيل: هو سليمانُ نفسُه. ولا يصِحُّ في سياق الكلام مثلُ هذا التأويل. قال ابن عطية[٨]: وقالت فرقة: هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لمَّا قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ كأنَّ سليمانَ استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ واستَدَلَّ قائلو هذه المقالة بقول سليمان: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ عن مجاهد وقتادة وابن منبِّه، وأخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٦٧ - ٦٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠ .

(٣) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٨ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٠ ، وهذا القول في تفسير الرازي ٢٤/ ١٩٧ ، ومجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ عن ابن عباس ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٠) من كلام ابن إسحاق.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (١٢٦١١) بسياق آخر من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٦) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٥ ، وقول الزهري ومجاهد أخرجهما الطبري ١٨/ ٦٩ - ٧٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٢) و(١٦٣٨٣).

(٧) في التعريف والإعلام ص١٢٨ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

قلتُ: ما ذكره ابنُ عطية قاله النحَّاسُ في «معاني القرآن»[1] له، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. قال ابن[2] بحر: هو مَلَك[3] بيده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت. قال السُّهَيليُّ[4]: وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضَبَّة بن أُدّ، وهذا لا يصِحُّ البتَّة؛ لأنَّ ضَبَّة هو ابن أُدّ بن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعَدّ، ومَعدٌّ كان في مدة بَخْتَنَصَّر، وذلك بعد عهد سليمان بدهرٍ طويل، فإذا لم يكن مَعَدٌّ في عهد سليمان، فكيف ضَبَّةُ بن أُدّ وهو بعده بخمسة آباء؟! وهذا بَيِّنٌ لمن تأمَّله.

ابن لَهِيعة: هو الخَضِر عليه السلام[5]. وقال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجلٌ صالحٌ كان في جزيرةٍ من جزائر البحر، خرجَ ذلك اليوم ينظرُ مَنْ ساكِنُ الأرض، وهل يعبدُ اللهَ أم لا؟ فوجد سليمان، فدعا باسمٍ من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش[6]. وقول سابع: إنَّه رجلٌ من بني إسرائيل اسمه يمليخا كان يعلم اسمَ الله الأعظم. ذكره القُشيري[7]. وقال ابنُ أبي بَزَّة: الرجل الذي كان عنده علمٌ من الكتاب اسمه أسطوم، وكان عابداً في بني إسرائيل. ذكره الغَزنوي[8]. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان عليه السلام؛ أما إنَّ الناسَ يرَونَ أنَّه كان معه اسمٌ وليس ذلك كذلك، إنَّما كان رجلٌ من بني إسرائيل عالمٌ آتاه الله عِلْماً وفِقْهاً قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال: هات. قال: أنت نبيُّ الله ابن نبيِّ الله، فإن دعوت

---

(١) ٥/ ١٣٤ .

(٢) كلمة «ابن» ليست في (ز) و(م).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٤ .

(٤) في التعريف والإعلام ص١٢٨ - ١٢٩ .

(٥) كرامات الأولياء للالكائي ص٧٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢١٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١ .

(٦) عرائس المجالس ص٣٢١ ، وزاد المسير ٦/ ١٧٥ .

(٧) وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦ عن مجاهد.

(٨) وأخرجه اللاكائي في كرامات الأولياء (٢٤) . وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٢١ .

اللهَ جاءكَ به، فدعا اللهَ سليمانُ فجاءه اللهُ بالعرش[١]. وقول ثامن: إنه جبريلُ عليه السلام. قاله النَّخَعي ورُويَ عن ابن عباس[٢]. وعِلْمُ الكتاب على هذا: عِلْمُه بكتب اللهِ المُنزَّلة، أو بما في اللوح المحفوظ. وقيل: علم كتاب سليمان إلى بلقيس[٣]. قال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنَّه رجلٌ صالحٌ من بني إسرائيل اسمه آصف بن بَرْخيا؛ روي أنه صلَّى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبيَّ الله، امدُدْ بصرَكَ. فمدَّ بصرَه نحو اليمن، فإذا بالعرش، فما ردَّ سليمانُ بصرَه إلَّا وهو عنده[٤]. قال مجاهد: هو إدامةَ النَّظرِ حتى يرتدَّ طَرْفُه خاسئاً حسيراً[٥]. وقيل: أرادَ مقدار ما يفتح عينَه ثم يطرف، وهو كما تقول: افعل كذا في لحظة عين. وهذا أشبه[٦]؛ لأنَّه إن كان الفعلُ من سليمان فهو معجزة، وإنْ كان من آصف أو من غيرِه من أولياء الله فهي كرامة، وكرامةُ الوليِّ معجزةُ النبيِّ. قال القشيريُّ: وقد أنكرَ كراماتِ الأولياء مَنْ قال: إنَّ الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وعند هؤلاء ما فعل العفريتُ فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإنَّ الجِنَّ يقدرون على مثل هذا. ولا يقطعُ جوهرٌ في حالٍ واحدةٍ مكانين، بل يُتَصوَّرُ ذلك بأنْ يَعدِمَ اللهُ الجوهرَ في أقصى الشرق ثم يُعيده في الحالة الثانية، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدِمُ الأماكنَ المتوسطة ثم يعيدُها. قال القشيري: ورواه ابن[٧] وهب عن مالك. وقد قيل: بل جيء به في الهواء.

(١) عرائس المجالس ص٣٢١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ١٧٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦١.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٢٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦١.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ١٧٥. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩٤).

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢١.

(٧) كلمة «بن» من (ز) و(ظ).

قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة[١]. وقال مالك: كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام[٢]. وفي التفاسير: انخرقَ بعرشِ بلقيس مكانُه الذي هو فيه، ثم نبعَ بين يدَي سليمان[٣]؛ قال عبد الله بن شدَّاد: وظهر العرشُ من نفقٍ تحت الأرض[٤]. فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ثابتاً عنده. ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي[٥]. ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ قال الأخفش: المعنى: لينظر ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾. وقال غيره: معنى «لِيَبْلُوَني» ليتعبَّدني، وهو مَجاز[٦]. والأصل في الابتلاء: الاختبار، أي: ليختبرني أأشكرُ نعمتَه أم أكفرُها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لا يرجع نَفْعُ ذلك إلَّا إلى نفسه، حيث استوجبَ بشُكرهِ تمامَ النعمةِ ودوامَها والمزيدَ منها. والشكرُ قيدُ النعمةِ الموجودة، وبه تُنالُ النعمةُ المفقودة[٧]. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ أي: عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ في التفضُّل[٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيِّروه. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢١٤. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٦) و(١٦٤٠٣).

(٣) الوسيط ٣/ ٣٧٨ عن ابن إسحاق. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٨٩).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٣٩١).

(٥) الوسيط ٣/ ٣٧٨.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢. وكلام الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٥٠.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٠.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢١٤.

أعلاه. وقيل: غُيِّر بزيادةٍ أو نقصان[١]. قال الفرَّاء وغيره: إنَّما أمر بتنكيره لأنَّ الشياطين قالوا له: إنَّ في عقلِها شيئاً فأراد أن يمتحنها[٢]. وقيل: خافتِ الجِنُّ أن يتزوَّج بها سليمان فيولَد له منها ولدٌ، فيبقون مسخَّرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنَّها ضعيفةُ العقل، ورِجلُها كرجل الحمار. فقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ لنعرف عقلها[٣]. وكان لسليمان ناصحٌ من الجِنِّ، فقال: كيف لي أن أرى قدمَيها من غير أن أسألَها كشفَها؟ فقال: أنا أجعلُ في هذا القصر ماءً، وأجعلُ فوق الماء زجاجاً، تظنُّ أنه ماءً فترفع ثوبها فترى قدميها، فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ يريد بلقيس، ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ شبَّهته به لأنها خلَّفته تحت الأغلاق، فلم تُقِرَّ بذلك ولم تُنكِرْ، فعَلِمَ سليمانُ كمالَ عقلها. قال عكرمة: كانت حكيمةً فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾. وقال مقاتل: عرَفَتْه ولكن شَبَّهَتْ عليهم كما شَبَّهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم هو[٤]. وقاله الحسين[٥] بن الفضل أيضاً[٦]. وقيل: أراد سليمان أن يُظهِرَ لها أنَّ الجنَّ مُسَخَّرون له، وكذلك الشياطين لتعرفَ أنها نبوَّةٌ وتؤمن به. وقد قيل: هذا في مقابلة تعميتِها الأمرَ في باب الغلمان والجواري.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ قيل: هو من قول بلقيس، أي: أوتينا العلمَ بصحة نبوَّة سليمانَ من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مُنقادينَ لأمره. وقيل: هو من قول

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٤ .

(٣) عرائس المجالس ص٣٢١ عن وهب بن منبه ومحمد بن كعب.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: الحسن.

(٦) عرائس المجالس ص٣٢٢ .

سليمان، أي: أوتينا العلم بقدرة اللهِ على ما يشاء من قَبْلِ هذه المرأة[١]. وقيل: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعةً من قَبْلِ مجيئها[٢]. وقيل: هو من كلام قومِ سليمان[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الوقف على «مِنْ دُونِ اللهِ» حسنٌ، والمعنى: منعَها من أن تعبُدَ اللهَ ما كانت تعبدُ من الشمس والقمر، فـ«ما» في موضع رفع[٤]. النحّاس[٥]: المعنى: أي: صدَّها عبادتُها من دون الله وعبادتُها إيَّاها عن أن تعلمَ ما عَلِمناه عن أن تُسلم[٦]. ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصب، ويكون التقدير: وصدَّها سليمانُ عمَّا كانت تعبد من دون الله، أي: حالَ بينها وبينَه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدَّها الله، أي: منعَها اللهُ عن عبادتها غيرَه، فحُذِفَتْ «عن» وتعدَّى الفعل. نظيره ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. وأنشد سيبويه:

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوِّ أصبحتْ كِراماً مواليها لئيماً صَميمُها[٧]

وزعم أنَّ المعنى عنده نُبِّئْتُ عن عبد الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ قرأ سعيد بن جبير: «أنها» بفتح الهمزة[٨]، وهي في موضع نصبٍ بمعنى: لأنَّها. ويجوز أن يكون بدلاً من «ما» فيكون في موضع رفعٍ إن كانت «ما» فاعلةَ الصَّدِّ. والكسرُ على الاستئناف.

---

(١) في (م): المرة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢١، وزاد المسير ٦/ ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢١٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٥.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٢ - ٢١٣.

(٦) عبارة: «عن أن تسلم» من (م) وإعراب القرآن.

(٧) الكتاب ١/ ٣٩ ونسبه للفرزدق. وصميم الشيء: خالصه. الصحاح (صمم).

(٨) وهي في الشاذة ص١١٠.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ التقدير عند سيبويه: ادخلي إلى الصَّرح، فحذَفَ إلى وعدَّى الفعل. وأبو العباس يُغلِّطه في هذا؛ قال: لأنَّ دخلَ يدلُّ على مدخول[1]. وكان الصَّرحُ صحناً من زجاجٍ تحتَه ماءٌ وفيه الحيتان[2]، عمله لِيُريَها مُلكاً أعظمَ من مُلكِها. قاله مجاهد[3]. وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: ماء[4]. وقيل: الصرح القصر. عن أبي عبيدة[5]. كما قال:

تَـحـسِـب أعـلامَـهـنَّ الـصُّـروحَـا[6]

وقيل: الصَّرْح: الصَّحْن، كما يُقال: هذه صَرحةُ الدَّارِ وقاعتُها، بمعنًى. وحكى أبو عبيد[7] في الغريب المُصنَّف أنَّ الصَّرحَ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ من الأرض، وأنَّ الممرَّدَ: الطويلُ. النحَّاس: أصلُ هذا أنَّه يُقال لكلِّ بناءٍ عُمِلَ عملاً واحداً: صرح؛ من قولهم: لبنٌ صريح إذا لم يَشُبه ماء، ومن قولهم: صَرَّحَ بالأمر، ومنه: عربيٌّ صريح[8]. وقيل: عَمِلَه ليختبرَ قولَ الجِنِّ فيها: إنَّ أمَّه من الجن، ورِجلَها رِجلُ حمار. قاله وهب بن مُنبِّه[9]. فلمَّا رأتِ اللُّجَّةَ فزِعَتْ وظنَّتْ أنَّه قصدَ بها الغرق، وتعجَّبتْ من

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٢ .

(٣) ذكره ابن الجوزي ٦/ ١٧٨ عن وهب بن منبه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٢ ، والطبري ١٨/ ٨٣ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٩٥ .

(٦) عجز لبيت، صدره: على طُرُقٍ كنحورِ الظِّباء. وقائله أبو ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٣٦ .

(٧) في(م): أبو عبيدة.

(٨) من قوله: وقال قتادة... إلى هذا الموضع من معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٨ - ١٣٩ .

(٩) عرائس المجالس ص٣٢١ .

كونِ كرسيِّه على الماء، ورأتْ ما هالَها، ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأمر. ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فإذا هي أحسنُ الناسِ ساقاً، سليمةٌ ممَّا قالتِ الجِنُّ، غيرَ أنَّها كانت كثيرةَ الشَّعر، فلمَّا بلغت هذا الحدَّ، قال لها سليمان بعد أن صرفَ بصرَه عنها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ والممرد: المحكوكُ المملَّس، ومنه الأمرد[1]. وتمرَّدَ الرجلُ إذا أبطأَ خروجُ لحيتِه بعد إدراكه. قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداءُ التي لا ورقَ عليها. ورملةٌ مرداءُ إذا كانت لا تُنْبِتُ. والممرد أيضاً: المُطوَّل، ومنه قيل للحصن: مارد[2]. أبو صالح: طويلٌ على هيئة النخلة[3]. ابن شجرة: واسعٌ في طوله وعرضه. قال:

غـدَوتُ صبـاحـاً بـاكـراً فـوجـدتُـهـمْ قُبيلَ الضُّحى في السَّابريِّ[4] المُمرَّدِ[5]

أي: الدروع الواسعة. وعند ذلك استسلمتْ بِلْقيسُ وأذعنت وأسلمت وأقرَّتْ على نفسها بالظلم، على ما يأتي.

ولمَّا رأى سليمانُ عليه السلام قدمَيها قال لِناصحِه من الشياطين: كيفَ لي أن أقلَع هذا الشَّعرَ من غير مضرَّةٍ بالجسد؟ فدلَّه على عمل النُّورَة، فكانتِ النُّورَةُ والحمَّاماتُ من يومئذٍ[6]. فيُروى أنَّ سليمان تزوَّجها عند ذلك وأسكنَها الشام. قاله الضحاك. وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقَّاش: تزوَّجها وردَّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كلَّ شهرٍ مرة؛ فولدت له غلاماً سمَّاه داود ماتَ في زمانه[7]. وفي بعض الأخبار أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كانت بِلْقيسُ من أحسنِ نساء العالمين ساقين، وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة» فقالت عائشة: هي أحسَنُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٤٤٤) بلفظ: الممرد الطويل.

(٤) أي: الرقيق من الثياب. اللسان (سبر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢١٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٣٧٩.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٢.

ساقينِ منِّي؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أنتِ أحسَنُ ساقينِ منها في الجنة» ذكره القُشيري[١]. وذكر الثعلبي[٢] عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أوَّلُ منِ اتَّخذَ الحمَّاماتِ سليمانُ بن داود، فلمَّا ألصقَ ظهرَه إلى الجدارِ فمسَّه حرُّها قال: أوَّاهٌ من عذاب الله»[٣]. ثم أحبَّها حباً شديداً وأقرَّها على مُلكِها باليمن، وأمرَ الجِنَّ فبَنوا لها ثلاثةَ حصونٍ لم يرَ الناسُ مثلَها ارتفاعاً: سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان، ثم كان سليمانُ يزورها في كلِّ شهرٍ مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام.

وحكى الشعبيُّ أنَّ ناساً من حِمْير حفروا مقبرة الملوك، فوجدوا فيها قبراً معقوداً، فيه امرأةٌ عليها حُلَلٌ منسوجةٌ بالذَّهب، وعند رأسها لوحُ رخامٍ فيه مكتوب:

يا أيُّها الأقوامُ عُوجُوا معا ... وأَرْبِعوا في مَقْبَري العِيسا

لتعلموا أنِّيَ تلكَ التي ... قد كنتُ أُدعَى الدهرَ بِلْقِيسا

شَيَّدْتُ قصرَ الْمُلْكِ في حِمْيرٍ ... قَوْمِي وقِدْماً كان مأنوسا

وكنتُ في مُلْكي وتدبيرِهِ ... أُرْغِمُ في اللهِ المَعَاطِيسا

بَعْلي سليمانُ النبيُّ الذي ... قد كان للتوراةِ دِرِّيسا

وسُخِّرَ الريحُ له مركباً ... تَهُبُّ أحياناً رَوامِيسا

مع ابنِ داودَ النبيِّ الذي ... قَدَّسهُ الرحمنُ تَقْديسا[٤]

وقال محمد بن إسحاق ووهب بن مُنبِّه: لم يتزوَّجْها سليمانُ، وإنَّما قال لها:

---

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/٤٩٨ من غير إسناد.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١٤٠، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٦٨ و٨٤، والطبراني في الأوسط (٤٦٤)، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٨٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٥٦٦) من طريق إبراهيم بن مهدي، عن عمر بن عبد الرحمن، عن إسماعيل بن عبد الرحمن الأودي، عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه مرفوعاً. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإسماعيل أحاديثه منكرة، وإبراهيم بن مهدي ضعيف.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ - ٢١٨.

اختاري زوجاً. فقالت: مثلي لا يُنكَحُ وقد كان لي من الملك ما كان. فقال: لابُدَّ في الإسلام من ذلك. فاختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدَان، فزوَّجه إيَّاه وردَّها إلى اليمن، وأمر زَوبعةَ أميرَ جِنِّ اليمن أن يُطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزَلْ أميراً حتى مات سليمان عليه السلام[١]. وقال قومٌ: لم يَرِدْ فيه خبرٌ صحيحٌ لا في أنه تزوَّجها ولا في أنَّه زوَّجها. وهي بِلْقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد بن حدر بن السرح بن الحارث[٢] بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ[٣] بن سام بن نوح. وكان جدُّها الهداهد ملكاً عظيمَ الشأن قد وُلِدَ له أربعون ولداً كلُّهم ملوك، وكان مِلِكَ أرضِ اليمن كلِّها، وكان أبوها السَّرح يقول لملوك الأطراف: ليس أحدٌ منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوَّج منهم، فزوَّجوه امرأةً من الجِنِّ يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بِلْقَمة وهي بِلْقيس، ولم يكن له ولدٌ غيرها. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «كان أحدُ أبَوي بِلْقيسَ جِنِّياً»[٤] فمات أبوها، واختلف عليها قومُها فرقتين، وملَّكوا أمرَهم رجلاً فساءت سيرتُه، حتى فجَرَ بنساء رعيته، فأدركت بلقيسَ الغَيْرةُ، فعرضت عليه نفسَها فتزوَّجها، فسَقَتْه الخمر حتى حزَّتْ رأسَه، ونصبَتْه على باب دارها، فملَّكوها. وقال أبو بَكرة: ذُكِرَتْ بِلقيسُ عند النبيِّ ﷺ فقال: «لا يُفلِحُ قومٌ ولَّوا أمرَهم امرأةً»[٥]. ويُقال: إنَّ سببَ تزوُّجِ أبيها من الجِنِّ أنه كان وزيراً لملكٍ عاتٍ يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوَّج، فصحِبَ مرَّةً في الطريق رجلاً لا يعرفه، فقال: هل لكَ من زوجة؟ فقال: لا أتزوَّجُ أبداً، فإنَّ مَلِكَ بلدِنا يغتصب النساءَ من أزواجهنَّ. فقال: لئِنْ تزوجتَ ابنتي لا

---

(١) عرائس المجالس ص٣٢٣.

(٢) في (م): الحرس.

(٣) في (م): أرفخشذ.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٨٣، وابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٠٩، وأبو الشيخ في العظمة (١١١٣). وفي إسناده سعيد بن بشير، وهو ضعيف. التقريب.

(٥) عرائس المجالس ص٣١٥، والحديث سلف ٢/ ٤٢.

يغتصِبُها أبداً. قال: بل يغتصِبُها. قال: إنَّا قومٌ من الجِنِّ لا يقدِرُ علينا. فتزوَّجَ ابنتَه، فولدت له بِلْقيس، ثم ماتتِ الأمُّ وابتنَتْ بِلْقيسُ قصراً في الصحراء، فتحدَّثَ أبوها بحديثها غلطاً، فنُميَ للملك خبرُها، فقال له: يا فلان، تكون عندكَ هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها، وأنت تعلم حُبِّي للنساء؟! ثم أمر بحبسه، فأرسلت بِلْقيسُ إليه أني بين يديك. فتجهَّز للمسير إلى قصرها، فلما همَّ بالدخول بمَنْ معه أخرجت إليه الجواري من بنات الجنِّ مثلَ صورة الشمس، وقُلْنَ له: ألا تستحي؟! تقول لكَ سيدتُنا: أتَدخلُ بهؤلاء الرجال معكَ على أهلك؟! فأذِنَ لهم بالانصراف ودخل وحده، وأغلقت عليه الباب وقتَلتْه بالنِّعال، وقطعت رأسه، ورمت به إلى عسكره، فأَمَّرُوها عليهم، فلم تزَلْ كذلك إلى أن بلَّغ الهدهدُ خبرَها سليمانَ عليه السلام. وذلك أنَّ سليمان لمَّا نزل في بعض منازله قال الهدهد: إنَّ سليمان قد اشتغل بالنزول، فأرتَفِعُ نحوَ السماء فَأُبصِر طولَ الدنيا وعرضَها. فأبصرَ الدنيا يمناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد، وكان اسمُ ذلك الهدهد عُفير، وكان اسمُ هدهد سليمان يعفور[1]، فقال عُفير اليمن ليعفورِ سليمان: مِنْ أين أقبلتَ؟ وأين تريد؟ قال: أقبلتُ من الشَّام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام. قال: ومَن سليمان؟ قال: مَلِكُ الجِنِّ والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكلٌّ ما بين السماء والأرض. فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد؛ ملكها امرأةٌ يُقال لها: بِلْقيس، تحتَ يدِها اثنا عشر ألف قَيْل، تحتَ يدِ كلِّ قَيْلٍ مئةُ ألفِ مقاتلٍ من سوى النساء والذَّراري، فانطلقَ معه ونظر إلى بِلْقيس ومُلكِها، ورجع إلى سليمانَ وقت العصر، وكان سليمانُ قد فقده وقتَ الصلاةِ فلم يجِدْه، وكانوا على غير ماء. قال ابن عباس في رواية: وقعت عليه نفحةٌ من الشمس. فقال لوزير الطير: هذا موضع مَنْ؟ قال: يا نبيَّ الله، هذا موضع الهدهد. قال: وأينَ ذهب؟ قال: لا أدري أصلحَ اللهُ الملك. فغضب سليمان وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآية. ثم دعا بالعُقَاب سيدِ الطير وأصرمِها وأشدِّها بأساً

---

(١) عبارة: «وكان اسم هدهد سليمان يعفور» من (ظ).

فقال: ما تريدُ يا نبيَّ الله؟ فقال: عليَّ بالهدهد الساعة. فرفع العقابُ نفسَه دون السماء حتى لزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدَي أحدكم، فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو[1] اليمن، فانقضَّ نحوَه، وأنشَبَ فيه مِخْلَبه. فقال له الهدهد: أسألُكَ بالله الذي أقدرَكَ وقوَّاكَ عليَّ إلَّا رحِمْتني. فقال له: الويلُ لك، وثكِلَتْك أمُّك! إنَّ نبيَّ الله سليمانَ حلَفَ أن يُعذِّبكَ أو يذبحَكَ. ثم أتى به فاستقبلَتْه النُّسورُ وسائرُ عساكر الطير. وقالوا: الويل لك، لقد توعَّدكَ نبيُّ الله. فقال: وما قدري وما أنا؟ أما استثنى؟ قالوا: بلى، إنه قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم دخل على سليمانَ فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام، فقال له سليمان: أين كنتَ عن خدمتِكَ ومكانِكَ؟ لأُعذِّبنَّكَ عذاباً شديداً أو لأذبحنَّكَ. فقال له الهدهد: يا نبيَّ الله، اذكُرْ وقوفكَ بين يدَيِ الله بمنزلة وقوفي بين يديك. فاقشعَرَّ جِلدُ سليمانَ وارتعدَ، وعفا عنه. وقال عكرمة: إنَّما صرف اللهُ سليمانَ عن ذبح الهدهد أنه كان بارًّا بوالديه، ينقل الطعام إليهما فيزقُّهما. ثم قال له سليمان: ما الذي أبطأَ بِكَ؟ فقال الهدهد ما أخبرَ اللهُ عن بِلْقيسَ وعرشِها وقومِها[2] حسبما تقدَّم بيانه. قال الماوردي[3]: والقولُ بأنَّ أمَّ بِلْقيسَ جِنِّيةٌ مُستنكَرٌ من العقول؛ لِتَبايُنِ الجنسين، واختلافِ الطَّبْعين، وتفاوت الجِسْمين[4]؛ لأنَّ الآدميَّ جسمانيٌّ والجِنَّ روحانيٌّ، وخلقَ اللهُ الآدميَّ من صلصالٍ كالفخَّار، وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نار، ويمتنع[5] الامتزاجُ مع هذا التبايُن، ويستحيل التناسلُ مع هذا الاختلاف.

قلتُ: قد مضى القول في هذا، والعقلُ لا يُحيله مع ما جاء من الخبر في ذلك،

---

(١) في(م): نحن.

(٢) من قوله: وذلك أن سليمان لما نزل... إلى هذا الموضع من عرائس المجالس ص٣١٣ - ٣١٤ .

(٣) في النكت والعيون ٤/٢١٦ .

(٤) المثبت من النكت والعيون. وفي (د): وتعارف الجسمين. وفي (ز): وتفارق الجسمين. وفي (ظ): وتفارق الجنسين. وفي (م): وتفارق الجِسَّين.

(٥) المثبت من النكت والعيون و(ظ). وفي بقية النسخ: ويمنع.

وإذا نظر في أصل الخلق فأصلُه الماء على ما تقدَّم بيانه، ولا بُعْدَ في ذلك، والله أعلم. وفي التنزيل: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] وقد تقدَّم. وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ على ما يأتي في «الرحمن» [الآية: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بالشرك الذي كانت عليه. قاله ابن شجرة. وقال سفيان: أي: بالظنِّ الذي توهَّمَتْه في سليمان؛ لأنَّها لمَّا أُمرت بدخول الصرح حسِبَتْه لُجَّةً، وأنَّ سليمان يريد تغريقها فيه. فلمَّا بانَ لها أنه صرحٌ مُمرَّدٌ من قواريرَ علمت أنَّها ظلمت نفسَها بذلك الظن[1]. وكُسِرتْ «إنَّ» مُبتدَأةً بعد القول. ومن العرب مَنْ يفتحُها فيُعمِلُ فيها القول. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذا سكَّنتَ «مع» فهي حرفٌ جاء لمعنى بِلا اختلاف بين النَّحْويين، وإذا فتَحْتَها ففيها قولان: أحدهما: أنه بمعنى الظرف اسمٌ. والآخَر: أنه حرفٌ خافضٌ مبنيٌّ على الفتح. قاله النحَّاس[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تقدَّم معناه[3]. ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: أي: مؤمن وكافر. قال: والخصومةُ ما قصَّهُ اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]. وقيل: تخاصُمُهم أنَّ كلَّ فرقةٍ قالت: نحن على الحقِّ دونكم[4].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٣ .

(٣) ٩/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٣٩-١٤٠ ، والنكت والعيون ٤/ ٢١٨ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٨٦ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة[١]؛ المعنى: لِمَ تؤخِّرون الإيمانَ الذي يجلب إليكم الثواب، وتُقدِّمون الكفرَ الذي يُوجبُ العقاب، فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب. وقيل: أي: لِمَ تفعلون ما تستحِقُّون به العقاب، لا أنَّهم التمسوا تعجيل العذاب.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: هلَّا تتوبون إلى الله من الشرك[٢]. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي تُرحموا. وقد تقدم[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشاءمنا[٤]. والشُّؤم النَّحس. ولا شيءَ أضَرُّ بالرأي ولا أفسدَ للتدبير من اعتقاد الطِّيَرة، ومن ظنَّ أنَّ خُوارَ بقرةٍ أو نَعيق غرابٍ يردُّ قضاءً، أو يدفعُ مقدوراً، فقد جهل. وقال الشاعر:

طِيرةُ الدَّهرِ[٥] لا تَرُدُّ قضاءً ... فاعْذِرِ الدَّهرَ لا تَشُبْهُ بلَومِ
أيُّ يومٍ تَخُصُّهُ بسعودٍ ... والمنايا ينزِلْنَ في كلِّ يومِ
ليس يومٌ إلَّا وفيه سعودٌ ... ونحوسٌ تجري لقومٍ فقومِ

وقد كانتِ العربُ أكثرَ الناس طِيرةً، وكانت إذا[٦] أرادت سفراً نفرت طائراً، فإذا طار يَمنةً سارت وتيمَّنتْ، وإن طارَ شمالاً رجعت وتشاءمت، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك وقال: «أَقِرُّوا الطيرَ على وُكُناتِها»[٧] على ما تقدَّم بيانُه في «المائدة»[٨].

---

(١) المصادر السابقة.
(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٠، وزاد المسير ٦/ ١٨٠.
(٣) ١/ ٣٤٢ و٥/ ٣١٢.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٠ عن مجاهد
(٥) في أدب الدنيا والدين: الناس.
(٦) في أدب الدنيا والدين: وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة، وكانت العرب إذا.
(٧) أدب الدنيا والدين ص٢٨٧ - ٢٨٨. والحديث سلف ٩/ ٣٠٦ بلفظ: «أقروا الطير على وكناتها». والوَكْنُ: مأوى الطير في غير عش. اللسان (وكن).
(٨) ٧/ ٢٩٠ - ٢٩١.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: مصائبكم[(١)]. ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ أي: تُمتحنون. وقيل: تُعذَّبون بذنوبكم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي: في مدينة صالحٍ وهي الحِجر[(٣)] ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ أي: تسعة رجالٍ من أبناء أشرافهم[(٤)]. قال الضحَّاك: كان هؤلاء التسعةُ عظماءَ أهل المدينة، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد، فجلسوا عند صخرةٍ عظيمةٍ فقلَبَها اللهُ تعالى عليهم[(٥)]. وقال عطاء بن أبي رباح: بلغني أنَّهم كانوا يُقرِضون الدنانير والدراهم[(٦)]. وذلك من الفساد في الأرض. وقاله سعيد بن المسيِّب. وقيل: فسادُهم أنَّهم يتبعون عوراتِ الناس ولا يسترون عليهم[(٧)]. وقيل غيرُ هذا. واللازمُ من الآية ما قاله الضحَّاك وغيره أنهم كانوا من أوجَهِ القوم وأقناهم وأغناهم، وكانوا أهلَ كفرٍ ومعاصٍ جمَّةٍ، وجملةُ أمرِهم أنهم يفسدون ولا يصلحون.

والرَّهطُ اسمٌ للجماعة، فكأنَّهم كانوا رؤساءَ يتبَعُ كلَّ واحدٍ منهم رهطٌ. والجمع أرْهُط وأراهِط. قال:

يا بؤسَ للحربِ التي وضعتْ أراهِطَ فاستراحوا[(٨)]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢١٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٨٨ عن ابن عباس ﷺ.

(٢) الكشاف ٣/ ١٥١ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٩٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٣ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠ .

(٨) تهذيب اللغة ٦/ ١٧٦ . والبيت قائله سعد بن مالك بن ضبيعة، وهو في معجم الشعراء ص١٤ ، وشرح ديوان الحماسة ٢/ ٥٠٠ .

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدار عاقرِ الناقة. ذكره ابن عطية[١].

قلتُ: واختُلِفَ في أسمائهم، فقال الغزنوي: وأسماؤهم: قُدَار بن سالف ومِصْدَع وأسلم ودهمى ودهيم ودعمى ودعيم وقتال وصداق. ابن إسحاق: رأسهم قُدار بن سالف ومِصْدَع بن مِهْرَع، فاتبعهم سبعة، هم: بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تُعرَفْ أسماؤهم. وذكر الزمخشري[٢] أسماءَهم عن وهب ابن منبِّه: الهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، رياب بن مهرج، مصدع بن مهرج، عمير ابن كردبة، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قُدار بن سالف، وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عُتاةَ قومِ صالح وكانوا من أبناء أشرافهم. السُّهيلي[٣]: ذكر النقَّاش التسعةَ الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسمَّاهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، غيرَ أني أذكُره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكِنْ نذكرُه على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مِصْدَع بن دهر ـ ويقال: دهم ـ وقُدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعمى وهرمى ورعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردي[٤] أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعمى ودعيم وهرمى وهريم وداب وصواب ورياب ومِسْطَح وقُدار، وكانوا بأرض الحجر وهي أرض الشام.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ يجوز أن يكون «تَقَاسَمُوا» فِعلاً مستقبِلاً وهو أمر، أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا. ويجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال، كأنَّه قال: قالوا متقاسمين بالله، ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: «يُفْسِدُون في الأرضِ ولا يُصْلِحون. تَقاسَموا باللهِ» وليس فيها «قالوا»[٥]. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ .

(٢) في الكشاف ٣/ ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٢٩ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢١٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٣ نقله عن الطبري، وهو في تفسيره ٨٨/ ٩٠ -٩١ بنحوه. وقراءة عبد الله =

﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ قراءة العامَّة بالنون فيهما، واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء فيهما، وضمِّ التَّاءِ واللَّام على الخطاب[١] أي: أنهم تخاطبوا بذلك. واختاره أبو عبيد. وقرأ مجاهد وحُميد بالياءِ فيهما، وضمِّ الياءِ واللَّامِ على الخبر[٢]. والبَياتُ: مُباغتةُ العدوِّ ليلاً[٣]. ومعنى ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما حضرنا، ولا ندري مَنْ قتلَه وقتَلَ أهله. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في إنكارنا لقتله[٤]. والمُهْلَك بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع[٥]. وقرأ عاصم[٦] والسُّلميُّ بفتح الميم واللام، أي: الهلاك؛ يُقال: ضربَ يضرِبُ مَضْرَباً أي: ضرباً. وقرأ المُفضَّل وحفص[٧] بفتح الميم وجَرِّ اللام، فيكونُ اسمَ المكان[٨]، كالمجلس لموضع الجلوس، ويجوز أن يكون مصدراً، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرُهم ما رُوي أنَّ هؤلاءِ

= هذه شاذة.

(١) السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٦٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ١٨١ - ١٨٢ ونقلها أيضاً عن أبي رجاء، وهي قراءة شاذة.

(٣) الكشاف ٣/ ١٥٢.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢١٥.

(٦) في رواية أبي بكرٍ عنه كما في السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤. ووقع في النسخ: وقرأ حفص. وهو خطأ؛ لأنَّ حفصاً يقرأ بفتح الميم وكسر اللام كما سيأتي.

(٧) في النسخ: وأبو بكر. والتصويب من السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٤٤.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٠ - ٣٨١، وزاد المسير ٦/ ١٨٢.

التِّسعةَ لمَّا كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالحٌ بمجيء العذاب، اتَّفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دارَ صالحٍ ليلاً ويقتلوه وأهلَه المختَصِّين به؛ قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقَعْنا به ما يستحِقُّ، وإن كان صادقاً كنَّا عجِلْناه قبلنا، وشَفَينا نفوسَنا. قاله مجاهد وغيره[١]. قال ابن عباس: أرسلَ اللهُ تعالى الملائكةَ تلك الليلة، فامتلأت بهم دارُ صالح، فأتى التسعةُ دارَ صالحٍ شاهرينَ سيوفَهم، فقتَلَتْهم الملائكةُ رَضْخاً بالحجارة، فيَرَونَ الحجارةَ ولا يَرَونَ مَنْ يرميها[٢]. وقال قتادة: خرجوا مُسرِعين إلى صالح، فسلَّطَ عليهم ملَكٌ بيده صخرةٌ فقتلَهم[٣]. وقال السُّدِّي: نزلوا على جرفٍ من الأرض، فانهار بهم فأهلكهم اللهُ تحتَه. وقيل: اختفَوا في غارٍ قريبٍ من دار صالح، فانحدرت عليهم صخرةٌ شدَخَتْهم جميعاً، فهذا ما كان من مكرهم[٤]. ومكرُ اللهِ مجازاتُهم على ذلك.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بالصيحة التي أهلكَتْهم[٥]. وقد قيل: إنَّ هلاكَ الكلِّ كان بصيحة جبريل[٦]. والأظهر أن التسعةَ هلكوا بعذابٍ مُفرَد، ثم هلكَ الباقون بالصيحة والدمدمة. وكان الأعمشُ والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون: «أَنَّا» بالفتح. وقال ابن الأنباري[٧]: فعلى هذا المذهب لا يحسُنُ الوقفُ على «عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ» لأنَّ «أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» خبرُ كان. ويجوز أن تجعلَها في موضع رفعٍ على الإتباع للعاقبة. ويجوز أن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ من غير نسبة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣ ، والطبري ١٨/ ٩٤ بنحوه

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٨١ .

(٧) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٨ - ٨١٩ ، وما قبله منه دون نسبة القراءة إلى الحسن. وقد نُسِبت إليه وإلى البقية دون نسبتها إلى الأعمش في إعراب القرآن ٣/ ٢١٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ . وقراءة عاصم وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٦٨.

تجعلَها في موضع نصبٍ من قول الفرَّاء، وخفضٍ من قول الكسائي على معنى: بأنَّا دمَّرْناهم. ويجوز أن تجعلَها في موضع نصبٍ على الإتباع لموضع «كَيْفَ» فمِنْ هذه المذاهب لا يحسُنُ الوقفُ عل «مَكْرِهِمْ». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ» بكسر الألف على الاستئناف[١]، فعلى هذا المذهب يحسُنُ الوقفُ على «مَكْرِهِمْ».

قال النحَّاس[٢]: ويجوز أن تنصِبَ «عَاقِبَةُ» على خبر «كان» ويكون «إِنَّا» في موضع رفعٍ عل أنَّها اسمُ «كان». ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ على إضمارِ مبتدإٍ تبييناً للعاقبة، والتقدير: هي إنَّا دمَّرْناهم؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَيٍّ: «أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ» تصديقاً لفتحها[٣].

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ قراءةُ العامَّةِ بالنَّصبِ على الحال عند الفرَّاء والنحَّاس[٤]، أي: خاليةً عن أهلها خراباً ليس بها ساكن[٥]. وقال الكسائي وأبو عبيدة: «خَاوِيَةً» نصبٌ على القطع، مجازه: فتلكَ بيوتُهم الخاوية، فلما قُطِعَ منها الألف واللام نُصِبَ على الحال، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢].

وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجَحدري: بالرفع[٦] على أنَّها خبرٌ عن «تِلْكَ» و«بُيُوتُهُمْ» بدلٌ من «تِلْكَ»، ويجوز أن تكون «بُيُوتُهُمْ» عطفَ بيان و«خَاوِيَةٌ» خبراً عن «تِلْكَ»، ويجوز أن يكون رفعُ «خَاوِيَةٌ» على أنها خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: هي خاوية، أو بدلٌ من «بُيُوتُهُمْ»؛ لأنَّ النَّكِرةَ تُبدَلُ من المعرفة[٧]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) السبعة ص٤٨٤ ، والتيسير ص١٦٨ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٣) قراءة أُبي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٣/ ١٥٣ عن عيسى بن عمر، وهي قراءة شاذة.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢١٦ ، والبيان ٢/ ٢٢٥ .

﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بصالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله ويخافون عذابه. قيل: آمنَ بصالحٍ قَدْرُ أربعةِ آلاف رجل[1]، والباقون خرجَ بأبدانهم ـ في قول مقاتلٍ وغيره ـ خُرَاجٌ مثلُ الحِمِّص، وكان في اليوم الأوَّل أحمرَ، ثم صار من الغدِ أصفرَ، ثم صار في الثالث أسودَ، وكان عَقْرُ الناقةِ يومَ الأربعاء، وهلاكُهم يومَ الأحد[2]. قال مقاتل: فقعت تلك الخراجات، وصاح جبريلُ بهم خلال ذلك صيحةً فخمدوا، وكان ذلك ضَحوةً. وخرجَ صالحٌ بمن آمن معه إلى حَضْرَمَوت، فلمَّا دخلَها مات صالحٌ؛ فسُمِّيتْ حَضْرَمَوت[3]. قال الضحَّاك: ثم بنى الأربعةُ الآلاف مدينةً يقال لها: حاضورا، على ما تقدَّم بيانُه في قصة أصحاب الرسِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: وأرسلنا لوطاً، أو: اذكُرْ لوطاً[4]. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم. وقال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفِعْلةَ القبيحة الشنيعة[5]. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظمُ لذنوبكم. وقيل: يأتي بعضُكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه[6]. وكانوا لا يستترون عُتوًّا منهم وتمرُّداً[7]

(١) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٥ .

(٢) عرائس المجالس ص٧٢ بنحوه.

(٣) من قوله: وخرج صالح... إلى هذا الموضع من مجمع البيان ١٩/ ٢٣٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ ، وإعراب القرآن ٣/ ٢١٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٢ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٤ .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أعادَ ذِكْرَها لفرط قُبحِها وشنعتِها. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إمَّا أمر التحريم أو العقوبة.

واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من «أَئِنَّكُمْ» فأمَّا الخطُّ فالسبيل فيه أن يُكتبَ بألِفَين على الوجوه كلِّها؛ لأنَّها همزةٌ مُبتدَأةٌ دخلت عليها ألفُ الاستفهام[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: عن أدبار الرجال. يقولون ذلك استهزاءً منهم. قاله مجاهد. وقال قتادة: عابوهم واللهِ بغير عيبٍ بأنَّهم يتطهَّرون من أعمال السوء[٢].

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وقرأ عاصم[٣]: «قَدَرْنا» مخففاً، والمعنى واحد[٤]. يقال: قد قَدَرتُ الشيءَ قَدْراً وقَدَراً وقدَّرتُه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: من أُنذِرَ فلم يقبل الإنذار. وقد مضى بيان هذا في «الأعراف»[٥] و«هود»[٦].

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ قال الفرَّاء: قال أهل

---

(١) إعراب القرآن ٣/٢١٦.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/١٤٣.

(٣) في رواية أبي بكر عنه كما في السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٣٦.

(٤) زاد المسير ٦/١٨٣.

(٥) ٩/٢٧٩ - ٢٨٠.

(٦) ١١/١٨٥ - ١٩٠.

المعاني: قيل للوط: «قُلِ الْحَمْدُ للهِ» على هلاكهم. وخالف جماعةٌ من العلماء الفرَّاءَ في هذا وقالوا: هو مخاطبةٌ لنبينا محمدٍ ﷺ، أي: قُلْ: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحّاس: وهذا أولى؛ لأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطبٌ به عليه الصلاة والسلام إلَّا ما لم يصِحَّ معناه إلَّا لغيره[1]. وقيل: المعنى: أي: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يعني أمته عليه السلام؛ قال الكلبي: اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته[2]. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[3]. وقيل: أمرَ رسولَ الله ﷺ أنْ يتلوَ هذه الآياتِ الناطقةَ بالبراهين على وحدانيَّتِه وقدرتِه على كلِّ شيء وحكمتِه، وأن يستفتحَ بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطَفَين من عباده. وفيه تعليمٌ حسن، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل، وبعثٌ على التيمُّنِ بالذِّكرين والتبرُّكِ بهما، والاستظهارُ بمكانهما على قبول ما يُلقى إلى السامعين، وإصغائِهم إليه، وإنزالِه من قلوبهم المنزلةَ التي يبغيها المستمع. ولقد توارثَ العلماءُ والخطباءُ والوُعَّاظُ كابراً عن كابرٍ هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ أمامَ كلِّ علمٍ مُفاد، وقبل كلِّ عِظَةٍ، وفي مُفتَتَحِ كلِّ خطبة، وتبِعَهم المترسِّلون فأجْرَوا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغيرِ ذلك من الحوادث التي لها شأن[4].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار، أي: لرسالته[5]، وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[6] [الصافات: ١٨١].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٨٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ عن سفيان والسدي. وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ عن ابن عباس. وزاد المسير ٦/ ١٨٥ عن ابن عباس والسدي.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ وأجازَ أبو حاتم «أألله خَيْرٌ» بهمزتين. النحَّاس: ولا نعلم أحداً تابعَه على ذلك؛ لأنَّ هذه المَدَّةَ إنَّما جيء بها فرقاً بين الاستفهام والخبر، وهذه ألفُ التوقيف، و«خَيْرٌ» هاهنا ليس بمعنى: أفضل منك، وإنَّما هو مِثلُ قولِ الشاعر:

أتـهـجـوهُ ولـسـتَ لـه بِـكُـفءٍ فَـشَـرُّكـمـا لـخـيـرِكـمـا الـفِـداءُ[(١)]

فالمعنى: فالذي فيه الشرُّ منكما للذي فيه الخير الفداءُ. ولا يجوز أن يكون بمعنى من؛ لأنَّكَ إذا قلت: فلانٌ شرٌّ من فلان، ففي كلِّ واحدٍ منهما شرٌّ[(٢)]. وقيل: المعنى: آلخيرِ في هذا أم في هذا الذي تشركونه في العبادة؟! وحكى سيبويه: السعادةُ أحبُّ إليك أم الشقاء؛ وهو يعلم أنَّ السعادةَ أحبُّ إليه. وقيل: هو على بابه من التفضيل، والمعنى: آللهُ خيرٌ أم ما تشركون، أي: أثَوابُه خيرٌ أم عقابُ ما تشركون[(٣)]. وقيل: قال لهم ذلك؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ في عبادة الأصنام خيراً، فخاطبهم الله عزَّ وجلَّ على اعتقادهم[(٤)]. وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر[(٥)]. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: «يُشرِكُونَ» بياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب[(٦)]، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. فكان النبيُّ ﷺ إذ قرأ هذه الآية يقول: «بلِ اللهُ خيرٌ وأبقى وأَجلُّ وأكرَمُ»[(٧)].

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال أبو حاتم: تقديره: آلهتكم خيرٌ أم

---

(١) قائله حسان بن ثابت، وقد سلف ١/ ٣٤٩ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣ - ١٤٤ بنحوه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/ ٥٣٨ بنحوه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١ .

(٦) السبعة ص٣٢٤ ، والتيسير ص١٦٨ ، والنشر ٢/ ٣٣٨ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠١ ، والكشاف ٣/ ١٥٤ . وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٨٢) من طريق جابر ابن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر ـ وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عن أبيه علي ابن الحسين مرفوعاً. إسناده منقطع. وفيه جابر الجعفي، وهو ضعيف عند الأكثرين، وقد اتهمه بعضهم بالكذب. ميزان الاعتدال ١/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

من خلقَ السماوات والأرض. وقد تقدَّم. ومعناه: قَدَرَ على خلقِهِنَّ. وقيل: المعنى: أعبادةُ ما تعبدون من أوثانكم خيرٌ أم عبادةُ مَنْ خلَقَ السماوات والأرض؟[١] فهو مردودٌ على ما قبله من المعنى، وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عزَّ وجلَّ وعَجْزِ آلهتهم. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الحديقةُ: البستان الذي عليه حائط. والبهجةُ: المنظر الحسن[٢]. قال الفَرَّاء[٣]: الحديقةُ: البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائطٌ فهو البستان وليس بحديقة. وقال قتادة وعكرمة: الحدائق: النخل ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ والبهجةُ: الزِّينةُ والحُسن؛ يبهج به من رآه[٤]. ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ «ما» للنفي[٥]، ومعناه الحظرُ والمنعُ من فِعْلِ هذا، أي: ما كان للبشر، ولا يتهيَّأُ لهم، ولا يقعُ تحت قدرتهم أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عَجَزةٌ عن مثلها؛ لأنَّ ذلكَ إخراجُ الشيء من العدم إلى الوجود[٦]. قلت: وقد يُستَدَلُّ من هذا على منع تصوير شيء، سواءٌ كان له روح أم لم يكن. وهو قول مجاهد[٧]. ويعضِدُه قوله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: ومَنْ أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلُقُ خلقاً كَخلقي، فليخلقوا ذَرَّةً، أو ليخلقوا حبَّةً، أو ليخلقوا شعيرةً» رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عزَّ وجلَّ...» فذكره[٨]. فعَمَّ بالذمِّ والتهديد والتقبيح كلَّ مَنْ تعاطى تصوير شيءٍ ممَّا خلقه اللهُ وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفردَ به سبحانه من الخلق والاختراع، وهذا

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٩٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢١٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٣٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤ .

(٧) المفهم ٥/ ٤٣٢ .

(٨) صحيح مسلم (٢١١١). وأخرجه أحمد (٧١٦٦)، والبخاري (٧٥٥٩).

واضح. وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ تصويرَ ما ليس فيه روحٌ يجوز هو والاكتساب به[١].
وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: إنْ كنتَ لابُدَّ فاعلاً فاصنَعِ الشجرَ وما لا نفسَ له. خرَّجه مسلم أيضاً[٢]. والمنعُ أولى ـ والله أعلم ـ لِما ذكرنا. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «سبأ»[٣] إن شاء الله تعالى.

ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: هل معبودٌ مع الله يُعينُه على ذلك؟[٤] ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بالله غيره[٥]. وقيل: «يَعْدِلُونَ» عن الحقِّ والقصد، أي: يكفرون[٦]. وقيل: «إِلَٰهٌ» مرفوعٌ بـ «مع» تقديره: أمَعَ اللهِ ـ وَيلَكم ـ إِلٰهٌ؟ والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[٧].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مُستقرًّا. ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: وسطها، مثل: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ يعني جبالاً ثوابتَ تُمسكها وتمنعها من الحركة. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ مانعاً من قدرته؛ لئلَّا يختلطَ الأُجاجُ بالعذب[٨]. وقال ابن عباس: سلطاناً من قدرته، فلا هذا يُغيِّرُ ذاكَ ولا ذاكَ يُغيِّرُ هذا. والحَجْزُ: المنع. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا ثبتَ أنه لا يقدِرُ على هذا غيرُه فلِمَ يعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: كأنهم يجهلون اللهَ فلا يعلمون ما يجِبُ له من الواحدانية.

---

(١) المفهم ٥/ ٤٣٢.

(٢) في صحيحه (٢١١٠).

(٣) عند تفسير الآية (١٣).

(٤) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٣.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥، وزاد المسير ٦/ ١٨٦.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال ابن عباس: هو ذو الضرورة المجهود. وقال السُّدِّيّ: الذي لا حولَ له ولا قوَّة. وقال ذو النون: هو الذي قطعَ العلائق عمَّا دون الله. وقال أبو جعفر وأبو عثمان النَّيسابوري: هو المفلس. وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفعَ يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلةٌ من طاعةٍ قدَّمها. وجاء رجلٌ إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألُكَ بالله أن تدعوَ لي فأنا مضطر. قال: إذاً فاسأله فإنَّه يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه؛ قال الشاعر:

وإنِّي لأدعُو اللهَ والأمرُ ضَيِّقٌ ... عليَّ فما ينفَكُّ أن يَتفرَّجا

وربَّ أخٍ سُدَّت عليه وُجوهُهُ ... أصابَ لها لمَّا دعا اللهَ مَخْرَجا

الثانية: وفي «مسند أبي داود الطيالسي» عن أبي بَكرةَ قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «اللهمَّ رحمتَكَ أرجو فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفةَ عينٍ وأصلِحْ لي شأني كلَّه لا إله إلَّا أنت»[١].

الثالثة: ضَمِنَ اللهُ تعالى إجابة المضطرِّ إذا دعاه، وأخبرَ بذلك عن نفسه؛ والسببُ في ذلك أنَّ الضرورة إليه باللَّجاء ينشأ عن الإخلاصِ، وقطعِ القلب عمَّا سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقِعٌ وذِمَّة، وُجِدَ من مؤمنٍ أو كافر، طائعٍ أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ

---

(١) مسند الطيالسي (٨٦٩). وأخرجه أحمد (٢٠٤٣٠).

عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فيجيبُ المضطرَّ لموضع اضطرارِه وإخلاصِه. وفي الحديث: «ثلاثُ دعواتٍ مُستجاباتٍ لاشَكَّ فيهنَّ: دعوةُ المظلوم، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ الوالدِ على ولده» ذكره صاحب «الشهاب»، وهو حديث صحيح[1]. وفي «صحيح مسلم» عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمعاذ لمَّا وجَّهه إلى أرض اليمن: «واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فليس بينها وبينَ اللهِ حجاب»[2] وفي كتاب «الشهاب»: «اتَّقوا دعوةَ المظلومِ فإنَّها تُحمَلُ على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى: وعِزَّتي وجلالي لأنصُرَنَّكِ ولو بعد حين» وهو صحيحٌ أيضاً[3]. وخرَّجَ الآجُرِّي من حديث أبي ذَرٍّ عن النبيِّ ﷺ: «فإنِّي لا أرُدُّها ولو كانت من فَمِ كافر»[4] فيُجيبُ المظلومَ لموضع إخلاصِه بضرورتِه بمقتضى كرمه، وإجابةً لإخلاصه وإن كان كافراً، وكذلك إن كان فاجراً في دينه؛ ففجورُ الفاجر وكفرُ الكافر لا يعودُ منه نقصٌ ولا وهنٌ على مملكة سيِّده، فلا يمنعه ما قضى للمضطرِّ من إجابته. وفُسِّرَ إجابةُ دعوة المظلوم بالنُّصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهرٍ له، أو اقتصاصٍ منه، أو تسليطِ ظالمٍ أخرَ عليه يقهره كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ

(١) مسند الشهاب (٣١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥١٠).

(٢) صحيح مسلم (١٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٠٧١)، والبخاري (١٤٩٦).

(٣) مسند الشهاب (٧٣٣) من حديث خزيمة بن ثابت ﷺ. وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٨٠٤٣).

(٤) لم نقف عليه عند الآجري في الشريعة، وأخرجه ابن حبان (٣٦١)، وفي إسناده إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، كذبه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢، وكذبه أبو زرعة كما في الميزان ١/ ٧٣.

ولهه شاهد ضعيف لا يفرح به عن أنس بن مالك ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٢٥٤٩).

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ [الأنعام: ١٢٩] وأكَّدَ سرعةَ إجابتها بقوله: «تُحمل على الغمام» ومعناه والله أعلم: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُوكِّلُ ملائكتَه بتلقِّي دعوةِ المظلوم وبحملِها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء ـ والسماء قبلةُ الدعاء ـ ليراها الملائكةُ كلُّهم، فيظهر منه معاونةُ المظلوم، وشفاعةٌ منهم له في إجابة دعوته، رحمةً له. وفي هذا تحذيرٌ من الظُّلمِ جملةً؛ لِما فيه من سخطِ الله ومعصيتِه ومخالفةِ أمره؛ حيث قال على لسان نبيه في «صحيح مسلم» وغيره: «يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُه بينكم مُحرَّماً فلا تظالموا» الحديث[١]. فالمظلوم مضطرٌّ، ويقرب منه المسافر؛ لأنَّه مُنقطعٌ عن الأهل والوطن، مُنفرِدٌ عن الصديق والحميم، لا يسكنُ قلبه إلى مُسعِدٍ ولا مُعينٍ لِغُربته، فتصدُقُ ضرورتُه إلى المولى، فيُخلِصُ إليه في اللَّجاء، وهو المجيبُ للمضطرِّ إذا دعاه، وكذلك دعوةُ الوالدِ على ولده، لا تصدرُ منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته، إلَّا عند تكاملِ عَجْزِه عنه، وصدقِ ضرورتِه، وإياسِه عن برِّ ولده، مع وجود أذيَّتِه، فيُسرِعُ الحقُّ إلى إجابته.

قوله تعالى: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الضُّرَّ. وقال الكلبي: الجور[٢]. ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: سُكَّانَها يُهلِكُ قوماً ويُنشئ آخرين[٣]. وفي كتاب النقَّاش: أي: ويجعل أولادَكم خلَفاً منكم. وقال الكلبي: خلَفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم[٤]. ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ على جهة التوبيخ، كأنه قال: أمَعَ الله ـ ويلَكم ـ إلهٌ؟ فـ «إلهٌ» مرفوعٌ بـ «مع»، ويجوز أن يكونَ مرفوعاً بإضمار أإلهٌ مع الله يفعل ذلك فتعبدوه. والوقف على «مَعَ اللهِ» حسن[٥]. ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ. وأخرجه أحمد (٢١٣٦٧).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٣ .

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨١٩ .

ويعقوب: «يَذَّكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأخبرَ فيما قبلها وبعدها، واختاره أبو حاتم. الباقون بالتاء خطاباً لقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يرشدكم الطريق ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجَّهون إليها بالليل والنهار. وقيل: وجعل مفاوز البر التي لا أعلامَ لها، ولُججَ البحار كأنَّها ظلمات؛ لأنه ليس لها عَلمٌ يُهتدى به. ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: قُدَّام المطر باتفاق أهل التأويل[٢]. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويُعينه عليه ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه.

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كانوا يُقِرُّون أنه الخالق الرازق، فألزمهم الإعادة، أي: إذا قدِرَ على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد. ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حُجَّتكم أنَّ لي شريكاً، أو: حُجَّتكم في أنَّه صنعَ أحدٌ شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبَه على الخلق، ولم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ، لئلَّا يأمنَ أحدٌ من عبيده مكرَه. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا النبيَّ ﷺ عن قيام الساعة[٤]. و«مَنْ» في موضع رفع،

(١) السبعة ص٤٨٤، والتيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٣.

(٤) الكشاف ٣/ ١٥٦.

والمعنى: قُلْ: لا يعلَمُ أحدُ الغيبَ إلّا الله، فإنه بدَلٌ من «مَن». قاله الزجَّاج[١]. الفرَّاء[٢]: وإنما رفَعَ ما بعد «إلا» لأنَّ ما قبلها جحدٌ، كقوله: ما ذهبَ أحدٌ إلّا أبوك. والمعنى واحد. قال الزجَّاج[٣]: ومَنْ نصبَ نصبَ على الاستثناء؛ يعني: في الكلام. قال النحَّاس[٤]: وسمعتُه يحتجُّ بهذه الآية على مَنْ صدَّق منجِّماً، وقال: أخافُ أن يكفر بهذه الآية.

قلت: وقد مضى هذا في «الأنعام»[٥] مستوفى. وقالت عائشة: مَنْ زعمَ أنَّ محمداً يعلم ما في غدٍ فقد أعظَمَ على الله الفِرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ خرَّجه مسلم[٦]. ورُويَ أنه دخل على الحجَّاجِ منجِّمٌ فاعتقله الحجَّاج، ثم أخذ حَصياتٍ فعدَّهُنَّ، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسبَ المنجِّم ثم قال: كذا؛ فأصاب، ثم اعتقلَه فأخذ حَصياتٍ لم يَعدَّهُنَّ فقال: كم في يدي؟ فحسبَ فأخطأ، ثم حسبَ فأخطأ، ثم قال: أيها الأمير، أظنُّك لاتعرِفُ عددَها؟ قال: لا. قال: فإني لا أُصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إنَّ ذلك أحصيتَه فخرج عن حدِّ الغيب، وهذا لم تُحصِه فهو غيبٌ، و﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وقد مضى هذا في «آل عمران»[٧] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي[٨]. وقرأ أبو جعفر وابن

---

(١) فيما نقل عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/٢١٨، وهو في معاني القرآن للزجاج ٤/١٢٧ بنحوه.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) في معاني القرآن ٤/١٢٧.

(٤) في إعراب القرآن ١٣/١٨.

(٥) ٨/٤٠٠ - ٤٠٧.

(٦) في صحيحه (١٧٧)، وقد سلف ٨/٤٠١.

(٧) ٥/٢٧.

(٨) قراءة عاصم ونافع وحمزة والكسائي في السبعة ص٤٨٥، والتيسير ص١٦٨.

كثير وأبو عمرو وحميد: «بَلْ أَدْرَكَ» من الإدراك[١]. وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش: «بَلَ ادَّرَكَ» غير مهموزٍ مشدَّداً[٢]. وقرأ ابن مُحيصن: «بَلْ آدْرَكَ»[٣] على الاستفهام. وقرأ ابن عباس: «بَلَى» بإثبات الياء «أَدَّارَكَ» بهمزة قطع والدال مشدَّدة وألف بعدها؛ قال النحَّاس: وإسناده إسنادٌ صحيح، هو من حديث شُعبة يرفعه إلى ابن عباس. وزعم هارون القارئ أنَّ قراءة أبيٍّ «بَلْ تَدارَكَ عِلْمُهُمْ»[٤]. وحكى الثعلبيُّ أنها في حرف أبيٍّ: «أم تدارك» والعرب تضعُ (بَلْ) موضع (أم) و(أم) موضع (بل) إذا كان في أوّل الكلام استفهامٌ، كقول الشاعر:

فواللهِ لا أدري أسلمى تغوَّلَتْ[٥] أمِ القولُ أم كلٌّ إليَّ حبيبُ

أي: بل كلٌّ[٦]. قال النحَّاس[٧]: القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد؛ لأنَّ أصل «ادَّارَكَ» تدارك؛ أُدغمتِ الدالُ في التاء، وجيء بألف الوصل؛ وفي معناه قولان: أحدهماأنَّ المعنى: بل تكامَلَ علمهم في الآخرة؛ لأنَّهم رأَوا كلَّ ما وُعِدوا به معاينةً، فتكاملَ عِلمُهم به. والقول الآخر: أنَّ المعنى: بل تتابعَ عِلمُهم اليومَ في الآخرة، فقالوا: تكون، وقالوا: لا تكون. القراءة الثانية فيها أيضاً قولان: أحدهما

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٤٨٥ ، والتيسير ص١٦٨ . وقراءة أبي جعفر - وهو من العشرة - في النشر ٢/ ٣٣٩ . قلنا: وما سوى هذه القراءة والتي قبلها فهو من القراءات الشاذة.

(٢) بل بغير تشديدٍ هنا؛ لأن قراءة التشديد سيذكرها المصنف قريباً،وهي - بالتخفيف والتشديد - في المحتسب ٢/ ١٤٢ عن سليمان بن يسار وعطاء بن السائب.

(٣) وقع في (م): «آأدَّرَكَ»، والمثبت من المصادر. وهي في الشاذة ص١١٠ ، والمحتسب ٢/ ١٤٢ وزاد في نسبتها إلى أبي رجاء والحسن وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨ وزاد في نسبتها إلى ابن عباس والحسن.

(٤) وهي في المحتسب ٢/ ١٤٢ ، والشاذة ص١١٠ .

(٥) في (م): تقولت، والتصويب من معاني القرآن للفراء ١/ ٧٢ و٢/ ٢٩٩ ، وتفسير الطبري ٢/ ٤١٣ و١٨/ ١١١ . تغولت المرأة: تلونت. اللسان (غول).

(٦) وحكاه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩٩ . وقراءة أُبي في الشاذة ص١١٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٨ .

(٧) من قوله: وحكى الثعلبي:... إلى هذا الموضع من (م).

أنَّ معناه: كمل في الآخرة، وهو مثل الأوّل؛ قال مجاهد: معناه: يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين. والقول الآخر أنه على معنى الإنكار، وهو مذهب أبي إسحاق؛ واستدلَّ على صحة هذا القول بأنَّ بعده ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[١] أي: لم يُدرِكْ علمُهم علمَ الآخرة. وقيل: بل ضلَّ وغابَ علمُهم في الآخرة فليس لهم فيها علم. والقراءة الثالثة: «بَلِ ادَّرَكَ» فهي بمعنى «بَلِ ادَّارَكَ» وقد يجيء افتعل وتفاعل بمعنى[٢]؛ ولذلك صُحِّح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا. القراءة الرابعة: ليس فيها إلَّا قولٌ واحدٌ يكون فيه معنى الإنكار، كما تقول: أ أنا قاتلتُكَ؟! فيكون المعنى: لم يدرك، وعليه ترجع قراءةُ ابن عباس؛ قال ابن عباس: «بَلَى أَدَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الْآخرَةِ» أي: لم يُدرِكْ. قال الفرَّاء: وهو قولٌ حسنٌ، كأنَّه وجَّهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث، كقولك لرجلٍ تُكذِّبه: بَلَى لعمري قد أدركتَ السَّلَفَ فأنت تَروي ما لا أروي! وأنت تُكذِّبه[٣]. وقراءةٌ سابعة: «بَلَ ادَّرَكَ» بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخِفَّتِها. وقد حُكي نحوُ ذلك عن قطرب في ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ فإنه عدل إلى الفتح. وكذلك و(بعَ الثوبَ) ونحوه[٤]. وذكر الزمخشري في الكتاب[٥]: وقُرِئ «بَلْ أَأَدَّرَكَ» بهمزتين «بَلْ آ أَدَّرَكَ» بألف بينهما «بَلَى أَ أَدَّرَكَ» «أَمْ تَدَارَكَ» «أَمْ أَدَّرَكَ» فهذه ثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يُعلِّلُ وجوهَ القراءات وقال: فإنْ قلتَ: فما وجهُ قراءة «بَلْ أَ أَدَّرَكَ» على الاستفهام؟ قلتَ: هو استفهامٌ على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: «أَمْ أَدَّرَكَ» و«أَمْ تَدَارَكَ» لأنها أم التي

---

(١) من بداية تفسير الآية إلى هذا الموضع ـ سوى ما حكاه الثعلبي وقول مجاهد ـ من إعراب القرآن ٣/٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٦٨ . وذُكرتْ هذه القراءة في السبعة ص٤٨٥ عن الأعشى عن أبي بكر عن عاصم. وهي في الشاذة ص١١٠ عن الحسن والأعرج.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٢٩٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٤٣ .

(٥) الكشاف ٣/١٥٦ - ١٥٧ .

بمعنى بل والهمزة، وأما من قرأ: «بَلَى أَ أَدَّرَكَ» على الاستفهام فمعناه: بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر عِلْمَهم بكونها، وإذا أنكر عِلْمَهم بكونها لم يتحصَّلْ لهم شعورٌ وقتَ كونها؛ لأنَّ العلمَ بوقت الكائن تابعٌ للعلم بكون الكائن. «في الْآخرَةِ» في شأن الآخرة ومعناها.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: في الدنيا. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: بقلوبهم، واحدهم عمو. وقيل: عَمٍ[1]، وأصله عميون؛ حُذِفَتِ الياءُ لالتقاء الساكنين، ولم يَجُزْ تحريكُها لِثِقَلِ الحركةِ فيها[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة[3]. ﴿إذا كُنَّا تُراباً وآباؤُنا أَيِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة: «العنكبوت»[4]. وقرأ أبو عمرو باستفهامين، إلا أنَّه خفَّف الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة أيضاً باستفهامين إلَّا أنهما حقَّقا الهمزتين، وكلُّ ما ذكرناه في السورتين جميعاً واحد. وقرأ الكسائي وابن عامر ورُويس ويعقوب: «أئِذَا» بهمزتين «إِنَّنا» بنونين على الخبر في هذه السورة، وفي سورة «العنكبوت» باستفهامين[5]؛ قال أبو جعفر النحَّاس[6]: القراءةُ «إذَاَ كُنَّا تُراباً وآباؤُنا آيِنَّا لَمُخْرَجُونَ» موافقةٌ للخطِّ حسنةٌ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال: وهذا معنى كلامه: «إذَا» ليس باستفهام و«آيِنَّا» استفهام، وفيه «إنَّ» فكيف يجوز أن يعمل ما في

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٦.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) الآية (٢٩).

(٥) السبعة ص٤٨٥ و٤٩٩، والتيسير ص١٦٩ و١٧٣، والنشر ١/ ٣٧٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠، وما قبله منه.

حيِّزِ الاستفهام فيما قبله؟! فإذا كان فيه استفهامٌ كان أبعد، وهذا إذا سُئِلَ عنه كان مُشكلاً لِما ذكره. وقال أبو جعفر: وسمعت محمد بن الوليد يقول: سألنا أبا العباس عن آيةٍ من القرآن صعبةٍ مُشكِلةٍ، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٨] فقال: إن عمل في «إذَا» «ينبئكم» كان مُحالاً؛ لأنه لا يُنبِّئهم ذلك الوقت، وإن عمل فيه ما بعد «إنَّ» كان المعنى صحيحاً وكان خطأً في العربية أن يعمل ما قبل «إنَّ» فيما بعدها؛ وهذا سؤالٌ بيِّنٌ رأيتُ أن يُذكَرَ في السورة التي هو فيها، فأما أبو عبيد فمالَ إلى قراءة نافع وردَّ على مَنْ جمع بين استفهامين، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وبقوله تعالى: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وهذا الردُّ على أبي عمرو وعاصم وحمزة وطلحة والأعرج لا يلزَمُ منه شيء، ولا يُشبه ما جاء به من الآيةِ شيئاً، والفرق بينهما أنَّ الشرطَ وجوابَه بمنزلة شيءٍ واحد، ومعنى: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾: أفإن مِتَّ خلدوا. ونظير هذا: أَزَيْدٌ مُنطلِقٌ، ولا يُقال: أزيدٌ أمنطلقٌ؛ لأنها بمنزلة شيءٍ واحدٍ وليس كذلك الآية؛ لأنَّ الثاني جملةٌ قائمةٌ بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأوّلُ كلامٌ يصلح فيه الاستفهام، فأمَّا مَنْ حذَفَ الاستفهامَ من الثاني وأثبته في الأول فقرأ: «أئِذَا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا إنَّنا» فحذفه من الثاني؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه بمعنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقدَّم في سورة «المؤمنون»[1]. وكانت الأنبياء يُقرِّبون أمر البعث مبالغةً في التحذير، وكلُّ ما هو آتٍ فقريب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: «قُلْ» لهؤلاءِ الكفار «سِيرُوا» في بلاد

(١) ١٥/٧٨.

الشام والحجاز واليمن. ﴿فَانظُرُوا﴾ أي: بقلوبكم وبصائركم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين لرسلهم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج[1] ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة[2]، وقد تقدَّم ذِكْرُهم[3]. وقرئ: «فِي ضِيقٍ» بالكسر، وقد مضى في آخر «النحل»[4]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: اقترب لكم ودنا منكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: من العذاب. قاله ابن عباس[5]. وهو من رَدِفَه إذا تبعه وجاء في أثره، وتكون اللام أُدخِلَتْ لأنَّ المعنى: اقترب لكم ودنا لكم. أو تكون متعلقةً بالمصدر[6]. وقيل: معناه: معكم. وقال ابن شجرة: تبعكم، ومنه رِدْفُ المرأة؛ لأنه تَبَعٌ لها من خلفها، ومنه قول أبي ذُؤيب:

عادَ السوادُ بياضاً في مَفارِقِهِ لا مَرْحباً ببياضِ الشَّيْبِ إذْ رَدِفا[7]

قال الجوهري[8]: وَأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ في رَدِفَه، مثل تَبِعَه وأتبَعَه بمعنى؛ قال خُزيمة

---

(١) الكشاف ٣/ ١٥٨ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧ .

(٣) ١٢/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٤) ١٢/ ٤٦٤ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤٧ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥ .

(٨) في الصحاح (ردف).

ابن مالك بن نَهد:

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّرَيَّا ظَننتُ بآلِ فاطمةَ الظنُّونا[١]

يعني فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنَزة أحدِ القارِظَيْن.

وقال الفرَّاء[٢]: «رَدِفَ لَكُم»: دنا لكم؛ ولهذا قال: «لَكُمْ». وقيل: رَدِفه ورَدِف له بمعنًى فتُزاد اللامُ للتوكيد. عن الفرَّاء أيضاً[٣]. كما تقول: نَقَدْتُه ونَقَدْتُ له، وكِلْتُه ووَزَنْتُه، وكِلْتُ له ووزَنْتُ له، ونحو ذلك. ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مِن العذابِ، فكان ذلك يوم بدر. وقيل: عذاب القبر[٤]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَه ونِعَمَه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفي صدورهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يُظهِرون من الأمور. وقرأ ابن مُحيصن وحميد: «مَا تَكُنُّ» من كننتُ الشيء إذا سترتُه، هنا وفي «القصص»[٥] تقديرُه: ما تَكُنُّ صدورُهم عليه، وكأنَّ الضميرَ الذي في الصدور كالجسم الساتر. ومن قرأ: «تُكِنُّ» فهو المعروف؛ يقال: أكننتَ الشيء إذا أخفيتَه في نفسك[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال الحسن: الغائبة: هنا: القيامة. وقيل: ما غابَ عنهم من عذاب السماء والأرض. حكاه النقَّاش. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا: ما أخفى الله تعالى عن خلقِه وغيَّبه عنهم،

---

(١) البيت في الأمثال لأبي عبيد ص٣٤٥، وجمهرة الأمثال ١/ ١٢٣.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٩٩.

(٣) نقله عنه البغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٧ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٥) عند الآية (٦٩).

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٤ بنحوه، وقد نسب القراءة إلى ابن محيصن وابن السميفع اليماني، وكذلك في الشاذة ص١١٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦٩.

وهذا عام[١]. وإنَّما دخلتِ الهاءُ في «غَائِبَةٍ» إشارة إلى الجمع، أي: ما من خَصْلةٍ غائبةٍ عن الخلق إلَّا واللهُ عالِمٌ بها قد أثبتها في أمِّ الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّ هؤلاء وما يُعلِنونه. وقيل: أي: كلُّ شيءٍ هو مُثبَتٌ في أمِّ الكتاب يُخرجه للأجل المؤجَّلِ له، فالذي يستعجلونه من العذاب له أجلٌ مضروبٌ لا يتأخَّر عنه ولا يتقدَّم عليه. والكتاب: اللوح المحفوظ، أثبتَ اللهُ فيه ما أراد؛ لِيُعلِمَ بذلك من يشاء من ملائكته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنَّهم اختلفوا في كثيرٍ من الأشياء حتى لعن بعضُهم بعضاً، فنزلت. والمعنى: إنَّ هذا القرآن يُبيِّن لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به[٢]، وذلك ما حرَّفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن[٣] ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّ المؤمنين لأنهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة، فيُجازي المُحِقَّ والمُبطل[٤]. وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيُظهِرُ ما حرَّفوه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الغالب الذي لا يُرَدُّ أمره ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٠.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٢٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧.

شيء[١].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوِّضْ إليه أمرَك واعتمِدْ عليه؛ فإنَّه ناصِرُك[٢]. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الظاهر[٣]. وقيل: المُظهِرُ لمن تدبَّرَ وجه الصواب. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني الكفار؛ لتركهم التَّدبُّر، فهم كالموتى لا حِسَّ لهم ولا عقل. وقيل: هذا فيمن علم أنه لا يؤمن. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصُّمِّ عن قبول المواعظ، فإذا دُعوا إلى الخير أعرضوا وولَّوا كأنهم لا يسمعون، نظيره: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ كما تقدَّم[٤].

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو: «وَلا يَسْمَعُ» بفتح الياء والميم «الصُّمُّ» رفعاً على الفاعل[٥]. الباقون: «تُسْمِعُ» مضارعُ أسمعتَ «الصُّمَّ» نصباً.

مسألة: وقد احتجَّت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أنَّ النبيَّ ﷺ أسمعَ موتى بدرٍ بهذه الآية، فنظرتْ في الأمر بقياسٍ عقليٍّ ووقفت مع هذه الآية. وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما أنتم بِأَسْمَعَ مِنْهم»[٦] قال ابن عطية: فيُشبه أنَّ قصةَ بدرٍ خرقُ عادةٍ لمحمدٍ ﷺ في أنْ رَدَّ الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقالَه، ولولا إخبارُ رسول الله ﷺ بسماعهم لَحملنا نداءه إيَّاهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفَرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١١٦ .

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٤٩ .

(٤) ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٥) قراءة ابن كثير ورواية عباس عن أبي عمرو في السبعة ص٤٨٦ ، وعن ابن كثير وحده في التيسير ص١٦٩ .

(٦) سلف ٩/ ٢٧٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

قلت: روى البخاري ﷺ: حدَّثني عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال: حدَّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قَتادةَ قال: ذَكَر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أنَّ نبيَّ الله ﷺ أمرَ يوم بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذِفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدرٍ خَبيثٍ مُخْبِث، وكان إذا ظهرَ على قومٍ أقام بالعَرْصَةِ ثلاثَ ليال، فلمَّا كان ببدرٍ اليومَ الثالثَ أمرَ براحلتِه فشُدَّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه، قالوا: ما نُرَى ينطلق إلَّا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الرَّكيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلانَ بنَ فُلانٍ، ويا فُلانَ بن فلانٍ، أيَسُرُّكم أنَّكم أطعتُم اللهَ ورسوله؛ فإنَّا قد وجدنا ما وَعَدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتُم ما وَعَد ربُّكم حقًّا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها! فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأسمَعَ لِما أقولُ منهم» قال قتادة: أحياهم اللهُ حتى أسمعهم قولَه توبيخاً وتصغيراً ونِعمةً وحسرةً وندماً. خرَّجه مسلم أيضاً[1]. قال البخاري: حدَّثنا عثمان قال: حدَّثنا عَبْدة، عن هشام، عن أبيه، عن ابن عمر قال: وقفَ النبيُّ ﷺ على قَلِيب بدر فقال: «هل وجدتُم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟» ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول» فذُكر ذلك لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: «إنَّهم الآن لَيعلمونَ أنَّ الذي كنتُ أقولُ لهم هو الحقُّ» ثم قرأتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية[2]. وقد عُورِضَتْ هذه الآية بقصة بدرٍ وبالسلام على القبور، وبما رُويَ في ذلك من أنَّ الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات، وبأنَّ الميت يسمع قَرْعَ النِّعال إذا انصرفوا عنه، إلى غير ذلك، فلو لم يسمَعِ الميتُ لم يُسلَّمْ عليه[3]. وهذا واضحٌ وقد

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٧٦)، وصحيح مسلم (٢٨٧٥). وأخرجه أحمد (١٦٣٥٩).

قال السندي في حاشيته على المسند: «في طَوِيٍّ»: في بئرٍ طَوِيٍّ بالحجارة أو غيرها. «مُخْبِث»: اسم فاعل من أخبث: إذا صاحب الخُبَثاء، أي: كان خبيثاً في ذاته، ثم صار أصحابه خبثاء أيضاً. «الرَّكي»: البئر. «أسرَّكم» أي: أظهَرَ لكم أنكم لو أطعتم كان خيراً. «ما تُكلِّمُ» أي: أيُّ كلامٍ تكلم وما فائدته.

(٢) صحيح البخاري (٣٩٨٠ - ٣٩٨١). وأخرجه أحمد (٤٩٥٨)، ومسلم (٩٣٢): (٢٦). ورواية أحمد ليس فيها قراءة الآية.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

بيَّناه في كتاب «التذكرة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: كفرهم، أي: ليس في وُسعِكَ خلق الإيمان في قلوبهم.

وقرأ حمزة: «وما أنْتَ تَهْدي الْعُمْيَ عَنْ ضَلالَتِهِمْ» كقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [يونس: ٤٣]. الباقون: «بِهَادِي الْعُمْي» وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وفي «الروم»[٢] مثله[٣]. وكلُّهم وقفَ على «بِهَادِي» بالياء في هذه السورة وبغير ياء في «الروم» اتباعاً للمصحف، إلَّا يعقوب فإنه وقفَ فيهما جميعاً بالياء[٤]. وأجاز الفرَّاء وأبو حاتم: «وما أَنْتَ بهَادٍ الْعُمْيَ» وهي الأصل. وفي حرف عبد الله: «وَما أَنْ تَهْدِي الْعُمْيَ». ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تسمع[٥]. ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال ابن عباس: أي: إلَّا من خلقتَه للسعادة فهم مخلصون في التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ اختُلِفَ في معنى وقع القول وفي الدابة، فقيل: معنى «وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ»: وجَبَ الغضبُ عليهم. قاله قتادة. وقال مجاهد: أي: حَقَّ القولُ عليهم بأنهم لا يؤمنون. وقال ابن عمر وأبو

---

(١) ١/١٤٤ - ١٤٥.

(٢) عند الآية (٥٣).

(٣) السبعة ص٤٨٦، والتيسير ص١٦٩.

(٤) النشر ٢/١٣٨ و١٣٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٠ - ٢٢١.

سعيد الخدريّ رضي الله عنهما: إذا لم يأمُروا بالمعروف ويَنْهَوا عن المنكر وجَبَ السَّخطُ عليهم[١]. وقال عبد الله بن مسعود: وَقْعُ القولِ يكون بموت العلماء، وذهابِ العلم، ورفعِ القرآن. قال عبدالله: أكثروا تلاوةَ القرآن قبل أن يُرفَعَ. قالوا: هذه المصاحف تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسرَى عليه ليلاً فيصبحون منه قَفْراً، وينسون لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع القولُ عليهم.

قلتُ: أسنده أبو بكر البزَّار قال: حدَّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقَفي قال: حدَّثنا عبد المجيد بن عبد العزيز، عن موسى بن عُبيدة، عن صفوان بن سليم، عن [ناجية ابن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ﷺ][٢] أنه قال: أكْثِروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع ويَنسى الناسُ مكانَه، وأكْثِروا تلاوةَ القرآن من قبل أن يُرفَع. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه المصاحفُ تُرفَعُ فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: فيُصبحون فيقولون: كنَّا نتكلَّم بكلامٍ ونقول قولاً، فيرجعون إلى شعرِ الجاهلية وأحاديثِ الجاهلية، وذلك حين يقَعُ القولُ عليهم[٣]. وقيل: القولُ: هو قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة:١٣] فوقوعُ القولِ وجوبُ العقاب على هؤلاء، فإذا صاروا إلى حَدٍّ لا تُقبَلُ توبتُهم ولا يولَدُ لهم ولدٌ مؤمنٌ فحينئذٍ تقوم القيامة. ذكره القُشيري.

وقول سادس: قالت حفصة بنت سيرين: سألتُ أبا العالية عن قول الله تعالى:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ . وقول ابن عمر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٥ ، والطبري ١٨/ ١٢٠ و١٢١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٥).

(٢) في جميع النسخ: «ابنٍ لعبد الله بن مسعود عنه عن أبيه» والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٣٤١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٨٦) من طريق موسى بن عبيدة، به.
وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٠٢٦) من طريق موسى بن سعد، عن ناجية، به.
وأخرجه عبد الرزاق (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤ ، والطبراني في الكبير (٨٦٩٨ و٨٦٩٩ و٨٧٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٠٤ من طريق شداد بن معقل، عن ابن مسعود بنحوه. وصححه الذهبي في التلخيص.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ فقال: أوحى الله إلى نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وكأنَّما كان على وجهي غطاءٌ فكُشِفَ. قال النحَّاس: وهذا من حُسن الجواب؛ لأنَّ الناس مُمتَحَنون ومُؤخَّرون؛ لأنَّ فيهم مؤمنين وصالحين، ومَنْ قد عَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنه سيؤمن ويتوب؛ فلهذا أُمهِلوا وأُمِرْنا بِأخْذِ الجزية، فإذا زالَ هذا وجبَ القولُ عليهم، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[١].

قلت: وجميعُ الأقوال عند التأمُّلِ ترجع إلى معنًى واحد. والدليلُ عليه آخِرُ الآية: «إِنَّ النَّاسَ كانُوا بآياتِنا لا يُوقِنُونَ». وقُرِئ: «أَنَّ» بفتح الهمزة، وسيأتي. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خَرَجْنَ لا ينفَعُ نفساً إيمانُها [لم تكُنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسبَتْ في إيمانها خيراً][٢]: طلوعُ الشمس من مغربها، والدجال، ودابَّةُ الأرض» وقد مضى[٣]. واختُلِفَ في تعيين هذه الدابة وصِفَتِها ومِنْ أين تخرجُ اختلافاً كثيراً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤]، ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفًى. فأوّل الأقوال أنَّه فَصِيلُ ناقة صالح وهو أصحُّها ـ والله أعلم ـ لِما ذكره أبو داود الطيالسي في «مسنده» عن حذيفة قال: ذكرَ رسولُ الله ﷺ الدابَّة فقال: «لها ثلاث خَرَجاتٍ من الدهر: فتخرجُ في أقصى البادية، ولا يدخلُ ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمنُ زماناً طويلاً، ثم تخرجُ خرجةً أخرى دون ذلك فيفشو ذِكْرُها في البادية، ويدخل ذِكْرُها القرية ـ يعني مكة ـ» قال رسول الله ﷺ: «ثمَّ بينما الناسُ في أعظم المساجد على الله حُرمةً خيرِها وأكرمِها على الله المسجدِ الحرامِ، لم يَرُعْهُم إلَّا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفُضُ عن رأسِها التراب،

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ وقول حفصة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٣، والطبري ١٨/ ١٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩١).

(٢) ما بين حاصرتين من صحيح مسلم، وهو ليس في النسخ.

(٣) صحيح مسلم (١٥٨)، وقد سلف ٩/ ١٢٨.

(٤) ٢/ ٦٩٦ - ٧٠٢.

فارفَضَّ(١) الناسُ معها(٢) شتَّى ومعاً، وتثبتُ عصابةٌ من المؤمنين، وعرفوا أنهم لن يُعجزوا اللهَ، فبدأتْ بهم فجَلَّتْ وُجوهَهم حتى جعلَتْها كأنَّها الكوكبُ الدُّرِّيُّ، وولَّتْ في الأرض لا يُدرِكُها طالبٌ، ولا ينجو منها هارب، حتى إنَّ الرَّجلَ لَيَتعوَّذُ منها بالصلاة فتأتيه مِنْ خلفِه فتقول: يا فلان، الآن تُصلِّي؟ فتُقبِلُ عليه فتَسِمُه في وجهه، ثم تنطلِقُ، ويشترك الناسُ في الأموال، ويصطحبون(٣) في الأمصار، يُعرَفُ المؤمنُ من الكافر، حتى إنَّ المؤمن يقول: «يا كافر اقْضِ حَقِّي»(٤) وموضعُ الدليلِ من هذا الحديث أنَّه الفصيل قولُه: «وهي ترغو» والرُّغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أنَّ الفصيلَ لمَّا قتلت الناقة هرب، فانفتح له حجرٌ فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عزَّ وجلَّ. ورُوِيَ أنَّها دابةٌ مزغبةٌ شعراء، ذاتُ قوائم(٥)، طولُها ستون ذراعاً(٦)، ويقال: إنها الجساسة. وهو قول عبد الله بن عمر(٧). ورُوي عن ابن عمر

(١) أي: تفرق. النهاية (رفض).

(٢) في النسخ: منها. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٣) في النسخ: ويصطلحون. والمثبت من مسند الطيالسي والمصادر.

(٤) مسند الطيالسي (١٠٦٩). بإسنادين: الأول: عن جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن رجل من آل مسعود، عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً. في إسناده إبهام الراوي عن حذيفة. والثاني: عن طلحة بن عمرو، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبي الطفيل، عن حذيفة مرفوعاً. طلحة بن عمرو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٠ - ٣٤٢ .وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٣) من طريق الطيالسي، بالإسنادين معاً.

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢٣٤٥)، والطبراني في الكبير (٣٠٣٥)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٢٨ من طريق طلحة بن عمرو، به.

وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٤ والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ من طريق واصل مولى ابن عيينة، كلاهما عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد موقوفاً، والفاكهي (٢٣٤٤)، والحاكم ٤/ ٤٨٤ من طريق قيس بن سعد، والطبري ١٨/ ١٢٢ - ١٢٣ وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ عن ابن عباس ﷺ، وزاد المسير ٦/ ١٩١ عن مقاتل.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٠ عن حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعاً.

(٧) الكشاف ٣/ ١٥٩ .

أنها على خِلقة الآدميين، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض. ورُويَ أنها جُمِعتْ من خلقِ كلِّ حيوان[١].

وذكر الماوردي[٢] والثعلبي: رأسُها رأسُ ثور، وعينُها عينُ خنزير، وأذنُها أذنُ فيل، وقرنُها قرنُ أيل، وعنقُها عنقُ نعامة، وصدرُها صدرُأسد، ولونُها لونُ نمر، وخاصرتها خاصرةُ هِرّ، وذنبُها ذنبُ كبش، وقوائمُها قوائمُ بعير، بين كلِّ مَفْصلٍ اثنا عشر ذراعاً ـ الزمخشري[٣]: بذراع آدم عليه السلام ـ ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فتنكتُ في وجه المسلم بعصا موسى نكتةً بيضاء فيبيَضُّ وجهُه، وتنكتُ في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسوَدُّ وجهُه. قاله أبو الزبير[٤].

وفي كتاب النقَّاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الدابةَ الثعبانُ المشرفُ على جدار الكعبة التي اقتلعَتْها العُقاب حين أرادت قريشٌ بناءَ الكعبة[٥].

وحكى الماورديُّ[٦] عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سُئِلَ عن الدابةِ فقال: أما واللهِ ما لها ذَنَبٌ وإنَّ لها لَلِحية. قال الماوردي: وفي هذا القول منه إشارةٌ إلى أنَّها من الإنس وإن لم يُصرِّحْ به.

قلت: ولهذا ـ والله أعلم ـ قال بعض المتأخرين من المفسرين: إنَّ الأقربَ أن تكون هذه الدابةُ إنساناً متكلِّماً يُناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا، فيهلِكَ من هَلَكَ عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة. قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠ .

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ١٩٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٧).

(٣) في الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٤) وهو محمد بن مسلم بن تدرس، وقد وقع في النسخ: ابن الزبير، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم وزاد المسير.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧١ .

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٥٩٦).

القرطبي في كتاب «المفهم»(١) له: وإنَّما كان عند هذا القائلِ الأقربُ لقوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آيةٌ خاصةٌ خارقةٌ للعادة، ولا يكون من العشر الآياتِ المذكورة في الحديث؛ لأنَّ وجودَ المُناظرين والمُحتَجِّين على أهل البدع كثيرٌ، فلا آيةَ خاصةٌ بها، فلا ينبغي أن تُذكَرَ مع العشر، وترتفعُ خصوصيةُ وجودِها إذا وقعَ القولُ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظرِ الفاضلِ العالمِ الذي على أهل الأرض أن يُسمُّوه باسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يُسمَّى بدابَّة، وهذا خروجٌ عن عادة الفُصحاء، وعن تعظيم العُلماء، وليس ذلك دأبُ العقلاء، فالأولى ما قاله أهل التفسير، والله أعلم بحقائق الأمور.

قلتُ: قد رفعَ الإشكالَ في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليُعتمَدْ عليه. واختُلِفَ من أيِّ موضع تخرج، فقال عبد الله بن عمر: تخرج من جبل الصفا بمكة؛ يتصدَّعُ فتخرج منه(٢). قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال: لو شئتُ أن أضعَ قدمي على موضع خروجِها لفعلتُ(٣). وروى في خبرٍ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الأرضَ تنشَقُّ عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى، وأنَّها تخرج من الصفا فتَسِمُ بين عينَي المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب دُرِّيٌّ، وتَسِمُ بين عينَي الكافر نكتةً سوداء كافر» وذكر في الخبر أنها ذاتُ وبرٍ وريش. ذكره المهدوي(٤). وعن ابن عباس أنَّها تخرج من شِعْبٍ فتَمسُّ رأسَها السحابُ ورجلاها في الأرض لم تخرجا(٥)، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام(٦).

(١) ٧/ ٢٤٠ - ٢٤١، وما قبله منه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢١، وزاد المسير ٦/ ١٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤.

(٤) وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٤ - ١٢٥ من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٧٩٣٧)، والترمذي (٣١٨٧)، وابن ماجه (٤٠٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبد الله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وأخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦ - ١٢٧ عن عبدالله بن عمرو ﷺ موقوفاً.

وعن حذيفة: تخرجُ ثلاث خرجات: خرجةٌ في بعض البوادي ثم تَكمُن، وخرجةٌ في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجةٌ من أعظم المساجد وأكرمِها وأشرفِها وأفضلِها[١]. الزمخشري: تخرج من بين الركن حِذاءَ دارِ بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقومٌ يهربون، وقومٌ يقفون نَظَّارة[٢]. ورُويَ عن قتادة أنَّها تخرج في تهامة. ورُويَ أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فارَ تنُّور نوحٍ عليه السلام[٣]. وقيل: من أرض الطائف؛ قال أبو قَبيل: ضرب عبد الله بن عمرو أرضَ الطائف برجله وقال: مِنْ هنا تخرجُ الدابَّةُ التي تُكلِّم الناس. وقيل: من بعض أودية تهامة. قاله ابن عباس. وقيل: من صخرة من شِعْب أجياد. قاله عبد الله بن عمرو. وقيل: من بحر سَدُوم. قاله وهب بن مُنبِّه. ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردي في كتابه[٤]. وذكر البغويُّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدَّثنا عليُّ بن الجَعْد، عن فُضيل بن مرزوق الرَّقاشيِّ الأغرّ ـ وسُئِلَ عنه يحيى بن مَعين فقال: ثقة ـ عن عطية العوفي، عن ابن عمر قال: تخرجُ الدابَّةُ من صدعٍ في الكعبة كجَرْيِ الفرس ثلاثةَ أيامٍ لا يخرجُ ثلُثها[٥].

قلت: فهذه أقوالُ الصحابة والتابعين في خروج الدابَّةِ وصفتِها، وهي تردُّ قولَ مَنْ قال من المفسرين: إنَّ الدابَّةَ إنما هي إنسانٌ متكلِّمٌ يناظرُ أهلَ البدع والكفر. وقد روى أبو أُمامةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تخرجُ الدابَّةُ فتَسِمُ الناسَ على خراطيمهم» ذكره الماوردي[٦]. «تُكَلِّمُهُم» بضمِّ التاء وشدِّ اللام المكسورة ـ من الكلام ـ قراءةُ العامَّة،

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٣ وغيره، وقد سلف تخريجه قريباً.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ١٢٦.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٢٧.

(٥) أخرجه علي بن الجعد في مسنده (٢٠٩١)، والطبري ١٨/ ١٢١ - ١٢٢، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٠١)، والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٣٠. وفي إسناده عطية بن سعد العوفي، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٧٩ - ٨٠.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٧. وأخرجه أحمد (٢٢٣٠٨).

يدلُّ عليه قراءة أُبيٍّ: «تُنَبِّئُهُمْ»[١] وقال السُّدِّي: تُكلِّمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام[٢]. وقيل: تُكلِّمهم بما يسوءهم[٣]. وقيل: تُكلِّمهم بلسانٍ ذَلِقٍ فتقول بصوتٍ يسمعه مَنْ قَرُبَ وبَعُد: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بخروجي؛ لأنَّ خروجَها من الآيات. وتقول: ألا لعنةُ الله عل الظالمين[٤].

وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء: «تَكْلِمُهُمْ» بفتح التاء[٥] من الكَلْمِ وهو الجرح؛ قال عكرمة: أي: تَسِمُهم. وقال أبو الجوزاء: سألتُ ابن عباس عن هذه الآية «تُكَلِّمُهُمْ» أو «تَكْلِمُهُمْ»؟ فقال: هي واللهِ تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُم؛ تُكلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أي: تجرحه. وقال أبو حاتم. «تُكَلِّمُهُمْ» كما تقول: تُجَرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثيرٌ من «تَكْلِمُهُم». ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق ويحيى: «أن» بالفتح[٦]. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة: «إن» بكسر الهمزة[٧]. قال النحَّاس[٨]: في المفتوحة قولان وكذا المكسورة؛ قال الأخفش[٩]: المعنى بأنَّ. وكذا قرأ ابن مسعود «بأنَّ»[١٠]. وقال أبو عبيد[١١]:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٢٨ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٣ .

(٣) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥١ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٠ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢١ - ٢٢٢ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري وعكرمة وطلحة. وفي المحتسب ٢/ ١٤٤ عن أبي زرعة وابن عباس وعاصم الجحدري ومجاهد وسعيد بن جبير. وفي الشاذة ص١١٠ عن أبي زرعة وابن عباس ومجاهد. وفي تفسير البغوي عن أبي رجاء ومجاهد وسعيد بن جبير.

(٦) قراءة الكوفيين ـ وهم عاصم وحمزة والكسائي ـ في السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٧) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي عمرو البصري، وهي في السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢ ، وما قبله منه.

(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٦٥١ .

(١٠) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، والشاذة ص١١٠ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٣ ونسبها أيضاً إلى أبي عمران الجوني.

(١١) في (د) و(م): أبو عبيدة. والمثبت من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضعها نصبٌ بوقوع الفعل عليها، أي: تُخبرهم أنَّ الناس. وقرأ الكسائي والفَّراء: «إنَّ النَّاسَ» بالكسر على الاستئناف. وقال الأخفش: هي بمعنى تقول: إن الناس؛ يعني الكفار.

﴿بِئَايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: بالقرآن وبمحمدٍ ﷺ، وذلك حين لا يقبل اللهُ من كافرٍ إيماناً ولم يبقَ إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ أي: زمرةً وجماعةً[1]. ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِئَايَٰتِنَا﴾ يعني: بالقرآن وبأعلامنا الدالَّةِ على الحق.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُدفَعون ويُساقون إلى موضع الحساب؛ قال الشَّماخ:

وكَم وَزَعْنَا مِن خَميسٍ جَحْفَلِ   وكَمْ حَبَوْنَا مِن رئيسٍ مِسْحَلِ[2]

وقال قتادة: «يُوزَعُون» أي: يُردُّ أولُهم على آخرهم[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾ أي: قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِئَايَٰتِى﴾ التي أنزلتُها على رسلي، وبالآيات التي أقمتُها دلالةً على توحيدي. ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذَّبتم جاهلين غير مُستَدِلِّين. ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ، أي: ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكَّروا ما فيها؟

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾أي: وجبَ العذابُ عليهم بظلمهم. أي: بشركهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: ليس لهم عذرٌ ولا حجةٌ. وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون. قاله أكثر المفسرين[4].

---

(١) زاد المسير ٦/ ١٩٤ .

(٢) ملحق ديوان الشماخ ص٤٥٣. الخميس الجحفل: الجيش الكثير. والمِسْحَل: الشجاع. اللسان (خمس) و(جحفل) و(سحل).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٢٨ ، وما قبله منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: يستقِرُّون فينامون. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: يُبصَر فيه لسعي الرزق[١]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ باللهِ، ذَكَرَ الدّلالةَ على إلهيته وقدرته، أي: ألم يعلموا كمالَ قُدرتِنا فيؤمنوا؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾أي: واذكُرْ يومَ، أو: ذَكِّرهمْ يومَ ينفخ في الصور. ومذهبُ الفرَّاء أنَّ المعنى: وذلكم يومَ ينفخ في الصور، وأجاز فيه الحذف[٢]. والصحيح في الصور أنه قرنٌ من نورٍ ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: كهيئة البوق. وقيل: هو البوق بلغة أهل اليمن[٣]. وقد مضى في «الأنعام»[٤] بيانُه وما لِلعلماء في ذلك. ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لَمَّا فرغَ من خلق السماوات خلقَ الصُّورَ فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضِعُه على فيه، شاخصٌ ببصرِه إلى العرش، ينتظر متى يؤمَرُ بالنفخة» قلتُ: يا رسولَ الله، ما الصُّور؟ قال: «قَرْنٌ واللهِ عظيمٌ، والذي بعثني بالحقِّ إنَّ عِظَمَ دارةٍ فيهِ كعرض السماء والأرض، فينفخُ فيه ثلاثَ نفخات: النفخةُ الأولى نفخةُ الفزع، والثانيةُ نفخةُ الصَّعْق، والثالثةُ نفخةُ البعثِ والقيامِ لربِّ العالمين» وذكر الحديث. ذكره

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٨٦، وزاد المسير ٦/ ١٩٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٠٧، وزاد المسير ٣/ ٦٨.

(٤) ٨/ ٤٣١ - ٤٣٢.

علي بن معبد[١] والطبري والثعلبي وغيرهم[٢]، وصحَّحه ابن العربي! وقد ذكرتُه في كتاب «التذكرة»[٣] وتكلَّمنا عليه هناك، وأنَّ الصحيح في النفخ في الصُّور أنَّهما نفختان لا ثلاث، وأنَّ نفخة الفزع إنما تكون راجعةً إلى نفخة الصَّعق؛ لأنَّ الأمرين لازمان لهما، أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو: إلى نفخة البعث. وهو اختيار القشيري وغيره؛ فإنَّه قال في كلامه على هذه الآية: والمراد النفخة الثانية، أي: يحيون فَزِعين يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولُهم ويُفزعهم، وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء. قاله قتادة[٤]. وقال الماورديّ[٥]: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: هو يوم النشور من القبور؛ قال: وفي هذا الفزع قولان: أحدُهما أنَّه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم: فزِعتُ إليك في كذا إذا أسرعتُ إلى ندائك في معونتك. والقول الثاني: إنَّ الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن؛ لأنَّهم أُزعِجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا. وهذا أشبه القولين.

قلتُ: والسُّنةُ الثابتةُ من حديثِ أبي هريرة وحديثِ عبد الله بن عَمرو تدلُّ على

---

(١) هو علي بن معبد بن نوح البغدادي ثم المصري، إمام حافظ، توفي سنة ٢٥٩ هـ. السير ١٠/ ٦٣٢ - ٦٣٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٤ من طريق إسماعيل بن رافع المدني، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ضعيف الحفظ كما قال الحافظ في التقريب. قلنا: وقد اختلف عليه في إسناده اختلافاً كبيراً؛ قال الحافظ في الفتح ١١/ ٣٦٨ : مدار إسناده على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل مبهم ومحمد عن أبي هريرة، وتارةً بلا واسطة، وتارةً بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضاً. وينظر مصادر تخريجه في تفسير الطبري ٣/ ٦١٣ .

(٣) ١/ ١٧٣ .

(٤) عبارة: «قاله قتادة» من (م)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٢٩ .

أنهما نفختان لا ثلاث: خرَّجهما مسلم[١]، وقد ذكرناهما في كتاب «التذكرة»[٢] وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان؛ قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع، فدلَّ على أنهما واحدة. وقد روى المبارك[٣] عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بينَ النفختين أربعون سنةً؛ الأولى يُميت اللهُ بها كلَّ حيٍّ، والأُخرى يُحيي اللهُ بها كلَّ ميت»[٤] فإن قيل: فإن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [النازعات: ٦-١٣] وهذا يقتضي بظاهره أنَّها ثلاث. قيل له: ليس كذلك، وإنَّما المرادُ بالزَّجرة النفخةُ الثانيةُ التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم. كذلك قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن زيد وغيرهم.

قال مجاهد: هما صيحتان؛ أمَّا الأولى فتُميتُ كلَّ شيءٍ بإذن الله، وأمَّا الأُخرى فتُحيي كلَّ شيءٍ بإذن الله. وقال عطاء: «الرَّاجِفَةُ»: القيامة، و«الرادِفَةُ»: البعث[٥]. وقال ابن زيد: «الراجفة»: الموت، و«الرادفة»: الساعة. والله أعلم[٦].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم اختُلِفَ في هذا المُستثنى مَنْ هم؛ ففي حديث أبي هريرة أنَّهم الشهداءُ عند ربهم يرزقون، إنَّما يصل الفزعُ إلى الأحياء. وهو قول سعيد بن

---

(١) في صحيحه (٢٣٧٣) و(٢٩٤٠)، وهما في مسند أحمد (٩٨٢١) و(٩٥٥٥).

(٢) ص١٦٥-١٦٧.

(٣) في جميع النسخ: ابن المبارك، وهو خطأ قديم في النسخ. والتصويب من السنن الواردة في الفتن.

(٤) أخرجه أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٧٢١) من طريق المبارك ـ وهو ابن فضالة ـ عن الحسن البصري، به. وإسناده مرسل. لكن أخرج البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ. «ثم يُنزِلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٢ و٤٤٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

جُبير أنَّهم الشهداء مُتقلِّدون السيوف حول العرش[١]. وقال القشيري: الأنبياء داخلون في جملتهم؛ لأنَّ لهم الشهادةَ مع النبوَّة. وقيل: الملائكة. قال الحسن: استثنى طوائفَ من الملائكة يموتون بين النفختين. قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت[٢]. وقيل: الحور العين[٣]. وقيل: هم المؤمنون؛ لأنَّ الله تعالى قال عُقيب هذا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾. وقال بعض علمائنا: والصحيحُ أنَّه لم يَرِدْ في تعيينهم خبرٌ صحيحٌ والكلُّ مُحتَمِلٌ.

قلت: خفيَ عليه حديثُ أبي هريرة وقد صحَّحه القاضي أبو بكر بن العربي فليُعَوَّلْ عليه؛ لأنَّه نصٌّ في التعيين، وغيرُه اجتهاد. والله أعلم. وقيلَ غيرُ هذا على ما يأتي في «الزُّمَر»[٤].

وقوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ماضٍ، و«يُنْفَخُ» مستقبلٌ، فيُقال: كيف عطفَ ماضٍ على مستقبل؟ فزعمَ الفرَّاء أنَّ هذا محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إذا نفخ في الصور ففزع. «إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ» نصبٌ على الاستثناء. ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وابن عامر وابن كثير: «آتوهُ» جعلوه فعلاً مستقبلاً. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» مقصوراً على الفعل الماضي[٥]، وكذلك قراءة ابن مسعود[٦]. وعن قتادة: «وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ»[٧]. قال النحَّاس[٨]: وفي كتابي عن أبي إسحاق في القراءات: [من قرأ][٩]: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ»

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣١ .

(٢) قول مقاتل في الوسيط٣/ ٣٨٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣١ ، وزاد المسير ٦/ ١٩٥ .

(٣) زاد المسير ٦/ ١٩٥ .

(٤) عند تفسير الآية (٦٨) .

(٥) السبعة ص ٤٨٧ ، والتيسير ص١٦٩ دون قراءة الأعمش ويحيى.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٢ .

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٥ ، والشاذة ص١١١ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وما قبله منه سوى قراءة ابن مسعود وقتادة.

(٩) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن، وهو ليس في النسخ.

وحّده على لفظ «كُلّ»، ومن قرأ: «آتُوهُ» جمع على معناها، وهذا القول غلطٌ قبيح؛ لأنَّه إذا قال: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ» فلم يوحِّدْ وإنَّما جمع، ولو وحَّد لقال: «أَتَاهُ» ولكن من قال: «أَتَوْهُ» جمعَ على المعنى وجاء به ماضياً، لأنَّه رَدَّه إلى «فَفَزِعَ»، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتَوْهُ» حملَه على المعنى أيضاً وقال: «آتُوهُ» لأنها جملةٌ منقطعةٌ من الأول.

قال ابن نصر: قد حكى عن أبي إسحاق رحمه الله ما لم يَقُلْه، ونصُّ أبي إسحاق: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» ويقرأ: «آتُوهُ» فمن وحَّد فللفظ «كُلّ» ومن جمع فلمعناه؛ يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر «كلّ» فعلى اللفظ، أو جمعَ فعلى المعنى؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» فهو فعلٌ من الإتيان وحمل على معنى «كل» دون لفظها، ومن قرأ: «وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخرِينَ» فهو اسم الفاعل من أتى، يدلُّكَ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]. ومن قرأ: «وَكُلٌّ أَتَاهُ» حملَه على لفظ «كلّ» دون معناها وحمل «دَاخِرِينَ» على المعنى، ومعناه: صاغرين. عن ابن عباس وقتادة. وقد مضى في «النحل»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قال ابن عباس: أي: قائمةً وهي تسير سيراً حثيثاً[(٢)]. قال القُتبي[(٣)]: وذلك أنَّ الجبال تُجمَع وتُسيَّر، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير، وكذلك كلُّ شيءٍ عظيمٍ وجَمْعٍ كثيرٍ يَقصُرُ عنه النظر؛ لكثرته وبُعدِ ما بين أطرافه، وهو في حُسبان النَّاظرِ كالواقف وهو يسير. قال النابغة في وصف جيش:

بِأَرْعَنَ مثل الطَّودِ تَحسِبُ أنَّهمْ   وُقوفٌ بِحَاجٍ والرِّكابُ تُهمِلِجُ[(٤)]

---

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٦.

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص٤ – ٥.

(٤) ديوان النابغة الجعدي ص١٨٧. الجيش الأرعن: المضطرب لكثرته. وتهملج من الهملجة: وهو حسن سير الدابة في سرعة. اللسان (رعن) و(هملج).

قال القُشيريّ: وهذا يوم القيامة، أي: هي لكثرتها كأنَّها جامدة، أي: واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفُسِها تسير سير السحاب، والسحابُ المتراكمُ يظنُّ أنها واقفةٌ وهي تسير، أي: تمرُّ مَرَّ السحاب حتى لا يبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. ويُقال: إنَّ الله تعالى وصف الجبال بصفاتٍ مختلفةٍ ترجع كلُّها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعِهن المنفوش، وذلك إذا صارتِ السماءُ كالمُهْل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ . وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨-٩]. والحالة الثالثة أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطَّع بعد أن كانت كالعهن. والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدِّمة قارَّةٌ في مواضعها والأرض تحتها غيرُ بارزةٍ فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها. والحالة الخامسة أنَّ الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بُعْدٍ حسِبَها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارَّةٌ إلاَّ أنَّ مرورَها من وراء الرياح كأنها مُندكَّةٌ مُتفتِّتة. والحالة السادسة أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مواضعها لم يجِدْ فيها شيئاً منها كالسراب. قال مقاتل: تقعُ على الأرض فتُسوَّى بها. ثم قيل: هذا مَثَلٌ. قال الماوردي[1]: وفيما[2] ضُرِبَ له ثلاثةُ أقوال: أحدُها أنه مَثَلٌ ضربَه اللهُ تعالى للدنيا، يظنُّ الناظرُ إليها أنها واقفةٌ كالجبال، وهي آخذةٌ بحظِّها من الزوال كالحساب. قاله سهل بن عبد الله. الثاني: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعملُه صاعدٌ إلى السماء. الثالث: أنه مثلٌ ضربَه اللهُ للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: هذا من فِعْلِ الله، و[ما][3] هو فعل منه فهو

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٠ .

(٢) في (م): وفيهما.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيه الكلام.

متقَن[(١)]. و«تَرَى» من رؤية العين، ولو كانت من رؤية القلب لتعدَّت إلى مفعولين. والأصلُ تَرْأَى، فأُلقِيَتْ حركةُ الهمزة على الراء فتحرَّكتِ الرَّاءُ وحُذفَتِ الهمزة، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن، إلَّا أن التخفيف لازمٌ لِتَرى. وأهل الكوفة يقرؤون: «تَحْسَبُها» بفتح السين وهو القياس؛ لأنَّه من حَسِبَ يَحسَبُ إلَّا أنه قد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ خلافُها أنه قرأ بالكسر في المستقبل، فتكون على فَعِلَ يفعِلُ مثل نَعِمَ يَنعِمُ وبَئِسَ يبئِسُ، وحُكي: يَئِسَ يَيئِسُ من السالم، لا يُعرَفُ في كلام العرب غيرُ هذه الأحرف. «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» تقديرُه: مَرّاً مِثْلَ مَرِّ السحاب، فأُقيمتِ الصفةُ مقامَ الموصوف، والمضافُ مقامَ المضاف إليه؛ فالجبال تُزالُ من أماكنها من على وجه الأرض، وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيَّر السحاب، ثم تُكسَّر فتعود إلى الأرض كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ عند الخليل وسيبويه منصوبٌ على أنه مصدر؛ لأنَّه لمَّا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ دلَّ على أنه قد صنعَ ذلكَ صنعاً. ويجوز النصبُ على الإغراء، أي: انظروا صُنْعَ الله[(٢)] فيوقف على هذا «السَّحَابِ» ولا يوقف عليه على التقدير الأوّل. ويجوز رفعُه على تقدير: ذلكَ صنعُ الله[(٣)]. ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحكمه، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «رحمَ اللهُ من عمِلَ عملاً فأتقَنه»[(٤)]. وقال قتادة: معناه: أحسن كلَّ شيء[(٥)]. والإتقان: الإحكام؛ يُقال: رجلٌ تِقْنٌ أي: حاذِقٌ بالأشياء. وقال الأزهري[(٦)]: أصلُه من ابن تِقْن، وهو رجلٌ من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ دون قوله: فالجبال تزال... إلى قوله: «وبسَّتِ الجبال بسّاً».

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٠ .

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بلفظ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٩٨: فيه مصعب بن ثابت، وثَّقه ابن حيان، وضعَّفه جماعة.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ .

(٦) تحرف في النسخ إلى: الزهري، وكلام الأزهري الآتي في تهذيب اللغة ٩/ ٦٠ - ٦١ ، وما قبله منه أيضاً.

عاد لم يكُنْ يسقط له سهمٌ فضُرِبَ به المثل؛ يُقال: أَرمَى من ابن تِقْن، ثم يُقال لكلِّ حاذقٍ بالأشياء: تِقْنٌ.

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[١] بالتاء على الخطاب قراءةُ الجمهور، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء[٢].

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: الحسنةُ: لا إله إلا الله[٣]. وقال أبو معشر: كان إبراهيم يحلِفُ بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله[٤]. وقال علي بن الحسين بن علي ﷺ: غزا رجلٌ، فكان إذا خلا بمكانٍ قال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، فبينما هو في أرض الروم في أرضٍ جلفاءَ وبَرْدى رفع صوتَه فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فخرجَ عليه رجلٌ على فرس عليه ثيابٌ بِيضٌ، فقال له: والذي نفسي بيده إنها الكلمةُ التي قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[٥]. وروى أبو ذَرٍّ قال: قلتُ: يا رسول الله أوصني. قال: «اتَّقِ اللهَ، وإذا عَمِلتَ سيئةً فأتبِعْها حسنةً تَمْحُها» قال: قلتُ: يا رسول الله، أمِنَ الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «من أفضل الحسنات» وفي رواية: قال: «نعم، هي أحسَنُ الحسنات» ذكره البيهقي[٦]. وقال قتادة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: بالإخلاص والتوحيد[٧]. وقيل: أداء الفرائض كلها[٨].

---

(١) بعدها في (م) زيادة عبارة: والباقون تفعلون.

(٢) السبعة ص٤٨٧، والتيسير ص١٦٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤٠ عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٦٦٤٤) عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١، وذكره البغوي ٣/ ٤٣٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ١٤١ - ١٤٢.

(٦) في الأسماء والصفات (٢٠٢). وأخرجه أحمد (٢١٤٨٧).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣١.

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها ـ على ما تقدَّم بيانُه في سورة إبراهيم[١] ـ فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس: أي: وصل إليه الخير منها[٢]. وقاله مجاهد. وقيل: فله الجزاء الجميل وهو الجنة. وليس «خير» للتفضيل[٣]. قال عكرمة وابن جُريج: أمَّا أن يكونَ له خيرٌ منها يعني من الإيمان فلا؛ فإنَّه ليس شيءٌ خيراً ممن قال: لا إله إلا الله، ولكن له منها خير. وقيل: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ للتفضيل، أي: ثواب الله خيرٌ من عملِ العبد وقولِه وذِكْرِه، وكذلك رضوان الله خيرٌ للعبد من فعل العبد. قاله ابن عباس. وقيل: يرجع هذا إلى الإضعاف، فإنَّ الله تعالى يُعطيه بالواحدة عشراً، وبالإيمان في مدَّة يسيرةٍ الثوابَ الأبديّ. قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد[٤]. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قرأ عاصم والكسائي «من فزعٍ يومَئِذٍ» بالتنوين وفَتْحِ الميم. نافعٌ بفتح الميم من غير تنوين. الباقون: «من[٥] فَزَعِ يَوْمَئِذٍ» بالإضافة[٦] قال أبو عبيد: وهذا أعجبُ إليَّ؛ لأنَّه أعَمُّ التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» صار كأنَّه فَزَعٌ دون فَزَعٍ دون فَزَعٍ. قال القشيري: وقُرئ: «مِنْ فَزَعٍ» بالتنوين، ثم قيل: يعني به فزعاً واحداً، كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣]. وقيل: عن الكثرةَ؛ لأنه مصدرٌ، والمصدر صالحٌ للكثرة.

قلت: فَعَلى هذا تكون القراءتان بمعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» بالتنوين انتصبَ «يَوْمَئِذٍ» بالمصدر الذي هو «فَزَعٍ»[٧]. ويجوز أن يكون صفةً

---

(١) ١٢/ ١٣٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٢ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٦ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٥٧ بنحوه.

(٥) ما بعد قوله: والكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو ليس في بقية النسخ.

(٦) السبعة ص٤٨٧ ، والتيسير ص١٧٠ .

(٧) وقاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٢٢٨ .

لفزع ويكون متعلقاً بمحذوف؛ لأنَّ المصادرَ يُخبَرُ عنها بأسماء الزمان وتُوصَفُ بها، ويجوز أن يتعلَّقَ باسم الفاعل الذي هو «آمِنُونَ». والإضافة على الاتساع في الظروف. ومَنْ حذفَ التنوينَ وفتحَ الميمَ بناه؛ لأنَّه ظرفُ زمان، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكناً، فلمَّا أُضيفَ إلى غير متمكِّنٍ ولا مُعرَبٍ بنى. وأنشد سيبويه[١]:

على حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ فَنَدلاً زُرَيْقَ المالِ نَدْلَ الثَّعَالِبِ[٢]

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك. قاله ابن عباس والنَّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماعٌ من أهل التأويل في أنَّ الحسنةَ لا إله إلا الله، وأن السيئةَ الشرك في هذه الآية[٣]. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال ابن عباس: أُلقيت. وقال الضحَّاك: طُرِحت؛ يقال: كببتُ الإناءَ أي: قلبتُه على وجهه، واللازمُ منه أكَبَّ، وقلَّما يأتي هذا في كلام العرب. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: يُقال لهم: هل تُجزَون. ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة. ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا جزاءَ أعمالِكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ يعني مكة التي عظَّمَ اللهُ حرمتَها، أي: جعلها حرماً آمناً، لا يُسفَكُ فيها دم، ولا يُظلَمُ فيها أحد، ولا يُصادُ فيها صيد، ولا يُعضَدُ فيها شجر[٤]، على ما تقدَّم بيانُه في غير موضع. وقرأ

---

(١) في الكتاب ١/ ١١٦ .

(٢) من قوله: ويجوز أن يتعلق... إلى هذا الموضع في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ بنحوه. والبيت قائله أعشى همدان كما في الكامل ١/ ٢٣٩ . والمراد بالندل السرعة، وزريق اسم قبيلة. اللسان (ندل).

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٤٠ - ١٤٣ ، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٣٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

ابن عباس: «الَّتي حَرَّمَهَا» نعتاً للبلدة[١]. وقراءةُ الجماعة: «الَّذي» وهو في موضع نصبِ نعتٍ لـ «رب»، ولو كان بالألفِ واللامِ لقُلتَ: المحرِّمَها؛ فإنْ كانت نعتاً للبلدة قُلتَ: المحرِّمِها هو؛ لابُدَّ من إظهار المُضمَرِ مع الألف واللام؛ لأنَّ الفعلَ جرى على غيرِ مَنْ هو له، فإن قُلتَ: الذي حرَّمها لم تحتَجْ أن تقول: هو[٢]. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ خلقاً ومُلكاً[٣]. ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: من المنقادين لأمره، الموحِّدين له.

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أي: وأُمِرتُ أن أتلوَ القرآن، أي: أقرأه. ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فله ثواب هدايته. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فليس عليَّ إلا البلاغ؛ نسخَتْها آيةُ القتال[٤]. قال النحَّاس[٥]. «وَأَنْ أَتْلُوَ» نصب بأن. قال الفرَّاء: وفي إحدى القراءتين «وَأَنِ اتْلُ»[٦] وزعمَ أنَّه في موضع جزمٍ بالأمر، فلذلك حذفَ منه الواو، قال النحَّاس: ولا نعرفُ أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفةٌ لجميع المصاحف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه وعلى ما هدانا. ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في أنفسكم وفي غيركم كما قال: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[٧] [فصلت: ٥٣]. ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السماوات وفي الأرض؛ نظيره قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٤ عن ابن عباس وابن مسعود، وفي الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود، وفي زاد المسير ٦/ ١٩٨ عن ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٢٥.

(٦) وهي في الشاذة ص١١١ عن ابن مسعود وأُبي

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ .

عن عاصم بالتاء على الخطاب[١]؛ لقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ فيكون الكلامُ على نسقٍ واحد. الباقون بالياء على أن يُرَدَّ إلى ما قبله ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فأخبر عن تلك الآية[٢].

كملت السورة والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) السبعة ص٤٨٨، والتيسير ص١٢٦ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٦ .

سورة القصص

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آيةً نزلت بين مكة والمدينة[١]. وقال ابن سلاَّم: بالجَحْفةِ في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهي قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢].
وهي ثمانٌ وثمانون آية[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ تقدَّم الكلام فيه[٤]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ «تِلْكَ» في موضع رفعٍ بمعنى: هذه تلك، و«آياتُ» بدلٌ منها. ويجوزُ أن تكون «تلك»[٥] في

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٨٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٣.

(٤) في أول سورة الشعراء.

(٥) كلمة «تلك» من (ز) و(ظ) وإعراب القرآن.

موضع نصبٍ بـ «تَتْلُو» و«آيَاتُ» بدلٌ منها أيضاً، وتنصبُها كما تقول: زيداً ضربتُ[١].
و«الْمُبِينِ» أي: المبينِ بركتَه وخيرَه، المبينِ الحقَّ من الباطل، والحلالَ من الحرام، وقصصَ الأنبياء، ونبوَّةَ محمدٍ ﷺ. ويقال: بانَ الشيءُ وأبانَ: اتَّضح[٢].

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذكرَ قصةَ موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتجَّ على مشركي قريش، وبيَّنَ أنَّ قرابةَ قارون من موسى لم تنفَعْه مع كفره، وكذلك قرابةُ قريشٍ لمحمد، وبيَّنَ أنَّ فرعونَ علا في الأرض وتجبَّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنبِ العلوَّ في الأرض، وكذلك التعزُّزَ بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون.

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ أي: يقرأ عليكَ جبريلُ بأمرنا ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: من خبرِهما[٣]، و«من» للتبعيض و«مِنْ نَبَإٍ» مفعول «نَتْلُو» أي: نَتْلو عليك بعضَ خبرهما، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[٤] [المؤمنون: ٢٠]. ومعنى: «بِالْحَقِّ» أي: بالصدق الذي لا ريبَ فيه ولا كذب. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله، فأمَّا مَنْ لم يؤمن فلا يعتقِدُ أنه حقٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استكبر وتجبَّر. قاله ابن عباس والسُّدِّي[٥]. وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادَّعى الربوبية. وقيل: بملكه وسلطانه، فصارَ عالياً على مَنْ تحت يده. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً وأصنافاً في الخدمة[٦]. قال الأعشى[٧]:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٠٨ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ١٦٤ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٦ عن السدي، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٠ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(٧) في ديوانه ص١٥٣ .

وبلدةٍ يَرْهَبُ الجوَّابُ[١] دُلْجَتها[٢] حتى تراه عليها يَبْتغي الشِّيعا

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل[٣]. ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تقدَّم القولُ في هذا في «البقرة»[٤] عند قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الآية؛ وذلكَ لأنَّ الكهنةَ قالوا له: إنَّ مولوداً يولَدُ في بني إسرائيل يذهبُ مُلكُكَ على يديه[٥]، أو قال المنجِّمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعُبِّرت كذلك[٦]. قال الزجَّاج: العجَبُ من حُمقِه لم يَدْرِ أنَّ الكاهن إن صدَقَ فالقتلُ لا ينفع، وإن كذبَ فلا معنى للقتل[٧]. وقيل: جعلهم شيعاً فاستسخر كلَّ قومٍ من بين إسرائيل في شغل مفرد[٨]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبُّر[٩].

قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نتفضَّل عليهم ونُنعِم[١٠]. وهذه حكايةٌ مضت. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال ابن عباس: قادةً في الخير. مجاهد: دُعاةً إلى الخير. قتادة: وُلاةً وملوكاً، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[١١] [المائدة: ٢٠].

---

(١) أي: الذي يقطع البلاد سيراً فيها. اللسان (جوب).

(٢) المثبت من الديوان، والدُّلجة: السير آخر الليل. اللسان (دلج). وفي (ظ): وُلجتها. وفي (د) و(ز): داجتها. وفي (م): دجلتها.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٠١.

(٤) ٢/ ٨٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٤ عن السدي.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٢.

(٨) وقد سلف بيان ذلك ٢/ ٨٥.

(٩) الوسيط ٣/ ٣٩٠.

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٠١.

(١١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٣، والكشاف ٣/ ١٦٥.

قلت: وهذا أعَمُّ، فإنَّ الملِكَ إمامٌ يؤتَمُّ به ويُقتدى به. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لِمُلكِ فرعون؛ يرثون مُلكَه، ويسكنون مساكنَ القبط[1]. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نجعلَهم مُقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر[2]. ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أي: ونُريدُ أن نُرِيَ فرعون.

وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: «وَيَرى» بالياء على أنه فعلٌ ثلاثيٌّ من رأى «فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا» رفعاً؛ لأنه الفاعل. الباقون: «نُرِيَ» بضَمِّ النون وكسر الراء على أنه فعلٌ رباعيٌّ من أرى يُرِي، وهي على نسق الكلام؛ لأنَّ قبلَه «وَنُريدُ» وبعده «نُمَكِّنَ». «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» نصباً بوقوع الفعل[3]. وأجازَ الفرَّاءُ «وَيُرِيَ فِرْعَوْن» بضَمِّ الياء وكسر الراء وفتح الياء، بمعنى: ويُرِيَ اللهُ فرعونَ[4] ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ وذلك أنهم أُخبِروا أنَّ هلاكَهم على يَدَي رجلٍ من بني إسرائيل، فكانوا على وَجَلٍ «مِنْهُمْ» فأراهم الله «ما كانُوا يَحْذَرونَ»[5]. قال قتادة: كان حَازياً لفرعون ـ والحازي: المُنجِّم ـ قال: إنه سيولَدُ في هذه السنة مولودٌ يذهب بملكِكَ؛ فأمر فرعونُ بقتلِ الوِلْدانِ في تلك السنة[6]. وقد تقدَّم[7].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٣ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٥ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ بنحوه. وينظر السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧٠ ، والنشر ٢/ ٣٤١ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٨ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٢ ، إلا أنه قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٧ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٦٧٣).

(٧) ٢/ ٨٨ .

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ قد تقدَّم معنى الوحي ومحامله. واختُلِفَ في هذا الوحي إلى أم موسى؛ فقالت فرقة: كان قولاً في منامها. وقال قتادة: كان إلهاماً. وقالت فرقة: كان بمَلَكٍ تَمَثَّلَ لها[١]. قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك[٢]. فعلى هذا هو وحيُ إعلامٍ لا إلهام.

وأجمعَ الكلُّ على أنها لم تكن نبيَّة، وإنَّما إرسال المَلَكِ إليها على نحو تكليم المَلكِ للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور؛ خرَّجه البخاري ومسلم، وقد ذكرناه في سورة «براءة»[٣]. وغير ذلك ممَّا رُويَ من تكليم الملائكة للناس من غير نبوَّة[٤]، وقد سلَّمتْ على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيّاً. واسمُها أيارخا. وقيل: أيارخت فيما ذكر السهيلي[٥]. وقال الثعلبي: واسم أم موسى لوخا بنت هاند ابن لاوى بن يعقوب[٦]. «أَنْ أَرْضِعِيهِ» وقرأ عمر بن عبد العزيز: «أَنِ ارْضِعِيهِ» بكسر النون وألف وصل؛ حذفَ همزةَ «أرضع» تخفيفاً، ثم كسرَ النونَ لالتقاء الساكنين[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٢٧٦ .

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) صحيح البخاري (٣٤٦٤)، وصحيح مسلم (١٠١٧)، وقد سلف ١٠/ ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/٢٧٦ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠ ، ووقع في مطبوعه: إيمارخا. وقيل: أياذخت.

(٦) وقع اسمها في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٤: يوخانذ بنت لاوى بن يعقوب.

(٧) المحتسب ٢/ ١٤٧ إلا أنه ذكر أن حذف الهمزة اعتباطاً لا تخفيفاً. قلنا: وهي قراءة شاذة.

قال مجاهد: وكان الوحيُ بالرَّضاع قبل الولادة. وقال غيرُه: بعدَها[١]. قال السُّدِّي: لمَّا ولدَتْ أمُّ موسى أمرت أن تُرضِعَه عُقيبَ الولادة وتصنعَ به بما في الآية؛ لأنَّ الخوفَ كان عُقيبَ الولادة. وقال ابن جُريج: أُمِرَتْ بإرضاعِه أربعةَ أشهرٍ في بستان، فإذا خافت أن يصيح ـ لأنَّ لبنَها لا يكفيه ـ صنعَتْ به هذا. والأوَّل أظهرُ، إلَّا أنَّ الآخَرَ يعضِدُه قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ و«إِذَا» لِما يُستقبَلُ من الزمان[٢]؛ فيُروى أنَّها اتخذَتْ له تابوتاً من بَرْدِيٍّ وقيَّرته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقَتْه في نيل مصر[٣]. وقد مضى خبره في «طه»[٤]. قال ابن عباس: إنَّ بني إسرائيل لمَّا كثُروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، فسلَّط الله عليهم القِبطَ، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجَّاهم الله على يد موسى. قال وهب: بلغني أنَّ فرعونَ ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفاً. ويُروى أنها حين اقتربت وضَربَها الطَّلقُ، وكانت بعضُ القوابلِ المُوكلاتِ بحبَالى بني إسرائيل مصافيةً لها، فقالت: لِينفعني حُبُّكِ اليوم. فعالجَتْها، فلمَّا وقع إلى الأرض هالَها نورٌ بين عينيه، وارتعشَ كلُّ مَفْصِلٍ منها، ودخل حبُّه قلبَها، ثم قالت: ماجئتُكِ إلَّا لأقتُلَ مولودَكِ وأُخبِرَ فرعون، ولكني وجدتُ لابنِكِ حُبّاً ما وجدتُ مثلَه قطّ، فاحفظيه. فلمَّا خرجت جاء عيونُ فرعون فَلفَّتْه في خرقةٍ ووضعته في تُنُّورٍ مسجورٍ ناراً لم تعلمْ ما تصنعُ لمَّا طاشَ عقلُها، فطلبوا فلم يُلفوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعتْ بكاءَه من التَّنُّور، وقد جعلَ اللهُ عليه النارَ برداً وسلاماً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ لا تخافي عليه الغرق. قاله ابن

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) عرائس المجالس ص١٧٠ عن مقاتل.

(٤) ١٤/ ٥٧.

(٥) عرائس المجالس ص١٧١ - ١٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥.

زيد. الثاني ـ لا تخافي عليه الضَّيعة. قاله يحيى بن سَلَّام. ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ فيه أيضاً وجهان: أحدهما ـ لا تحزني لفراقه. قاله ابن زيد. الثاني ـ لا تحزني أن يُقتل. قاله يحيى بن سَلَّام. فقيل: إنها جعلَتْه في تابوتٍ طولُه خمسةُ أشبار، وعرضُه خمسةُ أشبار، وجعلتِ المفتاحَ مع التابوت وطرحَتْه في اليمِّ بعد أن أرضعَتْه أربعة أشهر. وقال آخرون: ثلاثة أشهر. وقال آخرون: ثمانية أشهر؛ في حكاية الكلبي. وحُكِيَ أنَّه لمَّا فرغَ النجَّارُ من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره، فبعثَ معه مَنْ يأخذه، فطمسَ اللهُ عينيه وقلبَه فلم يعرفِ الطريق، فأيقنَ أنه المولود الذي تخوَّفَ[١] منه فرعون، فآمن مِنْ ذلك الوقت، وهو مؤمن آل فرعون. ذكره الماوردي[٢]. وقال ابن عباس: فلمَّا توارى عنها ندَّمَها الشيطانُ وقالت في نفسها: لو ذُبِحَ عندي فكفَّنتُه وواريتُه لكان أحبَّ إليَّ من إلقائه في البحر، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: إلى أهل مصر. حكى الأصمعيُّ قال: سمعتُ جاريةً أعرابيةً تنشد وتقول:

أستغفِرُ اللهَ لذنبي كلِّهِ قَبَّلتُ إنساناً بغيرِ حِلِّهِ
مثلَ الغزالِ ناعماً في دَلِّهِ فانتصفَ الليلُ ولم أُصَلِّهِ

فقلتُ: قاتَلكِ اللهُ ما أفصحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية؛ فجمعَ في آيةٍ واحدةٍ بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لمَّا كان التقاطُهم إيَّاه يؤدِّي إلى كونه لهم عدوّاً وحزناً؛ فاللامُ في «ليكون» لامُ العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قُرَّةَ عين، فكان عاقبةُ ذلك أنْ كان لهم عدوّاً وحزناً[٣]،

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي (د) و(ز): خوف، وفي (م): يخاف.
(٢) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٦، وما بعده منه.
(٣) البيان ٢/ ٢٢٩.

فذكر الحال بالمآل، كما قال الشاعر:

ولـلـمـنـايـا تُـربِّـي كـلُّ مُـرْضِـعـةٍ ودُورُنـا لـخـرابِ الـدهـرِ نَـبْـنِـيـهـا[1]

وقال آخر:

فـلـلـموتِ تَـغْـذُو الـوالـداتُ سِـخَـالَـهـا كـما لـخرابِ الدَّهـرِ تُـبنَى المساكنُ[2]

أي: فعاقبةُ البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به.

والالتقاط: وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة، والعربُ تقول لِما وجدَتْه من غير طلب ولا إرادة: التقطَه التقاطاً. ولقيتُ فلاناً التقاطاً. قال الراجز:

ومَـنْـهَـلٍ وردتُـه الـتـقـاطـا[3]

ومنه اللقطة. وقد مضى بيانُ ذلك من الأحكام في سورة «يوسف»[4] بما فيه كفاية.

وقرأ الأعمش ويحيى والمُفضَّل وحمزة والكسائي وخلف: «وَحُزْناً» بضَمِّ الحاء وسكون الزاي. الباقون بفتحهما، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: للتفخيم فيه[5]. وهما لغتان، مثل: العَدَم والعُدْم، والسَّقَم والسُّقْم، والرَّشَد والرُّشْد[6]. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وكان وزيره من القِبط. ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾ أي: عاصين مشركين

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٧ ، لكن الصواب في هذا البيت كما في بهجة المجالس ٣/ ٣٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٥٦ : وللمنايا تربِّي كلُّ مرضعةٍ.... وللخراب يُجدُّ الناس عمرانا. أما عجز البيت الذي ذكره المصنف فقد سلف ٣/ ٥٠ ، وصدره: أموالنا لذوي الميراث نجمعها.

(٢) قائله سابق بن عبد الله البربري كما في العقد الفريد ٢/ ٦٩ .

(٣) الفائق ٣/ ٤٢٧ بنحوه. وتتمة الرجز: «لم ألقَ إذ وردتُه فراطا»، وهو لنقادة الأسدي كما في اللسان (لقط).

(٤) ١١/ ٢٦٦ - ٢٧١ .

(٥) قراءة حمزة والكسائي وخلف في السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧١ ، والنشر ٢/ ٣٤١ . وقراءة الأعمش ويحيى في المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩١ .

آثمين[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ يُروى أنَّ آسية امرأةَ فرعون رأتِ التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسَوقِه إليها وفَتْحِه، فرأت فيه صبيّاً صغيراً، فرحمَتْه وأحبَّته، فقالت لفرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ»[٢] أي: هو قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ، فـ «قُرَّةُ» خبرُ ابتداءٍ مُضمَرٍ. قاله الكسائي. وقال النحَّاس: وفيه وجهٌ آخرُ بعيدٌ ذكره أبو إسحاق؛ [قال][٣]: يكون رفعاً بالابتداء، والخبر «لا تَقْتُلوهُ» وإنما بَعُدَ؛ لأنَّه يصير المعنى أنه معروف بأنه قُرَّةُ عين. وجوازه أن يكون المعنى: إذا كان قرَّةُ عينٍ لي ولكَ فلا تقتلوه[٤]. وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «وَلَكَ»[٥]. ويجوز النَّصب بمعنى: لا تقتلوا قرةَ عينٍ لي ولك. وقالت: «لا تَقتلُوهُ» ولم تَقُل: لا تقتُلْه، فهي تخاطب فرعون كما يُخاطَبُ الجبَّارون، وكما يُخبرون عن أنفسهم[٦]. وقيل: قالت: «لا تَقْتُلوهُ» فإنَّ اللهَ أتى به من أرضٍ أخرى وليس من بني إسرائيل[٧]. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيبَ منه خيراً[٨] ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبَه لها، وكان فرعونُ لمَّا رأى الرؤيا وقصَّها على كهنته وعلمائه ـ على ما تقدَّم ـ قالوا له: إنَّ غلاماً من بني إسرائيل يُفسِدُ ملكَك. فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فوُلِدَ هارونُ عليه السلام في عام الاستحياء، ووُلِدَ موسى عليه السلام في عام الذبح[٩].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧.

(٣) ما بين حاصرتين يقتضيه السياق.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٣٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٥٩. قلنا: وقراءة ابن مسعود هذه شاذة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٢٩.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٨) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٦.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداء كلامٍ من الله تعالى، أي: وهم لا يشعرون أنَّ هلاكَهم بسببه[١]. وقيل: هو من كلام المرأة، أي: وبنو إسرائيل لا يدرون أنَّا التقطناه، ولا يشعرون إلَّا أنه ولَدُنا[٢].

واختلف المتأوِّلون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» فقالت فرقة: كان ذلكَ عند التقاطِ التابوت لمَّا أشعرَتْ فرعونَ به، ولما أعلمته سبق إلى وهمه[٣] أنه من بني إسرائيل، وأنَّ ذلك قصدَ به ليتخلَّص من الذبح فقال: عليَّ بالذبَّاحين. فقالت امرأتُه ما ذُكِرَ، فقال فرعون: أمَّا لي فلا. قال النبيُّ ﷺ: «لو قال فرعون: نعم، لآمنَ بموسى، ولكان قرَّةَ عينٍ له»[٤] وقال السُّدِّي: بل ربَّتْه حتى دَرَج، فرأى فرعونُ فيه شهامةً، وظنَّه من بي إسرائيل وأخذَه في يده، فمدَّ موسى يدَه ونتفَ لحية فرعون، فهمَّ حينئذٍ بذبحه، وحينئذٍ خاطبَتْه بهذا، وجرَّبَتْه له في الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانُه وعلق العقدة[٥]. على ما تقدَّم في «طه»[٦]. قال الفرَّاء: سمعتُ محمد بن مروان الذي يُقال له السُّدِّي يذكر عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ لَا» ثم قالت: «تَقْتُلُوهُ» قال الفرَّاء: وهو لحن[٧]؛ قال ابن الأنباري: وإنما حكم عليه باللَّحن؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأنَّ الفعل المستقبل مرفوعٌ حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع. قال الفرَّاء: ويُقوِّيك على ردِّه قراءةُ عبد الله بن

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٩٢.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٠٤.

(٣) في (م): فهمه.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ١٦٣ من طريق أبي معشر، عن محمد بن قيس المدني، عن النبي ﷺ. إسناده معضل. وأبو معشر: هو نَجيح بن عبد الرحمن المدني، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٤-٢١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٦) ١٤/ ٥١ - ٥٢.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠٢.

مسعود: «وقالَتِ امرأةُ فِرْعونَ لا تقتلوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ» بتقديم «لا تقتُلوهُ»(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجَوْني وأبو عبيدة: «فَارِغاً» أي: خالياً من ذكر كلِّ شيءٍ في الدنيا إلَّا من ذكر موسى(٢). وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد: «فَارِغاً» من الوحي إذْ أوحى إليها حين أُمرت أن تُلقيَه في البحر «لا تخافي ولا تحْزَني» والعهد الذي عَهِدَه إليها أن يردَّه ويجعلَه من المرسلين، فقال لها الشيطان: يا أمَّ موسى، كرهتِ أن يقتُلَ فرعونُ موسى فغرَّقتيه أنت! ثم بلَغها أنَّ ولدها وقع في يد فرعون، فأنساها عِظَمُ البلاء ما كان من عهد اللهِ إليها(٣). وقال أبو عبيدة: «فارِغاً» من الغَمِّ والحزن؛ لِعلمها أنَّه لم يغرق(٤). قاله الأخفش أيضاً. وقال العلاء بن زياد: «فارِغاً»: نافراً(٥). الكسائي: ناسياً ذاهلاً(٦). وقيل: والهاً. رواه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ١٦٧ - ١٦٨ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٠٥) عن ابن مسعود، و(١٦٧٠٦) و(١٦٧٠٦) عن ابن عباس.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٦٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ١٩٨ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ . وقول العلاء بن زياد أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٧٠٩).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٠ .

سعيد بن جُبير[(١)]. ابن القاسم عن مالك: هو ذهابُ العقل[(٢)]. والمعنى: أنَّها حين سمعت بوقوعه في يدِ فرعون طارَ عقلُها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] أي: جُوَفٌ لا عقولَ لها ـ كما تقدَّم في سورة «إبراهيم» ـ وذلكَ أنَّ القلوب مراكز العقول؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦] ويدلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأ: «فَزِعاً»[(٣)]. النحَّاس[(٤)]: أصحُّ هذه الأقوال الأول، والذين قالوه أعلَمُ بكتاب الله عزَّ وجلَّ؛ فإذا كان فارغاً من كلِّ شيءٍ إلَّا من ذكرِ موسى فهو فارغٌ من الوحي. وقول أبي عبيدة: «فارغاً من الغَمِّ» غلطٌ قبيحٌ؛ لأنَّ بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كادت تقولُ: واابناه!.

وقرأ فَضالة بن عُبيد الأنصاري ﷺ ومحمد بن السَّمَيْفَع وأبو العالية وابن مُحيْصِن: «فَزِعاً» بالفاء والعين المهملة من الفزع، أي: خائفةً عليه أن يُقتل[(٥)]. ابن عباس: «قَرِعاً» بالقاف والراء والعين المهملتين، وهي راجعةٌ إلى قراءة الجماعة «فَارِغاً»؛ ولذلكَ قيل للرأس الذي لا شعرَ عليه: أقرع؛ لفراغه من الشعر. وحكى قُطرب أنَّ بعض أصحاب النبيِّ ﷺ قرأ: «فِرْغاً» بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف، وهو كقولك: هدراً وباطلاً[(٦)]؛ يقال: دماؤهم بينهم فِرْغٌ أي: هدر، والمعنى: بطَلَ قلبُها وذهب، وبقيتْ لا قلبَ لها من شدَّة ما ورد عليها[(٧)].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٧ .

(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٥) في المحتسب ٢/ ١٤٧ عن فضالة والحسن وأبي الهذيل وابن قطيب، وفي الشاذة ص١١١ عن فضالة وابن قطيب وأبي زرعة، وفي زاد المسير ٦/ ٢٠٤ عن أبي العالية وأبي رزين والضحاك وقتادة وعاصم الجحدري.

(٦) المحتسب ٢/ ١٤٨ ، وهما قراءتان شاذتان.

(٧) الكشاف ٣/ ١٦٧ .

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وجهان: أحدهما ـ أنها ألقَتْه ليلاً، فأصبح فؤادها في النهار فارغاً. الثاني ـ أنها ألقَتْه نهاراً، ومعنى: «أَصْبَحَ» أي: صار، كما قال الشاعر:

مضى الخلفاءُ بالأمرِ الرشيدِ وأصبحتِ المدينةُ للوليدِ[1]

﴿إِن كَادَتْ﴾ أي: إنَّها كادت، فلما حذفت الكناية سكنت النون. فهي «إِنْ» المخففة؛ ولذلك دخلت اللام في ﴿لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر[2]. قال ابن عباس: أي: تصيح عند إلقائه: واابناه. السُّدِّي: كادت تقول لما حُمِلَتْ لإرضاعه وحضانته: هو ابني. وقيل: إنه لما شَبَّ سمعتِ الناسَ يقولون: موسى بن فرعون، فشقَّ عليها وضاقَ صدرُها، وكادت تقول: هو ابني[3]. وقيل: الهاء في «به» عائدةٌ إلى الوحي، تقديره: إن كادت[4] لَتُبدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نردَّه عليها[5]. والأوّل أظهر. قال ابن مسعود: كادَتْ تقول: أنا أمه[6]. وقال الفرَّاء[7]: إن كادت لَتُبدي باسمه لضيق صدرها.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ قال قتادة: بالإيمان. السُّدِّي: بالعصمة[8]. وقيل: بالصبر. والربطُ على القلب: إلهام الصبر[9]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٧، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥. وقول ابن عباس في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢.

(٤) في (م): كانت، والمثبت من باقي النسخ.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٠٣.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣٤.

المُصدِّقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[١]. وقال: ﴿لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ ولم يقل: لِتبديه؛ لأنَّ حروفَ الصفات قد تُزادُ في الكلام؛ تقول: أخذتُ الحبلَ وبالحبل. وقيل: أي: لِتُبدي القولَ به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: قالت أمُّ موسى لأخت موسى: اتبعي أثرَه حتى تعلمي خبره[٢]. واسمها مريم بنت عمران؛ وافق اسمُها اسمَ مريمَ أمِّ عيسى عليه السلام. ذكره السُّهيلي[٣] والثعلبي. وذكر الماوردي[٤] عن الضحاك: أنَّ اسمها كلثمة. وقال السُّهيلي[٥]: كلثوم؛ جاء ذلك في حديثٍ رواه الزُّبير بن بكّار أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لخديجة: «أشعَرْتِ أنَّ الله زوَّجني معك في الجنة مريمَ بنتَ عمران وكلثومَ أختَ موسى وآسيةَ امرأةَ فرعون؟» فقالت: اللهُ أخبركَ بهذا؟ فقال: «نعم» فقالت: بالرِّفاءِ والبنين[٦].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: بُعدٍ. قاله مجاهد، ومنه الأجنبي؛ قال الشاعر:

فَلا تَحْرِمَنِّي نائِلاً عن جَنابةٍ ... فإنِّي امرؤٌ وسْطَ القِبابِ غَريبُ

وأصله عن مكان جنب. وقال ابن عباس: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن جانب[٧]. وقرأ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٧ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٦/ ٢٠٥ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٠

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٢٣٨ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٣٠ .

(٦) أخرجه الطبراني ٢٢/ (١١٠٠) عن ابن أبي رواد. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢١٨ : رواه الطبراني منقطع الإسناد. قلنا: وفيه محمد بن الحسن بن زَبالة قال الحافظ في التقريب: كذَّبوه.
وأخرجه الطبراني (٨٠٠٦) دون قوله: «بالرفاء والبنين» من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي: فيه خالد ابن يوسف السمتي، وهو ضعيف. قلنا: وفيه عبد النور بن عبد الله المسمعي، وهو كذاب. وفيه يونس ابن شعيب، وهو منكر الحديث. ميزان الاعتدال ٢/ ٦٧١ و٤/ ٤٨١ .
وأخرجه الطبراني (٥٤٨٥) مختصراً من حديث سعد بن جنادة ﷺ. قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٥ . والبيت قائله علقمة بن عبدة الفحل، وقد سلف ٦/ ٣٠٣ .

النعمان بن سالم: «عن جانِبٍ» أي: عن ناحية[١]. وقيل: عن شوق. وحكى أبو عَمرو ابن العلاء أنَّها لغةٌ لِجُذام؛ يقولون: جنبتُ إليكَ أي: اشتقتُ[٢]. وقيل: «عَنْ جُنُبٍ» أي: عن مُجانبةٍ لها منه، فلم يعرِفوا أنها أمُّه بسبيل[٣]. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه بناحيةٍ [كأنَّها] لا تريده[٤]، وكان يقرأ: «عَنْ جَنْبٍ» بفتح الجيم وإسكان النون[٥].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أختُه، لأنَّها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: معناه من الارتضاع من قبل، أي: من قبل مجيء أمه وأخته[٧]. والْمَراضِعُ جمع مُرْضِع. ومن قال: مراضيع، فهو جمعُ مِرْضاع، ومِفعال يكون للتكثير، ولا تدخل الهاءُ فيه فرقاً بين المؤنث والمذكَّر؛ لأنه ليس بجارٍ على الفعل، ولكن من قال: مِرضاعة، جاء بالهاء للمبالغة؛ كما يُقال: مِطرابة[٨]. قال ابن عباس: لا يؤتى بمرضعٍ فيقبلها. وهذا تحريمُ منعٍ لا تحريمُ شرع؛ قال امرؤ القيس[٩]:

جَالَتْ لِتصرعَني فقلتُ لها اقْصِري إنِّي امرؤٌ صَرْعي عليكِ حَرامُ

---

(١) المحتسب ٢/ ١٤٩ ، والشاذة ص١١٢ . ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٠٦ إلى ابن مسعود وأبي عمران الجوني.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ١٧٦ عن ابن إسحاق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٨٨ ، والطبري ١٨/ ١٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٢٩) . وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٥) المحتسب ٢/ ١٤٩ عن قتادة والحسن والأعرج، والشاذة ص١١٢ عن قتادة وابن عباس والأعرج، وزاد المسير ٦/ ٢٠٦ عن قتادة وأبي العالية وعاصم الجحدري.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٩) في ديوانه ص١١٦ ، وقد سلف ٧/ ٤٠٢ .

أي: ممتنع. فلما رأتْ أختُه ذلك قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ الآية. فقالوا لها عند قولها: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ وما يُدريكِ؟ لعلكِ تعرفين أهلَه؟ فقالت: لا، ولكنهم يحرصون على مَسرَّة الملك، ويرغبون في ظِئْره[1]. وقال السُّدِّي وابن جُريج[2]: قيلَ لها لمَّا قالت: «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» قد عرفتِ أهلَ هذا الصبيِّ فدُلِّينا عليهم. فقالت: أردتُ: وهم للملك ناصحون. فدلَّتهم على أم موسى، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها، والصبيُّ على يدِ فرعون يُعلِّله شفقةً عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعَه إليها، فلمَّا وجدَ الصبيُّ ريحَ أمِّه قَبِلَ ثديَها[3]. وقال ابن زيد: استرابوها حين قالت ذلك، فقالت: وهم للملك ناصحون[4]. وقيل: إنَّها لما قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ﴾ وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديَها فقالوا: من هي؟ فقالت: أمي. فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم، لبن هارون ـ وكان وُلِدَ في سنةٍ لا يُقتل فيها الصبيان ـ فقالوا: صدقتِ والله. «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ»[5] أي: فيهم شفقةٌ ونصح[6]، فرُوي أنَّه قيل لأمِّ موسى حين ارتضع منها: كيفَ ارتضعَ منكِ ولم يرتَضِعْ من غيرك؟ فقالت: إني امرأةٌ طيبةُ الريح، طيبةُ اللبن، لا أكادُ أوتى بصبيٍّ إلا ارتضع مني. قال أبو عِمران الجَوْني: وكان فرعون يُعطي أمَّ موسى كلَّ يومٍ ديناراً[7]. قال الزمخشري[8]: فإن قلتَ: كيف حَلَّ لها أن تأخذ الأجرَ على إرضاع ولدها؟ قلت: ما كانت تأخذُه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مالُ حربيٍّ تأخذه على وجه

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٣) الكشاف ١/ ١٦٨

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٦٣ عن السدي.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٠٦ بنحوه.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٣٩ ، وقول أبي عمران أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٣٩).

(٨) في الكشاف ٣/ ١٦٨ .

الاستباحة.

قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ أي: ردَدْناه وقد عَطَّفَ اللهُ قلبَ العدوِّ عليه، ووفينا لها بالوعد. ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: بولدها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: بفراق ولدها. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لتعلَم وقوعَه، فإنها كانت عالمةً بأنَّ ردَّه إليها سيكون. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أكثر آل فرعون لا يعلمون، أي: كانوا في غفلةٍ عن التقدير وسِرِّ القضاء. وقيل: أي: أكثر الناس لا يعلمون أنَّ وعدَ الله في كلِّ ما وعدَ حَقٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قد مضى الكلام في الأشُدِّ في «الأنعام»(١). وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النساء:٦] فإن ذلك أوَّلُ الأشُدِّ، وأقصاه أربعٌ وثلاثون سنة، وهو قول سفيان الثوري(٢)، و«اسْتَوَى» قال ابن عباس: بلغَ أربعين سنة(٣). والحُكم: الحكمة قبل النبوّة. وقيل: الفقه في الدين. وقد مضى بيانُها في «البقرة»(٤) وغيرِها. والعلم: الفهم في قول السدي. وقيل: النبوَّة. وقال مجاهد: الفقه. محمد بن إسحاق: أي: العلم بما في دينه ودين آبائه؛ وكان له تسعةٌ من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وكان هذا قبل النبوَّة. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: كما جزينا أمَّ موسى لمَّا استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدَّقت بوعد الله؛ فرددنا ولدَها إليها بالتُّحف والطُّرف وهي آمنة، ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة، وكذلك نجزي كلَّ محسن.

---

(١) ٩/ ١١١ - ١١٤.

(٢) الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٢٤٠، وأخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره على التوالي (١٦٧٤١) و(١٦٧٤٢) و(١٦٧٤٣).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٤٠.

(٤) ٢/ ٤٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: لمَّا عرفَ موسى عليه السلام ما هو عليه من الحقِّ في دينه، عابَ ما عليه قومُ فرعون، وفشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً[1]. وقال السُّدِّي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّقِ بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يُدعى موسى ابن فرعون، فركب فرعونُ يوماً وسار إلى مدينةٍ من مدائن مصر يُقال لها: منف ـ قال مقاتل: على رأس فرسخين من مصر ـ ثم علم موسى بركوب فرعون، فركبَ بعده، ولحقَ بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة. قاله ابن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمة. وقال ابن إسحاق: بل المدينةُ مصرُ نفسُها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلافَ فرعون، وعابَ عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلةٍ من أهلها[2]. قال سعيد بن جُبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام[3]. وقال ابن زيد: كان فرعونُ قد نابذَ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناسُ على غفلةٍ بنسيانهم لأمره،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ دون قول مقاتل، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٣٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٦ .

وبُعْدِ عهدِهم به، وكان ذلك يومَ عيد[١]. وقال الضحَّاك: طلبَ أن يدخل المدينةَ وقتَ غفلةِ أهلها، فدخلها حين علم ذلك منهم، فكان منه مِنْ قَتْلِ الرجلِ من قبل أن يؤمَرَ بقتله، فاستغفر ربَّه فغفرَ له. ويُقال في الكلام: دخلتُ المدينةَ حين غَفِلَ أهلُها، ولا يُقال: على حينِ غَفِلَ أهلها؛ فدخلت «على» في هذه الآية؛ لأنَّ الغفلةَ هي المقصودة، فصار هذا كما تقول: جئتُ على غفلةٍ، وإن شئتَ قلتَ: جئتُ على حينِ غفلة، وكذا الآية. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ والمعنى: إذا نظرَ إليهما الناظرُ قال: هذا من شيعته، أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: من قوم فرعون[٢]. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: طلبَ نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستغيث به على قبطيٍّ آخر، وإنما أغاثَه لأنَّ نصرَ المظلوم دينٌ في الملل كلِّها على الأمم، وفرضٌ في جميع الشرائع[٣]. قال قتادة: أراد القبطيُّ أن يُسخِّر الإسرائيليَّ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فاستغاث بموسى. قال سعيد بن جُبير: وكان خبازاً لفرعون. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال قتادة: بعصاه. وقال مجاهد: بكفِّه، أي: دفعه. والوكز واللَّكْز واللَّهْز واللَّهْد بمعنى واحد[٤]، وهو الضرب بجُمْع الكفِّ مجموعاً كعقد ثلاثةٍ وسبعين. وقرأ ابن مسعود: «فَلَكَزَهُ». وقيل: اللَّكْز في اللحى، والوكز على القلب. وحكى الثعلبيُّ أنَّ في مصحف عبد الله بن مسعود «فَنَكَزَهُ» بالنون والمعنى واحد[٥]. وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللَّكزُ: الضرب بالجُمْعِ على الصدر. وقال أبو زيد: في جميع الجسد، واللَّهز: الضرب بُجْمعِ اليد في الصدر مثل اللَّكْز. عن أبي عبيدة أيضاً. وقال أبو زيد: هو بالجُمْع في اللَّهازِمِ والرقبة، والرجل: مِلْهَز بكسر الميم. وقال الأصمعي: نَكَزه،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠.

أي: ضربَه ودفعَه. الكسائي: نَهزَه مثل نَكَزه ووكَزَه، أي: ضربه ودفعه. ولَهَده لَهْداً أي: دفعَه لذِلَّةٍ، فهو ملهود، وكذلك لَهَّده؛ قال طَرفَة يذمُّ رجلاً:

بطيءٍ عن الدَّاعي سريعٍ إلى الخنا ذَلُولٍ بأَجْماعِ الرجالِ مُلَهَّدِ[١]

أي: مُدفَّع، وإنما شدَّد للكثرة[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: فلهَدَني ـ تعني النبيَّ ﷺ ـ لَهْدةً أوجعني. خرَّجه مسلم[٣]. ففعل موسى عليه السلام ذلكَ وهو لا يريد قتله، إنَّما قصد دفْعَه فكانت فيه نفسُه، وهو معنى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[٤]. وكلُّ شيءٍ أتيتَ عليه وفرغتَ منه فقد قضيتَ عليه[٥]. قال:

قَدْ عَضَّهُ فَقَضى عليه الأَشْجَعُ[٦]

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من إغوائه. قال الحسن: لم يكن يحِلُّ قتلُ الكافر يومئذٍ في تلك الحال؛ لأنَّها كانت حالَ كفٍّ عن القتال[٧]. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ خبر بعد خبر[٨]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ نَدِمَ موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهابُ النفس، فحملَه ندَمُه على الخضوع لربِّه والاستغفار من ذنبه. قال قتادة: عرفَ واللهِ المخرجَ فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يُعدِّدُ ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غُفِرَ له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلِها[٩]. وإنَّما عدَّه على نفسه ذنباً وقال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ من أجل

---

(١) ديوان طرفة ص٤٠، وفيه: الجُلَّى بدل الداعي.

(٢) الصحاح (لكز) و(لهز) و(نكز) و(لهد).

(٣) في صحيحه (٩٧٤): (١٠٣).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٩٣.

(٦) عجز لبيت قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩١٣، وصدره: «أيُفايِشون وقد رأوا حُفَّاثهم». قال شارحه: المفايشة: المفاخرة. الحُفَّاث: حية لا سُمَّ لها. والأشجع: يريد الشجاع من الحيات القاتل.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٤٢.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٠ - ٢٨١.

أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يقتل حتى يؤمر[١]، وأيضاً فإنَّ الأنبياء يُشفقون مما لا يُشفِقُ منه غيرهم. قال النقَّاش: لم يقتُلْه عن عمدٍ مريداً للقتل، وإنما وكَزَه وكزةً يُريد بها دفع ظلمه. قال: وقد قيل: إنَّ هذا كان قبل النبوَّة. وقال كعب: كان إذ ذاك ابنَ اثنتي عشرة سنة، وكان قتلُه مع ذلك خطأً؛ فإنَّ الوكزةَ واللَّكزةَ في الغالب لا تقتل.

وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق، ما أسألَكم عن الصغيرة، وأركَبَكم للكبيرة! سمعتُ أبي عبدَ الله بن عمر يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الفتنةَ تجيء من هاهنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيثُ يطلعُ قرنا الشيطان، وأنتم بعضُكم يضرِبُ رقابَ بعضٍ، وإنما قتلَ موسى الذي قتل مِن آل فرعون خطأً، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]»[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: من المعرفة والحكم والتوحيد ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: عوناً للكافرين. قال القشيري: ولم يقُلْ: بما أنعمتَ عليَّ من المغفرة؛ لأنَّ هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأنَّ الله غفرَ له ذلك القتل. وقال الماوردي[٣]: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ من المغفرة، وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي. قال المهدوي ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من المغفرة فلَمْ تُعاقِبْني. الوجه الثاني ـ من الهداية.

قلت: قوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ يدلُّ على المغفرة، والله أعلم. قال الزمخشري[٤]: قولُه تعالى: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ يجوز أن يكون قَسَماً جوابُه محذوفٌ تقديره: أُقسِمُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٣ .

(٢) صحيح مسلم (٢٩٠٥): (٥٠). وأخرجه أحمد (٤٩٨٠)، والبخاري (٣١٠٤) مختصراً.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٤٢ .

(٤) في الكشاف ٣/ ١٦٩ .

بإنعامِكَ عليَّ بالمغفرة لأتوبنَّ ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. وأن يكون استعطافا كأنَّه قال: ربِّ اعصمني بحقِّ ما أنعمتَ عليَّ من المغفرة، فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إمَّا صحبةَ فرعون وانتظامَه في جملته، وتكثيرَ سوادِه، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يُسمى ابن فرعون، وإمَّا بمظاهرة مَنْ أدَّت مظاهرتُه إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليِّ المؤدِّيةِ إلى القتل الذي لم يَحِلَّ له قتلُه.

وقيل: أراد: إني وإن أسأتُ في هذا القتل الذي لم أومَرْ به فلا أتركُ نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيليُّ مؤمناً، ونصرةُ المؤمن واجبةٌ في جميع الشرائع.

وقيل في بعض الروايات: إنَّ ذلك الإسرائيليَّ كان كافراً[1]، وإنما قيل له إنه من شيعته؛ لأنَّه كان إسرائيلياً ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدين، فعلى هذا نَدِمَ؛ لأنَّه أعان كافراً على كافر، فقال: لا أكونُ بعدَها ظهيراً للكافرين.

وقيل: ليس هذا خبراً، بل هو دعاءٌ، أي: فلا أكونُ بعد هذا ظهيراً، أي: فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين. وهذا قول الكسائي والفرَّاء. وقال الكسائي: وفي قراءة عبد الله: «فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمين»[2]. وقال الفرَّاء: المعنى: اللهمَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين. وزعم أنَّ قولَه هذا هو قول ابن عباس. قال النحَّاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام، كما يُقال: لا أعصيكَ لأنكَ أنعمتَ عليَّ. وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفرَّاء؛ لأنَّ ابنَ عباس قال: لم يَستثْنِ فابتُليَ من ثاني يوم، والاستثناء لا يكون في الدعاء، لا يُقال: اللهمَّ اغْفِرْ لي إن شئت. وأعجبُ الأشياء أنَّ الفرَّاء روى عن ابن عباس هذا، ثم

---

(١) وهو قول مقاتل كما في الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٣٩ .

(٢) من قوله: وهذا قول الكسائي... إلى هذا الموضع من (ظ) وإعراب القرآن ٣/ ٢٣٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٧ . وقراءة عبد الله في الشاذة ص١١٣ دون قوله: يا ربِّ .

حكى عنه قوله[١].

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخَّصاً مُبيَّناً في سورة «النمل»[٢] وأنه خبرٌ لا دعاء. وعن ابن عباس: لم يَستثْنِ فابتُلِيَ به مرةً أخرى؛ يعني: لم يقُلْ: فلن أكونَ إن شاء الله. وهذا نحو قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[٣] [هود: ١١٣].

الثانية: قال سلمة بن نُبَيط: بعثَ عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحَّاك بعطاء أهل بُخارى وقال: أعطِهم. فقال: أعفني. فلم يزَلْ يستعفيه حتى أعفاه. فقيل له: ما عليكَ أن تُعطيَهم وأنتَ لا ترزؤهم شيئاً؟ وقال: لا أُحِبُّ أن أُعينَ الظَّلَمةَ على شيءٍ من أمرهم[٤]. وقال عُبيد الله بن الوليد الوَصَّافي: قلتُ لعطاء بن أبي رَباح: إنَّ لي أخاً يأخذ بقلمه، وإنَّما يحسب ما يدخل ويخرج، وله عيالٌ، ولو تركَ ذلك لاحتاج وادَّانَ؟ فقال: مَنِ الرأس؟ قلتُ: خالد بن عبد الله القَسْري. قال: أما تقرأ ما قال العبدُ الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: فلم يَستثْنِ، فابتُلي به ثانيةً فأعانه الله، فلا يُعينهم أخوك فإنَّ اللهَ يُعينه. قال عطاء: فلا يحِلُّ لأحدٍ أن يُعينَ ظالماً ولا يكتبَ له ولا يصحبَه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صارَ مُعيناً للظالمين[٥]. وفي الحديث: «يُنادي مُنادٍ يومَ القيامة: أينَ الظَّلَمةُ وأشباهُ الظَّلَمةِ وأعوانُ الظَّلَمةِ؟ حتى مَنْ لاقَ لهم دَواةً أو بَرى لهم قلماً، فيُجمَعون في تابوتٍ من حديدٍ فيُرمى به في جهنم»[٦]. ويُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ مشى مع مظلومٍ لِيُعينَه على مَظلمتِه ثبَّت اللهُ قدمَيه على الصراط يومَ القيامة يومَ تَزِلُّ فيه الأقدام، ومَنْ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٤ .

(٢) عند تفسير الآية (١٠).

(٣) الكشاف ٣/ ١٦٩ .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٢٣ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩ . وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٥٥ بطرفه الأول، يعني إلى نهاية الآية.

(٦) ذكره الإمام أحمد في الورع ص٩٣ من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ. والديلمي في مسند الفردوس (٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مشى مع ظالمٍ لِيُعينَه على ظلمِه أزَلَّ اللهُ قدمَيه على الصراط يوم تَدْحَضُ فيه الأقدام»[١]. وفي الحديث: «مَنْ مشى مع ظالمٍ فقد أجرم»[٢] فالمشيُ مع الظالم لا يكون جُرْماً إلَّا إذا مشى معه لِيُعينَه؛ لأنَّه ارتكبَ نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ قد تقدَّم في «طه»[٣] وغيرها أنَّ الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم يخافون؛ ردّاً على مَنْ قال غيرَ ذلك، وأنَّ الخوفَ لا يُنافي المعرفةَ بالله ولا التوكُّلَ عليه؛ فقيل: أصبحَ خائفاً من قتلِ النفس أن يُؤخَذَ بها. وقيل: خائفاً من قومه أن يُسلموه. وقيل: خائفاً من الله تعالى. ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قال سعيد بن جُبير: يتلفَّتُ من الخوف. وقيل: ينتظر الطلب، وينتظر ما يتحدَّث به الناس[٤]. وقال قتادة: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يترقَّبُ الطلب[٥]. وقيل: خرج يستخبر الخبر، ولم يكن أحدٌ عَلِمَ بقتل القبطيِّ غير الإسرائيلي. و«أَصْبَحَ» يَحتمِلُ أن يكون بمعنى صار، أي: لمَّا قتلَ صارَ خائفاً. ويَحتملُ أن يكون دخل في الصباح، أي: في صباح اليوم الذي يلي يومَه. و«خَائِفاً» منصوبٌ على أنه خبر «أصبح»، وإن شئتَ على الحال، ويكون الظرفُ في موضع الخبر[٦].

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: فإذا صاحِبُه الإسرائيليُّ الذي خلَّصه

(١) أخرجه ـ بطرفه الأول ـ أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٤٨ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وفي إسناده موسى بن محمد الموقري ـ وهو البلقاني ـ وهو كذاب. ميزان الاعتدال ٤/ ٢١٩ .
وذكر الديلمي في مسند الفردوس (٥٧٠٥) طرفه الأول أيضاً، ولكن عن معاذ بن جبل ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني ٢٠/ (١١٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٨٩) من حديث معاذ بن جبل ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٠: فيه عبد العزيز بن عبيد الله، وهو ضعيف.

(٣) ١٤/ ٦٧ - ٦٩ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨ .

(٦) البيان ٢/ ٢٣٠ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٢ .

بالأمس يُقاتِلُ قبطياً آخر أراد أن يُسَخِّره[١]. والاستصراخُ: الاستغاثة، وهو من الصُّراخ؛ وذلك لأنَّ المستغيثَ يصرخ ويُصَوِّتُ في طلب الغَوْث؛ قال:

كُـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فـزِعٌ كـانَ الـصُّـراخُ لـه قـرعَ الـظَّـنـا بِـيـبِ[٢]

قيل: كان هذا الإسرائيليُّ المستنصرُ السامريُّ استسخره طبَّاخُ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ. ذكره القشيري[٣]. و«الَّذِي» رفعٌ بالابتداء، و«يَسْتَصْرِخُهُ» في موضع الخبر. ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الحال. وأمس لليومِ الذي قبل يومك، وهو مبنيٌّ على الكسر لالتقاء الساكنين، فإذا دخلَه الألفُ واللامُ أو الإضافةُ تمكَّن فأُعرِبَ بالرَّفعِ والفتحِ عند أكثر النَّحْويين. ومنهم من يَبنيه وفيه الألف واللام. وحكى سيبويه وغيرُه أنَّ من العرب من يُجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضعِ الرَّفعِ خاصَّةً، ورُبما اضطرَّ الشاعرُ ففعل هذا في الخفض والنصب؛ قال الشاعر:

لـقـد رأيـتُ عـجـبـاً مُـذْ أَمْـسـا[٤]

فخفضَ بِمُذْ ما مضى، واللغة الجيدة الرفع، فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة الثانية. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ والغويُّ: الخائب، أي: لأنك تُشادُّ مَنْ لا تُطيقه[٥]. وقيل: مُضِلٌّ بَيِّنُ الضلالة، قتلتُ بسببِكَ أمس رجلاً، وتدعوني اليوم لآخر[٦]، والغَويُّ فعيلٌ مِنْ أغوى يُغوي، وهو بمعنى مُغوٍ، وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم. وقيل: الغويُّ بمعنى الغاوي. أي: إنَّكَ لَغَويٌّ في قتال مَنْ لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه عنك[٧]. وقال الحسن: إنما قال للقبطيِّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ في استسخار هذا الإسرائيليِّ، وهَمَّ أن يبطش به. يقال: بَطَش يَبْطُش ويبطِشُ،

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٠٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨١ والبيت قائله سلامة بن جندل، وقد سلف ١٢/ ١٢٩ .

(٣) وذكره الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٤) في (ظ) و(م): أمس. والرجز سلف ١٤/ ١٤٠ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٢-٢٣٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٠ .

(٧) الوسيط ٣/ ٣٩٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٠٩ -٢١٠ .

والضمُّ أقْيَسُ؛ لأنَّه فِعْلٌ لا يتعدَّى[١].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ قال ابن جُبير: أرادَ موسى أن يبطش بالقبطيِّ، فتوهَّم الإسرائيليُّ أنه يريده؛ لأنه أغلظ له في القول، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ فسمع القبطيُّ الكلامَ فأفشاه. وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيليُّ بالقبطيِّ، فنهاه موسى، فخاف منه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾[٢]. ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أي: ما تريد. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قتّالا[٣]. قال عكرمة والشَّعبي: لا يكونُ الإنسان جباراً حتى يقتل نَفْسَين بغير حق[٤]. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي: من الذين يصلحون بين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون. ذكره الثعلبيّ[٥]. وقيل: طالوت. ذكره السُّهيليّ[٦]. وقال المهدويُّ عن قتادة: شمعون مؤمن آل فرعون[٧]. وقيل: شمعان؛

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٦٨ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٣ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٢٧٧ ، وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٧٩٠)، وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٨/ ١٩٧ .

(٥) وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ عن الضحاك أنه مؤمن آل فرعون، وذكر عن الكلبي أنه ابن عم فرعون.

(٦) في التعريف والإعلام ص١٣١ .

(٧) وذكره النحاس في معاني القرآن له ٥/ ١٦٩ دون تسميته شمعون، وقد وردت هذه التسمية عن شعيب الجبائي فيما أخرجه الطبري ١٨/ ٢٠٠ .

قال الدَّارَقُطْنِيّ: لا يُعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون[١].

ورُويَ أنَّ فرعون أمر بقتل موسى، فسبقَ ذلك الرجل بالخبر[٢]، فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون في قتلك بالقبطيِّ الذي قتلتَه بالأمس. وقيل: يأمر بعضُهم بعضاً. قال الأزهري[٣]: ائتمر القومُ وتآمروا أي: أمر بعضُهم بعضاً، نظيره قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٦]. وقال النَّمِر بن تَوْلَب:

أرى الناسَ قد أحدثوا شِيمةً ... وفي كلِّ حادثةٍ يُؤتَمَرْ

﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب[٤]. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقيل: الجبَّار: الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن. وقيل: المُتعظِّم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ لمَّا خرجَ موسى عليه السلام فارّاً بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زادٍ ولا راحلةٍ ولا حذاءٍ نحو مدينَ للنَّسب الذي بينه وبنيهم ـ لأنَّ مدين من ولد إبراهيم، وموسى من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ ورأى حالَه وعدمَ معرفته بالطريق، وخُلوَّه من زادٍ وغيره، أسندَ أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر[٦].

---

(١) التعريف والإعلام ص١٣١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٤ ونسب القول الأول إلى الكلبي.

(٣) في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٩٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٠.

(٥) الكشاف ٣/ ١٦٩.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣.

قلت: رُوي أنه كان يتقوَّتُ ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفُّ قدميه[١]. قال أبو مالك: وكان فرعون وجَّه في طلبه وقال لهم: اطلبوه في ثنيات الطريق، فإنَّ موسى لا يعرف الطريق. فجاءه مَلَكٌ راكباً فرساً ومعه عَنَزة، فقال لموسى: اتبعني. فاتَّبعه فهداه إلى الطريق[٢]، فيُقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه. ويُروى أنَّ عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح. قال مقاتل والسُّدِّي: إنَّ الله بعث إليه جبريل، فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام. قاله ابن جُبير والناس. وكان مُلْك مدين لغير فرعون[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى وردَ ماءَ مدين أي: بلغَها. ووروده الماء معناه: بلغَه لا أنَّه دخلَ فيه. ولفظةُ الورود قد

---

(١) عرائس المجالس ص١٧٦ عن ابن عباس ﷺ.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٢ .

تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه(١)؛ ومنه قول زهير(٢):

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وقد تقدَّمت هذه المعاني في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. ومدين لا تنصرف؛ إذ هي بلدةٌ معروفة(٣). قال الشاعر:

رُهبانُ مَدينَ لو رأوكِ تَنَزَّلوا والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ(٤)

وقيل: قبيلةٌ من ولد مدين بن إبراهيم، وقد مضى القول فيه في «الأعراف»(٥). والأُمَّة: الجمع الكثير. و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه: ماشيتهم. و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه: ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأُمّة، ووجدهما تذودان، ومعناه: تُمنعان وتُحبسان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «فَلَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي»، وفي بعض المصاحف: «امرأتين حابستين تذودان»(٦) يقال: ذادَ يذودُ إذا حُبِسَ. وذُدْتُ الشيءَ حبستُه(٧)؛ قال الشاعر:

أَبِيتُ على باب القَوافي كأنَّما أذُودُ بها سِرْباً من الوحشِ نُزَّعَا(٨)

أي: أحبِسُ وأمنَع. وقيل: «تَذُودانِ»: تَطْرُدان؛ قال:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٢) في ديوانه ص١٣ - ١٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٤) قائله جرير، وقد سلف ٨/ ١١٢ ، ورُوي هناك: «شعف العقول» بدل «شعف الجبال».

(٥) ٩/ ٢٨٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ . والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢ ووقع في النسخ: إذا ذهب. والتصويب من معاني القرآن.

(٨) قائله سويد بن كراع، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٠١ ، والشعر والشعراء ٢/ ٦٣٥ ، وفيه: «أصادي» بدل «أذود». قال شارحه: صاديت الرجل: أي: داجيتُه وداريتُه وساترتُه.

لقد سَلبتْ عصاكَ بنو تميمٍ فما تَدْري بأيِّ عصًا تَذُودُ[(١)]

أي: تَطردُ وتَكفُّ وتَمنعُ. ابن سلاَّم: تمنعان غنمَهما لئلّا تختلط بغنم الناس[(٢)]، فحذفَ المفعول؛ إمَّا إيهاماً على المخاطب، وإمَّا استغناءً بعلمه[(٣)]. قال ابن عباس: تذودان غنمَهما عن الماء خوفاً من السُّقاة الأقوياء. قتادة: تذودان الناس عن غنمهما[(٤)]. قال النحَّاس: والأوَّلُ أوْلى؛ لأنَّ بعده ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناسَ لم تُخبِرا عن سبب تأخير سَقيِهما حتى يُصدر الرِّعاء[(٥)]. فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: شأنكما[(٦)]؛ قال رؤبة:

يا عَجباً ما خَطْبُهُ وخَطبي[(٧)]

ابن عطية[(٨)]: وكان استعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شرٍّ، فأخبرتاه بخبرهما، وأنَّ أباهما شيخٌ كبير، فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يُباشر أمرَ غنمه، وأنهما لضعفهما وقلَّةِ طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأنَّ عادتَهما التأنِّي حتى يُصدِرَ الناسُ عن الماء ويخلى، وحينئذٍ تَرِدان.

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو: «يَصْدُرَ» من صَدَرَ، وهو ضدُّ وَرَدَ أي: يرجع الرِّعاء. والباقون «يُصْدِرَ» بضمِّ الياء من أصدر، أي: حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم.

---

(١) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٣ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

(٧) ديوان رؤبة في مجموع أشعار العرب ص١٦، وتتمة الرجز: وَأنا يُودي للأمير قلبي.

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ .

والرِّعاء جمع راع، مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصِحاب[١]. قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زَحْمُ الناس يمنعهما، فلمَّا أراد موسى أن يسقي لهما زَحَمَ الناسَ وغلبَهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفَتْه إحداهما بالقوَّة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصَّهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقيةً كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقيةٌ عطشت غنمُهما، فَرَقَّ لهما موسى، فعمدَ إلى بئر كانت مغطَّاةً والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرُها لا يرفعه إلا سبعة ـ قاله ابن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عباس: ثلاثون. الزجَّاج: أربعون ـ فرفعه، وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة وصفَتْه بالقوَّة. وقيل: إنَّ بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السُّقاة، إذ[٢] كانت عادةُ المرأتين شرب الفضلات[٣]. روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لمَّا استقى الرُّعاة غطَّوا على البئر صخرةً لا يقلعها إلا عشرةُ رجال، فجاء موسى فاقتلعَها واستقى ذَنُوباً واحداً لم تحتَجْ إلى غيره، فسقى لهما[٤].

الثانية: إن قيل: كيف ساغ لنبيِّ الله الذي هو شعيب ﷺ أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظورٍ والدينُ لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادة متباينةٌ فيه، وأحوالُ العرب فيه خلافُ أحوالِ العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالةُ حالةَ ضرورة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إلى ظلِّ سَمُرَة[٥]. قاله ابن مسعود. وتعرَّضَ لسؤال ما يُطعمه بقوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وكان لم يذُقْ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤١ . وينظر السبعة ص٤٩٢ ، والتيسير ص١٧١ .

(٢) في (م): إذا.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٣ سوى قوله: فإن وجدتا في الحوض... إلى قوله: فرقَّ لهما موسى، فهو في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٧٤ .

(٥) وهي شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لها برمة صفراء يأكلها الناس. اللسان (سمر).

طعاماً سبعةَ أيام، وقد لصق بطنُه بظهره، فعرَّضَ بالدعاء ولم يُصرِّحْ بسؤال، هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله[١]، فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:١٨٠] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، ويكون بمعنى القوّة كما قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان:٣٧]، ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، واخضرَّ لونُه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويُروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطنُ قدميه. وفي هذا مُعتبرٌ وإشعارٌ بهوان الدنيا على الله[٢]. وقال أبو بكر بن طاهر[٣] في قوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لِما أنزلت[٤] من فضلك وغناك فقيرٌ إلى أن تغنيني بِكَ عمَّن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإنَّ الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في هذا الكلام اختصارٌ يدلُّ عليه هذا الظاهر؛ قدَّره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدَّثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل: الصغرى ـ أن تدعوَه له، «فَجاءَتْ» على ما في هذه الآية. قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سَلْفَعاً من النساء[٥]، خَرَّاجةً وَلَّاجة. وقيل: جاءته

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو عبد الله بن طاهر بن حاتم الأبهري، توفي قريباً من سنة ٣٣٠هـ حلية الأولياء ١٠/ ٣٥١ ، وطبقات الصوفية ص٣٩١ .

(٤) في (ظ): أبديت.

(٥) أي: سليطةً جريئةً. أو: بذيئةً فحاشةً قليلة الحياء. اللسان (سلفع).

ساترةً وجهها بِكُمِّ دِرعها. قاله عمر بن الخطاب[١]. ورُويَ أنَّ اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام. وقيل: ابن أخي شعيب، وأنَّ شعيباً كان قد مات[٢]. وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام، وهو ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ كذا في سورة «الأعراف» [الآية: ٨٥] وفي سورة الشعراء [الآية: ١٧٦-١٧٧]: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال قتادة: بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. وقد مضى في «الأعراف» الخلافُ في اسم أبيه. فرُويَ أنَّ موسى عليه السلام لمَّا جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبَّتْ ريحٌ فضمَّتْ قميصَها فوصفت عجيزتَها، فتحرَّج موسى من النظر إليها، فقال: ارجعي خلفي وأرشديني إلى الطريق بصوتك[٣]. وقيل: إنَّ موسى قال ابتداءً: كوني ورائي فإني رجلٌ عبرانيٌّ لا أنظر في أدبار النساء، ودُلِّيني على الطريق يميناً أو يساراً[٤]. فذلك سبب وصفها [له]. قاله ابن عباس. فوصل موسى إلى داعيةٍ فقصَّ عليه أمره من أوَّله إلى آخره فآنسه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكانت مدينُ خارجةً عن مملكة فرعون[٥]. وقرَّبَ إليه طعاماً فقال موسى: لا آكل؛ إنَّا أهل بيتٍ لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. فقال شعيب: ليس هذا عِوَضَ السقي، ولكن عادتي وعادةُ آبائي قِرَى الضيف، وإطعامُ الطعام. فحينئذٍ أكل موسى[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإجارة

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٢) التعريف والإعلام ص١٣١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ ، وما بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس عائدٌ على القول الأول، لا على القول الذي ذكره ابن العربي.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٤ .

كانت عندهم مشروعةً معلومة، وكذلك كانت في كلِّ ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلافاً للأصمِّ حيث كان عن سماعها أصمَّ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ الآية. فيه عرضُ الوليِّ بنتَه على الرجل، وهذه سُنَّةٌ قائمة؛ عرض صالحُ مدين ابنتَه على صالح بني إسرائيل، وعرضَ عمرُ بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكرٍ وعثمان، وعرضتِ الموهوبةُ نفسَها على النبيِّ ﷺ؛ فمن الحَسَنِ عَرْضُ الرجلِ وليَّته، والمرأةِ نفسَها على الرجل الصالح، اقتداءً بالسلف الصالح. قال ابن عمر: لمَّا تأيَّمتْ حفصةُ قال عمر لعثمان: إن شئتَ أُنكِحُكَ حفصة بنت عمر. الحديث. انفرد بإخراجه البخاري[1].

السابعة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ النكاح إلى الوليِّ لا حظَّ للمرأة فيه؛ لأنَّ صالحَ مدين تولَّاه، وبه قال فقهاء الأمصار. وخالفَ في ذلك أبو حنيفة. وقد مضى[2].

الثامنة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ للأب أن يُزوِّجَ ابنتَه البكرَ البالغَ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتجَّ بهذه الآية، وهو ظاهرٌ قويٌّ في الباب، واحتجاجُه بها يدلُّ على أنه كان يُعوِّلُ على الإسرائيليات، كما تقدّم. وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثيرٌ من العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا بلغتِ الصغيرةُ فلا يُزوِّجها أحدٌ إلا برضاها؛ لأنها بلغتْ حدَّ التكليف، فأما إذا كانت صغيرةً فإنه يُزوِّجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذنَ لها ولا رضا بغير خلاف[3].

التاسعة: استدلَّ أصحاب الشافعي بقوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ على أنَّ النكاح موقوفٌ على لفظ التزويج والإنكاح[4]. وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود

---

(١) في صحيحه (٤٠٠٥)، وهو في مسند أحمد (٧٤). وأما حديث الموهوبة نفسها فأخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ. وهذه المسألة والتي قبلها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٤ - ١٤٥٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٤. وقد سلف الكلام على هذه المسألة ٣/ ٤٦٢ - ٤٦٦.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٥.

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٤٥٦.

ومالك على اختلافٍ عنه. وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكلِّ لفظ. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكلِّ لفظٍ يقتضي التمليك على التأبيد. أما الشافعية فلا حُجَّةَ لهم في الآية؛ لأنه شَرْعُ مَنْ قبلنا، وهم لا يرونه حُجَّةً في شيءٍ في المشهور عندهم. وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حَيّ فقالوا: ينعقد النكاحُ بلفظ الهبة وغيرِه إذا كان قد أشهَدَ عليه؛ لأنَّ الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا: فكذلك النكاح. قالوا: والذي خُصَّ به النبيُّ ﷺ تَعرِّي البُضْعِ من العِوَض لا النكاحَ بلفظ الهبة. وتابعهم ابن القاسم فقال: إن وهبَ ابنتَه وهو يريد إنكاحَها فلا أحفَظُ عن مالك فيه شيئاً، وهو عندي جائزٌ كالبيع. قال أبو عمر: الصحيحُ أنه لا ينعقد نكاحٌ بلفظ الهبة، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبةُ شيءٍ من الأموال. وأيضاً فإن النكاح مفتقرٌ إلى التصريح لتقع الشهادةُ عليه، وهو ضِدُّ الطلاق، فكيف يُقاس عليه؟! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله: أَبَحْتُ لك وأحلَلْتُ لك. فكذلك الهبة. وقال ﷺ: «استحلَلْتُم فروجَهنَّ بكلمة الله» يعني القرآن، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطالُ بعضِ خصوصيةِ النبيِّ ﷺ[1].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ يدلُّ على أنه عرضٌ لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً لَعيَّنَ المعقودَ عليها له؛ لأنَّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بِعْتُكَ أحدَ عبديَّ هذين بثمنٍ كذا؛ فإنهم اتَّفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيارٌ وشيءٌ من الخيار لا يُلصَقُ بالنكاح[2].

الحادية عشرة: قال مكيٌّ: في هذه الآية خصائص في النكاح؛ منها أنه لم يُعيِّنِ الزوجةَ ولا حدَّ أوَّلِ الأمد، وجعلَ المهرَ إجارةً، ودخلَ ولم يَنقُدْ شيئاً.

قلت: فهذه أربع مسائلَ تضمَّنَتْها المسألةُ الحاديةَ عشرة.

الأولى - من الأربع مسائل التعيين[3]؛ قال علماؤنا: أما التعيين فيُشبه أنه كان في

---

(١) التمهيد ٢١/ ١١١ - ١١٢ . والحديث سلف ٦/ ١٧٠ .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٤٥٧ .

(٣) كلمة «التعيين» من (م).

أثناء[١] حال المراوضة، وإنَّما عرضَ الأمرَ مجملاً، وعيَّن بعد ذلك. وقد قيل: إنه زوَّجه صفوريا وهي الصغرى[٢]. يُروى عن أبي ذَرٍّ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «إنْ سُئِلتَ: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرَهما وأوفاهما، وإن سُئِلْتَ: أيُّ المرأتين تزوَّج؟ فقل: الصغرى، وهي التي جاءت خلفه، وهي التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾»[٣]. قيل: إنَّ الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانتِ الكبرى أحوَجَ إلى الرجال أنَّه توقَّعَ أن يميل إليها؛ لأنه رآها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمِرُ غيرَه. وقيل غير هذا، والله أعلم[٤]. وفي بعض الأخبار أنه تزوَّج بالكبرى. حكاه القشيري[٥].

الثانية ـ وأمَّا ذِكْرُ أوّلِ المدَّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطَه، بل هو مسكوتٌ عنه؛ فإمَّا رسماه، وإلَّا فهو من أوَّل وقت العقد.

الثالثة ـ وأمَّا النكاح بالإجارة فظاهرٌ من الآية، وهو أمرٌ قد قرَّره شرعُنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلَّا شيءٌ من القرآن[٦]. رواه الأئمة، وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله ﷺ: «ما تحفَظُ من القرآن؟» فقال: سورةَ البقرة والتي تليها. قال: «فعَلِّمْها عشرين آيةً وهي امرأتُكَ»[٧]. واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة

(١) في النسخ: ثاني، والمثبت من المحرر الوجيز.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٤ - ٢٨٥.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٨٤٦)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢٦). وله شاهد موقوف على ابن عباس ﷺ عند البخاري (٢٦٨٤). قال الحافظ في الفتح ٥/ ٢٩١: وهو في حكم المرفوع.
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٥٨.
(٥) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ عن وهب.
(٦) من بداية المسألة الثانية إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥.
(٧) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ أبو داود (٢١١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده عِسْل بن سفيان، وهو ضعيف فيما قاله الحافظ في التقريب. وقد تفرد بزيادة: «فعلِّمها عشرين آية وهي امرأتك». قلنا: والحديث دون الزيادة أخرجه أحمد (٢٢٧٩٦)، والبخاري (٥١٢١)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل ابن سعد ﷺ.

أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، وأجازه ابن حبيب[١]، وهو قول الشافعي وأصحابه؛ قالوا: يجوز أن تكون منفعةُ الحرِّ صَداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن. وقال أبو حنيفة: لا يصِحُّ[٢]. وجوَّزَ أن يتزوَّجها بأن يَخدِمَها عبدُه سنة، أو يُسكِنَها دارَه سنة؛ لأنَّ العبدَ والدارَ مال، وليس خِدمتُها بنفسه مالاً. وقال أبو الحسن الكرخي: إنَّ عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وقال أبو بكر الرازي: لا يصِحُّ؛ لأنَّ الإجارة عقدٌ مؤقت، وعقد النكاح مؤبَّد، فهما متنافيان[٣]. وقال ابن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويَثبُتُ بعده. وقال أصبغ: إن نَقَدَ معه شيئاً ففيه اختلاف، وإن لم يَنقِدْ فهو أشدّ، فإن ترك مضى على كلِّ حالٍ بدليل قصة شعيب. قاله مالك وابن الموَّاز وأشهب. وعوَّل على هذه الآية جماعةٌ من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة[٤]. قال ابن خوَيْزِ مَنْدَادِ: تضمَّنت هذه الآية النكاحَ على الإجارة والعقد صحيح، ويُكره أن تُجعلَ الإجارةُ مهراً، وينبغي أن يكون المهرُ مالاً كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ [النساء: ٢٤]. هذا قول أصحابنا جميعاً.

الرابعة ـ وأما قوله: «ودخل ولم يَنقُدْ» فقد اختلف الناسُ في هذا؛ هل دخل حين عقدَ أم حينَ سافر؟ فإن كان حين عقدَ فماذا نقد؟ وقد منعَ علماؤنا من الدخول حتى يَنقِدَ ولو رُبعَ دينار. قاله ابن القاسم. فإن دخل قبل أن يَنقِدَ مضى؛ لأنَّ المتأخِّرين من أصحابنا قالوا: تعجيلُ الصَّداقِ أو شيءٍ منه مُستحَبٌّ. على أنه إن كان الصَّداقُ رعيةَ الغنم فقد نَقَدَ الشروعَ في الخدمة، وإن كان دخل حين سافر فطُولُ الانتظار في النكاح جائزٌ، وإن كان مدى العمر بغير شرط. وأمَّا إن كان بشرط[٥] فلا يجوز إلَّا أن يكون

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٥٨ .

(٢) تفسير البغوي ١/ ٤١٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ١٧٣ و٢٦٨ . ووقع في (م): ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وفي بقية النسخ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾. والمثبت من الكشاف.

(٤) أحكام القرآن ٣/١٤٥٩ .

(٥) عبارة: وأما إن كان بشرط من (م) وأحكام القرآن.

الغرضُ صحيحاً مثل التأهُّبِ للبناء أو انتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة. نصَّ عليه علماؤنا[١].

الثانية عشرة: في هذه الآية اجتماع إجارةٍ ونكاح، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأوَّل ـ قال في ثمانية أبي زيد: يُكره ابتداءً، فإن وقع مضى. الثاني ـ قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلافِ مقاصدِها كسائر العقود المتباينة. الثالث ـ أجازه أشهب وأصبغ. قال ابن العربي[٢]: وهذا هو الصحيح، وعليه تدلُّ الآية، وقد قال مالك: النكاحُ أشبَهُ شيءٍ بالبيوع، فأيُّ فرقٍ بين إجارةٍ وبيعٍ، أو بين بيعٍ ونكاح؟!.

فرع ـ وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ مباحٍ صحَّ؛ قال المزني: وذلك مثلُ قولِ الشاعر:

يقولُ العبدُ فائدتي ومالي وتقوى اللهِ أفضلُ ما استفادا

وإن أصدقَها تعليمَ شعرٍ فيه هَجْوٌ أو فُحْشٌ كان كما لو أصدَقَها خمراً أو خِنزيراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ جرى ذِكْرُ الخدمة مطلقاً، وقال مالك: إنه جائزٌ، ويُحمَلُ على العُرف، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارةً مُطلقة. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يُسمَّى؛ لأنه مجهول[٣]. وقد ترجم البخاريُّ. «باب مَن استأجر أجيراً فبيَّنَ له الأجلَ ولم يُبيِّنْ له العمل»؛ لقوله تعالى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾[٤]. قال المُهلَّب: ليس كما ترجح؛ لأنَّ العملَ عندهم كان معلوماً من سقيٍ وحرثٍ ورعيٍ وما شاكل أعمالَ البادية في مهنة أهلها، فهذا مُتعارَفٌ وإن لم يُبيِّنْ له أشخاصَ الأعمال

(١) أحكام القرآن. ٣/١٤٦٦ - ١٤٦٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤ ، وما قبله منه.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٤٦٠ .

(٤) صحيح البخاري قبل الحديث (٢٢٦٧).

ولا مقاديرَها؛ مثل أن يقول له: إنك تحرث كذا من السَّنة، وترعى كذا من السَّنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدَّةُ مجهولة، والعملُ مجهولٌ غيرُ معهود لا يجوز حتى يُعلَم. قال ابن العربي[1]: وقد ذكر أهل التفسير أنه عيَّنَ له رعية الغنم، ولم يُرْوَ [ذلك] من طريقٍ صحيحةٍ، ولكن قالوا: إنَّ صالح مدين لم يكن له عملٌ إلا رعية الغنم، فكان ما عُلِمَ من حاله قائماً مقامَ التعيين للخدمة فيه.

الرابعة عشرة: أجمعَ العلماءُ على أنه جائزٌ أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة، بأجرةٍ معلومة، لرعايةِ غنم معدودة؛ فإن كانت معدودةً معينةً، ففيها تفصيلٌ لعلمائنا؛ قال ابن القاسم: لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت، وهي روايةٌ ضعيفةٌ جداً؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه، وقد رآها ولم يشترط خلفاً، وإن كانت مُطلقةً غيرَ مُسمَّاةٍ ولا مُعينةٍ جازت عند علمائنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجوز؛ لجهالتها، وعوَّل علماؤنا على العُرفِ حسبما ذكرناه آنفاً، وأنه يُعطَى بقَدْرِ ما تَحتَمِلُ قُوَّتُه. وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجرُ قَدْرَ قُوَّتِه، وهو صحيحٌ؛ فإنَّ صالح مدين عَلِمَ قَدْرَ قوَّةِ موسى برفع الحجر[2].

الخامسة عشرة: قال مالك: وليس على الراعي ضمانٌ، وهو مُصدَّقٌ فيما هَلَكَ أو سُرِقَ؛ لأنه أمينٌ كالوكيل. وقد ترجم البخاري: «باب إذا أبصر الراعي أو الوكيلُ شاةً تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد» وساقَ حديثَ كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت له[3] غنمٌ ترعى بِسَلْعٍ[4]، فأبصرَتْ جاريةٌ لنا بشاةٍ من غنمنا موتاً، فكسرَتْ حجراً فذبحَتْها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى أسألَ النبيَّ ـ أو أُرسِلَ إلى

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٠ - ١٤٦١.

(٣) في (م): لهم. والمثبت من باقي النسخ، ومن صحيح البخاري.

(٤) وهو جبل أو موضع في المدينة. معجم البلدان ٣/ ٢٣٦.

النبيِّ ﷺ مَنْ يسألُه ـ وأنه سألَ النبيَّ ﷺ ـ أو أرسلَ إليه ـ فأمرَه بأكلها. قال عبيد الله[١]: فيُعجبني أنها أمَةٌ وأنها ذبحت[٢]. قال المُهلَّب: فيه من الفقه تصديقُ الراعي والوكيل فيما ائتُمنا عليه حتى يظهر عليهما دليلُ الخيانة والكذب. وهذا قول مالك وجماعة. وقال ابن القاسم: إذا خافَ الموتَ على شاةٍ فذبحها لم يضمَنْ، ويُصدَّقُ إذا جاء بها مذبوحة. وقال غيره: يضمَنُ حتى يُبيِّنَ ما قال.

السادسة عشرة: واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت، فقال ابن القاسم: لا ضمانَ عليه؛ لأنَّ الإنزاءَ من إصلاح المال ونمائه. وقال أشهب: عليه الضمان. وقولُ ابن القاسم أشبَهُ بدليلِ حديث كعب، وأنه لا ضمانَ عليه فيما تلِفَ عليه باجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يُعلَمُ إشفاقه على المال، وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأرادَ صاحبُ المال أن يُضمِّنَه فعل؛ لأنه لا يُصدَّقُ أنه رأى بالشاة موتاً؛ لِما عُرِفَ من فسقه.

السابعة عشرة: لم يُنقَلْ ما كانت أجرةُ موسى عليه السلام، ولكن روى يحيى بن سلَّام أنَّ صالح مدين جعل لموسى كلَّ سخلةٍ توضَعُ خلافَ لونِ أمِّها، فأوحى الله إلى موسى أن ألْقِ عصاكَ بينهنَّ يَلِدْنَ خلافَ شبههنَّ كُلِّهنَّ[٣]. وقال غير يحيى: بل جعل له كل بلقاءَ تولد له، فولَدْنَ له كلَّهُنَّ بُلْقاً[٤]. وذكر القُشيري أنَّ شعيباً لمَّا استأجرَ موسى قال له: ادخُلْ بيتَ كذا، وخُذْ عصًا من العِصيِّ التي في البيت، فأخرجَ موسى عصًا، وكان أخرجها آدمُ من الجنة، وتوارثَها الأنبياءُ حتى صارت إلى شعيب، فأمره شعيبٌ أن يُلقِيَها في البيت ويأخُذَ عصًا أخرى، فدخل وأخرجَ تلك العصا؛ وكذلك سبعَ مراتٍ كلُّ ذلك لا تقع بيده غير تلك، فعلم شعيبٌ أنَّ له شأناً، فلمَّا أصبحَ قال

---

(١) في (د) و(ز) و(م): عبد الله. والمثبت من (ز) وصحيح البخاري.

(٢) صحيح البخاري (٢٣٠٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦١ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٤٩ .

له: سُقِ الأغنامَ إلى مفرق الطريق، فخُذْ عن يمينك وليس بها عشبٌ كثير، ولا تأخُذْ عن يسارك فإنَّ بها عشباً كثيراً وتِنِّيناً كبيراً لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذتْ نحو اليسار ولم يقدِرْ على ضبطها، فنام موسى وخرج التِّنِّين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً، وحاربت التِّنِّينَ حتى قتلَتْه، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلمَّا انتبه موسى رأى العصا مخضوبةً بالدم، والتِّنِّين مقتولاً، فعاد إلى شعيب عشاءً، وكان شعيبٌ ضريراً، فمسَّ الأغنام، فإذا أثَرُ الخِصب بادٍ عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيبٌ وقال: كلُّ ما تَلِدُ هذه المواشي هذه السَّنة قالِبُ لونٍ ـ أي: ذاتُ لونين ـ فهو لك، فجاءت جميعُ السِّخال تلكَ السَّنةِ ذاتَ لونين، فعَلِمَ شعيبٌ أنَّ لموسى عند الله مكانة.

وروى عُيَيْنَةُ بن حِصن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أجَرَ موسى نفسَه بِشبَعِ بطنهِ وعِفَّةِ فرجه» فقال له شعيبٌ: لكَ منها ـ يعني من نتاج غنمه ـ ما جاءت به قالِبُ لونٍ ليس فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ[1]. قال الهروي: العزوز: البكيئة؛ مأخوذٌ من العَزَاز: وهي الأرض الصلبة، وقد تعزَّزت الشاة. والفَشُوشُ: التي يَنْفَشُ لبنُها من غير حلبٍ، وذلك لِسَعة الإحليل، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ. ومن أمثالهم: (لَأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أي: لأخْرِجَنَّ غضبَكَ وكِبْرَكَ من رأسك. ويُقال: فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرجَ منه الريح. ومنه الحديث: «إنَّ الشيطانَ يَفُشُّ بين أَلْيَتِيْ أحدِكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث»[2] أي: ينفخُ نفخاً ضعيفاً. والكَمُوشُ: الصغيرة الضرع، وهي الكميشةُ أيضاً؛ سُمِّيت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يُقال: رجلٌ كميشُ الإزار. والكَشُودُ مثل الكَموش. والضَّبُوبُ: الضيِّقةُ ثقب الإحليل. والضَّبُّ: الحَلْبُ بشِدَّة العصر. والثَّعُولُ: الشاة التي لها زيادةُ حُلمةٍ وهي الثَّعل. والثَّعلُ: زيادةُ السِّنِّ، وتلك الزيادة هي الرَّاؤُول[3]. ورجل أثعل. والضَّبوب: ضيقةُ مخرج

(١) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٨١، وابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٣.

(٢) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٤٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) في النسخ: الثعل. والتصويب من تهذيب اللغة ٢/ ٣٢٩.

اللبن[1]. قال الهروي: وتفسيرُ قالِبُ لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

الثامنة عشرة: الإجارةُ بالعِوَضِ المجهول لا تجوز؛ فإنَّ ولادةَ الغنم غيرُ معلومة، إنَّ من البلاد الخصبة ما يعلم وِلادَ الغنم فيها قطعاً وِعدَّتَها وسلامةَ سِخالها كديار مصر وغيرها، بَيْدَ أنَّ ذلك لا يجوز في شرعنا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن الغَرَر[2]، ونهى عن المضامين والملاقيح. والمضامين: ما في بطون الإناث، والملاقيح: ما في أصلاب الفحول، وعلى خلاف ذلك قال الشاعر:

مَلْقُوحَةً في بطنِ نابٍ حامِلِ

وقد مضى في سورة «الحجر» بيانه[3]. على أنَّ راشد بن معمَر أجاز الإجارةَ على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوبَ بنصيبٍ منه. وبه قال أحمد.[4]

التاسعة عشرة: الكفاءة في النكاح معتبرة، واختلف العلماء هل في الدِّين والمال والحسب، أو في بعض ذلك. والصحيح جوازُ نكاح المَوالي للعربيات والقرشيات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عُرياناً، فأنكحه ابنتَه لمَّا تحقق [من دينه] ورأى من حاله، وأعرض عما سوى ذلك[5]. وقد تقدَّمت هذه المسألة مستوعبةً والحمد لله.

الموفية عشرين: قال بعضهم: هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذِكْراً لِصَداق

---

(١) في النسخ: والثعل مخرج اللبن. والتصويب من اللسان (ثعل).

(٢) سلف ٤/٤٤٦ .

(٣) ١٢/١٩٨ - ١٩٩ ، والرجز ينسب إلى مالك بن الريب، وتتمته: وعِدةِ العامِ وعامٍ قابلِ.

(٤) هذه المسألة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٢ - ١٤٦٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٦ ، وما بين حاصرتين منه.

المرأة، وإنما كان اشتراطاً لنفسه على ما يفعله الأعراب؛ فإنها تشترط صَداق بناتِها، وتقول: لي كذا في خاصَّةِ نفسي. وتركُ المهرِ مفوَّضاً، ونكاحُ التفويض جائز. قال ابن العربي: هذا الذي تفعله الأعراب هو حُلوانٌ وزيادةٌ على المهر، وهو حرامٌ لا يليق بالأنبياء، فأمَّا إذا اشترط الوليُّ شيئاً لنفسه، فقد اختلف العلماء فيما يُخرِجُه الزَّوجُ من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما ـ أنه جائز. والآخر ـ لا يجوز. والذي يصِحُّ عندي التقسيم؛ فإنَّ المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً، فإن كانت ثيباً جاز؛ لأنَّ نكاحَها بيدِها، وإنما يكون للوليِّ مباشرة العقد، ولا يمتنع أخذُ العِوَضِ عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع. وإن كانت بكراً كان العقدُ بيده، وكأنَّه عِوَضٌ في النكاح لغير الزوج، وذلك باطل؛ فإن وقعَ فُسِخَ قبل البناء، وثبتَ بعده على مشهور الرواية. والحمد لله[1].

الحادية والعشرون: لمَّا ذكرَ الشرطَ وأعقبَه بالطَّوع في العشر خرج كلُّ واحدٍ منهما على حكمه، ولم يلحقِ الآخرُ بالأوّل، ولا اشترك الفرضُ والطَّوع؛ ولذلك يُكتب في العقود الشروطُ المتَّفقُ عليها، ثم يقال: وتطوَّع بكذا، فيجري الشرطُ على سبيله، والطَّوعُ على حُكمه، وانفصل الواجبُ من التطوُّع[2].وقيل: ومِنْ لفظِ شعيبٍ حَسُنَ في لفظ العقود في النكاح: أنكِحْه إيَّاها أولى من أنكِحْها إيَّاه ـ على ما يأتي بيانُه في «الأحزاب»[3]ـ وجعل شعيبٌ الثمانيةَ الأعوام شرطاً، ووكَلَ العاشرة إلى المروءة[4].

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ﴾ لمَّا فرغَ كلامُ شعيب قرَّره موسى عليه السلام وكرَّر معناه على جهة

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٦١ - ١٤٦٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٦٧ .

(٣) عند تفسير الآية (٤٩) .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥ .

التوثُّقِ في أنَّ الشرطَ إنما وقع في ثمان حِجج[١].

و«أيَّمَا» استفهامٌ منصوبٌ بـ «قَضَيْتُ» و«الْأَجَلَيْنِ» مخفوضٌ بإضافةْ«أي» إليهما و«ما» صلةٌ للتأكيد، وفيه معنى الشرط، وجوابه «فَلَا عُدْوَانَ» وأنَّ «عدوانَ» منصوبٌ بـ «لا». وقال ابن كَيْسان: «ما» في موضع خَفْضٍ بإضافة «أيِّ» إليها، وهي نكرة، و«الْأَجَلَيْنِ» بدلٌ منها. وكذلك في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: رحمةٍ بدلٌ من ما؛ قال مكي: وكان يتلطَّفُ في ألَّا يجعلَ شيئاً زائداً في القرآن، ويُخرِجَ له وجهاً يُخرِجُه من الزيادة[٢].

وقرأ الحسن: «أَيْمَا» بسكون الياء. وقرأ ابن مسعود: «أَيَّ الْأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ». وقرأ الجمهور: «عُدْوَان» بضم العين. وأبو حَيْوة بكسرها، والمعنى: لا تَبِعةَ عليَّ ولا طلبَ في الزيادة عليه[٣]. والعدوانُ: التجاوزُ في غير الواجب. والحِجج السِّنون. قال الشاعر:

لمنِ الديارُ بِقُنَّةِ الحَجرِ أقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومِنْ دَهْرِ[٤]

الواحدة حِجَّة بكسر الحاء.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول موسى. وقيل: هو من قول والد المرأة.

فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يُشْهِدا أحداً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٥. وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ١٥٢ ، وذكرها في الشاذة ص١١٢ عن العباس بن الفضل عن أبي عمرو. وقراءة ابن مسعود وأبي حيوة في الشاذة ص١١٢ . لكنه نسب الثانية إلى ابن قطيب.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٨٦ ، وسلف ١٠/ ٣٨٠ .

من الخلق، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح؛ وهي:

الثالثة والعشرون: على قولين: أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرقُ ما بين النكاح والسفاح الدُّفُّ[١]. وقد مضت هذه المسألة في «البقرة»[٢] مستوفاةً. وفي البخاري عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً من بني إسرائيل سألَ بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألفَ دينار فقال: ايتِني بالشهداء أُشهِدُهم. فقال: كفى بالله شهيداً. فقال: ايتني بكفيل. فقال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه... وذكر الحديث[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ قال سعيد بن جُبير: سألني رجلٌ من النصارى: أيَّ الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدُمَ على حَبْرِ العرب فأسألَه ـ يعني ابن عباس ـ فقدمتُ عليه فسألتُه، فقال: قضى أكملَهما وأوفاهما. فأعلمتُ النصرانيَّ، فقال: صدقَ واللهِ هذا العالم. ورُويَ عن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ سأل في ذلك جبريل، فأخبره أنه قضى عشر سنين. وحكى الطبري عن مجاهد أنه

---

(١) هذه المسألة وما قبلها في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٨ . وقوله: «وفرق ما بين النكاح والسفاح الدف» ورد معناه في حديث مرفوع عن محمد بن حاطب ﷺ بلفظ: «فصلٌ بين الحلال والحرام الدُّفُّ والصوت في النكاح»، وهو في مسند أحمد (١٥٤٥١).

(٢) ٣/ ٤٦٥ .

(٣) صحيح البخاري (٢٠٦٣)، وهو في مسند احمد (٨٥٨٧).

قضى عشراً وعشراً بعدها. قال[١] ابن عطية[٢]: وهذا ضعيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ قيل: فيه دليلٌ على أنَّ الرجل يذهبُ بأهله حيث شاء؛ لما لَهُ من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلَّا أن يلتزم لها أمراً، فالمؤمنون عند شروطهم، وأحقُّ الشروط أن يوفى به ما استحللْتُم به الفروج[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ الآية. تقدَّم القولُ في ذلك في «طه»[٤]. والجِذوة بكسر الجيم قراءةُ العامَّة، وضمَّها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسُّلَمي وزِرُّ بن حُبيش[٥]. قال الجوهري[٦]: الجِذْوة والْجُذْوَة وَالْجَذْوَةُ: الجمرة الملتهبة، والجمع جِذاً وجُذاً وجَذاً. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطعة من الجمر؛ قال: وهي بِلُغة جميع العرب. وقال أبو عبيدة[٧]: والجِذْوة مثل الجِذْمة: وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نارٌ أو لم يكن. قال ابن مُقبِل:

باتَتْ حَواطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَها   جَزْلَ الْجِذا غَيْرَ خَوَّارٍ ولا دَعِرِ[٨]

وقال:

---

(١) قبلها في (م) عبارة: رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٦ ، والمسألة منه، وقول ابن عباس وأثر مجاهد في تفسير الطبري ١٨/ ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٦٩ - ١٤٧٠ .

(٤) ١٤/ ١٨ .

(٥) قراءة العامة وحمزة وعاصم في السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٦) في الصحاح (جذى).

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٢ - ١٠٣ .

(٨) ديوان تميم بن مقبل ص٩١ . قال شارحه: الحواطب: النساء اللواتي يجمعن الحطب. والجزل: الحطب الغليظ القوي. والجذا: أصول الشجر العظام التي بلي أعلاها وبقي أسفلها، واحدتها جَذاة. والخوَّار: الحطب الضعيف السريع الاستيقاد. والدَّعِر: الحطب البالي النخِر الذي إذا وضع على النار لم يستوقد ودَخِنَ كثيراً.

وألقى على قَيْسٍ منَ النَّار جِذْوَةً شديداً عليها حَمْيُها ولهيبُها

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني: الشجرة قدَّم ضميرَها عليها. ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ﴾ «مِن» الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي: أتاه النداءُ من شاطئ الوادي من قِبَلِ الشجرة. و«مِنَ الشَّجَرةِ»بدلٌ من قوله: «مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ» بدل الاشتمال؛ لأنَّ الشجرةَ كانت نابتةً على الشاطئ[١]، وشاطئُ الوادي وشَطُّه: جانبُه، والجمع شُطَّان وشواطئ. ذكره القشيري. وقال الجوهري[٢]: ويُقال: شاطئ الأودية ولا يُجمع. وشاطأتُ الرجلَ إذا مشيتُ على شاطئٍ ومشى هو على شاطئٍ آخر. ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: عن يمين موسى[٣]. وقيل: عن يمين الجبل[٤]. ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ وقرأ الأشهب العُقيلي: «في الْبَقْعَةِ» بفتح الباء[٥]. وقولهم: بِقاع يدلُّ على بَقْعة، كما يقال: جَفْنة وجِفَان. ومن قال: بُقْعة قال: بُقَع، مثل غُرْفة وغُرَف[٦]. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: من ناحية الشجرة. قيل: كانت شجرة العلِّيق: وقيل: سَمُرة[٧]. وقيل: عَوْسَج. ومنها كانت عصا. ذكره الزمخشري[٨]. وقيل: عُنَّاب[٩]، والعَوْسج إذا عظُمَ يقال له:

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

(٢) في الصحاح (شطأ).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ .

(٤) ذكر أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٢٦ بأنه لم يكن للجبل يمين ولا شمال.

(٥) الشاذة ص١١٢ عن الأشهب ومسلمة.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ . والقول الأول أخرجه الطبري ١٨/ ٢٤٣ عن وهب بن منبه، والثاني أخرجه عن ابن مسعود ﷺ.

(٨) في الكشاف ٣/ ١٧٤ عن الكلبي.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢١٨ عن ابن عباس ﷺ.

الغَرْقَد[١]. وفي الحديث: «إنَّه من شجر اليهود، فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدَّجَّال فلا يختفي أحدٌ منهم خلْفَ شجرةٍ إلَّا نطقَتْ وقالت: يا مسلم، هذا يهوديٌّ ورائي تعالَ فاقتُلْه، إلَّا الغَرْقَد فإنَّه من شجر اليهود فلا ينطِقْ». خرَّجه مسلم[٢]. قال المهدوي: وكلَّمَ اللهُ تعالى موسى عليه السلام من فوقِ عرشِه، وأسمَعَه كلامَه من الشجرة على ما شاء. ولا يجوز أن يُوصَفَ الله تعالى بالانتقال والزوال وشبهِ ذلِكَ من صفات المخلوقين.[٣] قال أبو المعالي: وأهلُ المعاني وأهلُ الحقِّ يقولون: مَنْ كلَّمه اللهُ تعالى وخصَّه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيُدرِكُ كلامَه القديمَ المتقدِّسَ عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات، كما أنَّ مَنْ خصَّه اللهُ بمنازل الكرامات وأكملَ عليه نعمتَه، ورزقه رؤيتَه يرى الله سبحانه وتعالى منزَّهاً عن مماثلةِ الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مِثْلَ له سبحانه في ذاته وصفاته، وأجمعَتِ الأمةُ على أنَّ الربَّ تعالى خصَّصَ موسى عليه السلام وغيرَه من المصطَفَين من الملائكة بكلامه. قال الأستاذ أبو إسحاق: اتَّفق أهلُ الحقِّ على أنَّ الله تعالى خلقَ في موسى عليه السلام معنًى من المعاني أدركَ به كلامَه كان اختصاصُه في سماعه، وأنه قادرٌ على مثله في جميع خلقه. واختلفوا في نبيِّنا عليه الصلاة والسلام هل سمع ليلةَ الإسراء كلامَ الله، وهل سمعَ جبريلُ كلامَه على قولين؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، واتَّفقوا على أن سماعَ الخلق له عند قراءةِ القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارةَ التي عرفوا بها معناه دون سماعِه له في عينه. وقال عبد الله بن سعد بن كلاب: إنَّ موسى عليه السلام فهِمَ كلامَ الله القديم من أصواتٍ مخلوقةٍ أثبتَها اللهُ تعالى في بعض الأجسام. قال أبو المعالي: وهذا مردود، بل يجب اختصاصُ موسى عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة، ولو لم

---

(١) إكمال المعلم ٨/ ٤٦٣ .

(٢) في صحيحه (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٣٩٨) بتمامه، والبخاري (٢٩٢٦) دون قوله: إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق.

(٣) يوصف الله بالإتيان والنزول والقرب ونحو ذلك مما ورد في النصوص الصحيحة بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل.

يُقَلْ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاصٌ بتكليم اللهِ إيَّاه. والربُّ تعالى أسمعَه كلامَه العزيز، وخلق له علماً ضرورياً، حتى علِمَ أنَّ ما سمِعَه كلامُ الله، وأنَّ الذي كلَّمه وناداه هو الله ربُّ العالمين. وقد ورد في الأقاصيص أنَّ موسى عليه السلام قال: سمعتُ كلامَ ربي بجميع جوارحي، ولم أسمَعْه من جهةٍ واحدةٍ من جهاتي. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[1] مستوفى. ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ «أَنْ» في موضع نصبٍ بحذفِ الجرِّ، أي بـ «أَنْ يا مُوسى»[2]. ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ نفيٌ لربوبية غيرِه سبحانه. وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عزَّ وجلَّ لا من رسله؛ لأنَّه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، والأمرُ بها إنما كان بعد هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ﴾ عطفٌ على «أَنْ يا مُوسى» وتقدَّم الكلامُ في هذا في «النمل»[3] و«طه»[4]. و﴿مُدْبِرًا﴾ نصبٌ على الحال، وكذلك موضع قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ نصبٌ على الحال أيضاً[5]. ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ﴾ قال وهب: قيل له: ارجِعْ إلى حيث كنت. فرجعَ فلَفَّ دُرَّاعتَه[6] على يده، فقال له المَلِك: أرأيتَ إن أرادَ اللهُ أن يُصيبكَ بما تُحاذِرُ أينفعُكَ لَفُّكَ يدَك؟ قال: لا، ولكنِّي ضعيفٌ خُلِقْتُ من ضعف. وكشف يدَه فأدخلَها في فم الحية فعادت عصا. ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ أي: مما تُحاذر[7].

---

(١) ٢/ ١١٤ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧ .

(٣) ١٦/ ١٠٧ .

(٤) ١٤/ ٤٨ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤ .

(٦) الدُّرَّاعة: ضربٌ من الثياب التي تلبس. وقيل: جبة مشقوقة المقدم. اللسان (درع).

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٧ .

قوله تعالى: ﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الآية؛ تقدَّم القول فيه[1]. ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ «من» متعلقة بـ «وَلَّى» أي: ولَّى مدبراً من الرَّهب[2]. وقرأ حفص والسُّلَميُّ وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «مِنَ الرَّهْبِ» بفتح الراء وإسكان الهاء. وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضمِّ الراء وجزم الهاء. الباقون بفتح الراء والهاء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[3] [الأنبياء: ٩٠] وكلُّها لغاتٌ، وهو بمعنى الخوف. والمعنى: إذا هَالَكَ أمرُ يَدِكَ وشُعاعُها فأدخِلْها في جيبك واردُدْها إليه تَعُدْ كما كانت. وقيل: أمرَه اللهُ أن يضُمَّ يدَه إلى صدره فيذهب عنه خوفُ الحيَّة. عن مجاهد وغيره، ورواه الضحَّاك عن ابن عباس؛ قال: فقال ابن عباس: ليس من أحدٍ يدخلُه رعبٌ بعد موسى عليه السلام ثم يُدخِلُ يدَه فيضعُها على صدره إلَّا ذهبَ عنه الرعب[4]. ويُحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنَّ كاتباً كان يكتبُ بين يديه، فانفلتَتْ منه فلتةُ ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمِه الأرض. فقال له عمر: خُذْ قلمَكَ واضمُمْ إليك جناحَك، وليفْرَخْ[5] رُوعُكَ فإني ما

---

(١) ١٤/ ٤٩ - ٥٠ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٣ .

(٣) قراءة حفص وابن عامر والكوفيين حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه في السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ .

(٥) أي: لينكشف، وأصل الإفراخ الانكشاف. الصحاح (فرخ).

سمعتُها من أحدٍ أكثرَ ممَّا سمعتُها من نفسي[١]. وقيل: المعنى: اضمُمْ يدَكَ إلى صدرِكَ لِيُذهِبَ اللهُ ما في صدرك من الخوف[٢]. وكان موسى يرتعِدُ خوفاً إمَّا من آل فرعون وإمَّا من الثعبان.وضَمُّ الجناح هو السكون، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] يريد الرِّفق. وكذلك قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أي: ارفُقْ بهم. وقال الفرَّاء: أرادَ بالجناح عصاه. وقال بعض أهل المعاني: الرَّهب: الكُمُّ بِلُغةِ حِمْيَرٍ وبني حنيفة. قال مقاتل: سألتني أعرابيةٌ شيئاً وأنا آكل، فملأتُ الكفَّ وأومأتُ إليها فقالت: هاهنا في رهبي. تريد: في كُمِّي. وقال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول لآخر: أعطِني رَهْبَك. فسألتُه عن الرَّهب فقال: الكُمُّ. فعلى هذا يكون معناه: اضمُمْ إليك يدك وأخرجها من الكُم؛ لأنه تناول العصا ويدُه في كمِّه[٣]. وقوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يدلُّ على أنها اليد اليمنى؛ لأنَّ الجيبَ على اليسار. ذكره القشيري.

قلت: وما فسَّروه من ضمِّ اليدِ إلى الصَّدرِ يدلُّ على أنَّ الجيبَ موضِعُه الصدر. وقد مضى في سورة «النور»[٤] بيانُه. الزمخشري: ومن بدع التفاسير أنَّ الرَّهبَ الكُمُّ بِلُغةِ حِمْير وأنَّهم يقولون: أعطني ممَّا في رَهْبِكَ، وليتَ شعري كيفَ صِحَّتُه في اللغة! وهل سمع من الأثباتِ الثقاتِ الذين تُرتَضى عربيَّتُهم، ثم ليتَ شعري كيفَ موقِعُه في الآية، وكيفَ تطبيقُه المُفصَّلُ كسائر كلمات التنزيل؛ على أنَّ موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلةَ المناجاة إلا زُرْمَانِقَةٌ[٥] من صوفٍ لا كُمَّينِ لها[٦]. قال القشيري: وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يريد اليدين إن قُلْنا: أراد الأمنَ من فزع الثعبان.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٢٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ دون قول مقاتل. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/٣٠٦ .

(٤) ١٥/٢١٦ .

(٥) أي: جبة من صوف. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٧٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ١٧٥ .

وقيل: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي: شَمِّرْ واستَعِدَّ لتحمِلَ أعباءَ الرسالة.

قلتُ: فعلى هذا قيل: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ أي: من المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول. وقيل: إنما صار رسولاً بقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ والبرهانان: اليد والعصا[١].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فذانِّكَ»[٢] بتشديد النون، وخففها الباقون[٣]. وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير، «فَذَانِّيكَ» بالتشديد والياء. وعن أبي عمرٍو أيضاً قال: لغةُ هذيل «فَذَانِيكَ» بالتخفيف والياء[٤]. ولغةُ قريش «فَذَانِكَ» كما قرأ أبو عمرو وابن كثير. وفي تعليله خمسةُ أقوال: قيل: شدَّدَ النونَ عِوَضاً من الألف الساقطة في ذانِكَ الذي هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفعٌ بالابتداء، وألفُ ذا محذوفةٌ لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأنَّ أصلَه فذانك، فحذفَ الألفَ الأولى عوضاً من النون الشديدة. وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك. مكي: وقيل: إنْ مَنْ شدَّدَ إنَّما بناه على لغةِ مَنْ قال في الواحد ذلك، فلمَّا بنى أثبتَ اللامَ بعد نون التثنية، ثم أدغم اللامَ في النون على حُكم إدغام الثاني في الأوَّل، والأصلُ أن يُدغِمَ الأوَّلَ أبداً في الثاني، إلَّا أن يمنعَ من ذلِكَ علَّةٌ فيُدغِمَ الثاني في الأوَّل، والعِلَّةُ التي منعَتْ في هذا أن يُدغِمَ الأوَّلَ في الثاني أنَّه لو فعلَ ذلك لصار في موضع النون التي تدلُّ على التثنية لامٌ مُشدَّدة، فيتغيَّرُ لفظ التثنية، فأدغم الثاني في الأول لذلك، فصار نوناً مُشدَّدة. وقد قيل: إنه لما ثنى[٥] ذلِكَ أثبتَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٥ .

(٢) قوله: وأبو عمرو: «فذانِّكَ» من (ظ)، وهو ليس في باقي النسخ.

(٣) السبعة ص٤٩٣ ، والتيسير ص١٧١ .

(٤) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٨٧ : وقرأ شبل عن ابن كثير: «فذانيك» بياء بعد النون المخففة، وقرأ ابن مسعود: «فذانِّيك» بالياء أيضاً مع شد النون، وهي لغة هذيل. قلنا: والقراءاتان في الشاذة ص١١٣ عن ابن كثير.

(٥) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: لما تنافى.

اللامَ قبلَ النون، ثم أدغمَ الأوَّلَ في الثاني على أصول الإدغام، فصار نوناً مُشدَّدة. وقيل: شُدِّدتْ فرقاً بينها وبين الظاهر التي تُسقِطُ الإضافةُ نونَه؛ لأنَّ ذانِ لا يُضاف. وقيل: للفرق بين الاسم المتمكِّنِ وبينها. وكذلك العِلَّةُ في تشديد النون في «اللذان» و«هذان»[١]. قال أبو عمرو: إنما اختصَّ أبو عمرو هذا الحرفَ بالتشديد دونَ كلِّ تثنيةٍ من جنسه؛ لقِلَّة حروفِه، فقرأه بالتثقيل. ومن قرأ: «ذَانِيكَ» بياءٍ مع تخفيف النون، فالأصل عنده «فَذَانِّكَ» بالتشديد، فأبدلَ من النون الثانية ياءً كراهيةَ التضعيف، كما قالوا: لا أملاه في لا أَمَلُّه، فأبدلوا اللامَ الثانية ألِفاً[٢]. ومن قرأ بياءٍ بعد النون الشديدة فوجَّهَه أنه أشبع كسرةَ النونِ فتولَّدت عنها الياء.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ يعني: مُعيناً، مُشتقٌّ من أردَأْتُه أي: أعنْتُه[٣]. والرِّدْءُ: العون[٤]. قال الشاعر:

ألـــم تـــرَ أنَّ أصْــرَمَ كـــان رِدئـــي وخــيـــرَ الـــنـــاسِ فـــي قُـــلٍّ ومـــالِ

النحَّاس[٥]: وقد أردأه ورداه أي: أعانه، وترك همزَه تخفيفاً. وبه قرأ نافع[٦]، وهو بمعنى المهموز. قال المهدوي: ويجوز أن يكون تركُ الهمزِ من قولِهم: أردى على المئة، أي: زادَ عليها، وكأنَّ المعنى: أَرْسِلْهُ معي زيادةً في تصديقي. قاله مسلم ابن جُندب. وأنشدَ قولَ الشاعر:

وأســمــرَ خَــطِّــيّــاً كــأنَّ كُــعــوبَــهُ نوى القَسْبِ قد أردى ذراعاً على العَشْرِ

كذا أنشد الماورديُّ[٧] هذا البيت: قد أردى. وأنشده الغزنويُّ والجوهريُّ في

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٢) الحجة في القراءات ٥/ ٤٢٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٨٠ .

(٦) السبعة ص٤٩٤ ، والتيسير ص١٧١ .

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ .

«الصحاح»[١]: قد أرمى؛ قال[٢]: والقَسْبُ: الصَّلْبُ، والقَسْبُ: تمرٌ يابسٌ يتفتَّتُ في الفم، صَلْبُ النَّواة. قال يصف رمحاً: وأسمرَ. البيت. قال الجوهري[٣]: رَدُؤ الشيء يردؤ رَداءةً، فهو رديءٌ أي: فاسد، وأردأتُه: أفسدْتُه، وأردأتُه أيضاً بمعنى أعنتُه؛ تقول: أردأتُه بنفسين أي: كنتُ له رِدءاً وهو العون؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾. قال النحّاس[٤]: وقد حُكيَ رَدَأْتُه رِدْءاً، وجمعُ رِدْءٍ أَرْدَاءٌ. وقرأ عاصم وحمزة: «يُصَدِّقُني» بالرفع. وجزم الباقون[٥]، وهو اختيارُ أبي حاتم على جواب الدعاء، واختارَ الرفعَ أبو عبيدٍ على الحال من الهاء في «أَرْسِلْهُ» أي: أرسِلْه ردءاً مُصدِّقاً حالةَ التصديق، كقوله: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ﴾ [المائدة: ١١٤] أي: كائنةً، حالٌ صُرِفَ إلى الاستقبال. ويجوز أن يكون صفةً؛ لقوله: «رِدْءاً»[٦]. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن لي وزيرٌ ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني، فـ﴿قَالَ﴾ اللهُ جلَّ وعزَّ له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نُقوِّيكَ به، وهذا تمثيل؛ لأنَّ قوَّةَ اليدِ بالعَضُد[٧]. قال طَرَفة[٨]:

أَبَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ إِلَّا يداً ليسَتْ لها عَضُدُ

ويُقال في دعاء الخير: شَدَّ اللهُ عضُدَكَ. وفي ضِدِّه: فتَّ اللهُ في عضُدِكَ[٩]. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى[١٠]

---

(١) (رمى)، ونسبه إلى حاتم طيئ.

(٢) في الصحاح (قسب).

(٣) في الصحاح (ردأ).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣٨ .

(٥) السبعة ص٤٩٤ ، والتيسير ص١٧١ .

(٦) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨٠ .

(٨) في ديوانه ص٤٥ .

(٩) الكشاف ٣/ ١٧٦ .

(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ .

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: تمتنعان منهم «بِآيَاتِنا»[(١)] فيجوز أن يوقَفَ على «إِلَيْكُما» ويكون في الكلام تقديمٌ وتأخير[(٢)]. وقيل: التقدير: أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُما الْغَالِبُونَ بآياتنا. قاله الأخفش والطبري[(٣)]. قال المهدوي: وفي هذا تقديمُ الصِّلةِ على الموصول، إلَّا أن يُقدَّر: أنتُما غالبانِ بآياتِنا أنتُما ومَنِ اتَّبعكما الغالبون. وعنى بالآيات سائِرَ معجزاته.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: ظاهراتٍ واضحاتٍ ﴿قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مكذوبٌ مختلق[(٤)] ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾. وقيل: إن هذه الآيات ما احتجَّ به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية. وقيل: هي معجزاته[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ قراءةُ العامَّة بالواو، وقرأ مجاهدٌ وابن كثير وابن

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ ، وزاد المسير ٦/ ٢٢٢ بنحوه.

(٣) في تفسير البغوي ١٨/ ٢٥٣ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ .

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٢٩٥ .

مُحَيصِن: «قالَ» بلا واو، وكذلك هو في مصحف أهل مكة[١] ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بالرشاد. ﴿مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «يكون» بالياء، والباقون بالتاء. وقد تقدَّم هذا[٢]. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ أي: دارُ الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء ضميرُ الأمرِ والشأن ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ قال ابن عباس: كان بينَها وبينَ قوله: «أنا رَبُّكُمُ الأعلى» أربعون سنة[٣]. وكذبَ عدوُّ اللهِ، بل عَلِمَ أنَّ له ثَمَّ رَبّاً هو خالِقُه وخالِقُ قومِه؛ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]. قال: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اطبُخْ لي الآجُرَّ. عن ابن عباسٍ ﷺ[٤]. وقال قتادة: هو أوَّلُ مَنْ صنعَ الآجُرَّ وبنى به[٥]. ولمَّا أمرَ فرعونُ وزيرَه هامانَ ببناء الصَّرحِ جمعَ هامانُ العمَّالَ ـ قيل: خمسينَ ألفَ بَنَّاءٍ سوى الأتباع والأُجَراء ـ وأمَرَ بطبخِ الآجُرِّ والجَصِّ، ونَشْرِ الخشب، وضَرْبِ المسامير، فبنَوا ورفعوا البناءَ وشَيَّدوه بحيث لم يبلُغْه بنيانٌ منذ خلقَ اللهُ السماوات والأرض، فكان الباني لا يقدِرُ أن يقومَ على رأسه، حتى أرادَ الله أن يفتِنَهم فيه[٦]. فحكى السُّدِّيُّ أنَّ فرعونَ صعدَ السَّطحَ ورمى بنُشَّابةٍ نحوَ السماء، فرجعت متلطِّخةً بدماء، فقال: قد قتلتُ إله موسى[٧]. فرُوِيَ أنَّ جبريلَ عليه السلام بعثَه اللهُ تعالى عند مقالته، فضرب الصَّرحَ بجناحِه فقطَّعَه ثلاثَ قِطَع؛ قطعةٌ على عسكر فرعون قتلَتْ منهم ألفَ ألف،

---

(١) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١ دون ذكر قراءة مجاهد وابن محيصن.

(٢) المصدران السابقان، وقد سلف هذا ٩/ ٣٦.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٦ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣، وأخرجه الطبري ١٨/ ٢٥٥.

(٦) عرائس المجالس ص١٩١ وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٦، وزاد المسير ٦/ ٢٢٣، والكشاف ٣/ ١٧٨.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣.

وقطعةً في البحر، وقطعةً في المغرب[١]، وهلكَ كلُّ مَنْ عَمِلَ فيه شيئاً[٢]. والله أعلمُ بصِحَّة ذلك. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الظنُّ هنا شَكٌّ، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخِيلُ[٣] على ذي فطرة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تعظّم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي: عن الإيمان بموسى. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدوان، أي: لم تكن له حجةٌ تدفع ما جاء به موسى. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: توهَّموا أنه لا معاد ولا بعث.

وقرأ نافع وابن مُحَيصِن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي: «لَا يَرْجِعُونَ» بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمَّى الفاعل. الباقون: «يُرْجَعُونَ» على الفعل المجهول. وهو اختيار أبي عبيد، والأوَّلُ اختيار أبي حاتم[٥].

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ وكانوا ألفَي ألفٍ وستَّ مئةِ ألف. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: طرحناهم في البحر المالح[٦]. قال قتادة: بحرٌ من وراء مصر يقال له: إِسَاف، أغرقهم الله فيه[٧]. وقال وهب والسُّدِّي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية الْقُلْزُم يقال له: بطن مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان. وقال مقاتل. يعني نهر النيل. وهذا ضعيفٌ، والمشهور الأوّل[٨]. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: آخرُ أمرهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر[٩]، فيكون عليهم

---

(١) في النسخ: الغرب. والمثبت من المصادر.

(٢) عرائس المجالس ص١٩٢، وتفسير البغوي ٣/٤٤٦، وزاد المسير ٦/٢٢٣، والكشاف ٣/١٧٨.

(٣) أي: لا يُشكل. اللسان (خيل).

(٤) إعراب القرآن ٣/٢٣٨.

(٥) السبعة ص٤٩٤، والتيسير ص١٧١، والنشر ٢/٢٠٨ - ٢٠٩ دون ذكر قراءة ابن محيصن وشيبة وحميد.

(٦) الوسيط ٣/٤٠٠.

(٧) النكت والعيون ٤/٢٥٣.

(٨) المحرر الوجيز ٤/٢٨٩ من غير نسبة.

(٩) النكت والعيون ٤/٢٥٣.

وزرُهم ووزرُ من اتَّبعهم حتى يكون عقابُهم أكثر. وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السَّفَلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم. وقيل: أئمةً يأتَمُّ بهم ذَوو العِبر ويتَّعظ بهم أهل البصائر. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: إلى عمل أهل النار[1] ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أمرنا العبادَ بلعنِهم فمَنْ ذكرهم لعنَهم. وقيل: أي: ألزمناهم اللعنَ أي: البُعدَ عن الخير. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المُهلَكين الممقوتين. قاله ابن كَيْسان وأبو عبيدة[2]. وقال ابن عباس: المشوَّهين الخِلْقة بسواد الوجوه وزُرقة العيون. وقيل: من المُبعدين[3]. يقال: قَبَحه اللهُ أي: نجَّاه من كل خير، وقَبَحه وقَبَّحه إذا جعله قبيحاً. وقال أبو عمرو: قَبُحَتْ وجهَه بالتخفيف معناه: قَبَّحت[4]؛ قال الشاعر:

أَلَا قَبَحَ اللهُ البراجِمَ كلَّها وقَبَّحَ يَرْبوعاً وقَبَّحَ دارِما[5]

وانتصبَ يوماً على الحمل على موضع ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ واستُغني عن حرف العطف في قوله: ﴿مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ كما استُغني عنه في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. ويجوز أن يكون العاملُ في «يوم» مُضمَراً يدلُّ عليه قوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ فيكون كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. ويجوز أن يكون العامل في «يوم» قوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ وإن كان الظرفُ متقدِّماً. ويجوز أن يكون مفعولاً على السَّعة، كأنه قال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً يوم القيامة[6].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٠٦ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٥١٨ من غير نسبة.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ . والقول الثاني في زاد المسير ٦/ ٢٢٤ ، والكشاف ٣/ ١٨١ .

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٧٥ ، ونسب القول الأول لأبي زيد.

(٥) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٠ ، وفيه: وعفَّر دارما. قال شارحه: البراجم ويربوع ودارم قبائل من تميم.

(٦) البيان ٢/ ٢٢٣ -٢٢٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٥ - ٥٤٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة. قاله قتادة. قال يحيى بن سلَّام: هو أوَّلُ كتابٍ ـ يعني التوراة ـ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام. وقيل: الكتابُ هنا ستٌّ من المثاني السَّبع التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ. قاله ابن عباس، ورواه مرفوعاً[(١)]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال أبو سعيد الخدري: قال النبيُّ ﷺ: «ما أهلكَ اللهُ قوماً ولا قرناً ولا أمَّةً ولا أهلَ قريةٍ بعذابٍ من السماء ولا من الأرض منذُ أنزل اللهُ التوراةَ على موسى غيرَ القريةِ التي مُسخَتْ قِردةً، ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[(٢)]» أي: من بعد قوم نوحٍ وعادٍ وثمود[(٣)]. وقيل: أي: من بعد ما أغرقنا فرعونَ وقومَه وخسفنا بقارون.

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: آتيناه الكتاب بصائر. أي: ليتبصَّروا ﴿وَهُدًى﴾ أي: من الضلالة لمن عمل بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن بها[(٤)]. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليذكَّروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا، ويثِقوا بثوابهم في الآخرة[(٥)].

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٦٠٩)، وفي تفسيره ١/ ٣٥٠، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص١١٨، والطبري في تفسيره ١٤/ ١١٤ - ١١٥، والحاكم ٢/ ٢٥٧ وغيرهم موقوفاً على ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٢٢٤٨)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وأخرجه البزار (٢٢٤٧)، والطبري ١٨/ ٢٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٢٨) عن أبي سعيد الخدري موقوفاً.

ومن بداية الآية حتى هذا الموضع من النكت والعيون ٢/ ٢٥٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧، وزاد المسير ٦/ ٢٢٤.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أي: ما كنتَ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: بجانب الجبل الغربيِّ[1]؛ قال الشاعر:

أعطاكَ مَنْ أعطى الهُدَى النبِيَّا نُوراً يَزِينُ المِنبرَ الغربِيَّا

﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ إذ كلَّفناه أمرَنا ونهيَنا، وألزمناه عهدنا[2]. وقيل: أي: إذ قضينا إلى موسى أمرَك وذكرناك بخير ذكرٍ. وقال ابن عباس: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أي: أخبرنا أنَّ أمةَ محمدٍ خيرُ الأمم .﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: من الحاضرين[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حتى نسوا ذِكْرَ الله أي: عهدَه وأمرَه[4]. نظيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وظاهر هذا يُوجِبُ أن يكون جرى لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام ذِكْرٌ في ذلك الوقت، وأنَّ الله سيبعثه، ولكن طالت المدَّة، وغلبت القسوة، فنسيَ القومُ ذلك. وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهدُ فكفروا، فأرسلنا محمداً مُجدِّداً للدين وداعياً الخلقَ إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم[5]. قال العَجّاج[6]:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٢) مجمع البيان ٩/ ٣٠٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ .

(٦) في ديوانه ص٣٠٣ .

فبـاتَ حيـث يـدخـلُ الـثَّـوِيُّ

أي: الضيف المقيم.

وقوله: ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي: تُذكِّرهم بالوعد والوعيد. ﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: أرسلناك في أهل مكة، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار، ولولا ذلك لَما عَلِمتَها[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: كما لم تحضر جانبَ المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانبَ الطور إذ نادينا موسى لمَّا أتى الميقات مع السبعين. وروى أبو زُرعة بن عمرو بن جَرير[٢] يرفعه قال: «نُوديَ: يا أمةَ محمدٍ، أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني» فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. وقال أبو هريرة - وفي رواية عن ابن عباس - إن الله قال: «يا أمةَ محمدٍ، قد أجبتُكم قبل أن تدعوني، وأعطيتُكم قبل أن تسألوني، وغفرتُ لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتُكم قبل أن تسترحموني»[٣] قال وهب: وذلك أنَّ موسى لمَّا ذكرَ اللهُ له فضل محمدٍ وأمته قال: يا ربِّ أرِنيهم. فقال الله: «إنكَ لن

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٢) في النسخ: عمرو بن دينار، والتصويب من المصادر.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩١ من طريق سفيان الثوري، والطبري ٨/ ٢٦٢ من طريق يحيى بن عيسى، كلاهما عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة بن عمرو.
وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٣١٨)، والطبري ٨/ ٢٦٢، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٤٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ من طريق حمزة الزيات، عن الأعمش، عن علي بن مدرك، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة.
وذكره الدارقطني في العلل ٨/ ٢٩١ وقال: عن أبي زرعة قوله، وهو أصح.
قلنا: ورواية ابن عباس ذكرها الرازي في تفسيره ٢٤/ ٢٥٧.

تُدرِكَهم، وإن شئتَ ناديتُهم فأسمعتُكَ صوتَهم»قال: بلى يا رب. فقال الله تعالى: «يا أمة محمد» فأجابوا من أصلاب آبائهم، فقال: «قد أجبتُكم قبل أن تدعوني»[1] ومعنى الآية على هذا: ما كنتَ بجانب الطور إذ كلَّمنا موسى فنادينا أمَّتَك وأخبرناه بما كتبناه لكَ ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا .﴿وَلَٰكِن﴾ فعلنا ذلك ﴿رَّحْمَةً﴾ منَّا بكم.

قال الأخفش: «رَحْمَةً» نصبٌ على المصدر، أي: ولكن رحمناك رحمةً. وقال الزجَّاج: هو مفعولٌ من أجله، أي: فعل ذلك بك لأجل الرحمة[2]. النحَّاس: أي: لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تُلِيتْ عليك، ولكنَّا بعثناكَ وأوحيناها إليك للرحمة[3]. وقال الكسائي: على خبر كان، التقدير: ولكن كان رحمة. قال: ويجوز الرفع بمعنى: هي رحمة. الزجَّاج: الرفع بمعنى: ولكنْ فِعْلُ ذلك رحمة[4].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني العرب، أي: لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمةً بمن أُرسِلتَ إليهم؛ لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ يريدُ قريشاً. وقيل: اليهود[5] .﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي: عقوبةٌ ونقمةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي. وخصَّ الأيدي بالذكر؛ لأنَّ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٤٨ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ . وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٥٣ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٨١ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٢٧ .

الغالب من الكسب إنما يقع بها. وجواب «لَوْلَا» محذوفٌ، أي: لولا أن يصيبهم عذابٌ بسبب معاصيهم المتقدِّمة ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لمَّا بعثنا الرسل. وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة[١]. وبَعْثُ الرسل إزاحةٌ لعذر الكفار كما تقدَّم في «سبحان»[٢] وآخر «طه»[٣]. ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ نصبٌ على جواب التحضيض. ﴿وَنَكُونَ﴾ عطفٌ عليه. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين. وقد احتجَّ بهذه الآية من قال: إن العقل يوجِبُ الإيمانَ والشكر؛ لأنه قال: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك موجبٌ للعقاب؛ إذ تقرَّر الوجوبُ قبل بعثة الرسل، وإنما يكون ذلك بالعقل. قال القشيري: والصحيح أنَّ المحذوفَ: لولا كذا لَما احتيجَ إلى تجديد الرسل. أي: هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذَّبناهم فقد يقول قائلٌ منهم: طال العهد بالرسل، ويظنُّ أنَّ ذلك عذرٌ ولا عذرَ لهم بعد أن بلغهم خبرُ الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم. وقد حكم اللهُ بأنه لا يُعاقِبُ عبداً إلَّا بعد إكمال البيان والحُجَّة وبعثة الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قَالُواْ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من العصا واليد البيضاء، وأنزل عليه القرآن جملةً واحدةً كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد، فقال الله تعالى: ﴿أو لَمْ يَكْفروا بما أُوتيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالوا ساحِرانِ تَظَاهَرا﴾ أي: موسى ومحمد تعاونا على السحر. قال الكلبي: بعثَتْ قريشٌ إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمدٍ وشأنه فقالوا: إنَّا نجده في التوراة بنعتِه وصفتِه. فلمَّا رجع الجواب إليهم ﴿قالوا ساحِرانِ تَظَاهَرا﴾[٤]. وقال قومٌ: إنَّ اليهودَ علَّموا المشركين، وقالوا: قولوا

---

(١) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ .

(٢) ١٣/٤٤ وما بعده.

(٣) ١٤/١٦٦ وما بعده.

(٤) تفسير البغوي ٣/٤٤٨ - ٤٤٩ .

لمحمدٍ: لولا أوتيتَ مثلَ ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراةَ دفعةً واحدة. فهذا الاحتجاج واردٌ على اليهود، أي: أو لم يكفُرْ هؤلاء اليهود بما أوتيَ موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وإنَّا كافرون بكلِّ واحدٍ منهما.

وقرأ الكوفيون: «سِحْرانِ» بغير ألف؛ أي: الإنجيل والقرآن. وقيل: التوراة والفرقان. قاله الفرَّاء[1]. وقيل: التوراة والإنجيل. قاله أبو رزين. الباقون: «ساحِرانِ» بألف. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدهما ـ موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا قول مشركي العرب. وبه قال ابن عباس والحسن. الثاني ـ موسى وهارون. وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة. وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد[2]. فيكون الكلام احتجاجاً عليهم. وهذا يدلُّ على أنَّ المحذوف في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ لما جدَّدنا بعثة الرسل؛ لأنَّ اليهود اعترفوا بالنبوَّات ولكنهم حرَّفوا وغيَّروا واستحقُّوا العقاب، فقال: قد أكملنا إزاحةَ عُذرِهم ببعثة محمدٍ ﷺ. الثالث ـ عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وهذا قول اليهود اليوم. وبه قال قتادة. وقيل: أو لم يكفُرْ جميعُ اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ أي: قُلْ يا

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦، والقول الثالث الذي سيأتي منه أيضاً.

وينظر السبعة ص٤٩٥، والتيسير ص١٧٢.

محمد إذ كفرتُم معاشرَ المشركين بهذين الكتابين ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهما سحران. أو: فأتوا بكتابٍ هو أهدى من كتابَي موسى ومحمدٍ عليهما السلام. وهذا يُقوِّي قراءةَ الكوفيين «سِحْرَانِ».

«أَتَّبِعْهُ» قال الفرَّاء[١]: بالرفع؛ لأنَّه صفةٌ[٢] للكتاب وكتابٌ نكرة. قال: وإذا جزمت ـ وهو الوجه ـ فعلى الشرط.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتابٍ من عند الله ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: آراءَ قلوبهم وما يستحسنونه ويُحبِّبُه لهم الشيطان، وأنَّه لا حُجَّةَ لهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أتبَعْنا بعضَه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول[٣]. وقرأ الحسن: «وَصَلْنَا» مخففاً[٤]. وقال أبو عبيدة والأخفش: معنى «وصلنا»: أتممنا، كصِلَتِك الشيء[٥]. وقال ابن عُيَيْنة والسُّدِّي: بيَّنَّا. وقاله ابن عباس[٦]. وقال مجاهد: فصَّلنا. وكذلك كان يقرؤها[٧]. وقال ابن زيد: وصَلْنا لهم خبرَ الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا[٨]. وقال أهل المعاني: وَالَينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضِه بعضاً؛ وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائحَ ومواعظَ

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٧، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩.

(٢) في معاني القرآن وإعراب القرآن: صلة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦.

(٤) الشاذة ص١١٣، وزاد ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٢٨ نسبتها إلى أبي المتوكل وابن يعمر.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٠٨، ونقلها الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٦ عن الأخفش.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٥٦ عن السدي، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٩ عن ابن عباس.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩١، وهي قراءة شاذة.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٤٤٩.

إرادةَ أن يتذكَّروا فيُفلحوا[١]. وأصلُها من وصل الحبال بعضِها ببعض. قال الشاعر:

فـقُـلْ لـبـنـي مـروانَ مـا بـالُ ذِمَّـةٍ وحبـلٍ ضعيفٍ مـا يـزالُ يُـوَصَّـلُ[٢]

وقال امرؤ القيس:

دريـرٍ كَـخُـذروفِ الـولـيـدِ أَمَـرَّهُ تَـقَـلُّـبَ كـفَّـيـه بـخـيـطٍ مُـوَصَّـلِ[٣]

والضمير في «لهم» لقريش. عن مجاهد. وقيل: هو لليهود[٤]. وقيل: هو لهم جميعاً. والآية ردٌّ على من قال: هلَّا أوتي محمدٌ القرآن جملةً واحدة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: يتذكَّرون محمداً فيؤمنوا به. وقيل: يتذكَّرون فيخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم. قاله علي بن عيسى. وقيل: لعلَّهم يتَّعِظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النقَّاش[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر أنَّ قوماً ممَّن أوتوا الكتابَ من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن؛ كعبد الله بن سَلام وسلمان[٦]. ويدخل فيه مَنْ أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينةَ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانيةُ نفرٍ أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن

---

(١) الكشاف ٣/ ١٨٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤ ، وقائل البيت الأخطل، وهو في ديوانه ص١٠ ، وفيه: فسائل بني مروان.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٢١ . قال شارحه: قوله: «درير» يعني: هو درير في عدوه، أي: سريع خفيف. والخذروف: الخرَّارة التي يلعب بها الصبيان، تسمع لها صوتاً، وهي سريعة المرِّ، وجعل خيط الخذروف موصَّلاً؛ لأنه قد لعب به كثيراً حتى خفَّ وأخلَقَ وتقطَّع خيطُه فوُصل، فذلك أسرع لدورانه.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٢٨ ونسب القول الثاني إلى رفاعة القرظي.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٥٧ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٨٥) عن قتادة بنحوه.

وإدريس ونافع. كذا سمَّاهم الماوردي[١]. وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها إلى قوله[٢]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ قاله قتادة. وعنه أيضاً: أنها نزلت في عبد الله بن سَلَام وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية.

وعن رِفاعةَ القُرظي[٣]: نزلت في عشرة أنا أحدهم[٤]. وقال الزُّهري[٥]: نزلت في النجاشي وأصحابه، ووجَّه باثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبيِّ ﷺ، وكان أبو جهلٍ وأصحابُه قريباً منهم، فآمنوا بالنبيِّ ﷺ، فلمَّا قاموا من عنده تبِعَهم أبو جهلٍ ومن معه، فقال لهم: خيَّبَكُم الله من ركب، وقبَّحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدَّقتموه، وما رأينا ركباً أحمقَ منكم ولا أجهل. فقالوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لم نَأْلُ أنفسَنا رشداً ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[٦] وقد تقدَّم هذا في «المائدة» عند قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ مستوفى[٧]. وقال أبو العالية: هؤلاء قومٌ آمنوا بمحمدٍ ﷺ قبل أن يُبعث وقد أدركه بعضُهم[٨]. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن. وقيل: من قبل محمدٍ عليه الصلاة والسلام[٩] ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أو بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[١٠].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أي: إذا قُرئ عليهم القرآن قالوا: صدَّقنا بما فيه ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله، أو: قبل بعثة محمد عليه

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٢٥٨ .

(٢) عبارة: «إلى قوله» من (ظ) والنكت والعيون.

(٣) في النسخ: بن قرظة، والتصويب من المصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٧٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٧٣)، والطبراني (٥٤٦٣).

(٥) في (م): عروة بن الزبير، والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٧) سلف هذا ٨/ ١٠٨ - ١١٠ لكن عند تفسير الآية التي قبل الآية التي ذكرها المصنف.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٤٩ .

(١٠) زاد المسير ٦/ ٢٢٩ .

الصلاة والسلام ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُوحّدين، أو: مؤمنين بأنه سيُبعَثُ محمدٌ وينزل عليه القرآن.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ ثبتَ في «صحيح مسلم» عن أبي موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ يؤتَون أجرَهُم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وأدرك النبيَّ ﷺ فآمنَ به واتَّبعه وصدَّقه فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أدّى حقَّ الله عزَّ وجلَّ وحقَّ سيِّدِه فله أجران، ورجلٌ كانت له أمَةٌ فغذَّاها فأحسنَ غذاءها ثم أدَّبَها ثم أعتقَها وتزوَّجها فله أجران» قال الشَّعبيُّ للخُراساني: خُذْ هذا الحديث بغير شيء، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة. وخرَّجه البخاريُّ أيضاً[1]. قال علماؤنا: لمَّا كان كلُّ واحدٍ من هؤلاء مخاطَباً بأمرين من جهتين استحقَّ كلُّ واحدٍ منهم أجرين، فالكتابيُّ كان مخاطَباً من جهةِ نبيِّه، ثم إنه خُوطِبَ من جهة نبيِّنا، فأجابه واتَّبعه، فله أجر المِلَّتين، وكذلك العبد هو مأمورٌ من جهة الله تعالى ومن جهة سيِّده، وربُّ الأمَةِ لمَّا قام بما خُوطِبَ به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياءَ التربية، ثم إنَّه لمَّا أعتقها وتزوَّجها أحياها إحياءَ الحرّية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أُمِرَ فيها، فأُجِرَ كلُّ واحدٍ منهما أجرين. ثم إنَّ كلَّ واحدٍ من الأجرين مضاعفٌ في نفسه، الحسنةُ بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور. ولذلك قيل: إنَّ العبدَ الذي يقوم بحقِّ سيِّده وحقِّ الله تعالى أفضلُ من الحرِّ. وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البَرِّ وغيره. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبدِ المملوكِ المُصلحِ أجران» والذي نفسُ أبي هريرةَ بيدِه، لولا

---

(١) صحيح البخاري (٣٠١١)، وصحيح مسلم (١٥٤). وهو في مسند أحمد (١٩٦٠٢).

الجهادُ في سبيل الله والحجُّ وبِرُّ أمي لأحببتُ أن أموتَ وأنا مملوك. قال سعيد بن المسيِّب: وبَلَغَنا أنَّ أبا هريرةَ لم يكن يَحُجُّ حتى ماتت أمُّه؛ لصحبتها[١]. وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعِمَّا للمملوكِ أن يُتوفَّى يُحسِنُ عبادةَ الله وصحابةَ سيِّده، نِعِمَّا له»[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عامٌّ في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون. درأتُ إذا دفعتُ، والدرءُ الدفع. وفي الحديث: «ادرؤوا الحدودَ بالشُّبهات»[٤]. قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب[٥]. وعلى الأوّل

---

(١) صحيح مسلم (١٦٦٥) بتمامه، وصحيح البخاري (٢٥٤٨) دون قول سعيد بن المسيب، وهو كذلك في مسند أحمد (٨٣٧٢).

(٢) صحيح مسلم (١٦٦٧)، وهو في مسند احمد (٨٢٣٣). وأخرجه البخاري (٢٥٤٩) بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢.

(٤) المثبت من (م)، وفي (د) بزيادة: ما استطعتم. وفي (ظ): ادرؤوا الحدود ما استطعتم.

وأخرجه الترمذي (١٤٢٤)، والحاكم ٤/ ٣٨٤، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ من طريق الفضل بن موسى ومحمد ابن ربيعة، عن يزيد بن زياد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرجٌ فخلُّوا سبيله، فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» قال الترمذي: يزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث. وقال الذهبي في تعقبه على الحاكم: قال النسائي: يزيد بن زياد شامي متروك.

وأخرجه الترمذي بعد حديث (١٤٢٤) من طريق محمد بن ربيعة، عن يزيد بن زياد... بمثل إسناده سابقه إلا أنه جعله موقوفاً على عائشة.

وأخرجه ابن ماجه (٢٥٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً» قال البوصيري في مصباح الزجاجة٢/ ٧٠: هذا إسناد ضعيف، فيه إبراهيم بن الفضل المخزومي، ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي والأزدي والدارقطني.

وأخرجه البيهقي ٨/ ٢٣٨ من حديث علي ﷺ مرفوعاً بلفظ: «ادرؤوا الحدود، ولا ينبغي للإمام أن يعطل الحدود» وفي إسناده المختار بن نافع؛ قال البيهقي: قال البخاري: المختار بن نافع منكر الحديث.

وقد روي موقوفاً بأسانيد وألفاظٍ مختلفة، قال البيهقي ٩/ ١٢٣ - ١٢٤: وأصح الروايات فيه عن الصحابة رواية عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قوله. قلنا: وقد أخرج تلك الرواية ابن ابي شيبة ٩/ ٥٦٧، والبيهقي ٨/ ٢٣٨ بلفظ: ادرؤوا الجلد والقتل عن المسلمين ما استطعتم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٣٩ دون ذكر الحديث.

فهو وصفٌ لمكارم الأخلاق، أي: مَنْ قال لهم سوءاً لا يَنْوِه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه. فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آيةُ السيف وبقي حُكمُها فيما دون الكفر يتعاطاه أمةُ محمدٍ ﷺ إلى يوم القيامة[١]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن»[٢] ومن الخُلقِ الحسنِ دفعُ المكروه والأذى، والصبرُ على الجفا بالإعراضِ عنه ولينِ الحديث.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حَضٌّ على الصدقات[٣]. وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة. ثم مدحَهم أيضاً على إعراضهم عن اللغو، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] أي: إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه، أي: لم يشتغِلوا به ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: متاركةً، مثل قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: لنا دينُنا ولكم دينُكم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أَمْناً لكم منَّا، فإنَّا لا نُحاربكم، ولا نُسابُّكم، وليس من التحية في شيء[٤]. قال الزجَّاج: وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ قال الزجَّاج[٦]: أجمعَ المفسِّرون[٧]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢.

(٢) سلف ١٢/ ٥٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٠ بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٢، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٤٩.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ١٤٩.

(٧) في النسخ: المسلمون، والمثبت من معاني القرآن للزجاج.

على أنها نزلت في أبي طالب.

قلت: والصوابُ أن يُقال: أجمعَ جُلُّ المُفسِّرين على أنها نزلت في شأن أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ، وهو نصُّ حديثِ البخاري ومسلم[١]، وقد تقدَّم [الكلام في][٢] ذلك في «براءة»[٣]. وقال أبو رَوْق: قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ إشارةٌ إلى العباس. وقاله قتادة. ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ قال مجاهد: لمن قدَّر له أن يهتدي[٤]. وقيل: معنى «مَنْ أَحْبَبْتَ» أي: مَنْ أَحببتَ أن يهتدي[٥]. وقال جُبير بن مُطْعِم: لم يسمَعْ أحدٌ الوحيَ يُلقى على النبيِّ ﷺ إلَّا أبا بكرٍ الصِّدِّيق؛ فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ هذا قول مشركي مكة[٦]. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريشٍ الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيُّ قال للنبيِّ ﷺ: إنَّا لنعلم أنَّ قولَكَ حَقٌّ، ولكن يمنعُنا أن نتَّبعَ الهدى معك، ونؤمِنَ بك، مخافة أن يتخطَّفَنا العرب من أرضنا ـ يعني مكة ـ لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقةَ لنا بهم. وكان هذا من تعلُّلاتِهم، فأجاب الله تعالى عمَّا اعتلَّ به

---

(١) صحيح البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) ١٠/٣٩٨.

(٤) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٤/٢٥٩ - ٢٦٠ ، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٠٤)، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/٢٨٦ ، وابن أبي حاتم (١٧٠٠٥).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/١٨٨ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٢ .

فقال(١): ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن. وذلك أنَّ العربَ كانت في الجاهلية يُغير بعضُهم على بعض، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، وأهلُ مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمَّنَهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوَّهم، فلا يخافون أن تستحِلَّ العربُ حُرمةً في قتالهم. والتخطُّف: الانتزاع بسرعة(٢): وقد تقدَّم(٣). قال يحيى بن سلَام يقول: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي يُجمَع إليه ثمراتُ كل أرض وبلد. عن ابن عباس وغيره(٤). يقال: جبى الماء في الحوض أي: جمعه. والجابية: الحوض العظيم(٥).

وقرأ نافع: «تُجْبَى» بالتاء؛ لأجل الثمرات. الباقون بالياء؛ لقوله: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ واختاره أبو عبيد؛ قال: لأنَّه حالَ بين الاسمِ المؤنثِ وبين فِعْلِه حائل(٦)، وأيضاً فإنَّ الثمرات جمع، وليس بتأنيثٍ حقيقي(٧). ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعقلون(٨)، أي: هم غافلون عن الاستدلال، وأنَّ مَنْ رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضى حالَ كفرهم يرزقُهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم.

و«رِزْقاً» نُصِبَ على المفعول من أجله. ويجوز نصبُه على المصدر بالمعنى؛ لأنَّ معنى «تُجْبَى»: تُرزَق. وقُرِئَ: «يُجْنَى» بالنون من الجنا، وتعديتُه بإلى كقولك: يجنى

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٣) ٩/ ٤٩٠ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

(٥) الصحاح (جبا).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، وينظر السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٧) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٠ .

إلى فيه ويُجنى إلى الخافَة[١].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ بيَّن لمن توهَّم أنه لو آمن لقاتلَتْه العربُ أن الخوف في ترك الإيمان أكثر، فكم من قومٍ كفروا ثم حَلَّ بهم البوار. والبطر: الطغيان بالنعمة. قاله الزجَّاج. «مَعِيشَتَها» أي: في معيشتها، فلمَّا حذَفَ «في» تعدَّى الفعل.قاله المازني. الزجَّاج[٢]: كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف:١٥٥]. الفرَّاء: هو منصوبٌ على التفسير. قال: كما تقول: أبطَرَكَ[٣] مالُكَ وبَطِرْتَهُ. ونظيره عنده: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] وكذا عنده ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء:٤] ونَصْبُ المعارف على التفسير مُحالٌ عند البصريين؛ لأنَّ معنى التفسير والتميز أن يكون واحداً نكرةً يدلُّ على الجنس[٤]. وقيل: انتصب بـ«بَطِرَتْ» ومعنى: «بَطِرَتْ» جَهِلَتْ، فالمعنى: جَهِلَتْ شُكرَ معيشتها[٥]. ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لم تُسكَنْ بعد إهلاك أهلِها إلَّا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب[٦]. والاستثناء يرجع إلى المساكن، أي: بعضُها يُسكن. قاله الزجَّاج، واعتُرِضَ عليه، فقيل: لو كان الاستثناءُ يرجع إلى المساكن لقال: إلا قليل؛ لأنَّكَ تقول: القومُ لم تضرِبْ إلَّا قليلٌ؛ ترفَعُ إذا كان المضروبُ قليلاً، وإذا نصبتَ كان القليلُ صفةً للضرب، أي: لم تضرب إلَّا ضرباً قليلاً، فالمعنى إذاً: فتِلكَ مساكنُهم لم يسكُنْها إلَّا المسافرون ومَنْ مرَّ بالطريق يوماً أو بعضَ يوم، أي: لم تُسْكَنْ من بعدهم إلَّا سكوناً قليلاً. وكذا قال ابن عباس: لم يسكُنْها إلَّا المسافرُ أو

(١) الكشاف ٣/١٨٦ ، والقراءة شاذة، والخافَة: وعاء الحَبِّ؛ سُمِّيت بذلك لأنها وقاية له. النهاية (خوف).

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٠ .

(٣) في (م): أبطرت. والمثبت من (د) و(ظ) وإعراب القرآن.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٠٨ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٦ .

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٠ .

مارُّ الطريقِ يوماً أو ساعة[١]. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: لِما خَلَّفوا بعد هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: القرى الكافرُ [أهلُها][٢]. ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ قُرئ بضمِّ الهمزة وكسرِها[٣] لإتباع الجر يعني مكة، و﴿رَسُولًا﴾ يعني محمداً ﷺ[٤]. وقيل: «فِي أُمِّهَا» يعني: في أعظمها «رَسُولاً» ينذرهم[٥]. وقال الحسن: في أوائلها[٦].

قلت: ومكةُ أعظمُ القرى لِحرمتها وأوَّلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] وخُصَّتْ بالأعظم لبعثة الرسول فيها؛ لأنَّ الرسلَ تُبعَثُ إلى الأشراف، وهم يسكنون المدائن وهي أمُّ ما حولها[٧]. وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «يوسف»[٨]. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ «يَتْلُوا» في موضع الصفة، أي: تالياً، أي يخبرهم أنَّ العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وسقطتِ

---

(١) من قوله: فالمعنى إذاً... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٥١، في زاد المسير ٦/ ٢٣٣.

(٢) المصدران السابقان، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) قرأ حمزة والكسائي من السبعة بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بضمِّها. السبعة ص٢٢٧ - ٢٢٨، والتيسير ص٩٤.

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٦.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦١. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠١٨)

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٣٤.

(٨) ١١/ ٤٧٠.

النونُ للإضافة، مثل: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [النحل:٢٨]. ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: لم أُهلِكْهم إلَّا وقدِ استحقُّوا الإهلاك؛ لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم. وفي هذا بيانٌ لعدلِه وتقدُّسِه عن الظلم؛ أخبر تعالى أنه لا يُهلكهم إلاَّ إذا استحقُّوا الإهلاكَ بظلمهم، ولا يُهلكهم مع كونهم ظالمين إلَّا بعد تأكيد الحُجَّة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل عِلْمَه بأحوالهم حُجَّةً عليهم، ونزَّه ذاتَه أن يُهلِكَهم وهم غير ظالمين، كما قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] فنصَّ في قوله: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ على أنه لو أهلكَهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه، وأنَّ حالَه في غناه وحكمتَه منافيةٌ للظلم، دلَّ على ذلك بحرف النفي مع لامه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾(١) [البقرة:١٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ يا أهل مكة ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ أي: تتمتعون بها مدَّة حياتكم، أو مدَّةً في حياتكم، فإمَّا أن تزولوا عنها أو تزول عنكم. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾ أي: أفضلُ وأدوَمُ، يريد الدارَ الآخرة وهي الجنة. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ الباقي أفضلُ من الفاني(٢). قرأ أبو عمرو: «يَعْقِلُونَ» بالياء. الباقون بالتاء على الخطاب، وهو الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فأُعطيَ منها بعضَ ما أراد. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ أي: في النار. ونظيره قوله: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾(٤) [الصافات:٥٧] قال ابن عباس: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وفي أبي جهل بن

---

(١) من قوله: وفي هذا بيان لعدله... إلى هذا الموضع من الكشاف ٣/١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الوسيط ٣/٤٠٤ - ٤٠٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٣) الحجة في القراءات السبعة ٥/ ٤٢٤ . وينظر السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٤) الكشاف ٣/ ١٨٧ .

هشام[١]. وقال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل[٢]. وقال محمد بن كعب: نزلت في حمزة وعليّ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد[٣]. وقيل: في عمار والوليد ابن المغيرة. قاله السُّدِّي. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. الثعلبي: وبالجملة فإنها نزلت في كلِّ كافرٍ مُتِّعَ في الدنيا بالعافية والغنى، وله في الآخرة النار، وفي كلِّ مؤمنٍ صبَرَ على بلاء الدنيا ثقةً بوعد الله، وله في الآخرة الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي اللهُ يومَ القيامة هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: حقَّتْ عليهم كلمة العذاب، وهم الرؤساء. قاله الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين[٤]. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: دعوناهم إلى الغيِّ. فقيل لهم: أغويتموهم؟ قالوا: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يعنون: أضللناهم كما كنَّا ضالِّين. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبرَّأ بعضُنا من بعض، والشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٥ ولكن عن مجاهد، وكذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٤ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥١ - ٤٥٢ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١١ وليس فيه عمارة بن الوليد.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٣٥ - ٢٣٦ . وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٢ ، والطبري ١٨/ ٢٩٦ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٠).

منهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] [الزخرف: ٦٧].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للكفار ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: استغيثوا بآلهتكم التي عبدتُموها في الدنيا لتنصرَكم وتدفعَ عنكم. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: استغاثوا بهم. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: فلم يُجيبوهم ولم ينتفعوا بهم.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ قال الزجَّاج: جواب «لَوْ» محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى، ولَما صاروا إلى العذاب. وقيل: لو أنهم كانوا يهتدون ما دَعَوهم[2]. وقيل: المعنى: ودُّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذابَ يوم القيامة.

قوله تعالى[3]: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾أي: يقول اللهُ لهم: ما كان جوابُكم لِمن أُرسِلَ إليكم من النبيين لمَّا بلغوكم رسالاتي؟[4] ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: خَفِيَتْ عليهم الحُجج. قاله مجاهد؛ لأنَّ الله قد أعذَرَ إليهم في الدنيا، فلا يكون لهم عذرٌ ولا حُجَّةٌ يوم القيامة[5]. و«الْأَنْبَاءُ»: الأخبار؛ سَمَّى حُجَجَهم أنباءَ لأنها أخبارٌ يُخبرونها[6]. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الحُجَج؛ لأنَّ الله تعالى أدحَضَ حُجَجهم. قاله الضحاك[7]. وقال ابن عباس: «لا يتساءَلُونَ» أي: لا ينطقون بِحُجَّة. وقيل: «لا يتساءَلُونَ» في تلك الساعة، ولا يدرون ما يُجيبون به من هول تلك الساعة، ثم يُجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب. وقيل: لا يسألُ بعضُهم

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥١ .

(٣) عبارة: «قوله تعالى» من (ظ).

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٧ .

(٦) زاد المسير ٦/ ٢٣٦ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣١٣ .

بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً. حكاه ابن عيسى(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: صدَّق ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدى الفرائضَ وأكثرَ من النوافل ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: من الفائزين بالسعادة. وعسى من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ هذا متَّصِلٌ بذِكر الشُّركاءِ الذين عبَدوهم واختاروهم للشفاعة، أي: الاختيار إلى الله تعالى في الشُّفعاء لا إلى المشركين. وقيل: هو جوابُ الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعني نفسَه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف(٢). وقيل: هو جوابُ اليهود إذ قالوا: لو كان الرسولُ إلى محمدٍ غيرَ جبريل لآمَنَّا به.

قال ابن عباس: والمعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء من خَلْقِه ويختارُ منهم مَنْ يشاء لطاعته. وقال يحيى بن سلَّام: المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه ويختار مَنْ يشاء لنبوَّته. وحكى النقَّاش أنَّ المعنى: وربُّكَ يخلقُ ما يشاء مِنْ خلقِه يعني محمداً ﷺ، ويختارُ الأنصارَ لدينه(٣).

قلتُ: وفي كتاب البزَّار مرفوعاً صحيحاً عن جابر: «إنَّ اللهَ تعالى اختارَ

---

(١) قول مجاهد وابن عيسى في النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٢٩٨ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٤٥).

(٢) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٢ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٢ .

أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختارَ لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلياً ـ فجعلهم أصحابي، وفي أصحابي كلِّهم خيرٌ، واختارَ أمَّتي على سائر الأمم، واختارَ لي من أمتي أربعةَ قرون»[١]. وذكر سفيان بن عُيَيْنة عن عَمرو بن دينار، عن وهب بن مُنبِّه، عن أبيه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ قال: من النَّعَمِ الضأن، ومن الطيرِ الحمام. والوقف التام «وَيَخْتَارُ»[٢]. وقال عليُّ بن سليمان: هذا وقفُ التمام، ولا يجوز أن تكون «ما» في موضع نصب بـ«يَخْتَارُ» لأنها لو كانت في موضع نصبٍ لم يَعُدْ عليها شيء. قال: وفي هذا رَدٌّ على القدرية[٣]. قال النحَّاس: التمام «وَيَخْتَارُ» أي: ويختار الرسل. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس يُرسِلُ مَن اختاروه هم[٤]. قال أبو إسحاق: «وَيَخْتَارُ» هذا الوقف التامُّ المختار، ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ«يختار» ويكون المعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخِيَرَة[٥]. قال القُشيري: الصحيح الأوَّل؛ لإطباقهم [على][٦] الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾. قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل

---

(١) مسند البزار «كشف الأستار» (٢٧٦٣) من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح، عن نافع بن يزيد، عن زهرة بن معبد، عن سعيد بن المسيب، عن جابر مرفوعاً.

وأخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٣١٢ من طريق أبي صالح وسعيد بن أبي مريم، بالإسناد السابق.

قال الذهبي في السير ١٠/ ٤١٤ - ٤١٥: قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي وأبا زرعة يقولان: حديث «إن الله اختار أصحابي» موضوع، والحمل فيه على أبي صالح.

ثم قال الذهبي: لكن قد تابعه عليه سعيد بن أبي مريم، عن نافع... فتخلَّص أبو صالح.

ثم قال: وقال أبو زرعة وغيره: هو من وضع خالد بن نجيح المصري، وكان يضع في كتب الشيوخ.

قال الذهبي: لعله أدخله على نافع بن يزيد، مع أن نافعاً صدوقٌ احتجَّ به مسلم.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٣.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤١، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢.

(٦) ما بين حاصرتين من (م).

السُّنَّة و«ما» من قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفيٌ عامٌّ لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيءٌ سوى اكتسابِه بقدَرِ[1] اللهِ عزَّ وجلَّ. الزمخشري[2]: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنَّ معناه: يختارُ ما يشاء؛ ولهذا لم يدخلِ العاطفُ، والمعنى: إنَّ الخِيَرَةَ لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، أي: ليس لأحدٍ من خلقِه أن يختارَ عليه.

وأجاز الزجَّاج[3] وغيرُه أن تكون «ما» منصوبةً بـ «يَخْتارُ». وأنكر الطبريُّ[4] أن تكون «ما» نافية؛ لئلَّا يكون المعنى: إنهم لم تكُنْ لهم الخيَرةُ فيما مضى وهي لهم فيما يُستقبل، ولأنَّه لم يتقدَّم كلامٌ بنفي. قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأنَّ «ما» تنفي الحالَ والاستقبالَ كَلَيسَ؛ ولذلك عمِلَتْ عملَها، ولأنَّ الآيَ كانت تنزل على النبيِّ ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مُصِرُّون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخِيَرةَ من خلقه؛ لأنَّ المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ للهدايةِ من خلقِه مَنْ سبقت له السعادةُ في علمه، كما اختار المشركون خيارَ أموالهم لآلهتهم، فـ «ما» على هذا لمن يعقِلُ، وهي بمعنى الذي، و«الْخِيَرَةُ» رفعٌ بالابتداء، و«لَهُم» الخبر، والجملة خبر «كان». وشبهه بقولك: «كان زيدٌ أبوه منطلقٌ» وفيه ضعف؛ إذ ليس في الكلام عائدٌ يعود على اسم كان، إلَّا أن يُقَدَّرَ فيه حذفٌ فيجوز على بُعْدٍ. وقد رُوِيَ معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس[5]. قال الثعلبي: و«ما» نفي، أي: ليس لهم الاختيارُ على الله. وهذا أصْوَبُ، كقوله تعالى:

(١) في (م): بقدرة. والمثبت من (د) و(ظ).

(٢) في الكشاف ٣/ ١٨٨.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٢.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٣٠١ - ٣٠٢.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. قال محمود الورَّاق:

توكَّلْ على الرحمنِ في كلِّ حاجةٍ أردتَ فإنَّ اللهَ يقضي ويَقْدِرُ
إذا ما يُرِدْ ذو العرشِ أمراً بعبدهِ يُصِبْهُ وما للعبدِ ما يتخيَّرُ
وقد يهلِكُ الإنسانُ من وجهِ حِذْرِهِ وينجو بحمدِ الله من حيثُ يَحذرُ[1]

وقال آخر:

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ والدَّهرُ ذو دُوَلٍ والرِّزْقُ مقسومُ
والخيرُ أجمَعُ فيما اختارَ خالِقُنا وفي اختيار سواه اللُّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحدٍ أن يقدُمَ على أمرٍ من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخِيرَةَ في ذلك؛ بأن يُصلِّيَ ركعتين صلاة الاستخارة، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الآية، وفي الركعة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وكلٌّ حسن. ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاريُّ في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ يُعلِّمنا الاستخارَة في الأمورِ كلِّها، كما يُعلِّمنا السورةَ من القرآن؛ يقول: «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمرِ فليركَعْ ركعتين غيرَ الفريضةِ، ثم ليقُلْ: اللهمَّ إني أستخيرُكَ بعلمِكَ وأستقدِرُكَ بقُدرتِكَ وأسألُكَ من فضلِكَ العظيم، فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ، وتعلَمُ ولا أعلَمُ، وأنت علّامُ الغيوب، اللهمَّ إن كنتَ تعلَمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاقْدُره لي ويسِّره لي، ثم بارِكْ لي فيه، اللهمَّ وإن كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال:

(١) وقد نسبت هذه الأبيات إلى أبي العتاهية، وهي في ديوانه ص١٥٣ .

في عاجل أمري وآجله ـ فاصرِفْه عني واصرفني عنه، واقدُرْ ليَ الخيرَ حيثُ كان، ثم رضِّني به» قال: ويُسمِّي حاجته[(١)]. وروَتْ عائشةُ عن أبي بكر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: «اللهمَّ خِرْ لي واخترْ لي»[(٢)]. وروى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أنس، إذا هممتَ بأمرٍ فاستخِرْ ربَّكَ فيه سبعَ مرات، ثم انظُرْ إلى ما يسبِقُ قلبَكَ فإنَّ الخيرَ فيه»[(٣)]. قال العلماء: وينبغي له أن يُفرِّغَ قلبَه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمرٍ من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإنَّ الخير فيه إن شاء الله. وإن عزم على سفرٍ فيتوخَّى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين اقتداءً برسول الله ﷺ[(٤)].

ثم نزَّه نفسَه سبحانه بقوله الحق، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: تقدَّس وتمجَّد ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون.

وقرأ ابن مُحَيصِن وحميد: «تَكُنُّ» بفتح التاء وضمِّ الكاف، وقد تقدَّم هذا في «النمل»[(٥)].

تمدَّح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) صحيح البخاري (١١٦٢). وهو في مسند أحمد (١٤٧٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥١٦) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زَنْفَل، وهو ضعيف عند أهل الحديث، وتفرد بهذا الحديث ولا يُتابع عليه.

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٨) من طريق عبيد الله بن الحميري، عن إبراهيم بن البراء، عن النضر بن مالك، عن أبيه ـ يعني أنس بن مالك بن أنس بن مالك ـ، عن أبيه ـ يعني مالكاً ـ عن أنس بن مالك مرفوعاً.

عبيد الله بن الحميري لم نقف له على ترجمة، وإبراهيم بن البراء ضعيف جداً يحدث عن الثقات البواطيل، لا يجوز الاحتجاج بحديثه. الميزان ١/ ٢١ - ٢٢.

(٤) أخرج أحمد (٢٧١٧٥)، والبخاري (٢٩٥٠) من حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يحبُّ أن يخرج يوم الخميس. وفي رواية للبخاري (٢٩٤٩): لقلَّما كان رسول الله ﷺ يخرج إذا خرج في سفر إلا يوم الخميس.

(٥) ص٢٠٣ من هذا الجزء، وهي قراءة شاذة.

هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقدَّم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وأنَّ جميعَ المحامد إنما تجب له، وأن لا حُكم إلا له وإليه المصير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً[١]؛ ومنه قول طرفة[٢]:

لعمرُكَ ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ

بيَّنَ سبحانه أنه مَهَّدَ أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: بنورٍ تطلبون فيه المعيشة[٣]. وقيل: بنهارٍ تُبصرون فيه معايشكم وتُصلَحُ فيه الثمرُ والنبات[٤]. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهمٍ وقبول. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستقرُّون فيه من النَّصَب. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من الخطإ في عبادة غيره[٥]، فإذا أقررتم بأنه لا يقدِرُ على إيتاء الليل والنهارِ غيرُه، فلِمَ تُشركون به؟!

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٤ عن مجاهد، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٢)، وأخرجه (١٧٠٦١) عن ابن عباس ﷺ.

(٢) في ديوانه ص٤٠ ، وقد سلف ١١/ ٢٤ .

(٣) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٢ .

(٥) الوسيط ٣/ ٤٠٦ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٨ .

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: فيهما. وقيل: الضمير للزمان وهو الليل والنهار[١]. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا من رزقه فيه، أي: في النهار، فحذف[٢]. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أعادَ هذا الضميرَ لاختلاف الحالَين، يُنادَون مرةً فيُقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فيَدْعون الأصنام فلا يستجيبون، فتظهَرُ حَيْرَتُهم[٣]، ثم يُنادَون مرةً أخرى فيسكتون. وهو توبيخٌ وزيادةُ خزيٍ. والمناداةُ هنا ليست من الله؛ لأنَّ الله تعالى لا يُكلِّم الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤] لكنَّه تعالى يأمر مَنْ يُوبِّخُهم ويُبكِّتُهم، ويُقيمُ الحُجَّةَ عليهم في مقام الحساب. وقيل: يَحتمل أن يكون من الله، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين يُقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقال: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: نبياً. عن مجاهد[٤]. وقيل: هم عدولُ الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا[٥]. والأوّلُ أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وشهيدُ كلِّ أمةٍ رسولُها الذي يشهد عليها[٦]. والشهيد: الحاضر. أي: أحضرنا رسولَهم المبعوثَ إليهم.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٥ بنحوه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٤.

(٣) في (ظ): فيظهر خزيهم.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٦، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٦٨).

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٧.

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٣ بنحوه.

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حُجَّتكم[١]. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: علموا صِدق ما جاءت به الأنبياء[٢]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم وبطل[٣]. ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أنَّ معه آلهةً تُعبَدُ[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لمَّا قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ بيَّن أنَّ قارونَ أوتيها واغترَّ بها ولم تعصِمْه من عذاب الله كما لم تعصِمْ فرعون، ولستُم أيها المشركون بأكثرَ عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفَعْ فرعونَ جنودُه وأموالُه، ولم ينفَعْ قارونَ قرابتُه من موسى ولا كنوزُه. قال النَّخعيُّ وقتادة وغيرهما: كان ابنُ عمِّ موسى لَحّاً[٥]؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهث[٦]. وقال ابن إسحاق: كان عمَّ موسى لأبٍ وأمّ[٧]. وقيل: كان ابن خالته[٨]. ولم ينصرِفْ؛ للعُجمة

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٠٨ عن مجاهد، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٠) عن أبي العالية.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥٣ .

(٣) الوسيط ٣/ ٤٠٧ .

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣١٧ بنحوه.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٠٧ والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨ ولَحّاً، أي: لاصق النسب. الصحاح (لحح).

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٣٩ .

(٨) زاد المسير ٦/ ٢٣٩ عن ابن عباس ﷺ.

والتعريف[١]. وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسُنُ فيه الألف واللام، لم ينصرِفْ في المعرفة، وانصرف في النكرة، فإن حسُنت فيه الألفُ واللامُ انصرف إن كان اسماً لمذكَّرٍ، نحو طاوس وراقود. قال الزجَّاج: ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف[٢]. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بغيُه أنه زاد في طول ثوبه شبراً. قاله شهر بن حوشب. وفي الحديث: «لا ينظرُ الله إلى مَنْ جرَّ إزاره بطَراً» وقيل: بغيُه كفرُه بالله عزَّ وجلَّ. قاله الضحَّاك. وقيل: بغيُه استخفافُه بهم بكثرة ماله وولده. قاله قتادة. وقيل: بغيُه نسبتُه ما أتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته. قاله ابن بحر[٣]. وقيل: بغيُه قولُه: إذا كانتِ النبوَّةُ لموسى، والمَذبحُ والقُربان في هارون، فما لي؟ فرُوي أنه لمَّا جاوز بهم موسى البحر، وصارتِ الرسالةُ لموسى والحُبورة لهارون؛ يُقرِّب القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه، وجدَ قارونُ في نفسه وحسدَهما، فقال لموسى: الأمرُ لكما ولستُ على[٤] شيء إلى متى أصبر؟ قال موسى: هذا صنع الله. قال: واللهِ لا أصدِّقنَّكَ حتى تأتي بآية. فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلُّ واحدٍ منهم بعصاه، فحزمها وألقاها في القُبَّة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتزُّ ولها ورقٌ أخضر - وكانت من شجر اللوز - فقال قارون: ما هو بأعجبَ ممَّا تصنع من السحر. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغي: وهو الظلم[٥]. وقال يحيى بن سلَّام وابن المسيِّب: كان قارونُ غنيّاً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدَّى عليهم وظلمهم وكان منهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٣ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ دون ذكر الحديث، وقد أخرجه أحمد (٩٠٠٤)، والبخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وقول شهر بن حوشب أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٨)، وأخرج قول الضحاك (١٧٠٧٧) .

(٤) في (د) و(م): وليس لي. والمثبت من (ظ) والكشاف.

(٥) الكشاف ٣/ ١٩٠ .

وقول سابع: رُوي عن ابن عباس قال: لمَّا أمرَ اللهُ تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأةٍ بغيٍّ وأعطاها مالاً، وحملها على أنِ ادَّعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها، فعَظُمَ على موسى ذلك، وأحلفَها بالله الذي فلقَ البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلَّا صدقت. فتداركها اللهُ فقالت: أشهدُ أنَّكَ بريء، وأنَّ قارون أعطاني مالاً، وحملني على أن قُلتُ ما قُلتُ، وأنت الصادق، وقارون الكاذب[١]. فجعل الله أمرَ قارون إلى موسى، وأمر الأرضَ أن تُطيعه، فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرضُ خُذيه، يا أرض خُذيه. وهي تأخذه شيئاً فشيئاً، وهو يستغيث: يا موسى! إلى أن ساخَ في الأرض هو ودارُه وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى موسى: استغاثَ بكَ عبادي فلم ترحَمْهم، أما إنهم لو دعَوني لوجدوني قريباً مجيباً[٢]. ابن جُريج: بلغنا أنه يُخسَفُ بهم كلَّ يومٍ قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة[٣]. وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج»: حدَّثني إبراهيم بن راشد قال: حدَّثني داود بن مِهْران، عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال: لقي قارونُ يونسَ في ظلمات البحر، فنادى قارونُ يونس، فقال: يا يونس، تُبْ إلى الله، فإنك تجده عند أول قدمٍ ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعكَ من التوبة؟ فقال: إنَّ توبتي جُعلت إلى ابن عمي، فأبى أن يقبل مني[٤]. وفي الخبر: إذا وصلَ قارونُ إلى قرار الأرض السابعة نفخَ إسرافيلُ في الصور. والله أعلم. قال السُّدِّي: وكان اسم البغي سبرتا، وبذل لها قارون ألفَي

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٥٦)، والحاكم ٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ عن ابن عباس ﷺ بنحوه. وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٥٧) عن عبد الله بن الحارث بن نوفل. وأخرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٠٢ ، وابن أبي حاتم (١٧١٦٣) عن عبد الله بن عوف القاري.

(٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٣٩ إلى ابن المنذر، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٦١) عن سمرة بن جندب ﷺ، و(١٧١٦٠) عن قتادة.

(٤) الفرج بعد الشدة (٣٥).

درهم[١]. قتادة: وكان قطع البحر مع بني إسرائيل[٢] وكان يُسمى: المنوَّر، من حسن صوته[٣] في التوراة، ولكن عدوَّ الله نافقَ كما نافقَ السامري[٤].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: أصابَ كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام. وقال الوليد بن زَرْوان[٥]: إنه كان يعمل الكيمياء[٦]. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ «إنَّ» واسمها وخبرها في صلة «ما» و«ما» مفعولة «آتَيْنَا». قال النحَّاس: وسمعتُ علي ابن سليمان يقول: ما أقبحَ ما يقول الكوفيون في الصِّلات! إنه لا يجوز أن تكون صلةُ الذي وأخواته «إن» وما عملت فيه، وفي القرآن ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾. وهو جمع مِفْتَح بالكسر: وهو ما يُفتَح به. ومن قال: مفتاح قال: مفاتيح. ومن قال: هي الخزائن، فواحدها مَفتح بالفتح. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة، أي: تُميلهم بثِقَلها[٧]، فلمَّا انفتحتِ التاء دخلت الباء. كما قالوا: هو يذهب بالبؤس، ويُذهِب البؤس. فصار ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ فجعل العصبة تنوء أي: تنهض متثاقلة، كقولك: قُمْ بنا، أي: اجعلنا نقوم[٨]. يقال: ناءَ ينوءُ نوءاً إذا نهض بثقل[٩].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥ ، وفي مطبوعه اسم البغي: شجرتا.

(٢) في (د) و(م): موسى، والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) في (م): صورته، والمثبت من (د) و(ظ) والمصادر.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٤ . وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٠٧٥).

(٥) في النسخ: مروان، والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم. وقد ترجم له الحافظ ابن حجر في تهذيبه ٤/ ٣١٦ ، فقال: الوليد بن زَوْران الرقي ـ بتقديم الزاي على الواو ـ وكذلك ترجم له في تقريبه لكنه قال: وقيل بتأخير الواو. روى له أبو داود في سننه حديثاً واحداً في الوضوء عن أنس بن مالك ﷺ، وقال أبو داود: لا ندري سمع من أنسٍ أو لا.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٥ ، وقول عطاء أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٨١)، وقول الوليد أخرجه أيضاً (١٧٠٨٢). والكيمياء اسم لعلم التحليل والتركيب، أو علم تحويل المعادن من أدنى إلى أعلى. معجم متن اللغة ٥/ ١٢٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ .

(٨) نزهة القلوب ص١٦٨ .

(٩) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص٢٢٠ .

قال الشاعر:

تَـنـوءُ بـأُخـراهـا فَـلأْيـاً قِـيـامُـهـا وتَمشي الهُوَينى عن قريبٍ فَتُبْهَرُ[(١)]

وقال آخر:

أخـذتُ فـلـم أملِكْ ونُؤْتُ فـلـم أَقُمْ كـأنِّـيَ مـن طـولِ الـزمـانِ مُـقـيَّـدُ

وأناءني إذا أثقلني. عن أبي زيد. وقال أبو عبيدة: قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ مقلوب، والمعنى: لتنوء بها العصبة، أي: تنهض بها. أبو زيد: نُؤْتَ بالحمل إذا نهضتَ[(٢)]. قال الشاعر:

إنَّـا وجـدنـا خَـلَـفـاً بـئـس الـخَـلَـفْ عـبـداً إذا مـا نـاءَ بـالـحـمـلِ وَقَـفْ[(٣)]

والأوّل معنى قول ابن عباس وأبي صالح والسُّدِّي. وهو قول الفرَّاء[(٤)]، واختاره النحَّاس[(٥)]. كما يُقال: ذهبتُ به وأذهبتُه، وجِئْتُ به وأجأتُه، ونُؤْتُ به وأَنَأْتُهُ، فأما قولهم: له عندي ما ساءه وناءه. فهو إتباعٌ، كان يجب أن يُقال: وأناءه. ومثله: هنأني الطعامُ ومرأني، وأخذه ما قدُمَ وما حدُثَ[(٦)]. وقيل: هو مأخوذٌ من النأي: وهو البُعد. ومنه قول الشاعر:

يَـنْـأَوْنَ عـنَّـا ومـا تَـنْـأَى مـودَّتُـهـمْ فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا[(٧)]

وقرأ بديل بن ميسرة: «لَيَنُوءُ» بالياء، أي: لينوءُ الواحدُ منها أو المذكور، فحُمِلَ على المعنى[(٨)]. وقال أبو عبيدة: قلتُ لرؤبة بن العجَّاج في قوله:

---

(١) قائله ذو الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ٦٢٤. قاله شارحه: فلأياً: أي: بعد بُطءٍ قيامها. وتُبهر: تعيا.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٩٩. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٠.

(٣) في النكت والعيون وأساس البلاغة واللسان: «خضف» بدلاً من «وقف». وخضف أي: ضرط.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٠.

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٩٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦.

(٨) المحتسب ٢/ ١٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩، وهي قراءة شاذة.

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ كأنّه في الجِلدِ تَوْلِيعُ البَهَقْ

إن كنتَ أردتَ الخطوط فقُل: كأنَّها، وإن كنتَ أردتَ السَّوادَ والبَلَقَ فقل: كأنهما. فقال: أردتُ كلَّ ذلك[١].

واختُلِفَ في العصبة: وهي الجماعة التي يتعصَّبُ بعضُهم لبعض على أحد عشر قولاً: الأوّل ـ ثلاثةُ رجال. قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: من الثلاثة إلى العشرة[٢].

وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر. وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الخمسة عشر. وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة. ذكر الأوَّل الثعلبي، والثاني القُشيري والماوردي[٣]، والثالث المهدوي. وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلاً[٤]. السُّدِّي: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقاله قتادة أيضاً[٥]. وقال عكرمة: منهم من يقول: أربعون، ومنهم من يقول: سبعون. وهو قول أبي صالح: إنَّ العُصبةَ سبعون رجلاً. ذكره الماوردي[٦]. والأوَّل ذكره عنه الثعلبي. وقيل: ستون رجلاً[٧]. وقال سعيد بن جُبير: ستٌّ أو سبع. وقال عبد الرحمن بن زيد: ما بين الثلاثة والتسعة، وهو النفر. وقال الكلبي: عشرة؛ لقول إخوة يوسف: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨] وقاله مقاتل[٨]. وقال خيثمة: وجدتُ في الإنجيل أنَّ مفاتيح خزائن قارونَ وِقْرَ ستين بغلاً غرَّاء مُحجَّلة، وأنها لَتنوء بها من ثِقَلِها، ما يزيد مفتح

---

(١) الكشاف ١/ ٢٨٧ . والبيت في ديوان رؤبة في مجموعة أشعار العرب ص١٠٤ .

(٢) أخرجهما الطبري ١٨/ ٣١٦ ، والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤ ، وزاد المسير ٦/ ٢٤٠ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٦ ، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٥).

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ أبي صالح والضحاك، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٢) عن الحكم.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣١٥ عن قتادة، وابن أبي حاتم (١٧٠٩٤) عن السدي.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩١) .

(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٣١٥ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٢٦٦ ، وقول سعيد أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٠٩٧)، وقول ابن زيد أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم (١٧٠٩٦).

منها على إصبع، لكلِّ مفتحٍ منها كنزُ مال، لو قُسِمَ ذلك الكنزُ على أهل البصرة لكفاهم. قال مجاهد: كانت المفاتيح من جلود الإبل. وقيل: من جلود البقر لتخِفَّ عليه، وكانت تُحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري. وقيل: على أربعين بغلاً. وهو قول الضحَّاك. وعنه أيضاً: إنَّ مفاتِحَه أوعيتُه. وكذا قال أبو صالح: إنَّ المراد بالمفاتح الخزائن. فالله أعلم[١]. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: المؤمنون من بني إسرائيل. قاله السُّدِّي. وقال يحيى بن سلَّام: القوم هنا موسى[٢]. وقال الفرَّاء[٣]. وهو جمعٌ أُريدَ به واحد، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وإنما هو نُعيم ابن مسعود على ما تقدَّم[٤]. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تأشَرْ ولا تبطَرْ[٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: البَطِرين. قاله مجاهد والسُّدِّي. قال الشاعر:

ولستُ بِمِفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّنِي ... ولا ضارعٌ في صرفهِ المُتقلِّبِ[٦]

وقال الزجَّاج[٧]: المعنى: لا تفرَحْ بالمال فإنَّ الفرَحَ بالمال لا يؤدِّي حقَّه. وقال مبشر[٨] بن عبد الله: لا تفرَحْ: لا تُفسِدْ. قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تبرَحْ تؤدِّي أمانةً ... وتحملُ أخرى أفرحَتْكَ الودائعُ[٩]

أي: أفسدتك. وقال أبو عمرو: أفرَحه الدَّين أثقلَه. وأنشده: إذا أنت... البيت.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣١١، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٤) ٥/ ٤٢٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧، وقائل البيت هدبة بن خشرم، وهو في الكامل ٣/ ١٤٥٥، ومجاز القرآن ٢/ ١١١.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٥٥، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٨) في (د) و(ز): فهيد، وفي (ظ) غير واضحة، والمثبت من (م).

(٩) قائله بهيس العذري كما في تاج العروس (فرح).

وأفرحَه: سرَّه، فهو مشترك. قال الزجَّاج: والفَرِحين والفارحين سواء. وفرَّق بينهما الفرَّاء فقال: معنى الفرحين: الذين هم في حال فرح، والفارحين: الذين يفرحون في المستقبل. وزعم أنَّ مثله طَمِعٌ وطامِعٌ وميِّتٌ ومائت. ويدلُّ على خلاف ما قالَ قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ولم يقُلْ: مائت[١]. وقال مجاهد أيضاً: معنى «لا تَفْرَحْ»: لا تَبْغِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: الباغين. وقال ابن بحر: لا تبخَلْ إنَّ الله لا يُحِبُّ الباخلين[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: اطلُبْ فيما أعطاك الله من الدنيا الدارَ الآخرةَ وهي الجنة[٣]، فإن من حَقِّ المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبُّر والبغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ اختُلِفَ فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تُضيِّعْ عمركَ في ألَّا تعملَ عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يُعمَلُ لها، فنصيب الإنسان عمرُه وعملُه الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شِدَّةٌ في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه: لا تُضيِّعْ حظَّكَ من دنياك في تمتُّعِكَ بالحلال وطلبِكَ إيَّاه، ونظرِكَ لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه. وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشيةَ النبوَّةِ من الشدَّة. قاله ابن عطية[٤].

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمرو[٥] في قوله: احرُثْ لدنياكَ كأنَّكَ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٧.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٤.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٥) في (د) و(ز): أبو عمرو، وفي (ظ) و(م): ابن عمر، والمثبت من المصادر.

تعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً[١]. وعن الحسن: قدِّم الفضل، وامسِكْ ما يبلُغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرَف. وقيل: أرادَ بنصيبه الكفن، فهذا وعظٌ متصل، كأنهم قالوا: لا تنسَ أنك تتركُ جميع مالِكَ إلا نصيبَكَ هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نَصيبُكَ مما تجمع الدهرَ كلَّهُ ... رداءانِ تُلْوَى فيهما وحَنُوطُ[٢]

وقال آخر:

وهي القناعةُ لا تبغي بها بدَلاً ... فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدَنِ

انظُرْ لمن ملَكَ الدنيا بأجمَعِها ... هل راحَ منها بغيرِ القُطنِ والكفَنِ

قال ابن العربي[٣]: وأبدع ما فيه عندي قولُ قتادة: ولا تنسَ نصيبَكَ الحلال، فهو نصيبُكَ من الدنيا، ويا ما أحسن هذا!

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أطِعِ اللهَ واعبُدْه كما أنعَمَ عليك. ومنه الحديث: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراه»[٤] وقيل: هو أمرٌ بصلة المساكين[٥]. قال ابن العربي: فيه أقوالٌ كثيرةٌ جِماعُها استعمال نِعم الله في طاعة الله. وقال مالك: هو[٦] الأكل والشرب من غير سرف. قال ابن العربي: أرى مالكاً أرادَ الرَّدَ على الغالين في العبادة والتقشف؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يحِبُّ الحلواء، ويشرب العسل، ويستعمل الشُّواء، ويشربُ الماءَ البارد[٧]. وقد مضى هذا المعنى في غير

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الباحث» (١٠٩٣)، وابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ٨١ و٢/ ١٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٩.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٠.

(٤) سلف ٢/ ١٣١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

(٦) كلمة هو ليست في (م)، وهي من باقي النسخ.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧١.

موضع[١]. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تعمَلْ بالمعاصي[٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ يعني علم التوراة[٣]. وكان فيما رُوِيَ من أقرأِ الناسِ لها، ومن أعلَمِهم بها. وكان أحدَ العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات. وقال ابن زيد: أي: إنما أوتيتُه لِعلْمِه بفضلي ورضاه عني. فقوله: «عِنْدي» معناه: إنَّ عندي أنَّ الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علمٍ منه باستحقاقي إيَّاها لفضلٍ فيَّ. وقيل: أوتيتُه على علمٍ من عندي بوجوه التجارة والمكاسب. قاله علي بن عيسى[٤]. ولم يعلم أنَّ الله لو لَم يُسهِّلْ له اكتسابَها لَما اجتمعَتْ عنده. وقال ابن عباس: على علمٍ عندي بصنعة الذهب[٥]. وأشار إلى علم الكيمياء. وحكى النقَّاش: أنَّ موسى عليه السلام علَّمه الثلث من صنعة الكيمياء، ويوشع الثلث، وهارون الثلث، فخدعهما قارون ـ وكان على إيمانه ـ حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء، فكثُرتْ أموالُه[٦]. وقيل: إنَّ موسى علَّم الكيمياء ثلاثة؛ يوشع ابن نون، وكالب بن يوفنا[٧]، وقارون[٨]. واختار الزجَّاج القول الأول، وأنكر قولَ

---

(١) ٢/ ١٥٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٠.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٦، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٢٤).

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٤٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٨.

(٧) في النسخ الخطية: «وطالوت» بدل «وكالب بن يوفنا»، والمثبت من (م) والمصادر.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥، والكشاف ٣/ ١٩١.

من قال: إنه يعمل الكيمياء. قال: لأن الكيمياء باطِلٌ لا حقيقةَ له[١]. وقيل: إنَّ موسى علَّم أختَه علم الكيمياء، وكانت زوجة قارون، وعلَّمتْ أختُ موسى قارونَ. والله أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: بالعذاب[٣]. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: الأمم الخالية الكافرة[٤]. ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ أي: للمال، ولو كان المال يدلُّ على فضلٍ لَما أهلكهم[٥]. وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون؛ أي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾.

﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يُسألون سؤال استعتاب، كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥] ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[٦] [فصلت: ٢٤] وإنما يُسألون سؤال تقريعٍ وتوبيخٍ؛ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. قاله الحسن[٧]. وقال مجاهد: لا تسألُ الملائكةُ غداً عن المجرمين؛ فإنهم يُعرَفون بسيماهم، فإنهم يُحشرون سُودَ الوجوه زُرْقَ العيون[٨]. وقال قتادة: لا يُسألُ المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النارَ بلا حساب[٩]. وقيل: لا يُسألُ مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عُذِّبوا في الدنيا[١٠]. وقيل: أهلك من أهلك من

---

(١) نقله عن ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٢ . وهو في معاني القرآن له ٤/ ١٥٦ .

(٢) الكشاف ٣/ ١٩١ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٢٦ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ عن ابن بحر.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ .

(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣٠).

(٩) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٧ ، وابن أبي حاتم (١٧١٢٦).

(١٠) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ عن مقاتل.

القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتجْ إلى مسألتهم عن ذنوبهم[١].

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: على بني إسرائيل فيما رآه زينةً من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمُّل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت .﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: مع زينته. قال الشاعر:

إذا ما قلوبُ القومِ طارَتْ مخافةً ... من الموتِ أرسَوا بالنفوسِ المواجدِ[٢]

أي: مع النفوس. كان خرجَ في سبعين ألفاً مِن تَبَعه، عليهم المُعصفَرات، وكان أوَّل من صُبِغَ له الثيابُ المعصفَرة. قال السُّدِّي: مع ألف جوارٍ بيضٍ، على بغالٍ بيضٍ، بسروجٍ من ذهب، على قُطُفِ الأُرْجُوان[٣]. قال ابن عباس: خرج على البغال الشُّهب[٤]. مجاهد: على براذينَ بيضٍ، عليها سروجُ الأُرْجُوان، وعليهم المُعصفَرات، وكان ذلك أوَّلَ يومٍ رُؤيَ فيه المُعصفَر. قال قتادة: خرجَ على أربعة آلاف دابةٍ عليهم ثيابٌ حمر، منها ألفُ بغلٍ أبيضٍ عليها قُطُفٌ حمر[٥]. قال ابن جُريج: خرج على بغلةٍ شهباءَ عليها الأُرْجُوان، ومعه ثلاث مئة جارية على البغال الشُّهب عليهنَّ الثياب الحمر[٦]. وقال ابن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٤٣ بمعناه عن السدي.

(٢) نسبه المرزباني في معجم الشعراء ص٢٠٠ إلى قيس بن ثعلبة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩ . وقول ابن زيد أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣٨)، وقول السدي أخرجه أيضاً (١٧١٣٤).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٥ ولكن عن مقاتل.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٣ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٩ ، وابن أبي حاتم (١٧١٣١).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٤١).

المُعصفَرات[١]. الكلبي: خرجَ في ثوبٍ أخضر كان اللهُ أنزله على موسى من الجنة، فسرقَه منه قارون. وقال جابر بن عبد الله ﷺ: كانت زينتُه القِرمز[٢]. قلت: القِرْمِز: صِبغٌ أحمرُ مثلُ الأُرْجُوان، والأُرْجُوان في اللغة: صِبغٌ أحمر. ذكره القشيري.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيبٍ وافرٍ من الدنيا. ثم قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت[٣]، تمنَّوا مثلَ مالِه رغبةً في الدنيا[٤]. وقيل: هو من قول أقوامٍ لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل، للذين تمنَّوا مكانَه ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنة. ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: لا يؤتى الأعمال الصالحة، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. وجاز ضميرُها؛ لأنها المعنيةُ بقوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال مقاتل: لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ابنَ عمه أخي أبيه،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٣٨).

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٢٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٦٩.

(٥) مجمع البيان ٢٠/ ٣٢٤.

(٦) الوسيط ٣/ ٤٠٩، وزاد المسير ٦/ ٢٤٣ - ٢٤٤.

فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام[١]، فأوحى الله إلى موسى: إني لا أُعيدُ طاعة الأرض إلى أحدٍ بعدكَ أبداً[٢]. يقال: خَسَفَ المكانُ يخسِفُ خُسوفاً ذهب في الأرض، وخَسَفَ اللهُ به الأرض خَسْفاً أي: غاب به فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وخَسَفَ هو في الأرض وخُسِفَ به. وخسوفُ القمر: كسوفُه. قال ثعلب: كَسَفَتِ الشمسُ وخَسفَ القمرُ؛ هذا أجود الكلام. والخَسْفُ: النقصان؛ يقال: رضي فلانٌ بالخسفِ أي: النقيصة[٣]. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعةٍ وعصابةٍ. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ لنفسِه أي: الممتنعين فيما نزلَ به من الخسف[٤]. فيُروى أنَّ قارون يَسفُلُ كلَّ يومٍ بَقْدرِ قامة، حتى إذا بلغ قعرَ الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور. وقد تقدّم[٥]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: صاروا يتندَّمون على ذلك التمني[٦] و﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [وي][٧] حرف تندّم. قال النحّاس[٨]: أحسنُ ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي: إن القومَ تَنبَّهوا أو نُبِّهوا، فقالوا: وَيْ، والمتندِّمُ من العرب يقول في خلال تندُّمه: وَيْ. قال الجوهري[٩]: «وَيْ» كلمةُ تعجُّب، ويقال: وَيْكَ ووَيْ لعبد الله. وقد تدخل «وَيْ» على كأنَّ المخففة والمشدّدة؛

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٠ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٠ عن أبي عمران الجوني.

(٣) الصحاح (خسف).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٧ .

(٥) عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٧) ما بين حاصرتين من (م).

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ .

(٩) في الصحاح (وي) و(يك).

تقول: ويكأنَّ الله. قال الخليل: هي مفصولة؛ تقول: «وَيْ» ثم تبتدئ فتقول: «كَأَنَّ».

قال الثعلبي: وقال الفرَّاء: هي كلمة تقرير، كقولك: أما ترى إلى صُنعِ الله وإحسانه. وذكر أنَّ أعرابيةً قالت لزوجها: أين ابنُكَ وَيْلك؟ فقال: وَيْ كأنَّه وراء البيت، أي: أما ترَيْنَه. وقال ابن عباس والحسن: ويكَ كلمة ابتداءٍ وتحقيقٍ تقديره: إنَّ الله يبسط الرزق. وقيل: هو تنبيهٌ بمنزلة ألا[1] في قولك: أمَّا بعد. قال الشاعر:

سَـألَـتَـانـي الـطـلاقَ إذ رَأَتَـانـي ... قَـلَّ مـالـي قـد جِـئْـتُـمـانـي بِـنُـكْـرِ

وَيْ كَـأَنْ مَـنْ يَـكُـنْ لـه نَـشَـبٌ يُـحْـ ... ـبَبْ ومَنْ يَفتقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ[2]

وقال قُطْرُب: إنما هو ويلك، وأُسقِطَت لامُه وضُمَّتِ الكافُ التي هي للخطاب إلى وَيْ. قال عَنترة:

ولـقـد شَـفَـى نـفـسـي وأبـرأ سُـقْـمَـهـا ... قَـوْلُ الـفـوارسِ وَيْـكَ عَـنْـتَـرُ أَقْـدِمِ[3]

وأنكره النحَّاس وغيره، وقالوا: إنَّ المعنى لا يصح عليه؛ لأنَّ القوم لم يُخاطِبوا أحداً فيقولوا له: ولك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر. وأيضاً فإنَّ حذف اللام من ويلك لا يجوز[4]. وقال بعضهم: التقدير: ويلَكَ اعلم أنَّه؛ فأضمرَ اعلم[5]. ابن الأعرابي: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: اعلم. وقيل: معناه: ألم ترَ أنَّ الله[6]. وقال القُتبي[7]: معناه: رحمةً لك بِلُغة حِمْير. وقال الكسائي: وَيْ فيه معنى التعجب.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨. وكلام الفراء في معاني القرآن له٢/ ٣١٢، وقول ابن عباس ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦.

(٢) قائلهما زيد بن عمرو بن نفيل، وهما في الكتاب ٢/ ١٥٥، وخزانة الأدب ٦/ ٤١٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨، والبيت في شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٥٢، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٤٩.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤، والبيان ٢/ ٢٣٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٤٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢، ونسبة ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٤٦ إلى ابن عباس ﵄.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠١، ونسب القول الذي قبله إلى الكسائي.

ويروى عنه أيضاً الوقفُ على وَيْ وقال: كلمة تفجُّع. ومن قال: ويك فوقف على الكاف فمعناه: أعجِبْ لأنَّ اللهَ يبسط الرزق، وأعجِبْ لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطابٍ لا اسماً؛ لأنَّ وَيْ ليست ممَّا يُضاف. وإنما كُتبت متصلةً؛ لأنها لمَّا كثُرَ استعمالُها جُعِلتْ مع ما بعدها كشيءٍ واحد.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾[1].

وقرأ الأعمش: «لَوْلَا مَنُّ اللهِ عَلَيْنَا»[2]. وقرأ حفص: «لَخَسفَ بِنَا» مسمَّى الفاعل. الباقون: على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[3]، وهو اختيار أبي عبيد. وفي حرف عبد الله: «لَانْخُسِفَ بِنَا» كما تقول: انطُلِقَ بنا. وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصرِّف[4]. واختار قراءةَ الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. والثاني قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فهو بأن يُضاف إلى الله تعالى لِقُربِ اسمِه منه أولى. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عند الله.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ يعني الجنة. وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها. يعني: تلكَ التي سمعت بذكرها، وبلغَكَ وصفُها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رفعةً وتكبُّراً على الإيمان والمؤمنين[5] ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٨ .

(٢) الشاذة ص١١٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٠٢ .

(٣) السبعة ص٤٩٥ ، والتيسير ص١٧٢ .

(٤) المحتسب ٢/١٥٧ ، وفي معاني القرآن للفراء ٢/٣١٣ ، والشاذة ص١١٤ عن عبد الله، وفي المحرر الوجيز ٤/٣٠٢ عن الأعمش وطلحة.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/٥٢٨ .

بالمعاصي. قاله ابن جُريج ومقاتل[١]. وقال عِكْرمة ومسلم البَطين: الفساد: أخذُ المال بغير حق[٢]. وقال الكلبي: الدعاء إلى غير عبادة الله[٣]. وقال يحيى بن سلّام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين[٤]. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الضحّاك: الجنة[٥]. وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علوّاً هو من لم يجزَعْ من ذلِّها ولم ينافِسْ في عِزِّها، وأرفعهم عند الله أشدُّهم تواضعاً، وأعزُّهم غداً ألزَمُهم لذلِّ اليوم[٦]. وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرَّ عليُّ بن الحسين وهو راكبٌ على مساكينَ يأكلون كِسَراً لهم، فسلَّم عليهم، فدعَوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ثم نزل وأكل معهم. ثم قال: قد أجبتُكم فأجيبوني. فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرَّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدَّثني أبي، قال: حدَّثنا سفيان بن عُيَيْنَة . . . فذكره[٧] وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد: إنما ينتفع بتلك الدار من اتَّقى، ومن لم يتَّقِ فتِلْكَ الدارُ عليه لا له؛ لأنَّها تضرُّه ولا تنفعه.

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ تقدَّم في «النمل»[٨]. وقال عكرمة: ليس شيءٌ خيراً من لا إله إلا الله. وإنما المعنى: من جاء بلا إله إلا الله فله منها

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٢٨ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٠ ، وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧١ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٨ عن مسلم البطين، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٤). وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ عن عكرمة.

(٣) الوسيط ٣/ ٤١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٨ ، وزاد المسير ٦/ ٢٤٨ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧١ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٤ عن قتادة.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٧١ ، وكذلك أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٧٩).

(٧) مكارم الأخلاق للطبراني (١٧٣).

(٨) عند تفسير الآية (٨٩) منها.

خير[١]. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالشرك ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُعاقَبُ بما يليقُ بعمله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ ختم السورة ببشارة نبيِّه محمدٍ ﷺ بردِّه إلى مكة قاهراً لأعدائه. وقيل: هو بشارةٌ له بالجنَّة. والأوّل أكثر، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم[٢]. قال القُتبي: مَعادُ الرجل بلده؛ لأنَّه ينصرف ثم يعود[٣]. وقال مقاتل: خرجَ النبيُّ ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافةَ الطلب، فلمَّا رجع إلى الطريق ونزل الجَحفةَ عرف الطريقَ إلى مكة فاشتاق إليها، فقال له جبريل: إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي: إلى مكة ظاهراً عليها[٤]. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالجَحْفة ليست مكية ولا مدنية[٥]. وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ قال: إلى الموت[٦]. وعن مجاهدٍ أيضاً وعكرمة والزُّهري والحسن: إن

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٣) عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبري ١٨/ ٣٥٠ - ٣٥١ عنه وعن مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٢٠٤) عن مجاهد.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٢٩.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٤٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٥ لكن نسبه إلى ابن سلام وغيره، وفي النكت والعيون ٤/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩، وزاد المسير ٤/ ٢٥٠ من غير نسبة.

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٤٩، وابن أبي حاتم (١٧١٩٩).

المعنى: لَرادُّكَ إلى يوم القيامة[١]. وهو اختيار الزجّاج[٢]. يُقال: بيني وبينك المعاد، أي: يوم القيامة؛ لأنَّ الناسَ يعودون فيه أحياء[٣]. و«فَرَضَ» معناه أنزل[٤]. وعن مجاهدٍ أيضاً وأبي صالح: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلى الجنة. وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضاً[٥]؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء. وقيل: لأنَّ أباه آدمَ خرجَ منها[٦]. ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ أي: قُلْ لكفار مكة إذا قالوا: إنَّكَ لفي ضلالٍ مبين: ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنا أم أنتم[٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: ما علمتَ أنَّنا نُرسِلُكَ إلى الخلق ونُنزِلُ عليك القرآن[٨]. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الكسائي: هو استثناءٌ منقطع بمعنى لكن[٩]. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عوناً لهم ومساعداً. وقد تقدَّم في هذه السورة[١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفِتْ نحوَهم وامْضِ لأمرك وشأنك. وقرأ يعقوب: «يَصُدُّنْكَ» مجزوم النون[١١]. وقرئ: «يُصِدُّنَّكَ» من أصدَّه، بمعنى: صدَّه، وهي لغةٌ في كلب؛ قال الشاعر:

---

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٨/ ٣٤٦ - ٣٤٧ ، وابن أبي حاتم (١٧٢٠١) عن مجاهد.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٦٤ .

(٥) أخرجه عنهم الطبري ١٨/ ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٣٥١ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٢٩ .

(٨) الوسيط ٣/ ٤١١ .

(٩) نقله البغوي في تفسيره ٣/ ٤٥٩ وغيره عن الفراء، وهو في معاني القرآن له ٢/ ٣١٣ .

(١٠) عند الآية (١٧).

(١١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٣ - ٣٠٤ . وهذه القراءة ليست مشهورة عن يعقوب، وإنما المشهور عنه مثل قراءة الجمهور.

أُنَاسٌ أصدُّوا الناسَ بالسيفِ عنهمُ صُدُودَ السَّوَاقي عن أنوفِ الحَوَائِمِ[١]

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى التوحيد[٢]. وهذا يتضمَّنُ المهادنةَ والموادعة. وهذا كلُّه منسوخٌ بآية السيف. وسبب هذه الآية ما كانت قريشٌ تدعو رسولَ الله ﷺ إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطانُ في أمنيته أمر الغَرَانيق[٣] على ما تقدَّم[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تعبُدْ معه غيرَه فإنه لا إلهَ إلا هو. نفيٌ لكل معبودٍ وإثباتٌ لعبادته. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قال مجاهد: معناه: إلَّا هو[٥]. وقال الصادق: دِينُه. وقال أبو العالية وسفيان: أي: إلَّا ما أُريدَ به وجهُه[٦]؛ أي: ما يُقصَدُ إليه بالقربة. قال:

أستغفِرُ اللهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ رَبَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ[٧]

وقال محمد بن يزيد: حدَّثني الثوري قال: سألتُ أبا عبيدة عن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فقال: إلَّا جاهَه، كما تقول: لفلانٍ وجهٌ في الناس أي: جاه[٨]. ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الأولى والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قال الزجَّاج: «وَجْهَهُ» منصوبٌ على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان إلَّا وجهُه بالرفع، بمعنى: كلُّ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٩٤ ، والقراءة في الشاذة ص١١٤ . والبيت هكذا أنشده الجوهري في الصحاح (صدد) من غير نسبة. ونقله عنه صاحب اللسان ونسبه لذي الرمة، ونقل عن ابن بري أنه قال: صواب إنشاده: صدود السواقي عن رؤوس المخارمِ. قلنا: وقد جاء على الصواب في ديوان ذي الرمة ٢/ ٧٧١ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٥٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٤ .

(٤) ١٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٥١ عن الضحاك وأبي عبيدة.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧ ، والنكت والعيون ٤/ ٢٧٣ عن سفيان الثوري، وتفسير البغوي ٣/ ٤٥٩ عن أبي العالية.

(٧) سلف ٢/ ٣٣١ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٧ .

شيءٍ غيرُ وجهِه هالِكٌ كما قال:

وكـــلُّ أخٍ مُـــفـــارِقُـــهُ أخـــوهُ   لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ إلّا الْـفَـرْقَـدانِ

والمعنى: كلُّ أخٍ غيرُ الفرقَدين مُفارِقُه أخوه. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بمعنى تُرجعون إليه[1].

تمَّتْ سورةُ القَصصِ والحمدُ لله

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٥٨، والبيت سلف ١١/ ٥٤.

سورة العنكبوت

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنيةٌ كلُّها في أحد قولَي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلَّام أنها مكيةٌ إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: نزلت بين مكة والمدينة[1]. وهي تسعٌ وستون آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾[3] تقدَّم القولُ في أوائل السور. وقال ابن عباس: المعنى: أنا الله أعلم. وقيل: هو اسمٌ للسورة. وقيل: اسمٌ للقرآن.

﴿أَحَسِبَ﴾ استفهامٌ أُريدَ به التقرير والتوبيخ، ومعناه الظن[4]. ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ في موضع نصب بـ«حَسِبَ» وفيه وَصِلتُها مقامُ المفعولين على قول سيبويه. و«أنَّ» الثانية من «أن يَقُولُوا» في موضع نصبٍ على إحدى جهتين، بمعنى: لأَنْ يقولوا، أو: بأن يقولوا، أو: على أن يقولوا. والجهة الأخرى أن يكون على التكرير، والتقدير: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ أحَسِبُوا ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[5]. قال ابن عباس وغيره: يُريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريشٍ يؤذونهم

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٧٤.

(٢) الوسيط ٢/ ٤١٢ وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٣) في (م) ذكرت الآية بتمامها، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧٤ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧ .

ويُعذِّبونهم على الإسلام، كسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمّار بن ياسر، وياسرٍ أبيه، وسُمية أمِّه، وعدةٍ من بني مخزوم وغيرِهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استُنكِرَ أن يُمكنَ اللهُ الكفارَ من المؤمنين؛ قال مجاهدٌ وغيره: فنزلت هذه الآية مسلِّيةً ومعلِّمةً أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة. قال ابن عطية[1]: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقيةٌ في أمة محمد ﷺ، موجودٌ حكمُها بقية الدهر، وذلك أنَّ الفتنةَ من الله تعالى باقيةٌ في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتُبِرَ أيضاً كلُّ موضعٍ ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلةَ المسلمين مع قريشٍ هي ما ذكرناه من أمر العدوِّ في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في مِهجَع مولى عمر بن الخطاب؛ كان أول قتيلٍ من المسلمين يوم بَدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهمٍ فقتله، فقال النبيُّ ﷺ يومئذٍ: «سيدُ الشهداء مِهْجَع، وهو أوَّلُ من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾[2]. وقال الشَّعبي: نزل مُفتتحُ هذه السورة في أُناسٍ كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبيِّ ﷺ من الحديبية أنه لا يُقبَلُ منكم إقرارُ الإسلام[3] حتى تهاجروا، فخرجوا، فأتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا. فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحدٌ قاتلناه. فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتِلَ، ومنهم من نجا، فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾[4].

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥، وما قبله منه ومن الوسيط٣/ ٤١٢، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

(٣) في النسخ سوى (م): إقرار ولا إسلام، والمثبت من (م) والمصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣١) وهو تفسير البغوي ٣/ ٤٦٠.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يُمتحنون، أي: أظنَّ الذين جَزِعوا من أذى المشركين أن يُقنع منهم أن يقولوا: إنَّا مؤمنون، ولا يُمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبيّن به حقيقةُ إيمانهم[١]؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتلينا الماضين، كالخليل أُلقي في النار، وكقومٍ نُشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه[٢]. وروى البخاري[٣] عن خَبَّاب من الأرت: قالوا شكَونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يُؤخَذُ الرجلُ فيُحفَرُ له في الأرض فيُجعَلُ فيها، فيُجاء بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسه فيُجعَلُ نصفين، ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه، فما يصرِفُه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ[٤] هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضرَمَوت لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجِلون». وخرَّج ابن ماجه[٥] عن أبي سعيد الخدري قال: دخلتُ على النبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فوضعتُ يدي عليه، فوجدْتُ حرَّه بين يديَّ فوق اللِّحاف. فقلتُ: يا رسول الله، ما أشدَّها عليك! قال: «إنَّا كذلك يُضعَّفُ لنا البلاءُ ويُضعَّفُ لنا الأجر» قلت: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء» قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثم الصالحون؛ أن كان أحدُهم ليُبتلى بالفقر حتى ما يجدَ إلاَّ العباءَةَ يَجوبُها[٦]، وأن كان أحدُهم لَيفرحُ بالبلاء كما يَفرحُ أحدُكم بالرَّخاء». وروى سعد بن

---

(١) الوجيز للواحدي على هامش مراح لبيد ٢/ ١٥٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٢-٤١٣ .

(٣) في صحيحه (٣٨٥٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٠٥٧).

(٤) في النسخ: والله ليتمنَّ، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في سننه (٤٠٢٤)، وهو في مسند أحمد (١١٨٩٣)، والأدب المفرد (٥١٠).

(٦) كذا في (م) وكذا ضبطها السندي في شرحه لابن ماجه ٢/ ٤٩٠ وقال: أي: يجعل لها جيباً. والذي في النسخ الخطية ومطبوع ابن ماجه «يُحوِّيها». والتَّحوية فيما ذكر ابن الأثير في النهاية (حوا): أن يُديرَ كساءً حول سنام البعير ثم يركبه. قلنا: وهذا لا يناسب المعنى، فلعله «يجوبها» كما في المسند ومطبوع الأدب المفرد، فيكون المعنى كما قال السندي في حاشيته على المسند: أي: يقطعها ليلبسها في عنقه.

أبي وقَّاصٍ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينهِ، فإنْ كان في دينه صُلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُليَ على حسب دينِه، فما يبرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[١]. وروى عبد الرحمن بن زيد أنَّ عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً، فأخذه السَّبُعُ فأكله، فقال عيسى: يا ربِّ وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلَّطْتَ عليه كلباً فأكله. قال: «نعم، كانت له عندي منزلةٌ رفيعةٌ لم أجِدْ عملَه يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة»[٢]. وقال وهب: قرأتُ في كتاب رجلٍ من الحواريِّين: إذا سُلِكَ بكَ سبيلُ البلاء فقرَّ عيناً، فإنه سُلِكَ بِكَ سبيلُ الأنبياء والصالحين، وإذا سُلِكَ بِكَ سبيلُ الرَّخاء فابْكِ على نفسك، فقد خُولِفَ بِكَ عن سبيلهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: فليَريَنَّ اللهُ الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٤] وغيرها. قال الزجَّاج: ليعلمَ صدقَ الصادقِ بوقوعِ صدقِه منه، وقد عَلِمَ الصادقَ من الكاذبِ قبل أن يخلُقَهما، ولكنِ القصدُ قصدُ وقوعِ العلم بما يُجازى عليه[٥]. وإنما يعلم صدقَ الصادقِ واقعاً كائناً وقوعُه، وقد علِمَ أنه سيقع. وقال النحَّاس[٦]: فيه قولان: أحدهما ـ أن يكون «صَدَقُوا» مشتقًّا من الصِّدق و«الكاذبينَ» مشتقًّا من الكَذِب الذي هو ضِدُّ الصِّدق، ويكون المعنى: فلَيُبيِّنَنَّ اللهُ الذي صدقوا فقالوا: نحن مؤمنون واعتقدوا مثلَ ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غيرَ ذلك. والقول الآخر ـ أن يكون صدَقوا مشتقًّا من

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٠٧ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٧١ .

(٤) ٣/ ١٤٠ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧-٢٤٨ .

الصِّدق: وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقًّا من كَذَّب إذا انهزم، فيكون المعنى: فليعلمَنَّ اللهُ الذي ثبتوا في الحرب والذين انهزموا، كما قال الشاعر:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانِه صَدَقَا[١]

فجعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليُبيِّننَّ مَجازاً.

وقراءة الجماعة: «فَلَيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام، وقرأ علي بن أبي طالب بضمِّ الياء وكسر اللام[٢]، وهي تُبيِّنُ معنى ما قاله النحَّاس. ويَحتملُ ثلاثةَ معان: الأوَّل ـ أن يُعلِمَ في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى: يُوقفهم على ما كان منهم. الثاني ـ أن يكون المفعولُ الأوَّلُ محذوفاً تقديرُه: فليُعلمنَّ الناسَ والعالَمَ هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث ـ أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكلِّ طائفةٍ علامةً يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «مَنْ أسرَّ سريرةً ألبَسَهُ اللهُ رداءَها»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشرك. ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ أي:

---

(١) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٥٤ . عَثَّر: بلدٌ في اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٤ .

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٩ ، والشاذة ص١١٤ عن علي والزهري. وفي زاد المسير ٦/ ٢٥٥ عن علي وجعفر بن محمد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦ . والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٢)، وفي الأوسط (٧٩٠٢) من حديث جندب بن سفيان ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥ : فيه حامد بن آدم، وهو كذاب. وأخرجه الطبراني بنحوه ١٠/ ١٢٧ من حديث عثمان بن عفان ﷺ. وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ١٩٦ وقال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٣٥٠ : قيل: ليس بحديث، لكن معناه صحيح .

يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل(١). ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوقٌ والله القادر على كلِّ شيء.

و«ما» في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون «ما» في موضع رفعٍ بمعنى ساء الشيء، أو الحكمُ حكمُهم. وهذا قول الزجَّاج. وقدَّرها ابنُ كيسان تقديرين آخرين خلاف ذَيْنِكَ: أحدهما ـ أن يكون موضع «ما» [مع] «يَحْكُمُونَ» بمنزلة شيءٍ واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعتَ، أي: صنيعُكَ، فـ«ما» والفعل مصدرٌ في موضع رفع، التقدير: ساء حُكمُهم. التقدير: ساء حُكمُهم. والتقدير الآخر أن تكون «ما» لا موضعَ لها من الإعراب، وقد قامت مقامَ الاسمِ لِساء، وكذلك نِعْمَ وبِئْسَ. قال أبو الحسن بن كَيْسان: وأنا أختار أن أجعل لـ«ما» موضعاً في كلِّ ما أقدِرُ عليه، نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكذا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [المائدة: ١٣] وكذا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨] «ما» في موضع خفضٍ في هذا كلِّه وما بعده تابعٌ لها، وكذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] «ما» في موضع نصبٍ و«بَعُوضَةً» تابعٌ لها(٢).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ «يَرْجُو» بمعنى: يخاف، من قول الهُذَليِّ في وصف عَسَّال:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحلُ لم يَرْجُ لسعَها(٣)

وأجمع أهل التفسير على أنَّ المعنى: من كان يخافُ الموت فليعمل عملاً صالحاً

---

(١) الوسيط ٣/ ٤١٣ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٨ ، وما بين حاصرتين منه. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٢ . وهذا صدر لبيت قائله أبو ذؤيب الهذلي، وعجزه: وخالفَها في بيت نُوبٍ عواملِ. وقد سلف ٣/ ٤٣٣ .

فإنه لابُدَّ أن يأتيه. ذكره النحَّاس[١]. قال الزجَّاج: معنى «يَرجُو لِقَاءَ الله» ثواب الله[٢]، و«من» في موضع رفعٍ بالابتداء و«كَانَ» في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و«يَرْجُو» في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ أي: ومَنْ جاهد في الدِّين، وصبرَ على قتال الكفار وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه، أي: ثوابُ ذلك كلُّه له، ولا يرجع إلى الله نفعٌ من ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن أعمالهم. وقيل: المعنى: مَنْ جاهدَ عدوَّه لنفسه لا يريد وجهَ اللهِ فليسَ لله حاجةٌ بجهاده.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: لنُغطِّينَّها عنهم بالمغفرة لهم. ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعات. ثم قيل: يَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم كلُّ معصيةٍ عملوها في الشرك، ويُثابوا على ما عملوا من حسنةٍ في الإسلام[٤]. ويَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم سيئاتُهم في الكفر والإسلام، ويُثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ نزلت في سعد بن أبي وقَّاص فيما روى التِّرمذيُّ قال: أُنزلت فيَّ أربعُ آياتٍ فذكَر قصةً؛ فقالت أمُّ سعد: أليسَ قد أمرَ الله بالبرِّ؟! واللهِ لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أموتَ أو تكفر. قال: فكانوا إذا

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣٤٠.

أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا فَاها[١]، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢]. وَرُوِيَ عن سعدٍ أنه قال: كنتُ بارًّا بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدَعَنَّ دينَكَ أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموتَ فتُعَيَّرَ بي، ويُقال: يا قاتِلَ أمِّه. وبقِيَتْ يوماً ويوماً فقلتُ: يا أمَّاه، لو كانت لكِ مئةُ نفس، فخرجتْ نفساً نفساً ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فلمَّا رأتْ ذلك أكلَتَ ونزلَتْ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ الآية[٣]. وقال ابن عباس: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهلٍ لأمِّه وقد فعلَتْ أمُّه مثلَ ذلك[٤]. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلاَّ صِدِّيق.

و«حُسْنًا» نُصِبَ عند البصريين على التكرير، أي: ووصيناه حُسناً. وقيل: هو على القطع، تقديره: ووصيناه بالحُسن، كما تقول: وصَّيتُه خيراً، أي: بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصَّينا الإنسانَ أن يفعل حسناً فيُقَدَّرُ له فعل. وقال الشاعر:

عَجِبتُ من دَهْمَاءَ إذ تَشكونا ... ومن أبي دَهْماءَ إذ يُوصينا

خيراً بها كأنَّما خافونا

أي: يوصينا أن نفعلَ بها خيراً، كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾ [ص:٣٣] أي: يمسحُ مَسْحاً. وقيل: تقديره: ووصَّيناه أمراً ذا حُسنٍ، فأُقيمتِ الصِّفةُ مقامَ الموصوف، وحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه[٥]. وقيل: معناه: ألزمناه حسناً[٦].

---

(١) أي: أدخلوا في شَجْره عوداً حتى يفتحوه به، والشَّجْر: مفتح الفم. النهاية (شجر).

(٢) سنن الترمذي (٣١٨٩). وهو في مسند أحمد (١٦١٤)، وأخرجه مسلم بنحوه ٤/ ١٨٧٨ (٤٤).

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٥٧، والوسيط ٣/ ٤١٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ٣٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٧، وزاد المسير ٦/ ٢٥٧ من غير نسبة. وساق القصة الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ عن الكلبي.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٢.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧٦ عن السدي.

وقراءة العامة: «حُسْناً» بضمِّ الحاء وإمكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحَّاك: بفتح الحاء والسين[١]. وقرأ الجحدري: «إحساناً» على المصدر، وكذلك في مصحف أُبيّ[٢]، التقدير: ووصَّينا الإنسانَ أن يُحسنَ إليهما إحساناً[٣]، ولا ينتصبُ بوصَّينا؛ لأنه قد استوفى مفعوليه.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيدٌ في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرُّكِ النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مبالغةٌ على معنى: فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصَّلَ للمؤمن هذا الحكم تحصَّلَ ثمرتُه وجزاؤه وهو الجنة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون: آمنَّا بالله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانه[٥]. وقيل: جزِعَ من ذلك كما يجزَعُ من عذاب الله ولا يصبر على الأذيَّةِ في الله[٦]. ﴿وَلَئِن جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون، فقال الله لهم: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي

---

(١) الشاذة ص١١٤ عن عيسى والجحدري، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ عن ابن مسعود وأبي رجاء.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ ونسبها أيضاً إلى أبي مجلز، وهي قراءة شاذة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨.

(٥) سيرد معناه قريباً عن الضحاك.

(٦) الوسيط ٣/ ٤١٤.

صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: اللهُ أعلَمُ بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناسٍ كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبةٌ في أنفسهم افتُتِنوا[١]. وقال الضحَّاك: نزلت في ناسٍ من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك[٢]. وقال عكرمة: كان قومٌ قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فقُتِلَ بعضُهم، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] فكتبَ بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا، فلحِقَهم المشركون، فافتتنَ بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم[٣]. وقيل: نزلت في عيَّاش ابن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضُرِبَ، فارتَدَّ. وإنما عذَّبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهرٍ وحَسُنَ إسلامه[٤]. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردَّهم المشركون إلى مكة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جزمٌ على الأمر[٦]. قال الفرَّاء والزجَّاج: هو أمرٌ في تأويل

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٥ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٧١)، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٨/ ٣٦٥ ، وهو في زاد المسير ٦/ ٢٥٩ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٥-٩٦ عن عكرمة . وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦ ، وابن أبي حاتم (١٧١٧٠) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٥٩ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢ ، ومجمع البيان ٢/ ٣٣٩ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢ .

الشرط والجزاء، أي: إن تتَّبعوا سبيلَنا نحمِلْ خطاياكم، كما قال:

فـقـلـتُ ادعِـي وأدعُ إنَّ أنـدَى لِـصَـوتٍ أن يُـنَـاديَ داعـيـانِ[١]

أي: إن دعوتِ دعوتُ[٢]. قال المهدويّ: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بعدَه على الحمل على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال مجاهد: قال المشركون من قريش: نحن وأنتم لا نُبعَثُ، فإن كان عليكم وزرٌ فعلينا. أي: نحن نحمل عنكم ما يلزمكم[٣]. والحمل هاهنا بمعنى الحَمالة لا الحمل على الظهر. ورُوي أنَّ قائل ذلك الوليدُ بن المغيرة[٤].

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني: ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبيّ ﷺ، وقد تقدَّم في «آل عمران»[٥]. قال أبو أمامة الباهلي: «يُؤتى بالرجل يومَ القيامة وهو كثير الحسنات، فلا يزالُ يقتَصُّ منه حتى تفنى حسناتُه، ثم يُطالبُ فيقول الله عزَّ وجلَّ: اقتصُّوا من عبدي. فتقول الملائكة: ما بَقِيَتْ له حسناتٌ. فيقول: خُذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى ضلالةٍ كان عليه وزْرُها وَوِزرُ مَن عملَ بها ولا يُنقَصُ من أوزارهم شيء. ونظيره

---

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥ إلى الأعشى، ولم نقف عليه في ديوانه. ونُسب في شرح الفصل ٧/ ٣٣ إلى ربيعة بن هشيم، وفي أمالي القالي ٢/ ٩٠ إلى الفرزدق، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ ، واللسان (ندي) إلى دثار بن شيبان النمري.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩-٢٥٠ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ .

(٥) ٥/ ٣٩١ - ٣٩٢ .

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥][1]. ونظير هذا قوله عليه السلام: «مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً فعليه وزرُها وَوِزرُ مَنْ عملَ بها بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء»[2] ورُوِيَ من حديث أبي هريرة وغيره[3]. وقال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «مَن دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ عليه وعُمِلَ به فله مثلُ أجورِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبِعَ عليها وعُمِلَ بها بعدَه فعليه مثلُ أوزارِ مَنْ عملَ بها ممن اتَّبعه لا يَنقُصُ ذلك من أوزارهم شيئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[4].

قلت: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة. خرَّجه مسلم[5]. ونصُّ حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبعَ فإنَّ له مثلَ أوزارِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ من أوزارهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبعَ فإنَّ له مثلَ أجور مَنِ اتَّبعَه ولا يَنقُصُ من أجورهم شيئاً» خرَّجه ابن ماجه في السنن[6]. وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير[7]. وقد قيل: إنَّ المرادَ أعوانُ الظَّلمة. وقيل: أصحابُ البدع إذا اتُّبِعوا عليها. وقيل: مُحدِثو السنن الجائرة إذا عُمِلَ بها من بعدهم[8]. والمعنى متقاربٌ، والحديث يجمع ذلك كلَّه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢١٦-٢١٧ . وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٦). وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٦ .

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ. وقد سلف ٣/٣٣٦ .

(٣) كما سيأتي قريباً.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٣ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) في صحيحه (٢٦٧٤)، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

(٦) برقم (٢٠٥).

(٧) حديث أبي جحيفة ﷺ أخرجه ابن ماجه (٢٠٧)، وحديث جرير ﷺ سلف آنفاً.

(٨) النكت والعيون ٤/٢٧٨. وفي (د) و(م): السنن الحادثة. وفي (ظ): الجارية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوحٍ تسليةً لنبيِّه ﷺ، أي: ابتُلِي النبيون قبلَكَ بالكفار فصبروا. وخصَّ نوحاً بالذكر، لأنَّه أوَّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى أهل[١] الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[٢]. وأنه لم يلقَ نبيٌّ من قومه ما لقيَ نوحُ على ما تقدَّم في «هود» عن الحسن. ورُويَ عن قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوّلُ نبيٍّ أُرسِلَ نوح»[٣] قال قتادة: وبُعِثَ من الجزيرة[٤]. واختُلِفَ في مبلَغِ عمره، فقيل: مبلَغُ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبِثَ فيهم قبل أن يدعوهم ثلاث مئة سنة، ودعاهم ثلاث مئة سنة، ولبِثَ بعد الطوفان ثلاث مئةٍ وخمسين سنة[٥]. وقال ابن عباس: بُعِثَ نوحُ لأربعين سنة، ولبِثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنةً حتى كثُرَ الناس وفشَوا[٦]. وعنه أيضاً: أنه بُعِثَ وهو ابن مئتين وخمسين سنة، ولبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً[٧]، وعاش بعد الطوفان مئتي سنة. وقال وهب: عُمِّرَ نوحُ ألفاً وأربع مئة سنة. وقال كعب الأحبار: لبِثَ نوحُ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين

---

(١) كلمة أهل من (ظ).

(٢) ١١/ ١٢٩ .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٤٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٤٣ . وأخرجه بنحوه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من طريق قتادة أيضاً، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٢) و(١٠٤٧٨) و(١٠٥٠٣).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨ . وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٩٦).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٦١ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٤)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٥ . وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ . وسلف ٩/ ٢٥٩ .

(٧) كلمة عاماً من (ظ).

عاماً، وعاش بعد الطُّوفان سبعين عاماً، فكان مبلَغُ عمره ألفَ سنةٍ وعشرين عاما[١].
وقال عون بن أبي شدَّاد: بُعِثَ نوحٌ وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة، ولبِثَ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الطُّوفان ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغُ عمره ألفَ سنةٍ وستَّ مئة سنة وخمسين سنة[٢]. ونحوه عن الحسن؛ قال الحسن: لمَّا أتى ملَكُ الموت نوحاً ليقبضَ روحه قال: يا نوحُ، كم عشْتَ في الدنيا؟ قال: ثلاث مئةٍ قبل أن أُبعث، وألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً في قومي، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطُّوفان. قال ملَكُ الموت: فكيف وجدتَ الدنيا؟ قال نوح: مثلَ دارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا وخرجتُ من هذا[٣]. ورُوي من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا بَعثَ الله نوحاً إلى قومه بعثَه وهو ابن خمسين ومئتي سنة، فلبثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وبقي بعد الطُّوفان خمسين ومئتي سنة، فلَّما أتاه ملَكُ الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء، ويا طويل العمر، ويا مُجابَ الدعوة، كيف رأيتَ الدنيا؟ قال: مثلَ رجلٍ بُنيَ له بيتٌ له بابان، فدخل من واحدٍ وخرجَ من الآخر» وقد قيل: «دخلَ من أحدهما وجلسَ هُنيهةً، ثم خرج من الباب الآخر»[٤].
وقال ابن الورد[٥]: بَنَى نوحٌ بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيتَ غير هذا. فقال: هذا كثيرٌ لمن يموت[٦]. وقال أبو المهاجر: لبثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسينَ عاماً في بيتٍ من شَعر، فقيل له: يا نبيَّ الله، ابنِ بيتاً. فقال: أموتُ اليوم[٧]، أموتُ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٨). وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ ، وسلف مختصراً ٩/ ٢٥٩ .

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٢٨١ .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٢٩)، وابن عساكر ٦٣/ ٢٨١ .

(٥) في (د) و(م): الوردي، والتصويب من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الصادر، واسمه وهب بن الورد.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٤٥ ، والبيهقي في الشعب (١٠٧٥١)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٧) بعدها في (م) كلمة أو، وهي ليست في النسخ الخطية ولا في المصادر.

غداً[١]. وقال وهب بن مُنبِّه: مرَّتْ بنوحٍ خمسُ مئة سنةٍ لم يقرَبِ النساءَ وَجَلاً من الموت[٢]. وقال مقاتل وجُويبر: إنَّ آدم عليه السلام حين كبِرَ ورقَّ عظمُه قال: يا ربِّ إلى متى أكدُّ وأسعى؟ قال: يا آدم، حتى يولَدَ لكَ ولدٌ مختون. فوُلِدَ له نوحٌ بعد عشرةِ أبطُنٍ، وهو يومئذٍ ابنُ ألف سنةٍ إلاَّ ستين عاماً. وقال بعضهم: إلاَّ أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسمُ نوحٍ السكن. وإنَّما سُمِّي السكن؛ لأنَّ الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم[٣]. ووُلِدَ له سامٌ وحامٌ ويافث، فولَدَ سامٌ العربَ وفارسَ والروم، وفي كل هؤلاء خير، وولَدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربر. ووَلَدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوجَ ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير[٤]. وقال ابن عباس: في ولد سامٍ بياضٌ وأُدمة، وفي ولدِ حامٍ سوادٌ وبياضٌ قليل. وفي ولَدِ يافث ـ وهم الترك والصقالبة ـ الصُّفرةُ والحُمرة. وكان له ولدٌ رابعٌ وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسمِّيه يام[٥]. وسُمِّي نوحٌ نوحاً لأنه ناحَ على قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناحَ عليهم[٦]. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب «التخبير» له: يُروى أنَّ نوحاً عليه السلام كان اسمُه يشكُر، ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه: يا نوح، كم تنوح؟ فسُمِّي نوحاً، فقيل: يا رسول الله، فأيُّ شيءٍ كانت خطيئته؟ فقال: «إنَّه مرَّ بكلبٍ

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٧٥٠)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٩ ، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٢ .

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٢١٨)، وابن عدي ٧/ ٢٧٢٥ من طريق محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. محمد بن يزيد بن سنان وأبوه ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ٦٩ و٤٢٧ .

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٤٠-٤١ عن هشام بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﷺ. هشام بن السائب وأبوه متروكان.

(٦) هو تتمة قول مقاتل وجويبر الآنف الذكر.

فقال في نفسه: ما أقبحَه! فأوحى الله إليه: اخلُقْ أنتَ أحسنَ من هذا». وقال يزيد الرَّقاشي: إنما سُمِّي نوحاً لطول ما ناحَ على نفسه[1]. فإن قيل: فلِمَ قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل: تسع مئة وخمسين عاماً؟ ففيه جوابان: أحدهما ـ أنَّ المقصودَ به تكثيرُ العدد، فكان ذِكرُه الألفَ أكثرَ في اللفظ وأكثرَ في العدد. الثاني ـ ما رُوي أنه أُعطيَ من العمر ألفَ سنة، فوهبَ من عمره خمسين سنةً لبعض ولده، فلمَّا حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر اللهُ تعالى ذلك تنبيهاً على أنَّ النَّقيصةَ كانت من جهته ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جُبير وقتادة: المطر. الضحَّاك: الغرق. وقيل: الموت. روَته عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفناهُمُ طوفانُ موتٍ جارفُ[2]

قال النحَّاس[3]: يُقال لكلِّ كثيرٍ مُطيفٍ بالجميع من مطرٍ أو قتلٍ أو موتٍ: طُوفان.

﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و«أَلْفَ سَنَةٍ» منصوبٌ على الظرف «إِلَّا خَمسِينَ عَامًا» منصوبٌ على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنًى عنه كالمفعول. فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعولٌ مَحْضٌ. كأنَّك قلت: استثنيتُ زيداً[4].

تنبيه ـ روى حسان بن غالب بن نَجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيِّب، عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٢٦) و(١٥٧٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٥١ ، وابن عساكر ٦٢/ ٢٤١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ . وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧١ ، وابن أبي حاتم (١٧٢٠٢). وحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً (١٧١٩٩).

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢١٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٠ و٢٥٢ .

«كان جبريلُ يُذاكرني فَضْلَ عمرَ، فقلتُ: يا جبريلُ، ما بلَغَ فضلُ عمر؟ قال لي: يا محمد، لو لبثتُ معكَ ما لبِثَ نوحٌ في قومه ما بلَغْتُ لكَ فضل عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي، وقال: تفرَّدَ بروايته حسان بن غالب عن مالك، وليس بثابتٍ من حديثه[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء[2]. ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الهاء والألف في «جَعَلنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال الكسائي: «وإبرَّاهيمَ» منصوبٌ بـ«أنجينا» يعني أنه معطوفٌ على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى: وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى: واذكُرْ إبراهيم[4]. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتَّقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من عبادة الأوثان. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5].

---

(١) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك كما في لسان الميزان ٢/ ١٨٩، وتمام الرازي في فوائده (١٤٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ١٣٧-١٣٨ من طريق الفتح بن نصر، عن حسان بن غالب، به. قال الدارقطني: هذا لا يصح عن مالك، وفتح وحسان ضعيفان، وهذا الحديث موضوع.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٣٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ أي: أصناما[١]. قال أبو عبيدة: الصَّنم: ما يُتَّخذُ من ذهبٍ أو من فضةٍ أو نحاس، والوثن: ما يُتَّخذُ من جَصٍّ أو حجارة[٢]. الجوهري: الوثن: الصنم والجمع وُثنٌ وأوثانٌ، مثل أُسُد وآساد[٣]. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال الحسن: معنى «تَخلُقُونَ»: تنحتون[٤]. فالمعنى: إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها[٥]. وقال مجاهد: الإفك: الكذب[٦]. والمعنى: تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب[٧]. وقرأ أبو عبد الرحمن: «وَتخَلَّقُونَ»[٨]. وقُرِئ: «تُخَلِّقُونَ» بمعنى الكثير من خَلَّق و«تَخَلَّقُونَ» من تخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرَّص. وقُرِئ: «أفِكًا» وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب، والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفةً على فَعِل أي خَلِقاً أفِكًا، أي: ذا إفكٍ وباطل[٩]. و«أوثَانًا» نُصِبَ بـ«تَعبُدُونَ» و«ما» كافة. ويجوز في غير القرآن رفعُ أوثانٍ على أن تُجعَلَ «ما» اسماً؛ لأنَّ و«تَعبُدُونَ» صِلتُه، وحُذفتِ الهاء لطول الاسم، وجُعِلَ أوثان خبر إنَّ. فأمّا «وتَخلُقُونَ إفكًا» فهو منصوبٌ بالفعل لا غير[١٠]. وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾أي: اصرفوا رغبتَكم في أرزاقكم إلى الله، فإيَّاه فاسألوه وحدَه دون غيره.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ . ونسبه في زاد المسير ٦/ ٢٦٤ إلى مقاتل. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢١٠) عن قتادة.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١١٤ مختصراً.

(٣) الصحاح (وثن).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥ ، والمحتسب ٢/ ١٦٠ وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، والشاذة ص١١٤ وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب وابن الزبير، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١ وزاد نسبتها إلى عون العقيلي وقتادة وابن أبي ليلى.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٠١ . وقراءة: «تُخلِّقون» لم نقف عليها عند غير المصنِّف، وهي قراءة شاذة. وقراءة: «أفِكًا» في المحتسب ٢/ ١٦٠ عن فضيل بن مرزوق وابن الزبير، والشاذة ص١١٤ عن ابن الزبير.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢-٢٥٣ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول[١] إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ قراءةُ العامَّة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لِذكْرِ الأمم، كأنه قال: أوَلَم يرَ الأممُ كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثَّاب وحمزة والكسائي: «ترَوْا» بالتاء خطاباً؛ لقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾[٢]. وقد قيل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ خطابٌ لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى: أوَ لَم يروا كيفَ يُبدِئُ اللهُ الثمارَ فتحيا، ثم تفنى، ثم يُعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولدِ ولداً، وكذلك سائر الحيوان. أي: فإذا رأيتم قدرتَه على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له: كُنْ فيكون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: سيروا في الأرض

---

(١) في (م): قوله. والمثبت من النسخ الخطية.

(٢) قراءة حمزة والكسائي وأبو بكر في المشهور عنه عن عاصم في السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتِهم وتفاوتِ هيئاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكم؛ لتعلموا بذلك كمالَ قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين[١]، وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشِبْهِه[٢]. الجوهري: أنشأه اللهُ خلقَه، والاسم النَّشأة، والنَّشاءة بالمدِّ عن أبي عمرو بن العلاء[٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بفضله. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتُرَدُّون[٤].

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفرَّاء: معناه: ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله. وهو غامضٌ في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني، وهو كقول حسان[٥]:

فَمَنْ يَهْجو رسولَ اللهِ منكم ... ويَمْدحُهُ ويَنْصرُهُ سَواءُ

أرادَ: ومَنْ يمدحه وينصره سواء، فأضمرَ مَنْ[٦]. وقاله عبد الرحمن بن زيد[٧]. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: مَنْ له. والمعنى: إنَّ الله لا يُعجِزُه أهلُ الأرض في الأرض ولا أهلُ السماءِ إن عَصَوه. وقال قُطْرُب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتُني فلانٌ بالبصرةِ ولا هاهنا، بمعنى: لا يفوتني بالبصرة لو صارَ إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١.

(٣) الصحاح (نشأ).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤.

(٥) في ديوانه ص٦٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢.

السماء[١]. وقال المبرِّد: والمعنى: ولا مَنْ في السماء، على أنَّ مَنْ ليست موصولةً ولكن تكون نكرةً، و«في السَّمَاءِ» صفةً لها، فأُقيمتِ الصفةُ مقام الموصوف. وردَّ ذلك عليُّ بن سليمان، وقال: لا يجوز. وقال: إنَّ مَنْ إذا كانت نكرةً فلابُدَّ مِنْ وَصْفِها، فصِفَتُها كالصِّلة، ولا يجوز حذفُ الموصولِ وتركُ الصلة؛ قال: والمعنى: إنَّ الناسَ خُوطبوا بما يعقلون، والمعنى: لو كنتم في السماء ما أعجزتُمُ الله، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨][٢]. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ويجوز «نَصِيرٌ» بالرفع على الموضع، وتكون «مِن» زائدة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: من الجنة، ونسبَ اليأسَ إليهم والمعنى: أُويِسوا. وهذه الآيات اعتراضٌ من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتَّفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: من إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرِقْه بعد ما أُلقِيَ فيها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾.

وقراءة العامة: «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و «أنْ قَالُوا» في محلِّ الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار: «جَوَابُ» بالرفع إلى أنه اسم «كان» و«أنْ» في موضع الخبر نصباً[٣].

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ». وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «مَوَدَّةُ

---

(١) قول قطرب وما بعده في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٢ . ونسبة قراءة الرفع إلى عمرو بن دينار لم نقف عليها إلا عند المصنف، وهي قراءة شاذة.

بَيْنِكُمْ»[(١)]. والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثَّاب والأعمش: «مَوَدَّةٌ بَينَكُم»[(٢)]. الباقون. «مَوَدَّةَ بَينَكُم». فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه، ذكر الزجَّاج منها وجهين: أحدهما ـ أنَّ المودة ارتفعت على خبر إنَّ، وتكون «ما» بمعنى الذي. والتقدير: إنَّ الذي اتَّخذتموه من دون الله أوثاناً مودَّةُ بينِكم. والوجه الآخر: أن يكون على إضمار مبتدأ، أي: هي مودَّةُ، أو تلك مودَّةُ بينِكم. والمعنى: آلهتكم أو جماعتكم مودَّةُ بينِكم[(٣)]. قال ابن الأنباري: «أوثاناً» وقفٌ حسنٌ لمن رفعَ المودَّةَ بإضمار ذلك مودَّة بينكم، ومن رفعَ المودَّةَ على أنها خبرُ إنَّ لم يقف[(٤)]. والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون «مَوَدَّةُ» رفعا بالابتداء و«فِي الحيَاةِ الدُّنيَا» خبره؛ فأما إضافة «مَوَدَّةُ» إلى «بَيْنَكُم» فإنه جعل «بَينَكُم» اسماً غير ظرف، والنَّحويُّون يقولون: جعله مفعولاً على السَّعة. وحكى سيبويه: يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار. ولا يجوز أن يُضافَ إليه وهو ظرف؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذِكْرُها. ومن رفعَ «مَوَدَّةٌ» ونوَّنَها فعلى معنى ما ذكر، و«بَيْنَكُم» بالنصب ظرفاً[(٥)]. ومن نصب «مَوَدَّةَ» ولم ينوِّنْها جعلها مفعولةً بوقوع الاتخاذ عليها، وجعل «إنَّما» حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي[(٦)]. ويجوز نصبُ المودَّة على أنه مفعولٌ من أجله، كما تقول: جئتُكَ ابتغاءَ الخير، وقصدتُ فلاناً مودَّةً له. «بينكم» بالخفض[(٧)]. ومن نوَّن «مَوَدَّةً» ونصبها فعلى ما ذُكِرَ «بَيْنَكُم»

---

(١) السبعة ص٤٩٨-٤٩٩، والتيسير ص١٧٣ .

(٢) رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم في الشاذة ص١١٥ ، والمشهور في رواية أبي بكر عن عاصم: «مودَّةَ بينَكم»، وهي قراءة نافع وابن عامرٍ أيضاً. السبعة ص٤٩٩ ، والتيسير ص١٧٣ . قلنا: وقد نسب ابن الجوزي تلك القراءة الشاذة في زاد المسير ٦/ ٢٦٧ إلى ابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة وابن أبي عبلة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٧ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ . وقول سيبويه في الكتاب ١/ ١٧٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ .

بالنصب من غير إضافة[١]. قال ابن الأنباري: ومن قرأ: «مَوَدَّةٌ بينَكُمْ» و«مَوَدَّةُ بينِكُمْ» لم يقف على الأوثان، ووقفَ على «الحياة الدنيا»[٢]. ومعنى الآية: جعلتُم الأوثانَ تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عُبَّادها والرؤساء من السَّفلة[٣]، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].
﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هو خطابٌ لعبَدةِ الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولُوطٌ أوَّلُ مَنْ صدَّق إبراهيمَ حين رأى النارَ عليه برداً وسلاماً[٤]. قال ابن إسحاق: آمنَ لوطٌ بإبراهيمَ وكان ابنَ أخته، وآمنت به سارَّة وكانت بنتَ عمِّه[٥]. ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قال النَّخعيُّ وقتادة: الذي قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ هو إبراهيم عليه السلام[٦]. قال قتادة: هاجر من كوثا وهي قريةٌ من سواد الكوفة إلى حرَّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة[٧]. قال الكلبي: هاجر من أرض حرَّان إلى فلسطين، وهو أول من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٥.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٥.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.

وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لوطٌ عليه السلام[١]. ذكر البيهقيُّ عن قتادة قال: أوَّلُ مَنْ هاجر إلى الله عزَّ وجلَّ بأهله عثمان بن عفان ﷺ. قال قتادة: سمعتُ النَّضرَ بن أنس يقول: سمعتُ أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعهُ رقيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرُهم، فقَدِمتِ امرأةٌ من قريش فقالت: يا محمد، رأيتُ خَتنكَ ومعه امرأتُه. قال: «على أيِّ حالٍ رأيتِهما؟» قالت: رأيتُه وقد حملَ امرأتَه على حمارٍ من هذه الدَّبَّابة[٢] وهو يسوقُها، فقال رسول الله ﷺ: «صحِبَهُما الله، إنَّ عثمانَ لأوّلُ مَنْ هاجر بأهلِه بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مَبعثِ رسول الله ﷺ[٣]. ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني[٤]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم. وتقدَّم الكلامُ في الهجرة في «النساء»[٥] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: مَنَّ الله عليه بالأولاد، فوهبَ له إسحاق ولداً ويعقوبَ ولدَ ولدٍ. وإنما وهبَ له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يبعثِ اللهُ نبيًّا بعد إبراهيم إلاَّ من صُلبه. ووحّدَ الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارةٌ عن الجمع، فالتوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والفرقان على محمدٍ من ولده ﷺ وعليهم أجمعين[٦]. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤ .

(٢) أي: الضِّعاف التي تدِبُّ في المشي ولا تسرع. النهاية (دبب).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٩٧ . والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)، والأوائل (١٢٦)، والآحاد والمثاني (١٢٣) و(٢٩٧٨)، والطبراني (١٤٣) من طريق بشار بن موسى الخفاف، عن الحسن ابن زياد البرجمي، عن قتادة، به. قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٨١ : فيه الحسن بن زياد البرجمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات! قلنا: وبشار بن موسى قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف، كثير الغلط، كثير الحديث.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٦٨ .

(٥) ٧/ ٦٧ فما بعد.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٥٥ بنحوه. وما بين حاصرتين منه.

﴿ٱلدُّنْيَا﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه. قاله عكرمة. وروى سفيان عن حُميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جُبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ فقال عكرمة: أهل الملل كلّها تدَّعيه وتقول: هو مِنَّا. فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٢] أي: عاقبةً وعملاً صالحاً وثناءً حسناً. وذلك أنَّ أهل كلِّ دينٍ يتولَّونه[١]. وقيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ أكثرَ الأنبياء من ولده[٢]. ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس ﴿فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ داخلاً في الصِّلة وإنما هو تبيين[٣] وقد مضى في «البقرة»[٤] بيانُه. وكلُّ هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدِّينِ الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الكسائي: المعنى: وأنجينا لوطاً، أو:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٨١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤-٢٥٥ .

(٤) ٢/ ٤٠٦ .

أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحبُّ إليَّ[١]. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبِّخاً أو مُحذِّراً: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تقدَّم القراءة في هذا وبيانُها في سورة «الأعراف»[٢]. وتقدَّم قصة لوطٍ وقومِه في «الأعراف»[٣] و«هود»[٤] أيضاً.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قُطَّاعَ الطريق. قال ابن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة. حكاه ابن شجرة. وقيل: إنه قَطْعُ النَّسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن مُنبِّه. أي: استغنوا بالرجال عن النساء[٥].

قلتُ: ولعلَّ الجميعَ كان فيهم، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي: المجلس. واختُلِفَ في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخذِفون الناس[٦] بالحصى، ويستَخِفُّون بالغريب والخاطر عليهم[٧]. ورونْه أمُّ هانئ عن النبيِّ ﷺ؛ قالت أمُّ هانئ: سألتُ رسول الله ﷺ عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذِفون مَنْ يمرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[٨]، وذكره النحَّاس والثعلبي والمهدي والماوردي[٩]. وذكر الثعلبي:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥.

(٢) ٩/ ٢٧٨.

(٣) ٩/ ٢٧٣ فما بعد.

(٤) ١١/ ١٧٣ فما بعد.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨٢

(٦) في (د) و(م): النساء. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥.

(٨) (١٦١٧)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠) من طريق سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ، به. إسناده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، واسمه باذام، ويقال: باذان.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠، والنكت والعيون ٥٤/ ٢٨٢ ولم يسُق لفظه.

وقال معاوية قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قومَ لوطٍ كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كلِّ رجلٍ قصعةٌ فيها الحصى للخذف، فإذا مرَّ بهم عابرٌ قذفوه، فأيُّهم أصابَه كان أولى به» يعني: يذهَبُ به للفاحشة، فذلك قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾. وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بَزَّة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم[١]. وقال منصور عن مجاهد[٢]: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضُهم يرى بعضاً[٣]. وعن مجاهد: كان من أمرهم لعبُ الحمام، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، والصَّفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم. قال ابن عطية[٤]: وقد توجد هذه الأمور في بعض عُصاةِ أمة محمدٍ ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرةٌ من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، وحلُّ الإزار، وتنقيض الأصابع[٥]، والعمامةُ التي تُلَفُّ حول الرأس، والتشابك، ورميُ الجُلاهِق[٦]، والصفير، والخذف، واللُّوطية[٧]. وعن ابن عباس قال: إنَّ قوم لوطٍ كانت فيهم ذنوبٌ غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتُم بعضُهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالنَّرد والشِّطرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالدِّيَكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحِنَّاء، وتتشبُّه الرجالُ بلباس النساء، والنساءُ بلباس الرجال، ويضربون المكوسَ على كلِّ عابر، ومع هذا كلِّه كانوا يشركون بالله، وهم أوَّلُ مَنْ ظهر على أيديهم اللُّوطيةُ

---

(١) أخرجه الطبري ٨/ ٣٨٩ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٢) عن عائشة، وابن أبي حاتم (١٧٢٧٣) عن القاسم بن محمد، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و (ظ): وقال مجاهد ومنصور. والمثبت من (م) والمصادر.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٩١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٤)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٤٧).

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ ، وما قبله منه.

(٥) أي: فرقعتها. الصحاح (فرقع).

(٦) أي: البندق الذي يرمى. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٣ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٤٦٦ مختصراً.

والسِّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللَّجاج فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: إنَّ ذلك لا يكون ولا يقدِرُ عليه. وهم لم يقولوا هذا إلاَّ وهم مصمِّمون على اعتقاد كَذِبه. وليس يصِحُّ في الفطرة أن يكون معاندٌ يقول هذا. ثم استنصر لوطٌ عليه السلام ربَّه، فبعثَ عليهم ملائكةً لعذابهم، فجاؤوا إبراهيمَ أوّلاً مبشِّرين بنصرة لوطٍ على قومه حسبما تقدَّم بيانُه في «هود»[1] وغيرها.

وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُنْجِينَّه وأهلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إنَّا مُنْجُوكَ وأهلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وهما لغتان: أنْجى ونَجَّى بمعنى. وقد تقدَّم[2]. وقرأ ابن عامر: ﴿إنَّا مُنزِّلونَ﴾ بالتشديد، وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف[3]. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أُبقيت[4]. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يُرجَمُ بها قومٌ من هذه الأمة[5]. وقال ابن عباس: هي آثارُ منازلهم الخَرِبة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض[6]. وكلُّ ذلك باقٍ فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدَّم

---

(١) ١١/ ١٨٥.

(٢) ٨/ ٤١٣.

(٣) السبعة ص٥٠٠، والتيسير ص٩٠ و١٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٩. وقرأ خلف وهو من العشرة: «لننجينه» و«مُنجوك» بالتخفيف.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٣٩٧، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٩٤).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٥.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٥٨.

ذِكرُهم وفسادُهم في «الأعراف»[١] و«هود»[٢].

﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال يونس النَّحوي[٣]: أي: اخشوا الآخرةَ التي فيها الجزاء على الأعمال[٤]. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تكفروا فإنه أصلُ كلِّ فساد. والعُثُوُّ والعِثيُّ أشدُّ الفساد. عَثِيَ يَعثَى وعَثَا يَعثُو بمعنى واحد[٥]. وقد تقدَّم[٦]. وقيل: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: صدِّقوا به، فإنَّ القوم كانوا يُنكرونه.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجعٌ إلى أوَّل السورة، أي: ولقد فتنَّا الذين من قبلهم وفتنَّا عاداً وثمود. قال: وأحبُّ إليّ أن يكون معطوفاً على «فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجَّاج أن التقدير: وأهلكنا عاداً وثموداً[٧]. وقيل: المعنى: واذكُرْ عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذَّبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذَّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا معشر الكفار ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ بالحِجْرِ والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم، فَحُذِفَ فاعلُ التبيُّن[٨]. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة.

---

(١) ٩/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) ١١/ ١٩١-١٩٧.

(٣) هو يونس بن يحيى بن نباتة القرشي المدني، وهو من رواة الحديث، توفي سنة ٢٠٦هـ الكاشف ٢/ ٤٠٤.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٩ عن مقاتل.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٥٠.

(٦) ٩/ ٢٦٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٨.

(٨) الوسيط ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧١-٢٧٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٦٠ بنحوه.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق[١]. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة. قاله مجاهد. والثاني ـ كانوا مستبصرين قد عرفوا الحقَّ من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنَّه إنَّما يُقال: فلانٌ مستبصِرٌ إذا عرف الشيء على الحقيقة[٢]. قال الفرَّاء[٣]: كانوا عقلاءَ ذَوي بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبيَّنَ لهم أن عاقبتَهم العذاب[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ﴾ قال الكسائي: إن شئتَ كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وصدَّ قارونَ وفِرعونَ وهامان[٥]. وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن الحقِّ وعن عبادة الله.

﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي: فائتين[٦]. وقيل: سابقين في الكفر[٧]. بل قد سبقهم للكفر قرونٌ كثيرةٌ فأهلكناهم. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾ قال الكسائي: «فَكُلًّا» منصوبٌ بـ«أخَذْنَا»[٨] أي: أخذنا كُلًّا بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٧.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

والحاصب: ريحٌ يأتي بالحصباء وهي الحصى الصِّغار[١]. وتُستعمل في كلِّ عذاب. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون[٢]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلَهم وبعثَ إليهم الرسل وأزاح العذر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ وقفٌ تام، ثم قصَّ قِصَّتَها فقال: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنَّ «اتَّخذَتْ بَيتاً» صلةٌ للعنكبوت، كأنه قال: «كمثل التي اتخذت بيتاً»، فلا يَحسُنُ الوقفُ على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] فيحمل صلةٌ للحمار، ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفرَّاء: هو مثلٌ ضربَه الله سبحانه لمنِ اتَّخذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضرُّه؛ كما أنَّ بيتَ العنكبوت لا يقيها حرًّا ولا برداً. ولا يَحسُنُ الوقفُ على العنكبوت؛ لأنه لمَّا قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشُبِّهتِ الآلهةُ التي لا تنفع ولا تضرُّ به[٣].

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت[٤] ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الضحاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٨. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٨.

ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبَّهها ببيت العنكبوت[١]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لَوْ» متعلقةٌ ببيت العنكبوت. أي: لو علموا أنَّ عبادة الأوثان كاتِّخاذِ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأنَّ هذا مثَلُهم لَمَا عبدوها، لا أنَّهم يعلمون أنَّ بيت العنكبوت ضعيف[٢]. وقال النُّحاة: إنَّ تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع. وهي مؤنثة، وحكى الفرَّاءُ تذكيرها وأنشد:

علـى هَـطَّـالِـهِـمْ مـنـهـم بُـيـوتٌ كـأنَّ الـعـنـكـبـوتَ قـدِ ابـتـنـاهـا[٣]

ويُروى:

علـى أهـطـالـهـم مـنـهـم بـيـوتٌ

قال الجوهري: والهَطَّال: اسم جبل[٤]. والعنكبوت: الدُّوَيِّبَةُ المعروفةُ التي تنسج نسجاً رقيقاً مُهلهلاً بين الهواء[٥]. ويُجمع عناكِيب وعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأعكُب. وقد حُكِيَ أنه يُقال: عَنكَب[٦] وعَكَنْبَاة[٧]؛ قال الشاعر:

كـأنَّـمـا يَـسـقـطُ مـن لُـغَـامِـهـا[٨] بـيـتُ عَـكَـنْـبَـاةٍ عـلـى زِمَـامِـهـا

وتُصغَّر فيقال: عُنَيكِب[٩]. وقد حُكي عن يزيد بن مَرْثد[١٠] أنَّ العنكبوت شيطانٌ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩ بنحوه.

(٣) من قوله: وهي مؤنثة.... إلى نهاية البيت من إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ . وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ .

(٤) الصحاح (هطل)، وما قبله منه.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٧) وهي في لغة أهل اليمن فيما نقل الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ عن الليث.

(٨) أي: زبدها. الصحاح (لغم).

(٩) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ .

(١٠) في النسخ: يزيد بن ميسرة، وهو تحريف.

مسخها الله تعالى[١]. وقال عطاء الخراساني: نسجَتِ العنكبوتُ مرتين مرةً على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرةً على النبيِّ ﷺ؛ ولذلك نهى عن قتلها[٢]. ويُروى عن عليٍّ ﷺ أنه قال: طهِّروا بيوتكم من نَسْجِ العنكبوت، فإنَّ تركَه في البيوت يُورِثُ الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤]، و«مِنْ» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى[٥]، والمعنى: إنَّ الله يعلم ضِعْفَ ما يعبدون من دونه.

وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: «يَدْعُونَ» بالياء، وهو اختيار أبي عبيد؛ لذِكْرِ الأممِ قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ أي: هذا المثل وغيره مما ذُكِرَ في «البقرة»[٧] و«الحج»[٨] وغيرهما ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ نُبيِّنُها ﴿لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ أي: يفهمها ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي: العالمون بالله، كما روى جابرٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «العالمُ مَنْ عقَلَ عن الله، فعمِلَ بطاعتِه، واجتنب سخَطَه»[٩].

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية بن الوليد، عن الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه». إسناده منقطع، وبقية مدلس وقد عنعن فيه، والوضين سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه». وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك، قال ابن عدي: وعامة أحاديثه غير محفوظة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٣) دون قوله: ولذلك نهى عن قتلها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٨ دون قوله: ومنع الخمير يورث الفقر.

(٤) البيان ٢/ ٢٤٥ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٦) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ ، والنشر ٢/ ٣٤٣ .

(٧) ١/ ٣٦٥ .

(٨) ١٤/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨ . والحديث أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل فيما ذكر الزيلعي في =

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: علامةً ودلالةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمرٌ بالتلاوة[1] والدُّؤوب عليها. وقد مضى في «طه»[2] الوعيدُ فيمن أعرضَ عنها، وفي مقدِّمة الكتاب[3] الأمرُ بالحضِّ عليها. والكتاب يُراد به القرآن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ وأمَّتِه، وإقامةُ الصلاة أداؤها في أوقاتها بقوامتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهُّدها وجميع شروطها. وقد تقدَّم بيانُ ذلك في «البقرة»[4] فلا معنى للإعادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يريدُ: إنَّ

= تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ٤٣ ، وأخرجه من طريقه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣٧)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٢٠ . وداود بن المحبر متروك فيما قاله الدارقطني في الضعفاء والمتروكين ١/ ٢٠٢ . ونقل ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢١٩ عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أخر.

(١) في (د) و(م): من التلاوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) ١٤/ ١٥٧ .

(٣) ١/ ٦ فما بعد.

(٤) ١/ ٢٥٣ فما بعد.

الصلاة الخمس هي التي تكفِّر ما بينها من الذنوب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتُم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ هل يبقى من دَرَنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء. قال: «فذلِكَ مَثَلُ الصلواتِ الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا» خرَّجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[(١)]. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن[(٢)]. والمعنى: الذي يُتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين»[(٣)] يريد قراءةَ الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُريج والكلبي: العبدُ مادامَ في صلاته لا يأتي فحشاءَ ولا منكراً، أي: إنَّ الصلاةَ تنهى ما دمتَ فيها. قال ابن عطية[(٤)]: وهذه عُجمةٌ، وأينَ هذا ممَّا رواه أنس بن مالك قال: كان فتًى من الأنصار يُصلِّي مع النبيِّ ﷺ ولا يدَعُ شيئاً من الفواحش والسرقة إلَّا رَكِبَه، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ الصلاةَ ستنهاه» فلم يلبَثْ أن تابَ وصلحت حالُه، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقُلْ لكم؟»[(٥)].

وفي الآية تأويلٌ ثالث، وهو الذي ارتضاه المحقِّقون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون، فقيل: المرادُ بـ«أقِمِ الصَّلاةَ» إدامتُها والقيامُ بحدودها، ثم أخبر حُكماً منه بأنَّ الصلاة تنهى صاحبَها وممتثِلَها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لِما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغَلُ كلَّ بدن المصلِّي، فإذا دخل

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٦٨). وأخرجه أحمد (٨٩٢٤)، والبخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩-٣٢٠ .

(٣) وقد سلف ١/ ١٤٥-١٤٦ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ وما قبله منه، وقول حماد بن أبي سليمان أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٤٦).

(٥) لم نقف على من أخرجه من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٧٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق! قال: «إنه سينهاه ما تقول».

المصلِّي في محرابه وخشعَ وأخبَتَ لربِّه وادَّكر أنه واقفٌ بين يديه، وأنه مُطَّلعٌ عليه ويراه، صلُحَتْ لذلك نفسُه وتذلَّلت، وخامَرها ارتقابُ الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتُها، ولم يكَدْ يفتر من ذلك حتى تُظِلَّه صلاةٌ أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأنَّ صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلتُ: لاسيما وإن أشعر نفسَه أنَّ هذا ربما يكون آخرَ عمله، وهذا أبلَغُ في المقصود وأتَمُّ في المراد؛ فإنَّ الموت ليس له سِنٌّ محدود، ولا زمنٌ مخصوص، ولا مرضٌ معلوم، وهذا مما لا خلافَ فيه. ورُوِيَ عن بعض السلف أنه كان إذا قام على الصلاة ارتعد واصفَرَّ لونُه، فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقفٌ بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الموت؟! فهذه صلاةٌ تنهى ولابُدَّ عن الفحشاء والمنكر، ومَنْ كانت صلاتُه دائرةً حول الإجزاء، لا خشوعَ فيها ولا تذكُّرَ ولا فضائل، كصلاتنا ـ وليتَها تُجزئ ـ فتلك تترك صاحبَها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقةِ معاصٍ تُبعده من الله تعالى تركَتْه الصلاةُ يتمادى على بعده. وعلى هذا يُخرَّج الحديثُ المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم: مَنْ لم تنْهَه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم تَزِده من الله إلاَّ بُعداً[(١)]. وقد رُوِيَ أنَّ الحسنَ أرسله عن النبي ﷺ وذلكَ غيرُ صحيح السند[(٢)]. قال ابن عطية[(٣)]: سمعت أبي ﷺ

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص١٩٩ ، والطبري ١٨/ ٤٠٩ ، والطبراني (٨٥٤٣)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٤) عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٠٨ عن ابن عباس ﷺ. والطبري ١٨/ ٤١٠ عن الحسن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨ ، والطبري ١٨/ ٤٠٩ ، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٢) عن الحسن مرفوعاً.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٣٩) من طريق عمر بن أبي عثمان، عن الحسن، عن عمران بن حصين مرفوعاً. عمر بن أبي عثمان مجهول، والحسن لم يسمع من عمران. المراسيل ص٤٠ .

وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣٤٠)، والطبراني (١١٠٢٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٠٩) من طريق ليث ـ وهو ابن أبي سليم ـ عن طاوس، عن ابن عباس مرفوعاً. ليث ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٠ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩ ، وما قبله وما بعده منه.

يقوله، فإذا قرَّرنا ونُظِرَ معناه فغيرُ جائزٍ أن يقول: إنَّ نفسَ صلاةِ العاصي تُبعِدُه من الله حتى كأنَّها معصية، وإنما يتخرَّج ذلك على أنها لا تؤثِّر في تقريبه من الله، بل تتركُه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبُعد، فلم تزِدْه الصلاةُ إلاَّ تقريرَ ذلك البُعدِ الذي كان بسبيله[1]؛ فكأنَّها بعَّدته حين لم تَكُفَّ بُعدَه عن الله. وقيل لابن مسعود: إنَّ فلاناً كثيرُ الصلاة. فقال: إنها لا تنفعُ إلاَّ مَنْ أطاعها[2].

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزِدْه من الله إلاَّ بُعداً، ولم يزدَدْ بها من الله إلاَّ مقتاً» إشارةٌ إلى أنَّ مرتكبَ الفحشاء والمنكر لا قَدرَ لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها، وقيل: هو خبرٌ بمعنى الأمر. أي: لِينتَهِ المصلِّي عن الفحشاء والمنكر. والصلاةُ بنفسها لا تنهى، ولكنَّها سببُ الانتهاء، وهو كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذِكْرُ الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبرُ من ذِكرِكم له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرَّة وسلما والحسن[3]، وهو اختيار الطبري[4]. ورُويَ مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذكرِكم إيَّاه»[5]. وقيل: ذِكْرُكم

---

(١) في (م): سبيله، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، والطبري ٨/ ٤٠٨-٤٠٩، وابن أبي حاتم (١٧٣٤٢)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٣).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠، وقول ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، وأحمد في الزهد ص٢٦٧، والطبري ١٨/ ٤١٤. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤١١-٤١٤، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٠) و(١٧٣٥٢)، والحاكم ٢/ ٤٠٩. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤١٣-٤١٤ عن أبي الدرداء، و١٨/ ٤١٤ عن أبي قرة، و١٨/ ٤١٣ عن سلمان والحسن.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٤١٧.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠. وأخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٦.

الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضلُ من كلِّ شيء[١]. وقيل: المعنى: إنَّ ذِكْرَ الله أكبرُ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر[٢]. وقال الضحَّاك: ولَذِكرُ الله: عند ما يُحرِمُ فيتركُ أجَلَّ الذِّكر. وقيل: المعنى ولذِكرُ الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر، أي: كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير[٣]. وقال ابن زيد وقتادة: ولَذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ شيءٍ، أي: أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر[٤]. وقيل: ذِكرُ الله يمنع من المعصية، فإنَّ مَنْ كان ذاكراً له لا يُخالِفه[٥]. قال ابن عطية[٦]: وعندي أنَّ المعنى: ولَذِكرُ الله أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأنَّ الانتهاء لا يكون إلَّا من ذاكرِ اللهَ مراقبٍ له. وثوابُ ذلك أنْ يذكره اللهُ تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم»[٧] والحركات التي في الصلاة لا تأثيرَ لها في نهي، والذِّكرُ النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغِه إلاَّ من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبةٍ أخرى. وذِكرُ الله تعالى للعبد هو إفاضةُ الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرةٌ لذكر العبد ربَّه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وباقي الآية ضَرْبٌ من الوعيد والحثِّ على المراقبة.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٥، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٩ بمعناه.

(٦) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٧) سلف ١٤/ ٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ فقال مجاهد: هي مُحكمةٌ فيجوز مجادلةُ أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عزَّ وجلَّ، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ معناه: ظلموكم، وإلاَّ فكلُّهم ظَلَمةٌ على الإطلاق[1]. وقيل: المعنى: لا تجادلوا مَنْ آمن بمحمدٍ ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلاَم ومَنْ آمن معه[2]. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يريد به مَنْ بقي على كفره منهم، كمنْ كفرَ وغدرَ من قريظة والنَّضِير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخةٌ بآية القتال؛ قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٨]. قاله قتادة[3].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨][4] فهؤلاء المشركون[5]. قال النحّاس وغيره: من قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠-٣٢١. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٤٦).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٢٣ عن مجاهد.

(٥) بعدها في النسخ عبارة: «في سقوط الجزية فانتصروا» ولم نتبيَّنها.

هي منسوخة، احتجَّ بأنَّ الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتالٌ مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقولُ مجاهدٍ حسن؛ لأنَّ أحكام الله عزَّ وجلَّ لا يُقال فيها: إنها منسوخةٌ إلاَّ بخبرٍ يقطع العذر، أو حُجَّةٍ من معقول[1]. واختار هذا القول ابن العربي[2]. قال مجاهد وسعيد بن جُبير: وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ معناه: إلاَّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يُعطوا الجزية[3].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاري[4] عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم وقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦]». وروى عبد الله بن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تُكذِّبوا بحقٍّ، وإمَّا أن تُصدِّقوا بباطل»[5]. وفي البخاري[6]: عن حُمَيد ابن عبد الرحمن سمع معاويةَ يُحدِّث رهطاً من قريشٍ بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدِّثين الذين يُحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كُنَّا مع ذلك لَنَبلُو عليه الكذب.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٦ دون قوله: «ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض» فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥ من غير نسبة.

(٤) في صحيحه (٤٤٨٥)، وقد سلف ٢/ ٤١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٢) و(١٩٢١٢)، والطبري ١٨/ ٤٢٣ من طريق حريث بن ظهير، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً. وحريث بن ظهير مجهول. قلنا: وقد رُوي مرفوعاً كما في مسند أحمد (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

(٦) في صحيحه (٧٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الضمير في «قَبْلِهِ» عائدٌ إلى الكتاب، وهو القرآن المُنَزَّل على محمد ﷺ، أي: وما كنتَ يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليكَ في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنتَ ممَّن يقرأُ كتاباً، ويَخطُّ حروفاً ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلَّق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أميٌّ لا يكتبُ ولا يقرأُ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ لا يخُطُّ ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية[١]؛ قال النحَّاس[٢]: دليلاً على نبوَّتِه لقريش؛ لأنَّه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهلَ الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالتِ الرِّيبةُ والشَّكُّ.

الثانية: ذكر النقَّاش في تفسير هذه الآية عن الشَّعبي أنه قال: ما ماتَ النبيُّ ﷺ حتى كتب[٣]. وأسندَ أيضاً حديثَ أبي كَبشة السَّلُولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفةً لعُيينَةَ[٤] بن حِصن، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية[٥]: وهذا كلُّه ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البراء في صلح الحديبية أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعلي: «اكتُبِ الشَّرطَ بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنَّكَ رسولُ الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١-٣٢٢ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه البيهقي ٧/ ٤٢-٤٣ وقال: هذا حديث منقطع، وفي رواية جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٩).

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢ ، والمسألة كلها منه.

ولكن اكتُبْ: محمدُ بن عبد الله. فأمرَ عليًّا أن يمحوَها، فقال عليٌّ: والله لا أمحاه. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانَها» فأراه، فمحاها وكتب: ابن عبد الله[1]. قال علماؤنا ﷺ: وظاهر هذا أنه عليه الصلاة والسلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله - ﷺ - بيده، وكتب مكانها: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهرَ من هذا، فقال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ الكتابَ فكتب[2]. وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب[3]. فقال جماعةٌ بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذرّ والباجي، ورأوا أنَّ ذلك غيرُ قادحٍ في كونه أُميًّا، ولا مُعارِضٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ولا لقوله: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب»[4] بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلكَ أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنَّما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوطٌ مفهومُها ابنُ عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة، كما أنه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ الأوَّلين والآخرين من غير تعلُّمٍ ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغَ في معجزاته، وأعظمَ في فضائله. ولا يزول عنه اسمُ الأميِّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسنُ أن يكتب[5]. فبقي عليه اسمُ الأميِّ مع كونه قال: كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثيرٌ من متفقِّهة الأندلس وغيرهم، وشدَّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليلٌ على عدم العلوم النظرية، وعد التوقُّفِ في تكفير المسلمين، ولم يتفطَّنوا؛ لأنَّ تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيح[6]، لاسيما

---

(١) صحيح مسلم (١٧٨٣). وهو في مسند أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سلف ٢/ ٢١٦.

(٥) في المفهم ٣/ ٦٣٧-٦٣٨، وما قبله منه، يعني من قوله: وظاهر هذا أنه....

(٦) أخرجه أحمد (١٦٣٨٥)، والبخاري (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعاً بلفظ: «من رمى مؤمناً بكفرٍ فهو كقتله».

رميُ مَنْ شهِدَ له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة، على أنَّ المسألة ليست قطعية، بل مستندُها ظواهِرُ أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يُحيلها، وليس في الشريعة قاطعٌ يُحيلُ وقوعَها.

قلتُ: وقال بعض المتأخِّرين: مَنْ قال: هي آيةٌ خارقة، فيقال له: كانت تكون آيةً لا تُنكرُ لولا أنَّها مناقضَةٌ لآيةٍ أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب، وبكونه أميًّا في أمَّةٍ أميَّةٍ قامت الحجج، وأُفحِمَ الجاحدون، وانحسمتِ الشُّبهة، فكيف يُطلِقُ الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنَّما الآيةُ ألاَّ يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفَعُ بعضُها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم، أي: أمرَ مَنْ يكتبُ به من كُتَّابه، وكان من كَتبةِ الوحي بين يديه ﷺ ستةٌ وعشرون كاتباً[١].

الثالثة: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «ألقِ الدَّواةَ، وحرِّفِ القلَمَ، وأقِم الباءَ، وفرِّقِ السينَ، ولا تُعوِّرِ الميمَ، وحَسِّنِ الله، ومُدَّ الرحمنَ، وجَوِّدِ الرحيم»[٢] قال القاضي: وهذا وإن لم تصحَّ الروايةُ أنه ﷺ كتبَ فلا يَبعُدُ أن يُرزَقَ عِلمُ هذا، ويُمنعَ القراءةَ والكتابة[٣].

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجَّى. فإن قيل: فقد تهجَّى النبيُّ ﷺ حين ذكر الدجَّال فقال: «مكتوبٌ بين عينيه: ك ا ف ر»[٤] وقلتُم: إنَّ المعجزة قائمةٌ في كونه أميًّا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ الآية، وقال: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب

---

(١) الروض الأنف ٤/ ٣٦.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٥/ ٣٩٤. وأخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١٧٠ من طريق الوليد بن مسلم، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن معاوية ﷺ. الوليد بن مسلم يدلس التسوية ولم يصرح بالتحديث في كل طبقات الإسناد. ومكحول لم يسمع من معاوية فيما ذكر ابن أبي حاتم في المراسيل ص١٦٦.

(٣) المسألة في الشفا ١/ ٧٠٢-٧٠٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٠٤)، والبخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ﷺ.

ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصَّ عليه رسول الله ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، ففي حديث حذيفة: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغيرِ كاتب»[١] فقد نصَّ في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أميًّا. وهذا من أوضح ما يكون جليًّا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعمَ الفرَّاء في قراءة عبد الله: «بَلْ هيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» المعنى: بل آياتُ القرآن آياتٌ بيِّنات. قال الحسن: ومثله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ [الأعراف:٢٠٣] ولو كانت هذه لجاز، نظيره: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف:٩٨][٢] قال الحسن: أُعطيتْ هذه الأمة الحِفظ، وكان مَنْ قبلها لا يقرؤون كتابَهم إلاَّ نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلاَّ النبيُّون، فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماءُ علماءُ، وهم في الفقه أنبياء[٣]. ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحرٌ أو شعر، ولكنه علاماتٌ ودلائلُ يُعرَفُ بها دينُ اللهِ وأحكامُه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمدٍ ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميَّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا[٤]. وهذا اختيار الطبري[٥]. ودليلُ هذا القول قراءةُ ابن مسعود

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٣٤): (١٠٥).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧ ، وقراءة عبد الله هذه شاذة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ بنحوه.

(٥) في تفسيره ١٨/ ٤٢٧ .

وابن السَّمَيفَع: «بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ»[١] وكان عليه الصلاة والسلام آياتٍ لا آيةً واحدة؛ لأنه دلَّ على أشياءَ كثيرةٍ من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بيِّنات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوَّته وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه: هلاَّ أُنزِلَ عليه آيةٌ كآيات الأنبياء[٢]. قيل: كما جاء صالحٌ بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى[٣]، أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: «آيةٌ» بالتوحيد. وجمع الباقون[٥]. وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا جوابٌ

---

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٣ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ .

(٤) الوسيط ٣/ ٤٢٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٧٩ .

(٥) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٦) وردَّ هذا الاختيار أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٥ .

لقولهم: «لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ»[١]. أي: أوَ لم يكفِ المشركين من الآيات هذا الكتابُ المعجزُ الذي قد تحدَّيتَهُم بأن يأتوا بمثله و بسورةٍ منه، فعجزوا، ولو أتيتَهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحرٌ ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدورٌ لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقيل: إنَّ سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَينة عن عَمرو بن دينار عن يحيى ابن جَعدة قال: أُتيَ النبيُّ ﷺ بكتفٍ فيه كتاب، فقال: «كفى بقومٍ ضلالةً أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى ما جاء به نبيٌّ غيرُ نبيِّهم أو كتابٌ غيرُ كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميُّ في «مسنده»[٢]. وذكره أهل التفسير في كتبهم[٣]. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر ﷺ: «لو كان موسى بن عمران حيًّا لَما وسِعَه إلاَّ اتِّباعي»[٤] وفي مثله قال ﷺ: «ليس مِنَّا منْ لم يَتغَنَّ بالقرآن»[٥] أي: يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية[٦]. وإذا كان لقارِئهِ بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب، فالرغبة عنه إلى غيره ضلالٌ وخُسرانٌ وغُبنٌ ونقصان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمةً في

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢.

(٢) (٤٧٨)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٤٥٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٨٠). وإسناده مرسل.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٣٣، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٥٤١، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٧٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

وأخرجه أيضاً بنحوه (١٥٨٦٤) من حديث عبد الله بن ثابت ﷺ، وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف أيضاً.

(٥) سلف ١/ ٢١.

(٦) إنما هو تأويل سفيان بن عيينة فيما نقل عنه البخاري في صحيحه عقب الحديث (٥٠٢٤).

الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قُلْ للمكذِّبين لكَ: كفى بالله شهيداً يشهدُ لي بالصدق فيما أدَّعِيه من أني رسولُه، وأنَّ هذا القرآنَ كتابُه[(٢)].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاجٌ عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد أقرُّوا بعلمه فلزمهم أن يُقِرُّوا بشهادته. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قال يحيى بن سلاَّم: بإبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام. قاله ابن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: لتكذيبهم برسله، وجَحْدِهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ لمَّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عَجِّلْ لنا هذا العذاب. وقيل: إنَّ قائل ذلك النَّضر بن الحارث وأبو جهل حين قالا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ابن عباس: يعني: هو ما وعدتُك ألاَّ أُعذِّبَ قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة. بيانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩ .

[القمر:٤٦]. وقال الضحَّاك: هو مدَّة أعمارهم في الدنيا[١]. وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى. قاله يحيى بن سلاّم[٢]. وقيل: الوقت الذي قدَّره الله لهلاكهم وعذابهم. قاله ابن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر[٣]. وعلى الجملة فلكلِّ عذابٍ أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. دليله قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: الذي استعجلوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون بنزوله عليهم[٤]. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك وقد أعدَّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء:٩٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متَّصلٌ بما هو قبله، أي: يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم[٥]. وإنما قال: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة، وإلَّا فالغشيان من فوق أعَمُّ، كما قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدا[٦]

وقال آخر:

لقد كان قَوَّادَ الجيادِ إلى العِدا ... عليهنَّ غابٌ من قَنًى ودروعِ[٧]

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١، وقول الضحاك في الوسيط ٣/ ٤٢٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٠ عن الثعلبي.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.

(٦) هذا صدر بيت عجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. وقد سلف ١/ ٢٩١.

(٧) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص٤١٠، وفيه: الوغى بدل العدا.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة: «نَقُولُ» بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول: «ذُوقُوا» والقراءتان ترجع إلى معنى. أي: يقول الملَكُ بأمرنا: ذوقوا[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بِسَعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُتَلمَّسَ عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده[2]، أي: إن كنتم في ضيقٍ من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها[3]. وقال ابن جُبير وعطاء: إنَّ الأرض التي فيها الظلمُ والمنكرُ تترتَّبُ فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك[4]. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا[5]. وقال مُطرِّف[بن عبد الله] بن الشِّخِّير: المعنى: إنَّ رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إنَّ رزقي لكم واسعٌ فابتغوه في الأرض[6]. قال سفيان الثوري: إذا كنتَ بأرضٍ غاليةٍ

---

(١) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ . وينظر الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ . وذكر مقاتل والكلبي من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٩١ . والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨١ . وما بين حاصرتين من تلك المصادر.

فانتقِلْ إلى غيرها تملأُ فيها جِرابَكَ خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إنَّ أرضي التي هي أرض الجنة واسعة. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها[1]. ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ «إيَّايَ» منصوبٌ بفعلٍ مضمر، أي: فاعبدوا إيَّايَ فاعبدون، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: «فَإيَّايَ» بمعنى الشرط[2]، أي: إنْ ضاقَ بكم موضعٌ فإيَّايَ فاعبدوني [في غيره][3]؛ لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[4]. وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأنَّ بعض المؤمنين نظر في عاقبةٍ تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أن يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقَّرَ اللهُ شأن الدنيا. أي: أنتم لا مَحالةَ ميِّتون ومحشورون إلينا، فالبِدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[5]. وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن مُحيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: «يا عِبادِي» بإسكان الياء. وفتحها الباقون[6]. «إنَّ أرْضِي» فتحَها ابن عامر، وسكَّنها الباقون[7].

ورويَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو قيدَ شبرٍ استوجبَ الجنة، وكان رفيقَ محمد وإبراهيم» عليهما السلام[8].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٢-١٧٣.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ٥/ ٤٤٧ فما بعده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤.

(٦) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في السبعة ص٥٠١-٥٠٢، وقراءتهم وقراءة يعقوب وخلف وهما من العشرة في النشر ٢/ ١٧٠.

(٧) السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢، والكشاف ٣/ ٢١٠، وقد سلف ٧/ ٦٤.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقرأ السُّلميُّ وأبو بكر عن عاصم: «يُرْجَعُونَ» بالياء؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[(١)] وأنشد بعضهم:

المـوتُ فـي كـلِّ حيـنٍ يَنشـدُ الكَفنَـا ... ونـحـنُ فـي غـفـلـةٍ عَـمَّـا يُـرادُ بِـنـا
لا تَـركـنـنَّ إلـى الـدُّنـيـا وزَهـرتِـهـا ... وإنْ تـوشَّـحْـتَ مـن أثـوابِـهـا الـحَـسـنـا
أيـنَ الأحـبـةُ والـجـيـرانُ مـا فَـعَـلُـوا ... أيـنَ الـذيـن هُـمُـو كـانـوا لـهـا سَـكَـنـا
سقَـاهُـمُ الـمـوتُ كـأسـاً غـيـرَ صـافـيـةٍ ... صيَّـرهـم تـحـتَ أطـبـاقِ الـثَّـرَى رُهُـنـا

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُثْوِينَّهم﴾ بالثاء مكان الباء من الثُّويِّ: وهو الإقامة[(٢)]، أي: لَنُعطينَّهم غُرفاً يثوون فيها[(٣)]. وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسُّلمي: «لَيُبَوئنَّهُمْ» بالياء مكان النون[(٤)]. الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لَنُنزِلَنَّهم ﴿غُرَفًا﴾[(٥)] جمع غرفة وهي العُلِّيَّة المُشرِفة[(٦)]. وفي «صحيح مسلم»[(٧)] عن سعيد الخدري[(٨)] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لَيتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لِتفاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلُغُها غيرُهم. قال: «بلى،

---

(١) قراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ دون ذكر الأعمش. وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٤) المشهور عن يعقوب: لنبوِّئَنَّهم. النشر ٢/ ٣٤٤ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٦) الصحاح (غرف).

(٧) (٢٨٣١). وأخرجه البخاري (٣٢٥٦).

(٨) في النسخ: سهل بن سعد، والتصويب من الصحيحين.

والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين». وخرَّج التِّرمذي[1] عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لَغُرفاً يُرى ظهورُها من بطونِها وبطونُها من ظهورِها» فقام إليه أعرابيٌّ فقال: لِمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «هي لمن أطابَ الكلام، وأطعمَ الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى للهِ بالليلِ والناسُ نِيام» وقد زِدْنا هذا المعنى بياناً في كتاب «التذكرة»[2] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أسند الواحديُّ عن يزيد بن هارون قال: حدَّثنا الجرَّاح[3] بن المِنهال، عن الزُّهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطَّاف[4] ـ عن عطاء، عن ابن عمر قال: خرَجْنا مع رسول الله ﷺ حتى دخلَ بعضَ حيطان الأنصار، فجعلَ يلتقط من الثمر [ويأكل] فقال: «يا ابن عمر، مالَكَ لا تأكل؟» فقلتُ: لا أشتهيه يا رسول الله. فقال: «لكنِّي أشتهيه، وهذه صبيحةُ رابعةٍ لم أذُقْ طعاماً، ولو شئتُ لَدَعوتُ ربي فأعطاني مثلَ ملك كسرى وقيصر، فكيف بِكَ يا ابن عمر إذا بقيتَ في قوم يُخبِئون رزقَ سَنَتهم ويَضْعُفُ اليقين» قال: واللهِ ما بَرِحْنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5].

قلت: وهذا ضعيفٌ يُضعِفه أنه عليه الصلاة والسلام كان يدَّخِرُ لأهله قوتَ

---

(١) في سننه (١٩٨٤) و(٢٥٢٧)، وهو في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (١٣٣٨).

(٢) ص٤٦١-٤٦٤ .

(٣) في النسخ: حجاج، والتصويب من المصادر.

(٤) في النسخ: عبد الرحيم بن عطاء، وفي أسباب النزول: عبد الرحمن بن عطاء، وفي الوسيط: عبد الرحيم بن عطاف، والتصويب من تهذيب التهذيب ٢/ ٥٣٤ ، وثقات ابن حبان ٧/ ٧٠ .

(٥) أسباب النزول ص٣٥٨-٣٥٩ ، والوسيط ٣/ ٤٢٥ ، وما بين حاصرتين منهما. وأخرجه ـ أيضاً ـ عبد بن حميد (٨١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٧١٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ ١٢٧ من طريق يزيد بن هارون، به. إلا أنهم قالوا: عن رجل، بدل: عطاء. والجراح بن منهال متروك. ميزان الاعتدال ١/ ٣٩٠ . وعبد الرحمن بن عطاف مجهول الحال، تفرد بالرواية عنه اثنان، ولم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل.

سَنَتِهم. اتَّفق عليه البخاري ومسلم[١]. وكانت الصحابةُ يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهلُ اليقين والأئمةُ لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة وهاجِروا ولا تجاوروا الظَّلَمة» قالوا: ليس لنا بها دارٌ ولا عقارٌ ولا مَنْ يُطعِمُنا ولا مَنْ يسقينا. فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[٢] أي: ليسَ معها رزقُها مُدَّخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة[٣]. وهذا أشبهُ من القول الأوَّل. وتقدَّم الكلامُ في «كَأَيِّنْ» وأنَّ هذه «أيّ» دخلت عليه كاف التشبيه وصارَ فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد. أي: كشيءٍ كثيرٍ من العدد من دابة[٤]. قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدَّخِرُ لغد[٥]. وقيل: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تقدِرُ على رزقها[٦] ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أينما توجَّهت ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾[٧]. وقيل: الحملُ بمعنى الحَمالة[٨]. وحكى النقَّاش: أنَّ المُرادَ النبيُّ ﷺ يأكلُ ولا يدَّخر[٩].

قلت: وليس بشيء؛ لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملاً في العُرفِ إطلاقُها على الآدميِّ فكيف على النبيِّ ﷺ. وقد مضى هذا في «النمل» عند قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [الآية: ٨٢]. قال ابن عباس: الدوابُّ: هو كلُّ

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٥٧)، وصحيح مسلم (١٧٥٧) (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٤ بنحوه.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٩ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٧٧ .

(٧) زاد المسير ٦/ ٢٨٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥ .

(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣ .

ما دبَّ من الحيوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رِزقَه ولا يَدَّخِرُ إلاَّ ابنُ آدم والنملُ والفأر[١]. وعن بعضهم: رأيتُ البلبل يحتكر في مِحضَنِه. ويُقال: للْعَقْعَقِ مَخابئ إلاَّ أنه ينساها[٢]. ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ يسوِّي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتَّر الجَلِدُ أنه مرزوقٌ بجَلَده، ولا يتصوَّرَ العاجزُ أنه ممنوعٌ بَعجزِه[٣]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّكم تَوَكَّلون على الله حقَّ تَوكُّلِه لَرزَقَكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً»[٤]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائِكم وقولِكم: لا نجِدُ ما نُنفِقُ بالمدينة ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية. لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حقٍّ لم تكونوا فقراء. وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال: إنْ هاجرنا لم نجِدْ ما نُنفِقُ. أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيفَ تشكُّون في الرزق، فمَنْ بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد؛ ولهذا وصلَه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لا يختلف أمرُ الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣.

(٤) سلف ٧/ ٢٩٧ و١٠/ ١٥٩.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٣، وزاد المسير ٦/ ٢٨٣.

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليمٌ بما يُصلحكم من إقتارٍ أو توسيع.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جَدْبِها وقَحْطِ أهلها. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: فإذا أقررتُم بذلك فلِمَ تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين، فكرَّرَ تأكيداً. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أوضح من الحُججِ والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يتدبَّرون هذه الحجج. وقيل: «الحَمْدُ للهِ» على إقرارهم بذلك[1]. وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض.

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيءٌ يلْهَى به ويُلعَب. أي: ليس ما أعطاه اللهُ الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحِلُّ ويزول، كاللعب الذي لا حقيقةَ له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لكَ لم تبْقَ لها. وأنشد:

تروحُ لنا الدنيا بغيرِ الذي غَدَتْ ... وتَحدُثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجري الليالي باجتماعٍ وفُرقَةٍ ... وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغُورُ
فمن ظنَّ أنَّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ ... فذاكَ مُحالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللهُ عمَّن صَيَّرَ الهمَّ واحداً ... وأيقنَ أنَّ الدائراتِ تَدُورُ

قلت: وهذا كلُّه في أمور الدنيا والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوَّةُ على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ما ابتُغيَ به ثوابه ورضاه. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

موتَ فيها[١]. وزعم أبو عبيدة: أنَّ الحيوانَ والحياةَ والحيَّ ـ بكسر الحاءِ ـ واحدٌ، كما قال:

وقـد تـرى إذِ الـحـيـاةُ حِـيُّ

وغيره يقول: إنَّ الحِيَّ جمعٌ على فِعول مثل عِصي[٢]. والحيوان يقع على كلِّ شيءٍ حيٍّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصلُ حَيَوان حَييان، فأُبدِلَتْ إحداهُما واواً؛ لاجتماع المثلين[٣]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: صادقين في نيَّاتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها[٤]. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يدعون معه غيره، وما لم يُنزِّل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقولَ قائلُهم: لولا اللهُ والرئيسُ أو الملاَّحُ لَغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمةً بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قيل: هما لام كي، أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شِركهم أن يجحدوا نِعَم الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمرٍ معناه التهديد والوعيد[٥]. أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتَّعوا. ودليل هذا قراءة أُبيٍّ: «وتَمَتَّعُوا»[٦].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٩-٢٦٠، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٧، والرجز للعجاج كما في اللسان (حيا) وتتمته: وإذ زمان الناس دغفليُّ.

(٣) المحكم لابن سيده (حي).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٤، وهي قراءة شاذة.

ابن الأنباري: ويقوّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: ﴿ولْيتمتَّعوا﴾ بجزم اللام. النحاس: «وَلِيتَمَتَّعُوا» لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأنَّ أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ: ﴿ولْيتمتَّعوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها[١]. وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام[٢]. وقرأ أبو العالية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»[٣] تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمَّنهم الله تعالى فيها. ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً[٤]. والخطف: الأخذ بسرعة. وقد مضى في «القصص»[٥] وغيرها. فأذكرهم الله عزَّ وجلَّ هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة. أي: جعلتُ لهم حرماً آمناً أمِنوا فيه من السَّبي والغارة والقتل، وخلَّصتُهم في البر كما خلصتُهم في البحر، فصاروا يُشركون في البرِّ ولا يُشركون في البحر. فهذا تعجُّبٌ من تناقض أحوالهم.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفبالشرك. وقال يحيى بن سلاَّم: أفبإبليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس: أفبعافية الله. وقال ابن شجرة: أفبعطاءِ الله وإحسانه.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠ .

(٢) السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٣) الشاذة ص١١٥ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤ .

(٥) ١٦/ ٢٩٩ .

وقال ابن سلاّم: أفبما جاء به النبيُّ ﷺ من الهدى. وحكى النقَّاش: أفبإطعامهم من جوعٍ، وأمنهم من خوفٍ يكفرون. وهذا تعجُّبٌ وإنكارٌ خرج مخرج الاستفهام[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ جعلَ مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ قال يحيى بن سلاّم: بالقرآن. وقال السُّدِّي: بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمدٍ ﷺ[٢]. وكلُّ قول يتناول القولين. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مستقر. وهو استفهام تقرير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار فينا. أي: في طلب مرضاتنا. وقال السُّدِّيُّ وغيره: إنَّ هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العُرفي، وإنما هو جهادٌ عامٌّ في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن ابن أبي الحسن: الآية في العُبَّاد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ علَّمه اللهُ ما لم يعلم»[٤] ونزع بعضُ العلماء إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العلم بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهادُ في الآية قتالَ الكفار فقط، بل هو نصرُ الدين، والردُّ على المبطلين، وقمعُ الظالمين، وعُظْمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر. وقال

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٨٢.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

سفيان بن عُيَينة لابن المبارك: إذ رأيتَ الناسَ قدِ اختلفوا فعليكَ بالمجاهدين وأهل الثغور، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحَّاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سُبُلَ الثبات على الإيمان[1]. ثم قال: مثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقبى، مَنْ دخل الجنة في العُقبى سَلِمَ، كذلك مَنْ لَزِمَ السُّنَةَ في الدنيا سَلِمَ. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سُبُلَ ثوابنا[2]. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميعَ الأقوال، ونحوُه قولُ عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة: مَنْ طلبني فلم يجدْني فليطلُبْني في موضعين: أن يعمل بأحسنَ ما يعلَمُه، ويجتنبَ أسوأ ما يعلَمُه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: طريق الجنة. قاله السُّدِّيُّ. النقَّاش: يوفِّقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى: لنُخْلِصنَّ نيَّاتِهم وصدقاتِهم وصلَواتِهم وصيامَهم[3].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لامُ تأكيدٍ، ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسماً، ولامُ التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأنَّ فيها معنى الاستقرار، كما تقول: إنَّ زيداً لفي الدار. و«مَعَ» إذا سُكِّنتْ فهي حرفٌ لا غير. وإذا فُتِحتْ جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثرُ أن تكون حرفاً جاء لمعنى[4]. وتقدَّم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»[5] وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنُّصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيَّتين بَونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

---

(١) من بداية الآية إلى هنا من المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٥ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠ .

(٥) ٣/ ٢٦٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكيةٌ كلُّها من غير خلاف[1]، وهي ستون آية[2]

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ روى الترمذيُّ عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: لمَّا كان يوم بدرٍ ظهرتِ الرومُ على فارسٍ، فأَعجَبَ ذلك الْمُؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ . بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قال: فَفَرِحَ المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. هكذا قرأ نصرُ بن عليٍّ الجَهْضَمِيُّ «غَلَبَتِ الرُّومُ»[3]. ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتمَّ منه. قال ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: غَلَبَتْ وغُلِبَتْ؛ قال: كان المشركون يُحِبُّون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ أوثان، وكان المسلمون يُحِبُّون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهلُ كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكرٍ لرسول الله ﷺ، فقال: «أما إنهم سيَغلِبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتُم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذُكِرَ ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٥.

(٣) سنن الترمذي (٣١٩٢). وهذه القراءة شاذة، وسيوردها المصنف قريباً عن أبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

للنبيِّ ﷺ فقال: «ألا جَعَلْتَه إلى دون» ـ أراه قال: العشر ـ قال: قال أبو سعيد: والبِضْعُ ما دون العشرة. قال: ثم ظهرتِ الرومُ بعدُ. قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾. قال سفيان: سمعتُ أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[1]. ورواه أيضاً عن نِيار بن مُكْرَمٍ الأسْلَميِّ قال: لمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وكان فارسُ يومَ نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يُحِبُّون ظهورَ الروم عليهم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريشٌ تُحِبُّ ظهورَ فارسَ؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزل اللهُ هذه الآية خرج أبو بكرٍ الصدِّيقُ ﷺ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾. قال ناسٌ من قريشٍ لأبي بكر: فذلكَ بيننا وبينكم، زعم صاحبكم[2] أنَّ الرومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضع سنين! أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهن أبو بكرٍ والمشركون وتواضعوا الرِّهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ؟ البِضْعُ ثلاثُ سنينَ إلى[3] تسعِ سنين، فَسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فَسمَّوا بينهم ستَّ سنين. قال: فمضَتِ السِّتُ سنينَ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر، فلما دخلتِ السنةُ السابعةُ ظهرتِ الرومُ على فارس، فعابَ المسلمون على أبي بكر تسميةَ سِتِّ سنين. قال: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ قال: وأسلم عند ذلك ناسٌ كثير. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[4]. وروى القُشَيْرِيُّ وابن عطية وغيرهما: أنه لـمَّا نزلتِ الآياتُ خرجَ أبو بكرٍ بها إلى المشركين فقال: أَسَرَّكُم أن

---

(١) سنن الترمذي (٣١٩٣).

(٢) في النسخ: صاحبك. والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في النسخ: أو. والمثبت من سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٩٤).

غُلبتِ الروم؟ فإنَّ نبيَّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال له أُبيُّ ابن خلف وأُميَّةُ أخوه ـ وقيل: أبو سفيان بن حرب ـ: يا أبا فَصِيل[١] ـ يُعرِّضون بكنيته بالبَكر[٢] ـ فلْنَتَنَاحَبْ ـ أي: نتراهن في ذلك، فراهنهم أبو بكر. قال قتادة: وذلك قبل أن يُحرَّم القمار، وجعلوا الرِّهان خمسَ قلائِصَ، والأجلَ ثلاث سنين. وقيل: جعلوا الرِّهان ثلاثَ قلائِصَ. ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: «فهلَّا احتطْتَ، فإنَّ البِضْعَ ما بين الثلاث إلى التسع[٣] والعشر، ولكنِ ارجِعْ فزِدْهم في الرِّهانِ واستزِدْهم في الأجل» ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائصَ مئةً، والأجلَ تسعةَ أعوام، فغلبتِ الرومُ في أثناء الأجل[٤]. وقال الشَّعبيُّ: فظهروا في تسع سنين[٥]. القشيريُّ: المشهور في الروايات أنَّ ظهورَ الروم كان في السابعة من غَلَبَةِ فارس للروم، ولعلَّ روايةَ الشَّعبي تصحيفٌ من السبع إلى التسع من بعض النَّقَلة. وفي بعض الروايات: أنه جعل القلائِصَ سبعاً إلى تسع سنين. ويقال: إنه آخر فتوحِ كسرى أبروِيز فَتَحَ فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار، فأُخبِرَ رسولُ الله ﷺ فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وحكى النقَّاش وغيره: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ لمَّا أراد الهجرة مع النبيِّ ﷺ تعلَّقَ به أُبيُّ بن خلف وقال له: أعطني كفِيلاً بالخَطَرِ[٦] إن غلَبتُ. فكفِلَ به ابنُه عبد الرحمن[٧]، فلمَّا أراد أُبيٌّ الخروجَ إلى أُحدٍ طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه

(١) والفصيل: ولد الناقة إذا فُصل عن أمه. الصحاح (فصل).

(٢) في (ظ): بكنية أبا بكر، وفي (م): بكنيته يا أبا بكر. والمثبت من (د) و(ز) والمحرر الوجيز.

(٣) في (ظ) و(م): والتسع، والمثبت من (د) و(ز)، وكذلك وقع في رواية الترمذي (٣١٩١) من حديث ابن عباس ﷺ، ولم يذكر: والعشر. قلنا: والقول في أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر هو قول قتادة والأصمعي فيما ذكر النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٣٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ دون قوله: جعلوا الرهان ثلاث قلائص. والقلائص جمع قلوص: وهي الناقة الشابة. الصحاح (قلص).

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠١ .

(٦) أي: بالسبق الذي يُتراهن عليه. الصحاح (خطر).

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

كفيلاً، ثم مات أُبيٌّ بمكة من جرحٍ جرحَه النبيُّ ﷺ، وظهرتِ الرومُ على فارس يوم الحديبية على رأسِ تسع سنينَ من مُناحبتهم. وقال الشَّعبيُّ: لم تمضِ تلكَ المدَّةُ حتى غلبتِ الرومُ فارسَ، وربطوا خيلَهم بالمدائن، وبنَوا رومِيَة؛ فقَمَر[1] أبو بكرٍ أُبَيًّا، وأخذ مالَ الخَطَرِ من وَرَثَتِه، فقال له النبيُّ ﷺ: «تصدَّق به» فتصدَّق به[2].

وقال المفسِّرون: إنَّ سببَ غَلَبةِ الرومِ فارسَ امرأةٌ كانت في فارسَ لا تلِدُ إلَّا الملوكَ والأبطال، فقال لها كسرى: أُريدُ أن أستعمل أحدَ بنيكِ على جَيشٍ أُجهِّزُه إلى الروم. فقالت: هذا هُرْمُز أرْوَغُ من ثعلب، وأحذَرُ من صقر، وهذا فَرُّخان أحَدُّ من سِنان، وأنفَذُ من نَبْل، وهذا شهربزان أحلَمُ من كذا، فاخْتَرْ. قال: فاختار الحليم وولَّاه، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر على الروم. وقال عكرمة وغيره: إن شهربزان لمَّا غلبَ الرومَ خرَّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان: لقد رأيتني جالساً على سريرِ كسرى، فكتب كسرى إلى شهربزان أن[3] أرسل إليَّ برأس فَرُّخان. فلم يفعل، فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعملتُ عليكم فَرُّخان، وعزلتُ شهربزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولي أن يقتل شهربزان، فأراد فَرُّخان قتل شهربزان، فأخرج له شهر بزان ثلاثَ صحائف من كسرى يأمره بقتل فَرُّخان، فقال شهربزان لفَرُّخان: إنَّ كسرى كتبَ إليَّ أن أقتُلَكَ ثلاث صحائف وراجعتُه أبداً في أمرك، أفتقتلني أنت بكتابٍ واحد؟! فرَدَّ المُلْكَ إلى أخيه، وكتب شهربزان إلى قيصر ملك الروم، فتعاونا على كسرى، فغلبتِ الرومُ فارس ومات كسرى، وجاء الخبر إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية، ففرح مَنْ معه من المسلمين، فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض الشام. عكرمة: بأذْرِعات[4]، وهي ما بين بلاد

(١) أي: غلب. الصحاح (قمر).

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ .

(٣) كلمة أن من (د) و(ز).

(٤) من قوله: وقال عكرمة وغيره... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧ .

العرب والشام. وقيل: إنَّ قيصر كان بعثَ رجلاً يُدعى يُحنَّس، وبعث كسرى شهربزان، فالتقيا بأذرِعاتَ وبصرى، وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم. مجاهد: بالجزيرة، وهو موضعٌ بين العراق والشام. مقاتل: بالأردنّ وفلسطين[١]. و«أدنى» معناه أقرب[٢]. قال ابن عطية: فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس[٣] في قوله:

تنوَّرْتُها من أذْرِعاتَ وأهلُها بيثرِبَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم. فلمَّا طرأ ذلك وغلبتِ الرومُ سُرَّ الكفارُ، فبشَّرَ اللهُ عباده بأنَّ الرومَ سيغْلِبون وتكونَ الدُّولةُ لهم في الحرب.

وقد مضى الكلام في فواتح السور. وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة: «غَلَبَتِ الرُّومُ» بفتح الغين واللام[٤]. وتأويلُ ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانتِ الروم غلبت، فعزَّ ذلك على كفار قريش، وسُرَّ بذلك المسلمون، فبشَّرَ اللهُ تعالى عباده أنهم سيغْلِبون أيضاً في بضع سنين. ذكر هذا التأويل أبو حاتم[٥]. قال أبو جعفر النحَّاس: قراءة أكثر الناس: «غُلِبت الروم» بضمِّ الغين وكسر اللام. ورُويَ عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا «غَلَبَتِ الروم» وقرأا: «سيُغلبون»[٦]. وحكى أبو حاتم أنَّ عِصْمة روى عن هارون أنَّ هذه قراءة أهل الشام، وأحمد بن حنبل يقول: إنَّ عِصْمةَ هذا ضعيف، وأبو حاتم كثيرُ الحكاية عنه، والحديث يدلُّ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ دون قوله: إن قيصر... والعجم.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٧ .

(٣) في ديوانه ص ٣١ ، وقد سلف ٣/ ٣٣٢ .

(٤) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما. وقد سلفت قريباً عن نصر بن علي الجهضمي.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٦) قراءة: «سيُغلبون» في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

على أنَّ القراءة «غُلِبتْ» بضَمِّ الغين، وكان في هذا الإخبار دليلٌ على نبوَّة محمدٍ ﷺ؛ لأنَّ الروم غلبَتْها فارس، فأخبر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمداً ﷺ أنَّ الرومَ ستغلِبُ فارسَ في بضع سنين، وأنَّ المؤمنين يفرحون بذلك؛ لأن الرومَ أهلُ كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عزَّ وجلَّ به مما لم يكن[1]، وأمر أبا بكرٍ أن يُراهنهم على ذلك وأن يُبالِغَ في الرهان، ثم حُرِّم الرِّهانُ بعدُ، ونُسِخَ بتحريم القِمار[2]. قال ابن عطية[3]: والقراءةُ بضمِّ الغين أصحُّ، وأجمع الناس على «سيغلِبون» أنه بفتح الياء، يُراد به الروم. ويُروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضمِّ الياء في «سيغلِبون»، وفي هذه القراءة قلبٌ للمعنى الذي تظاهرتِ الرواياتُ به. قال أبو جعفر النحَّاس[4]: ومن قرأ: «سيُغلبون» فالمعنى عنده: وفارسُ من بعدِ غَلَبِهم ـ أي: من بعد أن غَلَبوا ـ سيُغلبون.

ورُوِيَ أنَّ إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديثِ الترمذيّ، ورُويَ أنَّ ذلك كان يوم الحُديبِية، وأنَّ الخبرَ وصلَ يوم بيعة الرِّضوان. قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية[5]: وفي كلا اليومين كان نصرٌ من الله للمؤمنين. وقد ذكر الناسُ أنَّ سببَ سرورِ المسلمين بغَلبة الرومِ وهمِّهم أن تُغلَبَ إنَّما هو أنَّ الرومَ أهلُ كتابٍ كالمسلمين، وفارس من أهل الأوثان كما تقدَّم بيانُه في الحديث. قال النحَّاس[6]: وقولٌ آخر وهو أولى: أنَّ فَرَحَهم إنَّما كان لإنجاز وعدِ الله تعالى؛ إذ كان فيه دليلٌ على النبوَّة؛ لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين، فكان فيه. قال ابن عطية[7]: ويُشبه أن يُعلَّلَ ذلك بما يقتضيه النظرُ من محبة أن

---

(١) بعدها في (م) كلمة «علموه» وهي ليست في النسخ ولا في إعراب القرآن.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٣ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ ، وما قبله منه.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

يغلِبَ العدوُّ الأصغر؛ لأنه أيسرُ مؤونةً، ومتى غلبَ الأكبرُ كثُرَ الخوفُ منه. فتأمَّل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذي بعثَه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملكٍ يستأصله ويُريحهم منه.

وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأنَّ جبريل أخبر بذلك النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوم بدر. حكاه القُشَيْرِيُّ.

قلت: ويَحتمِلُ أن يكون سرورُهم بالمجموع من ذلك، فسُرُّوا بظهورهم على عدوِّهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله.

وقرأ أبو حَيْوَة الشاميُّ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «من بعد غَلْبِهم» بسكون اللام[١]، وهما لغتان، مثل الظَّعْن والظَّعَن.

وزعم الفرَّاء أنَّ الأصل «من بعد غلبتهم» فحُذِفت التاءُ كما حُذفتْ في قوله عزَّ وجلَّ: «وَإِقَامِ الصَّلَاةِ» وأصلُه: وإقامة الصلاة. قال النحَّاس: وهذا غلط لا يُخِيل على كثيرٍ من أهل النحو؛ لأنَّ «إقام الصلاة» مصدرٌ قد حُذِفَ منه لاعتلالِ فعله، فجُعِلَتِ التاءُ عوضاً من المحذوف، و«غلب» ليس بمعتَلٍّ ولا حُذِفَ منه شيء. وقد حكى الأصمعِيُّ: طَرَدَ طَرَدًا، وجَلَبَ جَلَبًا، وحَلَبَ حَلَبًا، وغَلَبَ غَلَبًا، فأيُّ حذفٍ في هذا، وهل يجوز أن يُقالَ في أَكَلَ أَكْلاً وما أشبَهه: حُذِفَ منه[٢]؟

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ حُذِفَتِ الهاءُ من «بِضع» فرقاً بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في سورة «يوسف»[٣]. وفُتِحَتِ النونُ من «سِنِينَ» لأنه جمعٌ مُسَلَّم. ومن العرب من يقول في «بضع سنين» كما يقول في «غِسلِين». وجاز أن يُجمعَ سنة جَمعَ من يعقِلُ بالواو والنون والياء والنون؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها شيءٌ فجُعِلَ هذا الجمعُ عِوَضاً من النقص الذي في واحده؛ لأنَّ أصل «سنة» سنهة أو سنوة، وكُسِرَتِ السينُ

(١) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٩.

(٣) ١١/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

منه دلالةً على أنَّ جمعَه خارجٌ عن قياسه ونمطه. هذا قول البصريين. ويلزم الفرَّاءُ أن يضُمَّها؛ لأنه يقول: الضمةُ دليلٌ على الواو وقد حُذِفَ من سنة واوٌ في أحد القولين، ولا يضُمُّها أحدٌ علِمناه[1].

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأنَّ ما في العالم من غلَبةٍ وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إنفاذ الأحكام. ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: مِنْ قبلِ هذه الغلَبةِ ومِنْ بعدِها[2]. وقيل: من قبلِ كلِّ شيءٍ ومن بعد كلِّ شيءٍ[3]. و﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ظرفان بُنيا على الضمِّ، لأنَّهما تعرَّفا بحذفِ ما أُضيفا إليهما، وصارا مُتضمَّنين ما حُذِفَ، فخالفا تعريفَ الأسماء، وأشبَها الحروفَ في التضمين فبُنيا، وخُصَّا بالضمِّ لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكِّر وأُضيفَ زالَ بناؤه، وكذلك هما فَضُمَّا[4].

ويقال: «من قبلٍ ومِن بعدٍ»، وحكى الكسائيُّ عن بعضِ بني أسد: «لِلهِ الْأَمْرُ مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضين بغير تنوين، والثاني مضمومٌ بلا تنوين. وحكى الفرَّاء: «مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضتين بغير تنوين. وأنكره النحَّاسُ وردَّه. وقال الفرَّاء في كتابه: في القرآن أشياءُ كثيرة، الغلطُ فيها بيِّن، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان. قال الزجَّاج: المعنى: من متقدِّمٍ ومن متأخِّرٍ[5].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم ذِكْره. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: من أوليائه؛ لأنَّ نصرةَ مختصٌّ بغلبَةِ أوليائه لأعدائه، فأمَّا غلَبةُ أعدائِه لأوليائه فليس

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٧٦ .

بنصره، وإنَّما هو ابتلاءٌ، وقد يُسمَّى ظَفَراً. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نِقمته ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لأن كلامه صدق. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار، وهم أكثر[(١)]. وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب «وَعْدَ اللهِ» على المصدر، أي: وعدَ ذلك وعداً[(٢)].

ثم بيَّن تعالى مقدار ما يعلمون، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معايشهم ودنياهم؛ متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرِسون، وكيف يبنون. قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة. وقال الضحَّاك: هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها، وغرس أشجارها. والمعنى واحد. وقيل: هو ما تُلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا. قاله سعيد بين جُبير. وقيل: الظاهر والباطن، كما قال في موضعٍ آخر ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾[(٣)] [الرعد: ٣٣].

قلتُ: وقولُ ابن عباس أشبَهُ بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغَ ـ واللهِ ـ من علمِ أحدِهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيُخبرك بوزنه ولا يُحسِنُ أن يُصلِّي[(٤)]. وقال أبو العباس المبرِّد: قسمَ كسرى أيامَه فقال: يَصلح يومُ الريح للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويومُ المطر للشرب واللهو، ويومُ الشمس للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ قال بعضهم:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٧ – ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٩ – ٣٠٠.

(٤) قول الحسن في الوسيط ٣/ ٤٢٨، وزاد المسير ٦/ ٢٨٩.

ومـن الـبـلـيَّـة أن تـرى لـكَ صـاحـبـاً ... فـي صـورةِ الـرجـلِ الـسـمـيـعِ الـمُـبـصـرِ
فَـطِـنٍ بـكـلِّ مـصـيـبـةٍ فـي مـالِـهِ ... وإذا يُـصـابُ بـديـنـهِ لـم يَـشـعُـرِ[1]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨﴾

قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتفكُّرِ وليس بمفعول، تعدَّى إليه «يَتَفَكَّرُوا» بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلقِ أنفسهم، إنما أُمروا أن يستعملوا التفكُّرَ في خلق السماوات والأرض وأنفُسِهم، حتى يعلموا أنَّ الله لم يخلُقِ السماوات وغيرَها إلَّا بالحق[2]. قال الزجَّاج: في الكلام حذفٌ، أي: فيعلموا؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه[3]. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفرَّاء: معناه: إلا للحق، يعني: الثواب والعقاب[4]. وقيل: إلَّا لإقامة الحق[5]. وقيل: «بِالْحَقِّ»: بالعدل. وقيل: بالحكمة. والمعنى متقارب[6]. وقيل: «بِالْحَقِّ» أي: أنه هو الحقُّ وللحقِّ خلقَها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: للسماوات والأرض أجلٌ ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة[7]. وفي هذا تنبيهٌ على الفناء، وعلى أنَّ لكلِّ مخلوقٍ أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[8]. وقيل: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: خَلقَ ما خلَقَ في وقتٍ سمَّاه لأن يخلق ذلك الشيء فيه.

---

(١) نسبهما في بهجة المجالس ٢/ ٨٠١ لعبد الله بن المبارك أو لغيره، ووقع صدر البيت الأول فيه: أُخيَّ إنَّ من الرجال بهيمةً.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١٥ بمعناه.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٩، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٢٩ عن مقاتل.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير: لَكافرون بلقاء ربهم، على التقدير والتأخير، أي: لَكافرون بالبعث بعد الموت. وتقول: إنَّ زيداً في الدار لَجالس. ولو قلت: إنَّ زيداً لفي الدار لجالسٌ، جاز. فإن قلتَ: إنَّ زيداً جالسٌ لفي الدار، لم يَجُزْ؛ لأنَّ اللامَ إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إنَّ وخبرِها، وإذا جئتَ بهما لم يَجُزْ أن تأتي بها. وكذا إن قلتَ: إنَّ زيداً لجالس لفي الدار، لم يَجُزْ[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ ببصائرهم وقلوبهم. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة[(٢)]؛ لأنَّ أهل مكة لم يكونوا أهلَ حرث[(٣)]؛ قال الله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]. ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: وعَمروها أولئك أكثرَ ممَّا عَمروها هؤلاءِ فلم تنفعْهم عمارتُهم ولا طولُ مُدَّتهم. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات. وقيل: بالأحكام، فكفروا ولم يؤمنوا. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنبٍ ولا رسلٍ ولا حُجَّة. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ السُّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنَّ الحُسنى تأنيث الأحسن[(٤)]. وقيل: يعني بها هاهنا النار.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٩٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٢١٦.

قاله ابن عباس[١]. ومعنى «أساؤوا»: أشركوا؛ دلَّ عليه: ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. «السُّوءى» اسمُ جهنم، كما أنَّ الحُسنى اسم الجنة[٣]. ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأن كذبوا. قاله الكسائي[٤]. وقيل: بأن كذبوا[٥]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ بالرفع اسم كان، وذُكِّرتْ لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقي. و«السُّوءَى» خبر كان. والباقون بالنصب على خبر كان. «السوءى» بالرفع اسم كان[٦]. ويجوز أن يكون اسمُها التكذيب[٧]، فيكون التقدير: ثمَّ كان التكذيبُ عاقبةَ الذين أساؤوا[٨]، ويكون السُّوءى مصدرًا لأساؤوا، أو صفةً لمحذوف، أي: الخَلَّة السوءى[٩]. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «ثمَّ كان عاقبةَ الذين أساؤوا السوءُ» برفع السوء[١٠]. قال النحَّاس: السُّوء أشدُّ الشر، والسُّوءى الفُعلى منه[١١]. ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيل: بمحمدٍ والقرآن. قاله الكلبيُّ. مقاتل: بالعذاب أن ينزِلَ بهم. الضحَّاك: بمعجزات محمدٍ ﷺ. ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١٢].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٨. وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ١٠١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وينظر السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٤.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٠.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٨.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وهي قراءة شاذة.

(١١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(١٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠١.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يرجعون» بالياء. الباقون بالتاء[١].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ «يُبْلَسُ» بفتح اللام[٢]، والمعروف في اللغة: أبلَسَ الرجلُ إذا سكتَ وانقطعت حُجَّتُه، ولم يؤمِّلْ أن تكون له حُجَّة. وقريبٌ منه: تحيَّر؛ كما قال العجَّاج[٣]:

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْمًا مُكْرَسا قال نعم أعرفُهُ وأبْلَسا

وقد زعمَ بعضُ النَّحْويين أنَّ إبليس مشتَقٌّ من هذا، وأنه أبلس لأنه انقطعت حُجَّتُه. النحَّاس: ولو كان كما قال لوجَبَ أن ينصرِفَ، وهو في القرآن غيرُ منصرف[٤]. وقال الزجَّاج[٥]: المُبلِسُ: الساكتُ المُنقطِعُ في حُجَّتِه، اليائسُ من أن يهتدي إليها.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: ما عبدوه من دون الله ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلهة[٦]. فتبرَّؤوا منها وتبرَّأت منهم، حسبما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين.

---

(١) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.

(٢) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن السُّلمي وعليٍّ ﷺ.

(٣) في ديوانه ص ٥٦، وسلف ٨/ ٣٨١.

(٤) من بداية الآية إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٧٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧.

ثم بيَّن كيفَ تفريقهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال النحّاس: سمعتُ الزجّاج يقول معنى «أمّا»: دَعْ ما كُنَّا فيه وخُذْ في غيره. وكذا قال سيبويه: إنَّ معناها: مهما يَكُنْ من[١] شيءٍ فخُذْ في غير ما كُنَّا فيه. ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحّاك: الروضة: الجنة، والرِّياض: الجِنان. وقال أبو عبيد: الروضةُ: ما كان في تَسفُّلٍ، فإذا كانت مرتفعةً فهي تُرْعة. وقال غيره: أحسَنُ ما تكون الروضةُ إذا كانت في موضعٍ مرتفعٍ غليظ، كما قال الأعشى:

ما رَوْضَةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْرَاءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بعميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

يومًا بأطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذ جَنا الأُصُلُ[٢]

إلا أنه لا يُقال لها: روضة، إلَّا إذا كان فيها نبتٌ، فإن لم يكن فيها نبتٌ وكانت مرتفعةً فهي تُرعة. وقد قيلَ في التُّرعة غيرُ هذا[٣]. وقال القُشَيْرِيُّ: والروضةُ عند العرب: ما ينبتُ حول الغدير من البقول، ولم يكن عند العرب شيءٌ أحسنَ منه. الجوهريُّ: والجمع روْضٌ ورِياض، صارتِ الواوُ ياءً لكسرِ ما قبلها. والرَّوض: نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء. وفي الحوض رَوْضةٌ من ماءٍ إذا غطَّى أسفله[٤]. وأنشد أبو عمرو:

---

(١) في (م): كنا في، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن.

(٢) ديوان الأعشى ص ١٠٧ . الحَزْن: ما غلظ من الأرض في ارتفاع. يضاحك الشمس: يدور معها، ومضاحكته إياها حُسنٌ له ونضرة. والكوكب: معظم النبات. والشَّرِق: الريَّان الممتلئ ماءً. والمؤزَّر: الذي صار النبات كالإزار له. والعميم: النبات الكثيف الحسن. والمكتهِل من اكتهل: إذا تمَّ طوله. والنشر: الريح الطيبة. والأُصُل جمع أصيل: وهو الوقت بعد العصر حتى المغرب. تهذيب اللغة ٤/ ٣٦٥ و٦/ ١٩ و١١/ ٣٣٨ ، والصحاح (أصل).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧ . والأبيات ذكرها الماوردي أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٣٠٢ .

(٤) الصحاح (روض).

وروْضـةٍ سَقَيْـتُ منـهـا نِضْـوَتـي[١].

﴿يُحۡبَرُونَ﴾ قال الضحاك وابن عباس: يُكْرَمون. وقيل: يُنعَّمون. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: يُسَرُّون. السُّدِّي: يفرحون. والحَبْرَة عند العرب: السرور والفرح. ذكره الماوردي[٢]. وقال الجوهري: الحَبْر: الحُبُور وهو السرور، ويقال: حبرَه يحبُره ـ بالضَّمِّ ـ حَبْراً وحَبَرَةً؛ قال تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٍ يُحۡبَرُونَ﴾ أي: يُنعَّمون ويُكرَمون ويُسَرُّون. ورجلٌ يَحْبُور يَفْعول من الحبور[٣]. النحَّاس: وحكى الكسائيُّ: حَبَرْتُه أي: أكرمتُه ونعَّمتُه، وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: وهو مشتَقٌّ من قولهم: على أسنانه حَبْرةٌ، أي: أثر، فـ «يُحبرون» يَتَبَيَّن عليهم أثر النعيم. والْحَبْرُ مشتقٌّ من هذا[٤]. قال الشاعر:

لا تـمـلأِ الـدّلْـوَ وعَـرِّقْ فـيـهـا[٥] أمـا تَـرَى حَـبـارَ مَـن يَـسْـقـيـهـا

وقيل: أصله من التَّحبير: وهو التَّحسين، فـ «يُحبَرُونَ»: يُحسَّنون[٦]. يقال: فلانٌ حَسَنُ الحِبْرِ والسِّبْرِ إذا كان جميلاً حسنَ الهيئة. ويُقال أيضاً: فلانٌ حسن الحَبْرِ والسَّبْرِ بالفتح، وهذا كأنه مصدرُ قولِك: حَبَرْتُه حَبراً إذا حسَّنتُه. والأوّل اسمٌ؛ ومنه الحديث: «يخرج رجلٌ من النار ذهبَ حِبْرُه وسِبْرُه»[٧]. وقال يحيى بن أبي كثير: ﴿فِي رَوۡضَةٍ يُحۡبَرُونَ﴾ قال: السَّماع في الجنة. وقاله الأوزاعِيُّ؛ قال: إذا أخذَ أهل الجنة في السماع لم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلَّا رَدَّدَتِ الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال

---

(١) قائله هميان كما في تاج العروس (روض). والنِّضوة: هي الناقة المهزولة، مذكرها نِضو. الصحاح (نضو).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٢ ، دون قوله: وقيل: يُسرُّون، فقد ذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠ .

(٣) الصحاح (حبر).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨ .

(٥) أي: اجعل فيها دون الملء. الصحاح (عرق).

(٦) سلف هذا المعنى ٧/ ٤٩٥ .

(٧) تهذيب اللغة ٥/ ٣٢ - ٣٣ . والحديث أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ٣ - ٥ .

الأوزاعِيُّ: ليسَ أحدٌ من خَلْقِ الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطعَ على أهل سبع سماواتٍ صلاتَهم وتسبيحَهم[1]. زاد غير الأوزاعِيّ: ولم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلا ردَّدت، ولم يبقَ سِترٌ ولا بابٌ إلا ارتَجَّ وانفتح، ولم تبقَ حلقةٌ إلا طَنَّتْ بألوان طنينها، ولم تبقَ أَجَمَةٌ من آجام الذهب إلَّا وقع أُهبوبُ الصوت في مقاصبها، فَزَمَرت تلك المقاصبُ بفنون الزمر، ولم تبقَ جاريةٌ من جواري الحورِ العينِ إلَّا غنَّت بأغانيها، والطير بألحانها، ويُوحي اللهُ تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمِعوا عبادي الذين نزَّهوا أسماعَهم عن مزامير الشيطان، فيُجابون بألحانٍ وأصواتٍ روحانيين، فتختلط هذه الأصوات فتصيرُ رجَّةً واحدة، ثم يقول الله جَلَّ ذِكْرُه: يا داودُ قُمْ عند ساقِ عرشي فمجِّدْني. فيندفع داودُ بتمجيد ربِّه بصوتٍ يغمرُ الأصواتَ ويُجليها، وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾. ذكره الترمذيُّ الحكيم رحمه الله[2]. وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي الدَّرداء أنَّ رسول الله ﷺ كان يُذكِّر الناس، فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي أُخريات القوم أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: «نعم يا أعرابِيُّ، إنَّ في الجنة لَنهراً حافَتاه الأبكارُ من كلِّ بيضاءَ خِمصانية يتغَنَّينَ بأصواتٍ لم تَسمعِ الخلائقُ بمثلها قطُّ، فذلك أفضلُ نعيم الجنة» فسأل رجلٌ أبا الدَّرداء: بماذا يتغَنَّينَ؟ فقال: بالتسبيح. والخِمصانية: المُرهَفَةُ الأعلى، الخِمصانةُ البطن، الضخمةُ الأسفل[3].

قلت: وهذا كلُّه من النعيم والسرور والإكرام، فلا تعارضَ بين تلك الأقوال.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٩ .

(٢) لم نقف عليه في القسم المطبوع من نوادر الأصول.

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣١ - ٣٣٢ من طريق سليمان بن عطاء ، عن مسلمة بن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مشجعة، عن أبي الدرداء مرفوعاً. قال ابن حبان: سليمان بن عطاء يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله.

وأين هذا من قوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] على ما يأتي. وقوله عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر»[١]. وقد رُوِي: «إنّ في الجنة لأشجاراً عليها أجراسٌ من فضة، فإذا أرادَ أهلُ الجنةِ السماعَ بعثَ اللهُ ريحاً من تحت العرش فتقعُ في تلك الأشجار، فتُحرِّكُ تلك الأجراسَ بأصواتٍ لو سمِعَها أهلُ الدنيا لماتوا طرباً». ذكره الزمخشريّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تقدَّم الكلام فيه. ﴿وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: بالبعث. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: مُعذَّبون. وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة:١٨] أي: نزَل به. قاله ابن شجرة، والمعنى متقارب[٣].

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فيه ثلاثة أقوال: الأوّل ـ أنه خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضّ على الصلاة في هذه الأوقات[٤]. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن. قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ

---

(١) سلف ١/ ١٢٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢١٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣، وفيه أن قول ابن شجرة: يقيمون.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر[1]. وقاله الضحَّاك وسعيد بن جُبير[2]. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة: أنَّ الآية تنبيهٌ على أربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا: والعشاء الآخرة هي في آيةٍ أخرى في ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وفي ذكر أوقات العورة[3]. وقال النحَّاس: أهل التفسير على أنَّ هذه الآية ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ في الصلوات. وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: حقيقتُه عندي: فسبِّحوا اللهَ في الصَّلوات؛ لأنَّ التسبيحَ يكون في الصلاة. وهو القول الثاني[4]. والقول الثالث ـ فسبِّحوا الله حين تُمسون وحين تُصبحون. ذكره الماوردِيُّ، وذكر القولَ الأوّل، ولفظه فيه: فصلُّوا للهِ حين تُمسون وحين تُصبحون[5]. وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان: أحدهما ـ لِما تضمَّنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود. الثاني ـ مأخوذٌ من السُّبحة، والسُّبحة: الصلاة؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «تكون لهم سبحةً يوم القيامة» أي صلاةً[6].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمِه وآلائه. وقيل: معنى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: الصلاةُ له؛

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٧٢)، والطبري ١٨/ ٤٧٤، والطبري (١٠٥٩٦)، والحاكم ٢/ ٤١٠ - ٤١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) لم نقف على هذا الكلام عند الماوردي في النكت والعيون ولا عند أحد ممَّن ينقل عنه. وقد ذكر ابن الجوزي الكلام الأخير في زاد المسير ٦/ ٢٩٣ من غير نسبة.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣. والحديث لم نقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد معنى السُّبحة أنها الصلاة في أحاديث عدة منها ما أخرجه أحمد (٢٤٥٥٩)، والبخاري (١١٧٧) ومسلم (٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما سبَّح رسول الله ﷺ سبحة الضحى، وإني لأُسبِّحها. ومنها ما أخرجه أحمد (١٢٤٨٦) عن أنس بن مالك ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ سُبحة الضحى ثمان ركعات.

لاختصاصها بقراءة الحمد. والأوّل أظهر؛ فإنَّ الحمدَ لله من نوع التعظيم لله تعالى والحضِّ على عبادته ودوام نعمته، فيكون نوعاً آخرَ خلافَ الصلاة، والله أعلم[١].

وبدأ بصلاة المغرب؛ لأنَّ الليلَ يتقدَّم النهار. وفي سورة «سبحان» بدأ بصلاة الظهر؛ إذ هي أوَّلُ صلاةٍ صلَّاها جبريل بالنبيِّ ﷺ. قال الماورديُّ[٢]: وخصَّ صلاة الليل باسم التسبيح وصلاةَ النهار باسم الحمد؛ لأنَّ للإنسان في النهار متقلَّباً في أحوالٍ تُوجِبُ حمدَ الله تعالى عليها، وفي الليل على خلوةٍ تُوجِبُ تنزيهَ الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صارَ الحمدُ بالنهار أخَصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ النهار، والتسبيحُ بالليل أخصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ الليل.

الثالثة ـ قرأ عكرمة: «حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ» والمعنى: حيناً تُمسون فيه وحيناً تُصبحون فيه؛ فحذف «فيه» تخفيفاً، والقول فيه كالقول في ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨][٣]. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال الجوهريُّ: العَشِيُّ والعَشِيَّةُ من صلاة المغرب إلى العتمة؛ تقول: أتيتُه عشِيةَ أمسِ وعَشِيَّ أمسِ. وتصغير العَشِيِّ: عُشَيَّان، على غير [قياسِ] مُكَبَّرِه، كأنهم صغَّروا عَشْيَانًا، والجمع عُشَيَّانات. وقيل أيضاً في تصغيره: عُشَيْشِيَان، والجمع عُشَيْشِيَات. وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيَّة، والجمع عُشَيْشِيات. والعِشاءُ ـ بالكسر والمدِّ ـ مثلُ العَشِيِّ. والعِشاءان المغربُ والعَتْمة. وزعم قومٌ أنَّ العِشاءَ من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا:

غـدونـا غـدوةً سَـحَـراً بـلـيـلٍ عِـشـاءً بـعـد مـا انـتـصـفَ الـنـهـارُ[٤]

الماورديُّ[٥]: والفرقُ بين المساء والعِشاء: أنَّ المساءَ بُدُوُّ الظلام بعد المغيب،

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢ .

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٣ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢١٧ ، وينظر إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨ ، وقراءة عكرمة في المحتسب ٢/ ١٦٣ ، والشاذة ص ١١٦ .

(٤) الصحاح (عشا) ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٤ .

والعِشاءَ آخرُ النهار عند ميل الشمس للمغِيب، وهو مأخوذٌ من عشا العين: وهو نقصُ النور من الناظر كنقص نور الشمس.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

بيَّن كمالَ قدرته؛ أي: كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يُحييكم بالبعث. وفي هذا دليل على صحة القياس، وقد مضى في «آل عمران»[(١)] بيانُ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: من علامات رُبُوبِيَّتِهِ ووَحْدانيَّته أنْ خلقكم من تراب[(٢)]، أي: خلقَ أباكم منه، والفرع كالأصل، وقد مضى بيانُ هذا في «الأنعام»[(٣)]. و«أنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، وكذا ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم

---

(١) ٥/ ٨٦ - ٨٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨١.

(٣) ٨/ ٣١٨.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[(١)].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاءُ ناطقون تتصرَّفون فيما هو قِوامُ معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عَبَثًا، ومن قَدَر على هذا فهو أهلٌ للعبادة والتسبيح.

ومعنى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: نساءً تسكنون إليها. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من نِطَفِ الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حوَّاء، خلقها من ضِلَع آدم. قاله قتادة[(٢)]. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: المودَّة: الجماع، والرحمة: الولد. وقاله الحسن. وقيل: المودَّة والرحمة عَطْفُ قلوبِهم بعضِهم على بعض[(٣)]. وقال السُّدِّي: المودةُ: المحبةُ، والرحمةُ: الشفقة[(٤)]. ورُوي معناه عن ابن عباس قال: المودَّةُ: حبُّ الرجل امرأتَه، والرحمة: رحمتُه إيَّاها أن يُصيبَها بسوء[(٥)]. ويُقال: إنَّ الرجل أصلُه من الأرض، وفيه قوَّةُ الأرض، وفيه الفَرْجُ الذي منه بُدئ خَلْقُه، فيحتاج إلى سَكَن، وخُلقتِ المرأةُ سكناً للرجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فأوَّلُ ارتفاقِ الرجل بالمرأة سكونُه إليها مما فيه من غليَان القوَّة، وذلك أنَّ الفرجَ إذا تُحمِّلَ فيه هيَّجَ ماءَ الصلب إليه، فإليها يسكن، وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلِقَ البُضْعُ منهنَّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦] فأعلمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرجالَ أنَّ ذلك الموضعَ خُلِقَ منهنَّ للرجال، فعليها بذلُه في كلِّ وقتٍ يدعوها الزوج، فإن منعَتْه فهي ظالمةٌ وفي حرجٍ عظيم، ويكفيك من ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٢) مجمع البيان ٢١/ ١٩، وقول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣، وذكر القول الأول عن مجاهد، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣ عن مجاهد والحسن وعكرمة.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٥، ومجمع البيان ٢١/ ١٩.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ رجلٍ يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلَّا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»[١]. وفي لفظٍ آخر: «إذا باتَتِ المرأةُ هاجرةً فِراشَ زوجِها لعنَتْها الملائكةُ حتى تُصبح»[٢].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «البقرة»[٣] وكانوا يعترفون بأنَّ الله تعالى هو الخالق. ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ اللِّسان في الفم، وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكادُ ترى أحداً إلا وأنتَ تُفرِّقُ بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النُّطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بُدَّ من فاعل، فعُلِمَ أنَّ الفاعِلَ هو الله تعالى، فهذا مِنْ أدلِّ دليلٍ على المدبِّر البارئ[٤]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي للبَرِّ والفاجر[٥]. وقرأ حفص: «للعالِمِينَ» بكسر اللام، جمع عالِم[٦].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير[٧]، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحُذِفَ حرفُ الجرِّ لاتصاله بالليل وعَطْفِه عليه، والواو تقوم مقامَ حرف الجرِّ إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصةً، فجُعلَ النومُ بالليل دليلاً على الموت، والتصرفُ بالنهار دليلاً على البعث. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر[٨].

---

(١) صحيح مسلم (١٤٣٦): (٢١).

(٢) صحيح مسلم (١٤٣٦): (٢٠)، وأخرجه أحمد (١٠٩٤٦)، والبخاري (٥١٩٤)، وقد سلف ٦/ ٢٨٣.

(٣) ١/ ٣٧٦ فما بعدها.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٥) زاد المسير ٥/ ٣٩٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما عند تفسير الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء.

(٦) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١.

وقيل: يسمعون الحقَّ فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيُصدِّقونه. والمعنى متقارب[١]. وقيل: كان منهم من إذا تُلي القرآن وهو حاضرٌ سَدَّ أذنيه حتى لا يسمع، فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الدلائل عليه[٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: المعنى: أن يُريكم، فحذف «أن» لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

ألَا أيُّهذا اللائِمي أحْضُرُ الوَغَى وأنْ أشْهَدَ اللَّذَاتِ هل أنت مُخْلِدِي[٣]

وقيل: هو على التقديم والتأخير، أي: ويُريكم البرقَ من آياته. وقيل: أي: ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق، كما قال الشاعر:

وما الدَّهرُ إلَّا تارتانِ فمنهما أموتُ وأُخْرَى أبتغي العيشَ أكْدَحُ[٤]

وقيل: أي: من آياته أنه يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً من آياته. قاله الزجَّاج[٥]، فيكون عطفَ جملةٍ على جملة. ﴿خَوْفًا﴾ أي: للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم. قاله قتادة. الضحَّاك: «خَوْفًا» من الصواعق، «وَطَمَعًا» في الغيث. يحيى بن سلام: «خَوْفًا» من البرد أن يُهلِكَ الزرعَ، «وَطَمَعًا» في المطر أن يُحييَ الزرعَ. ابن بحر: «خَوْفًا» أن يكون البرقُ بَرْقًا خُلَّبًا لا يُمطر، «وَطَمَعًا» أن يكون ممطراً، وأنشد قولَ الشاعر:

لا يكُنْ بَرْقُكَ برقًا خُلَّبا إنَّ خيرَ البرقِ ما الغيثُ معه[٦]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ دون قوله: فحذف حرف الجر ... إلى قوله: خاصةً. ودون قوله: يريد سماع تفهم وتدبر.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٣) البيان ٢/ ٢٥٠ . والبيت في ديوان طرفة ص ٣٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣ - ٢٥٤ . والبيت قائله تميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٢ ، والعبارة التي بعده منه.

(٦) نسب هذا البيت إلى أبي الأسود الدؤلي كما في عيون الأخبار ص ٢٧٦ ، وجمهرة الأمثال ٣/ ١٥٦ ، ونسب إلى عبد الله بن كريز كما في الحماسة البصرية ٢/ ١٠ ، ونسب إلى أنس بن زنيم كما في خزانة الأدب ٦/ ٤٧١ .

وقال آخر:

فـقـد أرِدُ الـمـيـاهَ بـغـيـر زادِ ... سوى عَدِّي لها برقَ الغمامِ[(١)]

والبرقُ الخُلَّبُ: الذي لا غيثَ فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجز: إنما أنت كبرقٍ خُلَّب. والخُلَّب أيضاً: السحابُ الذي لا مطر فيه. ويقال: بَرْقُ خُلَّبٍ، بالإضافة[(٢)]. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدَّم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ «أنْ» في محلِّ رفعٍ كما تقدم، أي: قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد[(٣)]. وقيل: بتدبيره وحكمته، أي: يمسكها بغير عمدٍ لمنافع الخلق. وقيل: «بأمرِهِ» بإذنه. والمعنى واحد[(٤)]. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: الذي فعلَ هذه الأشياء قادرٌ على أن يبعثكم من قبوركم[(٥)]، والمرادُ سرعةُ وجودِ ذلك من غير توقُّفٍ ولا تلبُّث؛ كما يُجيبُ الداعي المطاعَ مَدْعُوُّهُ، كما قال القائل:

دَعَوْتُ كُلَيباً باسمهِ فكأنَّما ... دعوتُ برأسِ الطَّودِ أو هو أسرعُ

يريد برأس الطود: الصَّدى، أو الحجرَ إذا تَدَهْده. وإنما عطفَ هذا على قيام السماوات والأرض بـ«ثمَّ» لِعظَمِ ما يكون من ذلك الأمر واقتدارِه على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقَى نسمةٌ من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]. و«إذا» الأولى في

---

(١) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ١٤٣، وفيه: «هاد» بدل «زاد». ومن قوله: ﴿خوفاً﴾.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) الصحاح (خلب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشرط، والثانية في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ للمفاجأة، وهي تنوبُ منابَ الفاء في جواب الشرط[١]. وأجمع القرَّاء على فتح التاء هنا في «تَخْرُجُونَ»، واختلفوا في التي في «الأعراف» [الآية:٢٥] فقرأ أهل المدينة: «ومنها تُخرجون» بضمِّ التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد، والمعنيان متقاربان، إلَّا أنَّ أهل المدينة فرَّقوا بينهما لِنَسقِ الكلام، فنسَقُ الكلام في التي في «الأعراف» بالضمِّ أشبه؛ إذ كان الموتُ ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبَهُ بنَسقِ الكلام، أي: إذا دعاكم خرجتُم، أي: أطعمتم؛ فالفِعْلُ [بهم] أشبه[٢]. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة[٣]، على ما تقدَّم ويأتي. وقُرئ: «تخرجون» بضمِّ التاء وفتحِها، ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[٤] ولم يزِدْ على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً وملكاً وعبداً. ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ رُوي عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعة». قال النحَّاس: مطيعون طاعة انقياد[٥]. وقيل: «قَانتُونَ» مُقِرُّون بالعبودية، إما قالةً وإما دِلالةً. قاله عِكرمة وأبو مالك والسُّدِّي. وقال ابن عباس: «قَانتُونَ»: مُصلُّون. الربيع بن أنس: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: قائمٌ يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠، وما بين حاصرتين منه. وينظر النشر ٢/ ٢٠٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٩٦.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠، والحديث أخرجه - بهذا اللفظ - الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، به.
وأخرجه أحمد (١١٧١١) من طريق ابن لهيعة، عن دراج، به. بلفظ: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». رشدين وابن لهيعة ضعيفان، وكذلك دراج أبو السمح في روايته عن أبي الهيثم العتواري. قلنا: وقد رُوي هذا من كلام قتادة فيما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١١٦.

[المطففين:٦] أي: للحساب. الحسن: كلٌّ له قائمٌ بالشهادة أنه عبدٌ له. سعيد بن جُبير. «قَانِتُونَ»: مخلصون(١).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمَّا بدْءُ خلقِه فبِعُلوقه في الرَّحمِ قبل ولادته، وأمَّا إعادتُه فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقِه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٢). وقرأ ابن مسعود وابن عمر: «يُبْدِئُ الخَلْقَ»(٣) من أبدأ يُبدئ؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣]. ودليلُ قراءة العامَّة قولُه سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]. و«أَهْوَنُ» بمعنى هيِّن، أي: الإعادةُ هيِّنٌ عليه. قاله الرَّبيع بن خُثيم والحسن(٤). فأهونُ بمعنى هيِّن؛ لأنه ليس شيءٌ أهونَ على الله من شيء. قال أبو عبيدة: ومَنْ جعلَ أهونَ يُعبِّر عن تفضيل شيء على شيءٍ فقولُه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٣٠] وبقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]. والعرب تحمِلُ أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق(٥):

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائِمُه أعزُّ وأطوَلُ

أي: دعائمه عزيزةٌ طويلة. وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإنِّي لأوْجَلُ ... على أيِّنا تَغْدُو المنيَّةُ أَوَّلُ(٦)

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وهي قراءة شاذة لم نقف عليها إلا عند المصنف.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس والربيع، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن الربيع وقتادة والكلبي. وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ عن الحسن وقتادة.

(٥) في ديوانه ص ٧١٤.

(٦) قائله معن بن أوس المزني، وهو في الكامل ٢/ ٧٥٠، والحماسة البصرية ٢/ ٧، وخزانة الأدب ٦/ ٥٠٥.

أراد: إني لوَجِلٌ. وأنشد أبو عبيدةَ أيضاً:

إنـي لأمْـنَـحُـكَ الـصُّـدودَ وإنَّـنـي ... قَسَمًا إليكَ مع الصُّدود لَأَمْيَلُ[١]

أراد: لَمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تَـمـنَّـى رجـالٌ أن أمـوتَ وإن أمُـتْ ... فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوْحَدِ[٢]

أراد: بواحد. وقال آخر:

لَـعـمـرُكَ إنَّ الـزِّبـرقـانَ لَـبـاذلٌ ... لمعروفِهِ عند السنينَ وأفضَلُ[٣]

أي: وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر، إنما معناه: الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «وهو عليه هيِّن»[٤]. وقال مجاهد وعكرمة والضحَّاك: إنَّ المعنى أن الإعادة أهونُ عليه ـ أي: على الله ـ من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعُه على الله تعالى هيناً. وقاله ابن عباس[٥]. ووجهُه أنَّ هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهوَنُ من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعثُ لمن قدَرَ على البداية عندكم وفيما بينكم أهونَ عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في «عَلَيْهِ» للمخلوقين، أي: هو أهوَنُ عليه، أي: على الخلق، يُصاح بهم صيحةً واحدةً فيقومون ويُقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهوَنُ عليهم من أن

---

(١) إلى هذا الموضع من مجاز القرآن ٢/ ١٢١ - ١٢٢ ، وهذا البيت قائله الأحوص بن محمد الأنصاري، وهو في كتاب سيبويه ١/ ٣٨٠ ، وخزانة الأدب ٢/ ٤٨ .

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، والطبري ٢٤/ ٤٧٨ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٦ - ٧٤٧ إلى طرفة، وذكر أن الشافعي رحمه الله تمثل به عندما دعا عليه أشهب بالموت. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ إلى مالك بن القين.

(٣) ذكره الطبري ١٨/ ٤٨٧ من غير نسبة.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٦ ، ووقع فيه وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ : «وهو هينٌ عليه». وأخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ بمثل ما أثبتناه، وهي قراءة شاذة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن مجاهد وعكرمة، وزاد المسير ٦/ ٢٩٧ عن مجاهد وأبي العالية.

يكونوا نُطَفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم أجِنَّةً، ثم أطفالاً، ثم غلماناً، ثم شُبَّاناً، ثم رجالاً أو نساءً. وقاله ابن عباس وقُطْرُب. وقيل: أهون: أسهل[1]؛ قال:

وهانَ على أسماءَ أن شطَّتِ النَّوَى يحِنُّ إليها والِهٌ ويتوقُ

أي: سهلٌ عليها. وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: ما شيءٌ على الله بعزيز[2]. عِكرمة: تعجَّبَ الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت هذه الآية[3]. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: ما أراده جلَّ وعزَّ كان. وقال الخليل: المثلُ: الصفة[4]، أي: وله الوصف الأعلى ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد:٣٥] أي: صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك. وعن مجاهد: ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قولُ: لا إله إلا الله؛ ومعناه: أي: الذي له الوصفُ الأعلى، أي: الأرفع الذي هو الوصف بالواحدانية. وكذا قال قتادة: إنَّ المثلَ الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله، ويَعْضُده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] على ما نُبيِّنُه آنفاً إن شاء الله تعالى. وقال الزجَّاج: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربَه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوَّل[5]. وقال ابن عباس: أي ليس كمثله شيء[6] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدَّم[7].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٠، والبيت قائله عمرو بن الأهتم كما في المفضليات ص ١٢٥، وقول الربيع أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٦.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢١ دون قول قتادة، وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٩. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٨ - ٤٨٩.

(٧) ١/ ٤٢٩.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ ثم قال: ﴿مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ فـ «من» الأولى للابتداء، كأنه قال: أخذَ مثلاً وانتزعه من أقرب شيءٍ منكم وهي أنفسكم. والثانية للتبعيض، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام[١]. والآيةُ نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكاً هو لك، تملِكُه وما مَلَكَ. قاله سعيد بن جُبير[٢]. وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربَه الله للمشركين، والمعنى: هل يرضى أحدُكم أن يكون مملُوكه في ماله ونفسه مِثلَه، فإذا لم ترضَوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء[٣]؟!

الثانية: قال بعض العلماء: هذه الآية أصلٌ في الشركة بين المخلوقين؛ لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ الآية، فيجب أن يقولوا: ليسَ عبيدُنا شركاءَنا فيما رزقتَنا. فيُقال لهم: فكيف يُتصوَّرُ أن تُنزِّهوا نفوسَكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي، فهذا حكمٌ فاسدٌ وقِلةُ نظرٍ وعَمَى قلب! فإذا بطلتِ الشركةُ بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادةُ - والخلقُ كلُّهم عبيدٌ لله تعالى - فيبطل أن يكون شيءٌ من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله، فلم يبقَ إلَّا أنه واحدٌ يستحيلُ أن يكون له شريك، إذِ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل، والقديمُ الأزليُّ منزَّهٌ عن ذلك جَلَّ وعزَّ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ ، والطبري ١٨/ ٤٩٠ .

وهذه المسألة أفضَلُ للطالب من حفظ ديوانٍ كاملٍ في الفقه؛ لأنَّ جميعَ العبادات البدنية لا تصِحُّ إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ لمَّا قامتْ عليهم الحُجَّةُ ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك. ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي: لا هاديَ لمن أضلَّه اللهُ تعالى. وفي هذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى ـ قال الزجَّاج: «فِطْرَةَ» منصوبٌ بمعنى: اتَّبِعْ فطرةَ الله. قال: لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ الحنيفَ واتَّبِعْ فطرةَ الله. وقال الطبري: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر من معنى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن معنى ذلك: فطرَ اللهُ الناس على ذلك فِطرةً. وقيل: معنى ذلك: اتَّبعوا دينَ الله الذي خَلَقَ الناسَ له، وعلى هذا القول يكون الوقفُ على «حَنِيفًا» تامًّا. وعلى القولين الأوَّلين يكون متَّصلاً، فلا يُوقَفُ على «حنيفاً». وسُمِّيتِ الفِطْرَةُ دِيناً لأن الناسَ يُخلقون له قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. ويقال: «عَلَيْهَا» بمعنى لها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾[1] [الإسراء:٧]. والخطاب بـ «أقِمْ وَجْهَكَ» للنبيِّ ﷺ، أمرَه بإقامة وجهِه للدِّين المستقيم، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم:٤٣] وهو دين الإسلام.

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ دون قوله: وعلى هذا القول يكون الوقف.. إلى قوله: فلا يوقف على «حنيفاً». وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤، وقول الطبري في تفسيره ١٨/ ٤٩٣.

وإقامة الوجه هو تقويمُ المقصد، والقوَّة على الجِدِّ في أعمال الدين .وخصَّ الوجه بالذكر؛ لأنه جامعُ حواسِّ الإنسان وأشرفُه. ودخل في هذا الخطاب أُمَّتُه باتِّفاقٍ من أهل التأويل. و«حَنِيفًا» معناه: معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرَّفة المنسوخة[١].

الثانية - في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرة - في رواية: على هذه الملة - فأبواه يُهوِّدانه ويَنصِّرانه ويُمَجِّسَانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٢]. في رواية: «حتى تكونوا أنتم تجدعونَها» قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَنْ يموتُ صغيراً؟ قال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين». لفظ مسلم[٣].

الثالثة - واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدِّدة، منها الإسلام. قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرُهما؛ قالوا: وهو المعروف عند عامَّة السلف من أهل التأويل، واحتجُّوا بالآية وحديث أبي هريرة، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعِيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: «ألَا أُحدِّثكم بما حدَّثني اللهُ في كتابه، أنَّ الله خلق آدمَ وبَنيه حُنفاءَ مسلمين، وأعطاهمُ المالَ حلالاً لا حرامَ فيه، فجعلوا ممَّا أعطاهم اللهُ حلالاً وحراماً...» الحديث[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري (١٣٥٨)، وصحيح مسلم (٢٦٥٨) : (٢٢). وهو في مسند أحمد (٧٧١٢). ورواية: «على الملة» في صحيح مسلم (٢٦٥٨) : (٢٣) ، وهي في مسند أحمد (٧٤٤٣). وقد سلف بعضه ١٤٨/٧ .

(٣) في صحيحه (٢٦٥٨) : (٢٤).

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٨٧٨) ، والطبراني ١٧/ (٩٩٧) ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٣ من طريق محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن يحيى بن جابر، عن عياض بن حمار ﷺ، به. محمد بن إسحاق مدلس، وقد رواه بالعنعنة. وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤) ، ومسلم (٢٨٦٥) بغير هذا السياق.

وبقوله ﷺ: «خمسٌ من الفطرة..»[1] فذكر منها قصَّ الشارب، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أنَّ الطفل خُلِقَ سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولادَ كفار. وقال آخرون: الفطرةُ: هي البداءةُ التي ابتدأهم الله عليها، أي: على ما فطرَ اللهُ عليه خَلْقَه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة في كلام العرب: البداءة، والفاطر: المبتدئ. واحتجُّوا بما رُويَ عن ابن عباس أنه قال: لم أكُنْ أدري ما فاطرُ السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي ابتدأتُها. قال الْمَرْوَزِيُّ: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه. قال أبو عمر في كتاب «التمهيد» له: ما رسَمَه مالكٌ في «موطّئه»[2] وذكرَ في أبواب[3] القدر فيه من الآثار يَدلُّ على أنَّ مذهبَه في ذلك نحوُ هذا، والله أعلم. ومما احتجُّوا به ما رُوِيَ عن [محمد بن][4] كعب القُرَظيِّ في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] قال: مَنِ ابتدأَ اللهُ خلْقَه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمِلَ بأعمال الهدى، ومَنِ ابتدأَ اللهُ خَلْقَه على الهدى صيَّره إلى الهدى وإن عمِلَ بأعمال الضلالة، ابتدأ اللهُ خَلْقَ إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردَّه اللهُ إلى ما ابتدأ خَلْقَه،[5] قال: وكان من الكافرين.

---

(١) وقد سلف ٢/ ٣٦٣.

(٢) ٢/ ٨٩٨ - ٩٠١.

(٣) في (م): باب، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) ما بين حاصرتين من المصادر، وهو ليس في النسخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٤٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٦٧)، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٨٠ من طريق موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي. موسى بن عبيدة ضعيف فيما قال ابن حجر في التقريب. والكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من التمهيد ١٨/ ٦٦ و٧٢ و٧٣ و٧٦ - ٨٠.

قلت: قد مضى قول [محمد بن] كعب هذا في «الأعراف»[١]، وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازة غلامٍ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعملِ السوءَ ولم يُدرِكْه. قال: «أوَغيرَ ذلكَ يا عائشة، إنَّ الله خلق للجنة أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلقَ للنارِ أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم» خرَّجه ابن ماجه في «السنن»[٢]. وخرج أبو عيسى الترمذيُّ عن عبد الله بن عمرو قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرونَ ما هذان الكتابان؟» فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تُخبِرَنا، فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» ثم قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» وذكر الحديث، وقال فيه: حديث حسن[٣].

وقالت فرقةٌ: ليس المراد بقولِه تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ ولا قوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» العمومَ، وإنما المرادُ بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطِرَ الجميعُ على الإسلام لمَا كفر أحد، وقد ثبت أنه خلقَ أقواماً للنار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٧٩] وأخرجَ الذُّرّيةَ من صلب آدم سوداء وبيضاء. وقال في الغلام الذي قتله الخَضِر: طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً[٤]. وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار، وفيه: وكان فيما حفِظْنا أن قال:

---

(١) ٩/ ١٩١ ، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٢) ، وأخرجه أحمد (٢٥٤٧٢) ، ومسلم (٢٦٦٢) : (٣١).

(٣) سنن الترمذي (٢١٤١) ، وهو في مسند أحمد (٦٥٦٣) ، وفي إسناده أبو قبيل حيي بن هانئ المعافري، وهو مختلف فيه، وضعفه الحافظ في تعجيل المنفعة ص ٢٧٧، وذكر أنه كان يكثر النقل عن الكتب القديمة.

(٤) التمهيد ١٨/ ٥٩ و٦١ دون قوله: إذ لو فطر... إلى قوله: سوداء وبيضاء.

«ألَا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتَّى، فمنهم مَنْ يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حَسَنُ القضاء حَسَنُ الطلب». ذكره حماد بن زيد قال[١]: حدثنا عليُّ بن زيد، عن أبي نَضْرةَ، عن أبي سعيد[٢]. قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثيرٌ في لسان العرب، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٥] ولم تدمِّرِ السماواتِ والأرض، وقولِه: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة[٣]. وقال إسحاق بن رَاهْوَيه الحنظلي: تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: فطَرَ اللهُ الخلقَ فِطرةً إمَّا بجنةٍ أو نار، وإليه أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال شيخُنا أبو العباس[٤]: من قال: هي سابقةُ السعادة والشقاوة، فهذا إنَّما يليقُ بالفِطرةِ المذكورةِ في القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وأما في الحديث فلا؛ لأنَّه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تُبدَّلُ وتُغيَّر.

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرةُ: هي الخِلقةُ التي خُلِقَ عليها المولودُ في المعرفة بربِّه، فكأنه قال: كلُّ مولودٍ يولَدُ على خِلْقةٍ يعرِفُ بها ربَّه إذا بلغَ مبلَغَ المعرفة؛ يريد خِلقةً مخالفةً لخِلقة البهائم التي لا تصِلُ بخلقتها إلى معرفته، واحتَجُّوا على أنَّ الفِطرةَ الخِلقةُ، والفاطِرَ الخالقُ؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) المثبت من (ز). وفي (ظ): ذكره حماد بن زيد كذا قال. وفي (د): ذكره حماد بن أسلم الطيالسي قال: وفي (م): ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي قال.

(٢) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي (٢١٩١) من طريق حماد بن زيد، به.

وأخرجه أحمد (١١١٤٣) والطيالسي (٢١٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، به. علي بن زيد: هو ابن جدعان، وهو ضعيف، وقد تكلم فيه شعبة كما سيذكر المصنف.

(٣) التمهيد ١٨/ ٦٢.

(٤) في المفهم ١/ ٦٧٥ - ٦٧٦.

وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] يعني: خالقهنَّ، وبقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] يعني: خلقني، وبقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦] يعني: خلقهنَّ. قالوا: فالفطرةُ: الخِلقَةُ، والفاطرُ الخالق، وأنكروا أن يكون المولودُ يُفْطَرُ على كفرٍ أو إيمانٍ أو معرفةٍ أو إنكار. قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنية ليس معها إيمانٌ ولا كفرٌ ولا إنكارٌ ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفرَ والإيمانَ بعد البلوغ إذا ميَّزوا، واحتجُّوا بقوله في الحديث: «كما تُنْتَجُ البَهِيمةُ بهيمةً جَمعاءَ ـ يعني سالمة ـ هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني مقطوعةَ الأذن. فمثَّلَ قلوبَ بني آدم بالبهائم؛ لأنها تولَدُ كاملةَ الخَلْق ليس فيها نقصان، ثم تُقطَعُ آذانُها بعدُ وأنوفُها، فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب. يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفرٌ ولا إيمان، ولا معرفةٌ ولا إنكار، كالبهائم السائمة، فلمَّا بلغوا استهوتهم الشياطينُ فكفر أكثرهم، وعصمَ اللهُ أقلَّهم. قالوا: ولو كان الأطفال قد فُطِروا على شيءٍ من الكفر والإيمان في أوَّليَّة أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نَجِدُهم يؤمنون ثم يكفرون [ويكفرون ثم يؤمنون]. قالوا: ويستحيلُ في المعقول أن يكون الطفلُ في حين ولادته يعقلُ كفراً أو إيماناً؛ لأنَّ الله أخرجهم في حالٍ لا يفقهون معها شيئاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] فمَنْ لا يعلمُ شيئاً استحالَ منه كفرٌ أو إيمان، أو معرفةٌ أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصَحُّ ما قيل في معنى الفطرة التي يولَدُ الناسُ عليها. ومن الحجَّة أيضاً في هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] و﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ومن لم يبلُغْ وقتَ العمل لم يرتهن بشيء. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولمَّا أجمعوا على دفعِ القَوَد والقصاصِ والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك، والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفِطرةُ المذكورةُ الإسلامَ، كما قال ابن شهاب؛ لأنَّ الإسلام والإيمان: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، وهذا معدومٌ من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل.

وأما قول الأوزاعي: سألتُ الزهرِيَّ عن رجلٍ عليه رَقَبَةٌ أيُجزِئُ عنه الصبيُّ أن يَعتِقَه وهو رضيع؟ قال: نعم؛ لأنه وُلِدَ على الفِطرة يعني الإسلام، فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه؛ لأنَّ حُكمَه حُكمُ أبويه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزِي في الرقابِ الواجبةِ إلَّا مَنْ صام وصلَّى، وليس في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ولا في «أن يختمَ اللهُ للعبد بما قضاه له وقدَّره عليه» دليلٌ على أنَّ الطفل يولَدُ حين يولَدُ مؤمناً أو كافراً؛ لِما شهدتْ له العقولُ أنه في ذلك الوقت ليس ممَّن يعقِلُ إيماناً ولا كفراً، والحديث الذي جاء فيه: «أنَّ الناس خُلِقوا على طبقات» ليس من الأحاديث التي لا مَطعنَ فيها؛ لأنَّه انفرد به عليُّ بن زيد بن جُدْعان، وقد كان شعبة يتكلَّم فيه، على أنه يحتمل قوله: «يولَدُ مؤمناً» أي: يُولَدَ ليكون مؤمناً، ويُولَدَ ليكون كافراً على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث: «خلقتُ هؤلاء للجنة، وخلقتُ هؤلاء للنار» أكثرَ من مراعاة ما يُختَمُ به لهم، لا أنهم في حين طفولتهم ممَّن يستحِقُّ جنةً أو ناراً، أو يعقِلُ كفراً أو إيماناً[١].

قلت: وإلى ما اختاره أبو عمر واحتجَّ له ذهبَ غيرُ واحدٍ من المحقِّقين، منهم ابن عطية في «تفسيره» في معنى الفطرة، وشيخُنا أبو العباس؛ قال ابن عطية[٢]: والذي يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلْقةُ والهيئةُ التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّةٌ ومهيَّأةٌ لِأَنْ يُميِّزَ بها مصنوعات الله تعالى، ويستدِلَّ بها على ربِّه، ويعرفَ شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقِمْ وجهَك للدِّين الذي هو الحنيف، وهو فِطْرةُ الله الذي على الإعداد له فِطَرُ البشر، لكن تَعرِضُهم العوارض؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانه» فذِكْرُ الأبوين إنما هو مثالٌ للعوارض التي هي كثيرة. وقال شيخنا في عبارته[٣]: إنَّ الله تعالى خلقَ قلوب بني آدم

---

(١) التمهيد ١٨/ ٦٨ و٧٠ و٧١ و٧٦ و٧٧ و٨٢ و٨٣ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦ .

(٣) في المفهم ١/ ٦٧٦ .

مؤهَّلَةً لقبول الحق، كما خلق أعينَهم وأسماعَهم قابلةً للمرئيات والمسموعات، فما دامَتْ باقيةً على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركتِ الحقَّ ودينَ الإسلام وهو الدِّين الحق. وقد دلَّ على هذا المعنى قوله: «كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني أن البهيمة تَلِدُ ولدَها كاملَ الخِلْقةِ سليماً من الآفات، فلو تُرِكَ على أصل تلك الخِلْقةِ لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه، فتُجدَعُ أذنُه ويُوسَمُ وجهُه، فتطرأ عليه الآفاتُ والنقائصُ فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيهٌ واقعٌ، ووجهه واضح.

قلت: وهذا القول مع القول الأوَّل موافقٌ له في المعنى، وأنَّ ذلك بعد الإدراك حين عقَلوا أمر الدنيا، وتأكَّدت حُجَّةُ الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة، من خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبرِّ والبحر، واختلاف الليل والنهار، فلما عمِلَتْ أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعَتْهم إلى اليهودية والنصرانية، فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً، وأنهم إن ماتوا صغاراً في الجنة، أعني جميعَ الأطفال؛ لأنَّ الله تعالى لمَّا أخرجَ ذريةَ آدمَ من صلبه في صورة الذَّرِّ أقرُّوا له بالربوبية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ثم أعادهم في صُلبِ آدم بعد أن أقرُّوا له بالرُّبوبية، وأنه اللهُ لا إله غيرُه، ثم يُكتَبُ العبدُ في بطن أمِّه شقِيًّا أو سعيداً على الكتاب الأوَّل، فمن كان في الكتاب الأوَّل شقيًّا عُمِّرَ حتى يجري عليه القلمُ، فينقضَ الميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأوَّلِ سعيداً عُمِّر حتى يجري عليه القلمُ فيصيرُ سعيداً، ومن ماتَ صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلمُ فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فماتَ قبل أن يجري عليه القلم، فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوّل الذي أُخِذَ عليهم في صُلب آدم ولم ينقُضِ الميثاق. ذهب إلى هذا جماعةٌ من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قوله عليه الصلاة والسلام لمَّا سُئِلَ عن أولاد

المشركين، فقال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»[١] يعني: لو بلغوا.

ودلَّ على هذا التأويل أيضاً حديثُ البخاريِّ[٢] عن سَمُرة بن جُنْدَبُ عن النبي ﷺ... الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأمَّا الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإبراهيمُ عليه السلام، وأما الوِلدانُ حولَه فكلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة». قال: فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولادُ المشركين». وهذا نصٌّ يرفع الخلاف، وهو أصحُّ شيءٍ رُوي في هذا الباب، وغيرُه من الأحاديث فيها عِلَلٌ وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء. قاله أبو عمر بن عبد البر[٣]. وقد رُويَ من حديث أنس قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «لم تكُنْ لهم حسناتٌ فيُجْزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم تكن لهم سيئاتٌ فيُعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار، فهم خَدَمٌ لأهل الجنة» ذكره يحيى بن سلاَّم في التفسير له[٤]. وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب «التذكرة»[٥]، وذكرنا في كتاب «المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس» ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله. وذكر إسحاق بن راهويه قال: حدَّثنا يحيى بن آدم قال: أخبرنا جرير بن حازم، عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ يقول: لا يزالُ أمرُ هذه الأمة مواتياً أو متقارباً - أو كلمة تشبه هاتين - حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر. قال يحيى بن آدم: فذكرتُه لابن المبارك، فقال: أيسكتُ الإنسانُ على الجهل؟ قلتُ: فتأمرُ بالكلام؟ قال: فسكت[٦]. وقال أبو بكر الوراق: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣٤)، والبخاري (٦٥٩٧)، ومسلم (٢٦٦٠) عن ابن عباس ، وأخرجه أحمد (٧٣٢٥)، والبخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) عن أبي هريرة .

(٢) في صحيحه (٧٠٤٧)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٩٤)، وقد سلف بعضه ٢/ ٣٤٩.

(٣) في التمهيد ١٨/ ١١٨ و١٣٠.

(٤) وأخرجه الطيالسي (٢١١١)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٠٨ من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس ، به. يزيد الرقاشي: هو ابن أبان، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٤/ ٤١٨ - ٤١٩.

(٥) ص ٥١١ - ٥١٧.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٣١.

عَلَيْهَاۚ﴾: هي الفقر والفاقة. وهذا حسن؛ فإنه منذُ وُلِدَ إلى حين يموت فقيرٌ محتاج، نعم! وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هذه الفطرةُ لا تبديلَ لها من جهة الخالق. ولا يجيء الأمرُ على خلاف هذا بوجه، أي: لا يشقى مَنْ خَلَقَه سعيداً، ولا يسعَدُ مَنْ خَلَقَه شقيًّا. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديلَ لدين الله. وقاله قتادة وابن جُبير والضحّاك وابن زيد والنَّخَعيّ؛ قالوا: هذا معناه في المعتقدات. وقال عكرمة: ورُوي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أنَّ المعنى: لا تغييرَ لخلق الله من البهائم أن تُخصى فحولُها، فيكون معناه النهيَ عن خِصاء الفحول من الحيوان[1]. وقد مضى هذا في «النساء»[2]. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أي: ذلك القضاء المستقيم. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: ذلك الحسابُ البيِّن[3]. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أي: دينُ الإسلام هو الدينُ القيِّمُ المستقيم[4]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيعلمون أنَّ لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذَ حُكمُه.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اختُلِفَ في معناه، فقيل: راجعينَ إليه بالتوبة والإخلاص[5]. وقال يحيى بن سلاَّم والفرَّاء: مُقبلين إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد: مُطيعين له. وقيل: تائبين إليه من الذنوب؛ ومنه قول [أبي] قيس بن الأَسْلَت:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٢، وقول مجاهد ومن وافقه أخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٤٩٤ - ٤٩٦، وكذلك أخرج القول الذي يليه عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

(٢) ٧/ ١٤٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٢.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٣٣.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣.

فـإن تـابـوا فـإنَّ بـنـي سُـلَـيـمٍ وقـومَـهُـمُ هـوازِنَ قـد أنـابـوا

والمعنى واحد؛ فإن «ناب وتاب ثاب وآب» معناه الرجوع. قال الماورديُّ[1]:
وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما ـ أنَّ أصلَه القطع، ومنه أُخِذَ اسمُ النَّاب؛ لأنه قاطع، فكأنَّ الإنابةَ هي الانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ بالطاعة. الثاني ـ أصله الرجوع، مأخوذٌ من نابَ ينوبُ إذا رجع مرةً بعد أخرى، ومنه النَّوْبة؛ لأنها الرجوعُ إلى عادة. الجوهري[2]: وأناب إلى الله: أقبل وتاب. والنَّوْبة واحدةُ النُّوَب، تقول: جاءت نَوْبَتُك ونيابتُك، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره.

وانتصب على الحال؛ قال محمد بن يزيد: لأنَّ معنى: «أَقِمْ وَجْهَكَ»: فأقيموا وجوهَكم منيبين. وقال الفرَّاء: المعنى: فأقِمْ وجهَكَ ومَنْ معكَ منيبين[3]. وقيل: انتصبَ على القطع، أي: فأقِمْ وجهَكَ أنتَ وأمتكَ المنيبين إليه؛ لأنَّ الأمرَ له أمرٌ لأُمَّته، فَحسُنَ أن يقول: منيبين إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[4] [الطلاق: ١]. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وامتثِلوا ما أمركم به. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بيَّن أنَّ العبادة لا تنفع إلَّا مع الإخلاص؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء»[5] و«الكهف»[6]. وغيرهما.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ تأوَّله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة: أنه لأهل القبلة من

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣١٣، وما قبله منه.

(٢) في الصحاح (نوب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٥.

(٥) ٦/ ٢٩٧ فما بعد.

(٦) ١١/ ٢٠٦ فما بعد.

أهل الأهواء والبِدَع[١]. وقد مضى في الأنعام[٢] بيانُه. وقال الربيع بن أنس: الذين فرَّقوا دينَهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى[٣]. وقاله قتادة ومَعْمَر[٤].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقُوا دِينَهم﴾، وقد قرأ بذلك عليُّ بن أبي طالب[٥]، أي: فارقوا دينَهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد[٦]. ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً. قاله الكَلْبيُّ. وقيل: أدياناً. قاله مقاتل. ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورونَ مُعجَبون[٧]؛ لأنهم لم يتبيَّنوا الحقَّ وعليهم أن يتبيَّنوه[٨]. وقيل: كان هذا قبل أن تنزل الفرائض[٩]. وقول ثالث: أنَّ العاصي لله عزَّ وجلَّ قد يكون فَرِحاً بمعصيته، فكذلك الشيطانُ وقُطَّاعُ الطريق وغيرُهم، والله أعلم. وزعم الفرَّاء أنه يجوز أن يكون التمام ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ويكون المعنى: من الذين فارقوا دينَهم ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ على الاستئناف، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله. النحَّاس[١٠]: وإذا كان متَّصلاً بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:٧٥] ولو كان بلا حرف لجاز.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٢) ٩/ ١٣٣ فما بعد.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٩٨ عن قتادة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٢٧٤ ، والتيسير ص ١٠٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٤ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦١ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ ، وما قبله منه. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٢٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: قَحْطٌ وشِدَّة[(١)] ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: مُقبِلين عليه بكلِّ قلوبهم لا يشركون[(٢)]. ومعنى هذا الكلام التعجُّب؛ عجب نبيَّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحُججِ عليهم؛ أي إذا مسَّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرضٍ وشدَّةٍ دَعَوْا ربَّهم، أي: استغاثوا به في كشف ما نزلَ بهم، مُقبلين عليه وحدَه دون الأصنام؛ لعلمهم بأنَّه لا فَرَج عندها. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: عافية ونعمة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يشركون به في العبادة.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: هي لامُ كي. وقيل: هي لامُ أمرٍ فيه معنى التهديد، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[(٣)] [الكهف: ٢٩]. ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد[(٤)]. وفي مصحف عبد الله: «وَليتَمتَّعُوا»[(٥)]، أي: مكَّناهم من ذلك لكي يتمتَّعوا، فهو إخبارٌ عن غائب، مثل: «لِيَكْفُرُوا». وهو على خطِّ المصحف خطابٌ بعد الإخبار عن غائب، أي: تمتَّعوا أيها الفاعلون لهذا[(٦)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ استفهامٌ فيه معنى التوقيف. قال الضحَّاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢٢، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦.

«سُلْطَاناً» أي: كتاباً[١]. وقاله قتادة والربيع بن أنس[٢]. وأضافَ الكلامَ إلى الكتاب توسُّعًا. وزعم الفرَّاءُ أنَّ العربَ تؤنِّث السلطان؛ تقول: قضَتْ به عليكَ السلطانُ. فأما البصريون فالتذكيرُ عندهم أفصحُ، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائزٌ؛ لأنه بمعنى الحجة[٣]، أي: حُجَّةٌ تنطقُ بشِرْكِكم. قاله ابن عباس والضحَّاك أيضاً[٤]. وقال عليُّ بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال: سُلطان جمع سَليط؛ مثل رَغيف ورُغْفان، فتذكيرُه على معنى الجمع، وتأنيثُه على معنى الجماعة[٥]. وقد مضى في «آل عمران»[٦] الكلامُ في السلطان أيضاً مستوفى. والسلطان: ما يدفعُ به الإنسانُ عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ يعني الخِصْبَ والسَّعةَ والعافية. قاله يحيى بن سلاَّم. النَّقَّاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدَّعَة. والمعنى متقارب. ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: بالرحمة. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاءٌ وعقوبة. قاله مجاهد. السُّدِّي: قحط المطر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من الرحمة والفَرَج. قاله الجمهور. وقال الحسن: إنَّ القنوطَ تركُ فرائضِ الله سبحانه وتعالى في السرّ[٧]. قَنِطَ يَقْنَطُ، وهي قراءة العامَّة. وقَنَطَ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٤ عن قتادة، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٠٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٢ من غير نسبة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٦) ١/ ٣٥٧.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٥.

يَقْنِطُ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب[١]. وقرأ الأعمش: «قَنِطَ يَقْنِطُ» بالكسر فيهما، مثل حَسِبَ يَحْسِبُ. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدَّة، ويبطَر عند النعمة، كما قيل:

كحمارِ السَّوءِ إن أعلَفْتَهُ رَمَحَ الناسَ[٢] وإن جاعَ نَهَقْ[٣]

وكثيرٌ ممن لم يرسُخِ الإيمانُ في قلبه بهذه المثابة، وقد مضى في غير موضع. فأما المؤمن فيشكر ربَّه عند النعمة، ويرجوه عند الشدَّة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّعُ الخير في الدنيا لمن يشاء ويُضيِّق لمن يشاء، فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى ـ لمَّا تقدَّم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِرُ أمرَ مَنْ وسَّعَ عليه الرزقَ أن يُوصِلَ إلى الفقير كفايتَه؛ ليمتحِنَ شكرَ الغنيِّ. والخطابُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والمرادُ هو وأمتُه؛ لأنه قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وأمرَ بإيتاء ذي القربى؛ لِقُرْب رَحِمِه، وخيرُ الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلةُ الرِّحِم. وقد

---

(١) السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/٣٠٢.

(٢) أي: ضرب الناس بحافره. اللسان (رمح).

(٣) قائله مسكين الدارمي، وهو في الشعر والشعراء ص ٥٤٤، وبهجة المجالس ١/١٠٤، وخزانة الأدب ٣/٧٠.

فضَّل رسولُ الله ﷺ الصدقةَ على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً: «أما إنَّكِ لو أعطيْتِها أخوالَكِ كان أعظَمَ لأجْرِك»[١].

الثانية ـ واختُلِفَ في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخةٌ بآية المواريث. وقيل: لا نسخَ، بل للقريب حقٌّ لازمٌ في البرِّ على كل حال، وهو الصحيح.

قال مجاهد وقتادة: صِلةُ الرَّحِم فرضٌ من الله عزَّ وجلَّ، حتى قال مجاهد: لا تُقبَلُ صدقةٌ من أحدٍ ورَحِمُه محتاجة. وقيل: المرادُ بالقربى أقرباءُ النبيِّ ﷺ[٢]. والأوَّل أصحُّ؛ فإنَّ حقَّهم مُبيَّنٌ في كتاب الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقيل: إنَّ الأمرَ بالإيتاء لذي القُربى على جهة النَّدب. قال الحسن: «حقَّه» المواساة في اليسر، وقولٌ ميسورٌ في العسر[٣]. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس: أي أطعِمِ السائلَ الطوَّاف[٤]. «وابن السبيل»: الضيف[٥]، فجعل الضيافةَ فرضاً، وقد مضى جميعُ هذا مبسوطاً مُبيَّنًا في مواضعه[٦]، والحمد لله.

الثالثة ـ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: إعطاءُ الحقِّ أفضلُ من الإمساك إذا أُريدَ بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة. وقد تقدَّم في «البقرة»[٧] القولُ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٨٢٢)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٦.

(٦) ٢/ ٢٣٢ و٣/ ٥٩ و١٠/ ٢١ - ٢٢.

(٧) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ لمَّا ذكر ما يُراد به وجهُه ويُثيبُ عليه ذكرَ غيرَ ذلك من الصفة وما يُراد به أيضاً وجهُه.

وقرأ الجمهور: «آتَيْتُمْ» بالمدِّ بمعنى: أعطيتُم. وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ، بمعنى: ما فعلتُم من رِبًا لِيَرْبُو؛ كما تقول: أتيتُ صواباً وأتيتَ خطأً. وأجمعوا على المدِّ في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. والربا الزيادة[1]. وقد مضى في «البقرة» معناه[2]، وهو هناك مُحرَّمٌ وها هنا حلال. وثبتَ بهذا أنه قسمان: منه حلالٌ ومنه حرام[3]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: الرِّبا رِبَوان، ربا حلال وربا حرام؛ فأما الرِّبا الحلال فهو الذي يُهْدَى، يُلتمس ما هو أفضلَ منه. وعن الضحَّاك في هذه الآية: هو الرِّبا الحلال الذي يُهدى لِيُثَابَ ما هو أفضلُ منه، لا له ولا عليه، ليس له فيه أجرٌ وليس عليه فيه إثم. وكذلك قال ابن عباس: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ يريدُ هديةَ الرجلِ الشيءَ يرجو أن يُثابَ أفضلَ منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، ولا يُؤجَرُ صاحبه، ولكن لا إثمَ عليه، وفي هذا المعنى نزلت الآية[4]. قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد: هذه آيةٌ نزلت في هِبة الثواب. قال ابن عطية[5]: وما جرى مجراها ممَّا يصنعه الإنسان لِيُجازى عليه كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثمَ فيه فلا أجرَ فيه ولا زيادةَ عند الله تعالى. وقاله القاضي أبو بكر بن العربي[6]. وفي كتاب النَّسائي عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدمَ وفدُ ثَقيفٍ على رسول الله ﷺ ومعهم هديَّةٌ فقال: «أهديةٌ أم صدقة؟ فإن كانت

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وقراءة الجمهور وقراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص٣٠ .

(٢) ٤/ ٣٨١ - ٣٩٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧٩ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١ . وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٤ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما قبله منه.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٩ .

هديةً فإنَّما يُبْتَغَى بها وجهُ رسولِ الله ﷺ وقضاءُ الحاجة، وإن كانت صدقةً فإنما يُبْتَغى بها وجهُ الله عزَّ وجلَّ» قالوا: لا بل هدية. فقَبِلها منهم، وقعدَ معهم يُسائلهم ويسألونه[١]. وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النَّخَعي: نزلت في قومٍ يُعطون قراباتِهم وإخوانَهم على معنى نفْعهِم وتمويلِهم والتفضُّلِ عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجهِ النفع لهم. وقال الشَّعبيُّ: معنى الآية: أنَّ ما خدمَ الإنسانُ به أحداً وخفَّ له لينتفع به في دنياه فإنَّ ذلك النفعَ الذي يَجزي به الخدمةَ لا يربو عند الله[٢]. وقيل: كان هذا حراماً على النبيِّ ﷺ على الخصوص؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] فنهى أن يُعطى شيئاً فيأخذَ أكثرَ منه عِوضاً[٣]. وقيل: إنَّه الربا المحرَّم[٤]، فمعنى: «لا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ» على هذا القول لا يُحكَمُ به لآخذِه، بل هو للمأخوذِ منه[٥]. قال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش[٦].

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمَنْ يَهبُ يطلُبُ الزيادة من أموال الناس في المكافأة[٧]. قال المُهَلَّب: اختلفَ العلماءُ فيمن وَهَب هبةً يطلبُ ثوابَها وقال: إنما أردتُ الثواب، فقال مالكٌ: يُنظَرُ فيه؛ فإن كان مثلُه ممن يطلبُ الثوابَ من الموهوبِ له فله ذلك، مثلُ هبة الفقير للغنيِّ، وهبةُ الخادم لصاحبه، وهبةُ

(١) سنن النسائي ٦/ ٢٧٩، وسنن النسائي الكبرى (٦٥٥٧) من طريق أبي حذيفة، عن عبد الملك بن محمد بن نُسَير، عن عبد الرحمن بن علقمة، به. أبو حذيفة وعبد الملك مجهولان فيما ذكره الحافظ في التقريب.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٤ عن الحسن البصري.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٠.

الرجل لأميره ومَن فوقه. وهو أحد قَولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثوابٌ إذا لم يشترط. وهو قول الشافعيِّ الآخر؛ قال: والهبةُ باطلةٌ لا تنفعه؛ لأنها بيعٌ بثمنٍ مجهول. واحتجَّ الكوفيُّ بأنَّ موضوع الهبة التبرُّع، فلو أوجَبْنا فيها العِوضَ لَبطلَ معنى التبرُّعِ وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرَّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظَ البيع على ما يُستَحقُّ فيه العِوَض، والهبةُ بخلاف ذلك. ودليلُنا ما رواه مالك في «موطَّئه» عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما رجلٍ وهَبَ هبةً يرى أنها للثواب فهو على هِبته حتى يرضى منها[1]. ونحوه عن عليٍّ ﷺ قال: المواهبُ ثلاثةٌ: مَوْهبةٌ يُرادُ بها وجهُ الله، وموهبةٌ يُرادُ بها وجوهُ الناس، وموهبةٌ يُرادُ بها الثواب؛ فموهبةُ الثواب يرجع فيها صاحبُها إذا لم يُثَبْ منها[2]. وترجم البخارِيُّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساقَ حديث عائشة قالت: كانَ رسول الله ﷺ يقبلُ الهديةَ ويُثيبُ عليها[3]. وأثابَ على لِقْحةٍ[4] ولم يُنْكِرْ على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة. خرَّجه الترمذي[5].

الثالثة - ما ذكره عليٌّ ﷺ وفصَّله من الهبة صحيح، وذلك أنَّ الواهبَ لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال: أحدها - أن يُريدَ بها وجهَ الله تعالى ويبتغي عليها الثوابَ منه. والثاني - أن يُريدَ بها وجوهَ الناس رياءً؛ ليحمدوه عليها، ويُثنوا عليه من أجلها. والثالث - أن يُريد بها الثوابَ من الموهوب له، وقد مضى الكلامُ فيه. وقال ﷺ: «الأعمالُ بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»[6]. فأمَّا إذا أراد بهبتِه وجهَ الله تعالى، وابتغى عليه الثواب من عنده، فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛ قال الله عزَّ وجلَّ:

(١) الموطأ ٢/ ٧٥٤.
(٢) أخرجه مالك في المدونة الكبرى ٦/ ١٠٩ و١٤١.
(٣) صحيح البخاري (٢٥٨٥)، وهو في مسند أحمد (٢٤٥٩١).
(٤) جمع لقاح: وهي ذوات الألبان من النوق. اللسان (لقح).
(٥) في سننه (٣٩٤٥)، وهو في مسند أحمد (٧٩١٨).
(٦) سلف ٣/ ٢٧٠.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وكذلك مَنْ يصِلُ قرابتَه ليكون غنيًّا حتى لا يكون فقيراً[1] كَلَّا فالنية في ذلك متبوعة؛ فإن كان ليتظاهرَ بذلك ديناً فليس لوجه الله، وإن كان لِما له عليه من حقِّ القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله.

وأمَّا من أراد بهبتِه وجوهَ الناس رياءً ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها، فلا منفعةَ له في هبته، لا ثوابَ في الدنيا ولا أجرَ في الآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآيـــة: [البقرة: ٢٦٤].

وأمَّا مَنْ أراد بهبته الثوابَ من الموهوب له فله ما أرادَ بهبته، وله أن يرجع فيها ما لم يُثَبْ بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرضَ منها بأزْيَدَ من قيمتها، على ظاهر قول عمرَ وعليٍّ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة: أنَّ الهبةَ ما كانت قائمةَ العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوعُ فيها وإن أثابه الموهوبُ فيها أكثرَ منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمةَ العين لم تتغيَّر فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمةُ كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فَوْتِ الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً. قاله ابن العربي[2].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ قرأ جمهور القرَّاء السبعة: «ليربو» بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافعٌ وحده: بضمِّ التاء [والواو] ساكنةٌ على المخاطبة، بمعنى: تكونوا ذَوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشَّعبي. قال أبو حاتم: هي قراءتُنا. وقرأ أبو مالك: «لتربوها» بضمير مؤنث[3]. ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يزكو ولا يُثيبُ عليه؛ لأنه لا يقبلُ إلَّا ما أُريدَ به وجهُه وكان خالصاً له، وقد تقدَّم في

(١) كلمة فقيراً من (ظ).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما بين حاصرتين ليس فيه ولا في النسخ، وهو من زاد المسير ٦/ ٣٠٤ . وقراءة نافع في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ١٧٥ . وقراءة أبي مالك شاذة.

«النساء»(١). ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال ابن عباس: أي: من صدقة(٢). ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرةَ أضعافه أو أكثر، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ولم يقلْ: فأنتم المضعفون؛ لأنه رجعَ من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

وفي معنى المُضْعِفِين قولان: أحدهما ـ أنه تُضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر ـ أنهم قد أُضعِفَ لهم الخير والنعيم، أي: هم أصحابُ أضعاف، كما يُقال: فلانٌ مُقْوٍ إذا كانت إبِلُه قويةً، أَوْلَه أصحابُ أقوياء(٣). ومُسْمِنٌ إذا كانت إبلُه سِماناً، ومُعْطِشٌ إذا كانت إبلُه عِطاشاً، ومُضعِفٌ إذا كانت إبلُه ضعيفةً؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الخبيثِ المُخْبِثِ الشيطانِ الرجيم»(٤). فالمُخبِثُ: الذي أصابه خبث، يقال: فلانٌ رديء أي هو رَدِيء في نفسه. ومُرْدِئ: أصحابُه أردِئاء(٥).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر. وعادَ الكلامُ إلى الاحتجاج على

---

(١) ٧/ ١٧٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٣ - ١٠٤، والطبري ١٨/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٩) من طريق عبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. قال البوصيري: إسناده ضعيف؛ قال ابن حبان: إذا اجتمع في إسناد خبرٍ عبيد الله ابن زَحر وعلي بن يزيد والقاسم، فذاك مما عملته أيديهم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ ببعضه.

المشركين، وأنه الخالقُ الرازقُ المميتُ المُحيي. ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا يفعل. ثم نزَّه نفسَه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأضافَ الشركاءَ إليهم لأنهم كانوا يسمُّونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ اختلف العلماء في معنى الفسادِ والبرِّ والبحر، فقال قتادة والسُّدِّي: الفساد: الشرك، وهو أعظم الفساد[١]. وقال ابن عباس وعِكرمة ومجاهد: فسادُ البرِّ قتلُ ابنِ آدم أخاه؛ قابيلُ قتلَ هابيل. وفي البحر بالْمَلِك الذي كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً[٢]. وقيل: الفسادُ: القحطُ وقِلَّةُ النبات وذهابُ البركة[٣]. ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصانُ البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحَّاس: وهو أحسن ما قيل في الآية[٤]. وعنه أيضاً: أنَّ الفساد في البحر: انقطاعُ صيدِه بذنوب بني آدم[٥]. وقال عطية: فإذا قلَّ المطرُ قلَّ الغَوْصُ عنده، وأخفقَ الصيادون، وعميت دوابُّ البحر[٦]. وقال ابن عباس: إذا مطرتِ السماءُ تفتحتِ الأصدافُ في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ[٧]. وقيل: الفسادُ: كسادُ الأسعار وقِلَّةُ المعاش. وقيل: الفسادُ: المعاصي وقطعُ السبيل والظلم[٨]، أي: صار

(١) زاد المسير ٦/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٦٤، والطبري ١٨/ ٥١١ - ٥١٢ عن مجاهد، وهو كذلك في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٢٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٣٥، والوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٣٠٦ مختصراً، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٢.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

هذا العملُ مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كلُّه متقارب. والبرُّ والبحرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، لا ما قاله بعض العُبَّاد: أنَّ البرَّ اللسانُ، والبحرَ القلبُ؛ لظهور ما على اللسان وخفاءِ ما في القلب. وقيل: البَرُّ: الفَيافي، والبحر: القُرى. قاله عكرمة. والعرب تسمِّي الأمصارَ البحار. وقال قتادة: البَرُّ: أهل العمود، والبحر: أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إنَّ البرَّ ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شطِّ نهر[1]. وقاله مجاهد؛ قال: أمَا واللهِ ما هو بحرُكم هذا، ولكن كلُّ قريةٍ على ماءٍ جارٍ فهي بحر[2]. وقال معناه النحَّاس؛ قال: في معناه قولان: أحدهما ـ ظهر الجَدْب في البر، أي: في البوادي وقُراها، وفي البحر أي: في مدن البحر، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]. أي: ظهر قِلَّةُ الغيث وغلاءُ السعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ﴾ أي: عقاب بعض ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ثم حذف. والقول الآخر ـ أنه أظهرتِ المعاصي مِنْ قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأوَّلُ مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذفٌ واختصارٌ دَلَّ عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرتِ المعاصي في البَرِّ والبحر، فحبس اللهُ عنهما الغيثُ، وأغلى سعرهم؛ ليذيقهم عقابَ بعضِ الذي عملوا. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّهم يتوبون[3]. وقال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لأنَّ معظمَ الجزاء في الآخرة.

والقراءة «لِيُذِيقَهُمْ» بالياء. وقرأ ابن عباس بالنون، وهي قراءة السُّلَمي وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم، أي: نُذيقهم عقوبةَ بعض ما عملوا[4].

---

(١) النكت والعيون ٤/٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٣/ ٥٨٣ و١٨/ ٥١٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٣١).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ .

(٤) زاد المسير ٦/٣٠٦ عنهم وعن عكرمة وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠ عن قنبل والسلمي والأعرج. ورواية قنبل عن ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ١٧٥ . وقراءة يعقوب وهو من العشرة في رواية روح عنه في النشر ٢/ ٣٤٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: سيروا في الأرض ليعتبروا بمَنْ قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبةُ مَنْ كذَّب الرسل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي: كافرين فأُهلِكوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ قال الزجَّاج: أي: أقِمْ قصدَك، واجعل جهتَك اتِّباعَ الدِّين القيِّم، يعني الإسلام[١]. وقيل: المعنى: أوضحِ الحقَّ، وبالِغْ في الإعذار، واشتغِلْ بما أنت فيه، ولا تحزَنْ عليهم.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يردُّه الله عنهم، فإذا لم يرُدَّه لم يتهيَّأْ لأحدٍ دفْعُه. ويجوز عند غير سيبويه «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ» وذلك عند سيبويه بعيد، إلَّا أن يكون في الكلام عطف[٢]. والمراد يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: يتفرَّقون. وقال الشاعر:

وكُنَّا كنَدْمانَيْ جَذيمةَ حِقْبةً ... من الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدَّعا

أي: لن يتفرَّقا؛ نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعير[٣]. والأصل يتصدَّعون، ويقال: تصدَّع القومُ إذا تفرَّقوا؛ ومنه اشتُقَّ الصُّداعُ؛ لأنه يُفرِّق شُعَبَ الرأس[٤].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٨ - ٣١٩ ، والبيت قائله متمم بن نويرة، وهو في المفضليات ص٢٦٧ ، والشعر والشعراء ١/ ٣٣٨ ، والكامل ٣/ ١٤٤٠ ، وبهجة المجالس ٢/ ٨٠٥ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاء كفره[١]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح[٢]. ومنه: مهدُ الصبيِّ. والمهادُ: الفراشُ، وقد مَهَدْتُ الفراشَ مَهْدًا: بسطتُه ووطّأتُه. وتمهيدُ الأمور: تسويتُها وإصلاحُها. وتمهيدُ العُذرِ: بسطُه وقبولُه. والتمهُّد: التمكُّن[٣]. وروى ابن أبي نَجِيحٍ عن مجاهد: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: في القبر[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يَمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل: يصَّدَّعون ليجزيهم الله، أي: ليميِّز الكافر من المسلم. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: ومن أعلام كمال قدرته إرسالُ الرياح مبشِّراتٍ، أي: بالمطر لأنها تتقدَّمه[٥]. وقد مضى في «الحِجر»[٦] بيانه. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني الغيث والخصب[٧]. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي: في البحر عند هبوبها. وإنما زاد «بِأَمْرِهِ» لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية، فلا بُدَّ من إرساء

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤ ، وزاد المسير ٦/ ٣٠٧ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٩ عن يحيى بن سلام.

(٣) الصحاح (مهد).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٦ - ٥١٧ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧ ، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١٥٥).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥ .

(٦) ١٢/ ١٩٤ .

(٧) الوسيط ٣/ ٤٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ٣٠٨ .

السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتْها بأمره. ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يعني الرزق بالتجارة[1] ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة. وقد مضى هذا كلُّه مبيناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات والحجج النيِّرات ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ أي: فكفروا فانتقمنا ممَّن كفر. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ «حقًّا» نصب على خبر كان، و«نصر» اسمها[2]. وكان أبو بكر يقف على «حَقًّا» أي: وكان عقابُنا حقًّا، ثم قال: «علينا نصرُ المؤمنين» ابتداء وخبر[3]؛ أي: أخبر بأنه لا يخلف الميعاد، ولا خُلْف في خبرنا.

ورُويَ من حديث أبي الدَّرداء، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلمٍ يَذُبُّ عن عرضِ أخيه إلَّا كان حقًّا على اللهِ تعالى أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم يوم القيامة» ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ذكره النحَّاس والثعلبيُّ والزّمخشريُّ وغيرهم[4].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٨ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ۝٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن مُحَيصن وابن كثير وحمزة

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٥ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٥ بمعناه.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ ، والكشاف ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦ . وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (١٣٤) والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٨٦ من طريق ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء ﷺ، به. ليث وشهر ضعيفان. وهو في مسند أحمد (٢٧٥٣٦) دون ذكر الآية.

والكسائي: «الريح» بالتوحيد. والباقون بالجمع[١]. قال أبو عمرو: وكلُّ ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحَّد[٢]. وقد مضى في «البقرة»[٣] معنى هذه الآية وفي غيرها.

«كِسَفًا» جمع كِسْفة: وهي القطعة. وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر «كِسَفًا» بإسكان السين، وهي أيضاً جمع كِسْفة؛ كما يقال: سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المُضمَرُ الذي بعده عائداً عليه، أي: فترى الودقَ ـ أي المطر ـ يخرج من خلال الكِسَف؛ لأنَّ كلَّ جَمْعٍ بينه وبين واحده الهاء لا غير، فالتذكيرُ فيه حَسَن. ومن قرأ: «كِسَفًا» فالمضمر عنده عائدٌ على السحاب. وفي قراءة الضحَّاك وأبي العالية وابن عباس: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ» ويجوز أن يكون خَلَل جمعَ خِلال[٤]. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم[٥].

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾ أي: يائسين مكتئبين قد ظهر الحزنُ عليهم لاحتباس المطرِ عنهم[٦]. و«مِنْ قَبْلِهِ» تكريرٌ عند الأخفش معناه التأكيد، وأكثر النَّحويين على هذا القول. قاله النحَّاس. وقال قُطْرُب: إن «قبل» الأولى للإنزال

---

(١) السبعة ص ١٧٢، والتيسير ص ٧٨ سوى قراءة ابن محيصن.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٣ دون نسبة، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١٩ ونسبه إلى أبي بن كعب ﷺ.

(٣) ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧. وقراءة: «كِسْفاً» بسكون السين عن ابن عامر برواية هشام عنه في السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ وعن أبي جعفر وهو من العشرة في النشر ٢/ ٣٤٥. وقراءة: «يخرج من خَلَلِهِ» في المحتسب ٢/ ١٦٤ عن ابن عباس والضحاك والحسن، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢ بمثله وزاد في نسبتها إلى علي، وزاد المسير ٦/ ٣٠٩ عن ابن عباس وأبي العالية وزاد في نسبتها إلى ابن مسعود ومجاهد، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢١.

والثانية للمطر، أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلَّ على الزرع المطرُ؛ إذ بسببه يكون. ودلَّ عليه أيضاً ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ على ما يأتي. وقيل: المعنى: من قبل السحاب من قبل رؤيته. واختار هذا القول النحّاس، أي: من قبل رؤية السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: ليائسين. وقد تقدَّم ذِكْرُ السَّحاب[1].

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني المطر[2]، أي: انظروا نظرَ استبصارٍ واستدلال، أي: استدِلُّوا بذلك على أنَّ من قدِرَ عليه قادرٌ على إحياء الموتى.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: «آثَارِ» بالجمع. الباقون بالتوحيد؛ لأنه مضافٌ إلى مفرد. والأثرُ فاعل «يُحْيي»، ويجوز أن يكون الفاعلُ اسمَ الله عزَّ وجلَّ. ومن قرأ: «آثَارِ» بالجمع فلأنَّ رحمةَ الله يجوز أن يُرادَ بها الكثرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[3] [إبراهيم: ٣٤]. وقرأ الجَحدرِيُّ وأبو حَيوة وغيرهما: «كَيْفَ تُحْيِي الأرضَ» بتاء، ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة؛ لأنَّ أثرَ الرحمة يقومُ مقامَها فكأنه هو الرحمة، أي: كيفَ تُحيي الرحمةُ الأرضَ أوِ الآثارُ. و«يُحيي» أي: يُحيي اللهُ عزَّ وجلَّ، أو المطرُ أو الأثرُ فيمن قرأ بالياء. و﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ في موضع نصبٍ على الحال على الحمل على المعنى؛ لأنَّ اللفظَ لفظُ الاستفهام، والحالَ خبرٌ؛ والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله مُحيِيةً للأرض بعد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩ دون قوله: وقيل: المعنى من قبل تنزيل الغيث... إلى قوله: على ما يأتي. وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٥٨ . وذكر السحاب سلف ٢/ ٥٠٢ - ٥٠٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢ .

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٤٨ - ٤٤٩ ، وينظر السبعة ص ٥٠٨ ، والتيسير ص ١٧٥ .

موتها[١]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ استدلالٌ بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ يعني الريح، والريح يجوز تذكيرُه. قال محمد بن يزيد: لا يمتنعُ تذكيرُ كلِّ مؤنثٍ غيرِ حقيقي، نحو أعجبني الدارُ وشبهه. وقيل: فرأوا السحاب. وقال ابن عباس: الزرع، وهو الأثر. والمعنى: فرأوا الأثَرَ مصفرًّا، واصفرارُ الزرعِ بعد اخضراره يدلُّ على يبسه، وكذا السحاب يدلُّ على أنه لا يمطر، والريح على أنها لا تُلقح. ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ أي: لَيَظَلُّنَّ؛ وحَسُنَ وقوعُ الماضي في موضع المستقبل لِما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكونُ إلَّا بالمستقبل. قاله الخليل وغيره[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: وَضَحتِ الحُججُ يا محمد؛ لكنَّهم لإلْفِهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولُهم وعمِيت بصائرُهم، فلا يتهيَّأ لكَ إسماعُهم وهدايتُهم. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: لا تُسمع مواعظَ الله إلَّا المؤمنين الذين يُصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهدايةَ. وقد مضى هذا في «النمل»[٣] ووقع قولُه ﴿بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ هنا بغير ياء[٤].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٥، ونسب قراءة: «كيف تُحيي الأرض» أيضاً إلى محمد بن السَّميفع، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣١٠ ونسبها إلى عثمان بن عفان وأبي رجاء وأبي عمران الجوني وسليمان التيمي، وهي قراءة شاذة.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧ دون قوله: واصفرار الزرع... إلى قوله: لا تلقح.

(٣) ١٦/ ٢٠٧.

(٤) الحجة في القراءات لابن زنجلة ص ٥٣٧.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر. ومعنى: «مِنْ ضَعْفٍ» من نطفةٍ ضعيفة. وقيل: «مِنْ ضَعْفٍ» أي: في حال ضعف، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني الشبيبة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ يعن الهرم[١].

وقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهنَّ، الباقون بالضم، لغتان، والضمُّ لغة النبيِّ ﷺ[٢]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «من ضَعْفٍ ثم جعل من بعد ضَعْفٍ» بالفتح فيهما، «ضُعْفًا» بالضمِّ خاصةً؛ أراد أن يجمع بين اللغتين[٣]. قال الفرَّاء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم[٤]. الجوهري: الضَّعْف والضُّعْف: خلاف القوّة[٥]. وقيل: الضَّعفُ بالفتح في الرأي، وبالضمِّ في الجسد[٦]؛ ومنه الحديث في الرجل الذي كان يُخدَعُ في البيوع... أنه يبتاع وفي عقْدَتِه ضُعف[٧].

﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر كالشَّيب، والمصدر يصلح للجملة، وكذلك القول في الضعف والقوّة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: من قوَّةٍ وضعف. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيره ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على إرادته.

وأجاز النَّحْويون الكوفيون «من ضَعَفٍ» بفتح العين، وكذا كلُّ ما كان فيه حرفٌ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٥ - ٥٢٦ بمعناه.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٥٠، وينظر السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣ عن الجحدري وأبي عبد الرحمن والضحاك عكس ذلك بأنهم ضمُّوا الضاد في الأول والثاني وفتحوا «ضعفاً».

(٤) زاد المسير ٣/ ٣٧٨.

(٥) الصحاح (ضعف).

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٤٨٢.

(٧) سلف ٤/ ٤٣٥ و٦/ ٦٦.

من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون[٢]. ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ليس في هذا ردٌّ لعذاب القبر؛ إذ كان قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ من غير طريقٍ أنه تعوَّذ منه، وأمر أن يُتعوَّذ منه، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبيُّ ﷺ أمَّ حبيبة وهي تقول: اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسولِ الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبةٍ، وأرزاقٍ مقسومة، ولكن سليه أن يُعيذَكِ من عذاب جهنَّم وعذابِ القبر» في أحاديثَ مشهورةٍ خرَّجها البخاريُّ ومسلم وغيرهما[٣]. وقد ذكرنا منها جملةً في كتاب «التذكرة»[٤].

وفي معنى: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قولان: أحدهما ـ أنه لا بُدَّ من خمدةٍ قبل يوم القيامة، فعلى هذا قالوا: ما لَبِثنا غيرَ ساعةٍ. والقول الآخر ـ أنهم يَعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] كأن لم يلبثوا إلَّا ساعةً من نهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيبٍ وعلى غيرِ ما يدرون؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يكذِّبون في الدنيا[٥]؛ يقال: أُفِكَ الرجلُ إذا صُرِفَ عن الصِّدقِ والخير، وأرضٌ مأفوكة: ممنوعةٌ من المطر[٦].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩، والحديث الذي ذكره المصنف أخرجه أحمد (٣٧٠٠)، ومسلم (٢٦٦٣). ووقع في النسخ سوى (ظ): خرجها مسلم والبخاري وغيرهما.

(٤) ص ١١٥ و١٤٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

وقد زعمَ جماعةٌ من أهل النظر أنَّ القيامة لا يجوز أن يكون فيها كَذِبٌ لما هم فيه، والقرآن يدلُّ على غير ذلك؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كما صُرِفوا عن الحقِّ في قَسَمِهم أنهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُصرفون عن الحقِّ في الدنيا، وقال جلَّ وعزَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟﴾[1] [الأنعام: ٢٣-٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ اختُلِفَ في الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة. وقيل: جميع المؤمنين[2]. أي: يقول المؤمنون للكفار ردًّا عليهم: لقد لبِثْتم في قبوركم إلى يوم البعث[3]. والفاء في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ دلَّ عليه الكلام؛ مجازه: إن كنتم مُنكرين البعث فهذا يوم البعث[4]. وحكى يعقوب عن بعض القُرَّاء ـ وهي قراءة الحسن ـ «إلى يوم البَعَث» بالتحريك، وهذا ممَّا فيه حرفٌ من حروف الحلْق[5]. وقيل: معنى ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في حكم الله. وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ: لقد

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ ببعضه.

(٢) زاد المسير ٥/ ٩٧ و٦/ ٣١٢ و٧/ ٤٠٢ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ . وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ القول الأول ونسبه للكلبي.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢ .

(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٧ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ دون نسبة القراءة إلى الحسن، وقد نُسبت إليه في المحتسب ٢/ ١٦٦ ، والكشاف ٣/ ٢٢٧ ، وهي قراءة شاذة.

لبثتُم إلى يوم البعث. قاله مقاتل وقتادة والسُّدِّي[١]. القشيري: وعلى هذا «أُوتُوا الْعِلْمَ» بمعنى كتاب الله. وقيل: الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: اليوم الذي كنتم تُنكرونه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم العلمُ بالقيامة ولا الاعتذارُ يومئذٍ[٣]. وقيل: لمَّا ردَّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يُعذَروا. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا حالُهم حالُ من يَستعتِبُ ويَرجع[٤]؛ يقال: استعتبتُه فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٥]، وذلك إذا كنتَ جانياً عليه، وحقيقةُ أعتبتُه: أزلْتُ عتبه[٦]. وسيأتي في «فصلت»[٧] بيانُه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء، والباقون بالتاء[٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كلِّ مَثَلٍ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٢٧ عن قتادة.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٥) الصحاح (عتب).

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٧ .

(٧) عند تفسير الآية (٢٤).

(٨) السبعة ص ٥٠٩ ، والتيسير ص ١٧٦ .

يدلُّهم على ما يحتاجون إليه، ويُنبِّههم على التوحيد وصِدْقِ الرسل[١]. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أي: معجزةٍ، كفلقِ البحر والعصا وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معشر المؤمنين[٢] ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: تتبعون الباطلَ والسحر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى لا يفهموا الآياتِ عن الله، فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلَّةَ التوحيد[٣].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم فإنَّ الله ينصرك[٤] ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفِزَّنَّكَ عن دينك[٥] ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد أمتُه؛ يقال: استخَفَّ فلانٌ فلاناً أي: استجهلَه حتى حملَه على اتِّباعه في الغيِّ[٦]. وهو في موضع جزمٍ بالنهي، أُكِّد بالنون الثقيلة، فبُنِيَ على الفتح كما يُبنى الشيئانِ إذا ضُمَّ أحدُهما إلى الآخر. ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع[٧]. وقد مضى في «الفاتحة»[٨].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٣٩، وزاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) الوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٩ .

(٤) مجمع البيان ٢١/ ٤٣ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٢ .

(٦) تهذيب اللغة ٧/ ٩ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٨) ١/ ٢٢٩ .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية غير آيتين؛ قال قتادة: أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وهي أربعٌ وثلاثون آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السُّوَر. و«تِلْكَ» في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، أي: هذه تلك. ويقال: «تِيكَ آياتُ الكتابِ الحكيم» بدلاً من تلك[3]. والكتاب: القرآن. والحكيم: المُحْكِم، أي: لا خللَ فيه ولا تناقُض. وقيل: ذو الحكمة. وقيل: الحاكم[4] ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال، مثل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما ـ على إضمار مبتدأ؛ لأنه أوَّلُ آية. والآخر ـ أن يكون خبر «تِلْكَ»[5].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١ .

(٤) سلفت هذه المعاني ١/ ٢٤٣ و٤٢٩ و٥/ ١٥ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١ ، وينظر السبعة ص ٥١٢ ، والتيسير ص ١٧٦ .

والمحسن: الذي يعبدُ اللهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[١]. وقيل: هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٢٥]. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني[٢]. وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في «البقرة»[٣] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ «مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء [أو بالصفة]. و«لَهْوَ الْحَدِيثِ»: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحَّاس: وهو ممنوعٌ بالكتاب والسنة، والتقدير: من يشتري ذا لهوٍ أو ذاتَ لهوٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أو يكون التقدير: لمَّا كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنَّه اشترى اللَّهو[٤].

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلَّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]. قال ابن عباس: هو الغناء بالْحِمْيريّة؛ اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا[٥].

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال

---

(١) هكذا ورد تعريفه في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٣) ١/ ٢٥٣ - ٢٧٩.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وما بين حاصرتين منه، ووقع في النسخ: كأنه اشتراها للَّهو.

(٥) زاد المسير ٨/ ٨٦، وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٥.

مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في «سبحان»[١] الكلامُ فيه. وروى الترمذِيُّ عن أبي أُمامةَ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبيعوا القَيْنات ولا تشتروهنَّ ولا تُعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ وثمنُهنَّ حرام، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبي أُمامة، والقاسم ثقةٌ وعليُّ بن يزيد يُضعَّف في الحديث. قاله محمد بن إسماعيل[٢]. قال ابن عطية[٣]: وبهذا فسَّر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي[٤] عن الحسن وسعيد بن جُبير وقتادة والنَّخَعي.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلفَ على ذلك ابنُ مسعودٍ بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ إنه الغناء. وروى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال: سُئِلَ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء واللهِ الذي لا إله إلا هو. يُردِّدها ثلاثَ مرات[٥]. وعن ابن عمر أنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول[٦]. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب[٧]. وقاله مجاهد، وزاد: إنَّ لهوَ الحديث في الآية الاستماعُ إلى الغناء وإلى

---

(١) ١٣/ ١١٨ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٥)، وعلل الترمذي الكبير ١/ ٥١١ - ٥١٢ وفي إسناده - أيضاً - عبيد الله بن زحر، وهو ضعيف. والحديث في مسند أحمد (٢٢٢٨٠).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٤) في تلبيس إبليس ص ٢٢٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ٣٠٩ ، والطبري ١٨/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، والحاكم ٢/ ٤١١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ عن عكرمة.

(٧) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٠) ، والبيهقي ١٠/ ٢٢٣ . قلنا: وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، لكن في إسناده مجهول.

مثله من الباطل[١]. وقال الحسن: لهوُ الحديث المعازِفُ والغناء[٢]. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل، والباطل في النار[٣]. وقال ابن القاسم: سألتُ مالكاً عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] أفحقٌّ هو[٤]؟! وترجم البخاري (بَابٌ: كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا شغلَ عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أُقامِرْكَ)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٥]. فقوله: (إذا شَغَل عن طاعة الله) مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك[٦]. وتأوَّله قومٌ على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كُتبَ الأعاجم: رستم، وأسفنديار، فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريشٌ: إنَّ محمداً قال كذا، ضَحِك منه، وحدَّثهم بأحاديثَ ملوكِ الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسنُ من حديث محمد. حكاه الفرَّاء والكلبي وغيرهما[٧]. وقيل: كان يشتري المغنِّيات فلا يظفَرُ بأحدٍ يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قَيْنَتِهِ فيقول: أطعميه وأسقيه وغَنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمدٌ من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأوَّل ظاهرٌ في الشراء[٨]. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٦ و٥٣٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/٢٧ من طريق حرملة بن عبد العزيز، عن مالك بنحوه.
وفي الموطأ ٢/ ٩٥٨ قال يحيى الليثي: سمعت مالكاً يقول: لا خير في الشطرنج وكرهها، وسمعته يكره اللعب بها وبغيرها من الباطل، ويتلو هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

(٥) صحيح البخاري قبل الحديث (٦٣٠١).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٢٨ عن الضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عنهما.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٤٨٩ عن الكلبي.

(٨) الكشاف ٣/ ٢٢٩ .

مستعار، وإنما نزلتِ الآيةُ في أحاديثَ قريشٍ وتلَهِّيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان تركُ ما يجب فِعْلُه، وامتثالُ هذه المنكرات شراءً لها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾[1] [البقرة:١٦]؛ اشتروا الكفر بالإيمان، أي: استبدلوه منه واختاروه عليه[2]. وقال مُطَرِّف: شراءُ لهوِ الحديث استحبابُه. قتادة: ولعلَّه لا يُنفقُ فيه مالاً، ولكِنْ سماعُه شراؤه[3].

قلت: القولُ الأوَّلُ أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبيُّ والواحِديُّ في حديث أبي أُمامة: «وما من رجلٍ يرفع صوتَه بالغناء إلَّا بعثَ الله عليه شيطانين أحدَهما على هذا المَنْكِب والآخر على هذا المَنْكِب، فلا يزالان يضربانِ بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[4]. وروى الترمذي وغيرُه من حديث أنسٍ وغيرِهِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «صَوتانِ ملعونانِ فاجرانِ أنهَى عنهما: صوتُ مزمارٍ ورنَّةُ شيطانٍ عند نغمةٍ ومَرَحٍ، ورَنَّةٌ عند مصيبةٍ لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوب»[5]. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بكسر المزامير» خرَّجه أبو طالب الغَيْلاني[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ من طريق الثعلبي، كلاهما من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. وكذلك أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢). وإسناده ضعيف كما تقدم آنفاً. وأخرجه الطبراني (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد؛ قال فيه الدارقطني: منكر الحديث.

(٥) لم نقف عليه عند الترمذي من حديث أنس، وأخرجه البزار كشف الآثار (٧٩٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٠٠) و(٢٢٠١) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه الطيالسي (١٦٨٣)، وعبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه ابن سعد ١/ ١٣٨، والبزار في مسنده (١٠٠١)، والحاكم ٤/ ٤٠ من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٦) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان، أحد شيوخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٤٨هـ، وتوفي سنة ٤٤٠هـ. السير ١٧/ ٥٩٨ - ٦٠٠. والحديث أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٤)، وابن =

وخرَّج ابن بشران[١] عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعثتُ بِهَدْمِ المزامير والطبل»[٢]. وروى الترمذيُّ من حديث عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلَتْ أُمَّتي خمسَ عشرةَ خَصْلةً حَلَّ بها البلاء..» فذكر منها: «اتُّخِذَتِ القَيْناتُ والمعازِف»[٣]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرتِ القِيانُ والمعازِفُ»[٤]. وروى ابن المبارك، عن مالك بن أنس، عن محمد بن الْمُنْكَدِر، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلَس إلى قَينةٍ يسمَعُ منها صُبَّ في أُذنِه الآنُكُ[٥] يومَ القيامة»[٦]. وروى أسد بن موسى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن محمد بن الْمُنكدِر قال: بلغَنا أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أينَ عبادي الذين كانوا يُنزِّهون أنفسَهم وأسماعَهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أحِلُّوهم رياضَ المسكِ، وأخبِروهم أنِّي قد أحللتُ عليهم رضواني». وروى ابن وهب، عن مالك، عن محمد بن المنكدر مثلَه، وزاد بعد قوله: «المسك» ثم يقول للملائكة: أسمِعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[٧]. وقد رُويَ مرفوعاً هذا المعنى من

= الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٧ من طريق موسى بن عمير، عن جعفر بن محمد، به. موسى بن عمير كذبه أبو حاتم وضعفه ابن عدي. الميزان ٤/ ٢١٥ . ومحمد بن علي بن الحسين والد جعفر روايته عن علي مرسلة. التهذيب ٣/ ٦٥٠ .

(١) هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران إمام محدث، وهو مسند العراق، ولد سنة ٣٣٩هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، ودفن في حلب. السير ١٧/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٦ - ٢٢٧ من طريق ابن بشران، به. وأخرجه تمام في فوائده (١٢٣٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٢١٠) وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير الفرج بن فضالة، وقد تكلَّم فيه بعض أهل الحديث وضعَّفه من قبل حفظه.

(٤) سنن الترمذي (٢٢١١) وفي إسناده رُميح الجذامي، وهو مجهول فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٥) أي: الرصاص. النهاية (أنك).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٦٣ من طريق أبي نعيم الحلبي، عن ابن المبارك، به. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٨٦ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث باطل.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٣) عن مالك، به. وإسناده منقطع.

حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منِ استمعَ إلى صوت غناءٍ لم يؤذَنْ له أن يسمع الرُّوحانيين» فقيل: ومَنِ الرُّوحانيون يا رسولَ الله؟ قال: «قُرَّاء أهل الجنة» خرَّجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[١] وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] مع نظائره: «فمن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشرَبْها في الآخرة، ومن لبسَ الحريرَ في الدنيا لم يلبَسْه في الآخرة»[٣]. إلى غير ذلك. وكلٌّ ذلك صحيحُ المعنى على ما بيَّنَّاه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَات وعنده جاريةٌ مغنِّيةٌ فلا تُصلُّوا عليه»[٤]. ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة:

الثانية ـ وهو الغناء المُعتاد عند المشتَهِرين به، الذي يُحرِّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجُون الذي يُحرِّك الساكنَ ويبعثُ الكامنَ، فهذا النوع إذا كان في شعرٍ يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهنَّ، وذكر الخمور والمُحرَّمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنَّه اللهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتِّفاق. فأمَّا ما سلِمَ من ذلك فيجوز القليلُ منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أنْجشَة وسَلَمة بن الأكْوع. فأمَّا ما ابتدعَتْه الصوفيةُ اليومَ من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربيّ: فأمَّا طبل الحرب فلا حرجَ فيه؛ لأنَّه يقيمُ النفوسَ، ويُرهِبُ

---

(١) ١/ ١٥٤.

(٢) ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) أخرجه بتمامه النسائي في الكبرى (٦٨٤٠)، والحاكم ٤/ ١٤١ من حديث أبي هريرة ﷺ.
والطرف الأول أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر ﷺ. والطرف الثاني أخرجه أحمد (١١١٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. و(١١٩٨٥)، والبخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس ﷺ. وأحمد (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ. ومسلم (٢٠٧٤) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٤) ذكره ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٧ من طريق عمر بن موسى، عن مكحول، به. وقال: عمر بن موسى مجهول، ومكحول لم يلق عائشة.

العدوَّ(١). وفي اليَرَاعة تردُّد. والدُّفُّ مباح. الجوهريّ: وربما سمُّوا قصبة الراعي التي يَزْمُر بها هَيْرعةً ويَراعةً(٢). قال القشيريّ: ضُرِبَ بين يدي النبيِّ ﷺ يومَ دخل المدينة، فهَمَّ أبو بكر بالزَّجر، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ يا أبا بكرٍ حتى تعلمَ اليهودُ أنَّ ديننا فَسيح» فكُنَّ يضرِبْنَ ويقُلْنَ: نحنُ بناتُ النجّار، حبَّذا محمدٌ من جارِ(٣). وقد قيل: إنَّ الطبلَ في النكاح كالدُّفِّ، وكذلك الآلات المُشْهِرة للنكاح يجوز استعمالُها فيه بما يَحسُنُ من الكلام ولم يكن فيه رَفَثٌ.

الثالثة ـ الاشتغال بالغناء على الدوام سَفَهٌ تُرَدُّ به الشهادة، فإن لم يَدُمْ لم تُردَّ. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألتُ مالك بن أنس عمَّا يُرخِّص فيه أهلُ المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعلُه عندنا الفُسَّاق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أمَّا مالك بن أنس فإنَّه نهى عن الغناء وعن استماعِه، وقال: إذا اشترى جاريةً ووجدها مغنيةً كان له ردُّها بالعيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا السَّاجي أنه كان لا يرى به بأساً. وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: فأمَّا مالكٌ فيُقال عنه: إنَّه كان عالماً بالصناعة، وكان مذهبُه تحريمَها. ورُوِيَ عنه أنه قال: تعلمتُ هذه الصناعةَ وأنا غلامٌ شاب، فقالت لي أمي: أيْ بُنيَّ، إنَّ هذه الصناعةَ يَصلُح لها من كان صبيحَ الوجه ولستَ كذلك، فاطلُبِ العلومَ الدينية. فصحبتُ ربيعةَ، فجعلَ اللهُ في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبريّ: وأمَّا مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناءَ مع إباحته شرب النَّبيذ، ويجعلُ سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشَّعبيّ وحماد والثوري وغيرِهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وكذلك لا يُعرَفُ بين أهل البصرة خلافٌ في كراهية ذلك والمنع منه، إلَّا ما

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٢) الصحاح (هرع).

(٣) طرفه الأول أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. وطرفه الثاني أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) بنحوه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

رُوِيَ عن عُبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيِّ فقال: الغناء مكروهٌ يُشبه الباطل، ومنِ استكثرَ منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه. وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ رواياتٍ؛ قال: وقد ذكر أصحابُنا عن أبي بكر الخَلَّال وصاحبِه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُّهديَّات؛ قال: وعلى هذا يُحمَلُ ما لم يكره أحمد، ويدلُّ عليه أنه سُئِلَ عن رجلٍ ماتَ وخلَفَ ولداً وجاريةً مغنيةً، فاحتاج الصبيُّ إلى بيعها فقال: تُباعُ على أنها ساذجةٌ لا على أنها مُغنِّية. فقيل لها: إنها تساوي ثلاثين ألفاً، ولعلَّها إن بيعَتْ ساذجةً تُساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تُباع إلَّا على أنها ساذَجةٌ. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا؛ لأنَّ هذه الجارية المغنيَّة لا تُغنِّي بقصائد الزهد، بل بالأشعار المُطربةِ المُثيرةِ إلى العشق. وهذا دليلٌ على أنَّ الغناء محظورٌ؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويتُ المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحةَ للنبيِّ ﷺ: عندِي خمرٌ لأيتام؟ فقال: «أرِقْها»[1]. فلو جازَ استصلاحُها لمَا أُمِر بتضييع مال اليتامى. قال الطبريّ: فقد أجمعَ علماءُ الأمصار على كراهةِ الغناء والمنعِ منه، وإنَّما فارق الجماعةَ إبراهيمُ بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسوادِ الأعظم»[2] و«من فارق الجماعة ماتَ ميتةً جاهلية»[3]. قال أبو الفرج: وقال القفَّال من أصحابنا: لا تُقبَلَ شهادةُ المُغنِّي والرقَّاص[4].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٢١٨٩)، وأبو داود (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وهو في صحيح مسلم (١٩٨٣) وفيه أن السائل رجل، ولم تتعين تسميته بأبي طلحة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس ﷺ. قال البوصيري: في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف. قلنا: وفي إسناده معان بن رفاعة، وهو لين الحديث فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٨٧)، والبخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٩٤٤)، ومسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من تلبيس إبليس ص ٢٢٢ - ٢٢٤ دون قوله: وقال ابن خويز منداد... فجعل الله في ذلك خيراً.

قلت: وإذ قد ثبت أنَّ هذا الأمر لا يجوز فأَخْذُ الأجرةِ عليه لا تجوز. وقدِ ادَّعى أبو عمر بن عبد البر[١] الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩] وحسْبُك.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأمَّا سماعُ القَيناتِ فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيءٌ منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يُمنَعُ من التلذُّذِ بصوتها. أمَا أنه لا يجوز انكشافُ النساء للرجال، ولا هَتْكُ الأستار، ولا سماعُ الرَّفَث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، مُنِعَ من أوَّله، واجتُثَّ من أصله[٢]. وقال أبو الطيِّب الطبريّ: أمَّا سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَمٍ فإنَّ أصحاب الشافعيّ قالوا: لا يجوز، سواء كانت حرَّةً أو مملوكة. قال: وقال الشافعيُّ: وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادتُه، ثم غلَّظ القول فيه فقال: فهي دِياثة. وإنَّما جعل صاحبَها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً[٣].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة بضمِّ الياء، أي: ليُضِلَّ غيرَه عن طريق الهدى، وإذا أضلَّ غيرَه فقد ضلَّ. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحاق بفتح الياء على اللازم، أي: لِيُضِلَّ هو نفسه[٤]. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قراءةُ المدنيِّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفًا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مُستأنَفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «وَيَتَّخِذَها»

---

(١) في الكافي ١/ ٤٤٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٣٤ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ ، وينظر السبعة ص ٢٦٧ ، والتيسير ص ١٣٤ ، والنشر ٢/ ٢٩٩ . وينظر ما سلف ١٢/ ١٤٢ .

بالنصب عطفًا على «لِيُضلَّ»[١]. ومن الوجهين جميعاً لا يَحسُنُ الوقفُ على قوله: «بغَيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله: «هُزُوًا»[٢]، والهاء في «يَتَّخذَها» كنايةٌ عن الآيات. ويجوز أن يكون كنايةً عن السبيل؛ لأنَّ السبيلَ يؤنَّثُ ويُذكَّر[٣]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: شديدٌ يُهينهم. قال الشاعر:

ولقد جزِعْتُ إلى النَّصارى بعد ما لَقيَ الصليبُ من العذابِ مُهينا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّىٰ﴾ أي: أعرض[٥] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ نصب على الحال[٦]. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثِقَلاً وصَمَماً. وقد تقدَّم[٧]. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تقدَّم أيضاً[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لـمَّا ذكر عذاب الكفار ذكر نعيمَ المؤمنين. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وعدَهم اللهُ هذا وعداً حقًّا لا خُلْفَ فيه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم أيضاً[٩].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢. وقد اختلف في القراءة عن عاصم، ففي رواية أبي بكر عنه بالرفع، وفي رواية حفص بالنصب. وينظر السبعة ص ٥١٢، والتيسير ص ١٧٦.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٣٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢.

(٤) قائله جرير، وهو في الكامل ٣/ ١٠٧٥.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩.

(٦) البيان ٢/ ٢٥٤.

(٧) ٨/ ٣٤٥.

(٨) ١/ ٣٠١.

(٩) معنى «العزيز» سلف ٤٠٣ - ٤٠٤، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ تكون «تَرَوْنَها» في موضع خفضٍ على النعت لـ «عَمَد» فيُمكن أن يكون ثَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تُرى. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على الحال من «السَّماوات» ولا عَمَدَ ثَمَّ البتّة[١]. النحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: الأَولى أن يكونَ مُستأنَفاً[٢]، ولا عَمَدَ ثَمَّ. قاله مكيّ[٣]. ويكون «بِغَيْرِ عَمَدٍ» التمام[٤]. وقد مضى في «الرعد»[٥] الكلامُ في هذه الآية. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت[٦]. ﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع نصب؛ أي: كراهية أن تميد. والكوفيون يُقدِّرونه بمعنى: لئلَّا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كلِّ لونٍ حَسَن. وتأوّله الشَّعبيُّ على الناس؛ لأنَّهم مخلوقونَ من الأرض؛ قال: مَنْ كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومَن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأوَّلَ غيرُه أنَّ النُّطفةَ مخلوقةٌ من تراب، وظاهرُ القرآن يدلُّ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر[٧]. والخلق بمعنى المخلوق[٨]، أي: هذا الذي ذكرتُه مما تُعاينون «خَلْقُ اللهِ»[٩] أي: مخلوقُ الله، أي: خلقَها من غير

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٥) ٦/١٢ - ٧ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ ، والكلام الذي قبله منه.
(٨) الكشاف ٣/ ٢٣٠ .
(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٠ .

شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشرَ المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خسرانٍ ظاهر[١]. و«ما» استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «ذا»، وذا بمعنى الذي. و«خلق» واقعٌ على هاءٍ محذوفة[٢]، تقديره: فأروني أيَّ شيءٍ خَلَقَ الذين من دونه، والجملة في موضع نصبٍ بـ «أروني» وتُضمَرُ الهاءُ مع «خلق» تعودُ على الذين، أي: فأروني الأشياءَ التي خلقَها الذين من دونه[٣]. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمتَ، أنحوٌ أم شِعرٌ؟ ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أروني» و«ذا» زائدة، وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمتَ، أنحواً أم شعراً؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرِفْ «لُقْمان» لأنَّ في آخره ألفاً ونوناً زائدتين، فأشبهَ فُعلانَ الذي أُنثاه فُعلَى، فلم ينصرِفْ في المعرفة؛ لأنَّ ذلك ثِقَلٌ ثانٍ، وانصرفَ في النكرة؛ لأنَّ أحدَ الثِّقَلين قد زال. قاله النحَّاس[٤]. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وهو آزر أبو إبراهيم. كذا نسبه محمد بن إسحاق[٥]. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نُوبيًّا من أهل أيلة. ذكره السُّهيليُّ[٦]. قال وهب: كان ابنَ أختِ أيوب. وقال مقاتل: ذُكِرَ أنه كان ابنَ خالة أيوب[٧]. الزَّمخشريُّ: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٤ - ٥٤٥، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠ بمعناه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٥.

(٤) في إعراب القرن ٣/ ٢٨٣ وما قبله منه.

(٥) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

(٦) في التعريف والإعلام ص ١٣٤. ووقع في مطبوعه: «يثرون» بدل «سرون».

(٧) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

كان من أولاد آزر، عاش ألف سنةٍ، وأدركه داود عليه السلام وأخذَ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثِ داود، فلمَّا بُعِثَ قطع الفتوى فقيل له، فقال: لا أكتفِي إذ كُفيتُ[١]. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل[٢]. وقال سعيد بن المسيِّب: كان لقمانُ أسودَ من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاهُ اللهُ تعالى الحكمةَ، ومنعَه النبوَّة[٣]. وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقال بنبوَّته عِكرمةُ والشَّعبيُّ، وعلى هذا تكون الحكمةُ النبوَّةَ. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمةِ الله تعالى ـ وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل ـ قاضيًا في بني إسرائيل، أسودَ مشقَّقَ الرِّجلين ذا مشافر، أي: عظيم الشفتين. قاله ابن عباس وغيره. ورُويَ من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لم يكُنْ لقمانُ نبيًّا، ولكن كان عبداً كثيرَ التفكُّرِ، حَسَن اليقين، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أن يجعلَه خليفةً يحكم بالحق، فقال: ربِّ، إنْ خيَّرتني قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ عليَّ فسمعًا وطاعةً فإنك ستعصمني». ذكره ابن عطية[٤]. وزاد الثعلبيُّ[٥]: فقالت له الملائكة بصوتٍ لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأنَّ الحاكمَ بأشدِّ المنازلِ وأكدرِها، يغشاه المظلومُ من كلِّ مكان، إن يُعَنْ فبالْحَرِيِّ أن ينجو، وإن أخطأَ أخطأَ طريقَ الجنة، ومن يكُنْ في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون فيها شريفاً، ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفَتْه الدنيا ولا يُصيبُ الآخرة. فعجبتِ الملائكةُ من حُسنِ مَنطقِه، فنام نومةً، فأُعطِيَ الحكمةَ فانتبه يتكلَّم بها، ثم نُودِيَ داودُ بعده فقَبِلها ـ يعني الخلافة ـ ولم يَشْتَرِطْ ما اشترطَه لقمان، فهَوى في الخطيئة غيرَ مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمانُ يُوازِرُه بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٢) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ ، وأخرجه الطبري ٣٨/ ٥٤٧ مختصراً.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧ .

(٥) في عرائس المجالس ص ٣٥١ ، وأخرجه بتمامه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٨٥ - ٨٦ .

أُعطيتَ الحكمةَ، وصُرِفَ عنك البلاءُ، وأُعطي داودُ الخلافةَ، وابتُلي بالبلاءِ والفتنة.

وقال قتادة: خيَّر اللهُ تعالى لقمانَ بين النبوَّة والحكمة، فاختار الحكمةَ على النبوَّة، فأتاه جبريلُ عليه السلام وهو نائمٌ فذَرّ عليه الحكمةَ، فأصبح وهو ينطِقُ بها، فقيل له: كيفَ اخترتَ الحكمة على النبوَّةِ وقد خيَّرك ربُّكَ؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوَّة عَزْمةً[1] لرَجَوْتُ فيها العونَ منه، ولكنه خيَّرني فخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوَّة، فكانتِ الحكمةُ أحبَّ إليَّ[2].

واختُلِفَ في صَنعته؛ فقيل: كان خياطاً. قاله سعيد بن المسيِّب[3]، وقال لرجلٍ أسود: لا تحزَنْ من أنَّكَ أسود، فإنَّه كان مِنْ خيرِ الناس ثلاثةٌ من السودان: بلال، ومِهْجع مولى عمر، ولقمان[4]. وقيل: كان يحتطب كلَّ يومٍ لمولاه حُزْمةَ حطب. وقال لرجلٍ ينظر إليه: إن كنتَ تراني غليظَ الشَّفتينِ فإنه يخرج من بينهما كلامٌ رقيق، وإن كنتَ تراني أسودَ فقلبي أبيض[5]. وقيل: كان راعياً، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألستَ عبدَ بني فلان؟ قال: بلى. قال: فما بَلغَ بِكَ ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأدائي الأمانة، وصِدقُ الحديث، وتركُ ما لا يعنيني. قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[6].وقال خالد الرَّبَعي: كان نجاراً، فقال له سيِّدُه: اذبَحْ لي شاةً وائتني بأطيبها مُضْغتين. فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيءٌ أطيبَ من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبْحِ شاةٍ أخرى، ثم قال له: ألْقِ أخبثَها مُضْغتين. فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتُكَ أن تأتيني بأطيبَ مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتُكَ أن تُلقي أخبثَها فألقيتَ اللسان والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا

---

(١) أي: حقًّا من حقوقه، وواجباً من واجباته. النهاية (عزم).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص ٦٤ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ - ٣٣٢.

طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[١].

قلت: هذا معناه مرفوعٌ في غير ما حديث، من ذلك قولُه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[٢]. وجاء في اللسان آثارٌ كثيرةٌ صحيحةٌ وشهيرة؛ منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ وقاه اللهُ شرَّ اثنتين وَلَج الجنة: ما بين لَحْيَيْه ورجليه»... الحديث[٣]. وَحِكَم لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ هذا منها. وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن رآه الناس مُسيئاً[٤].

قلتُ: وهذا أيضاً مرفوعٌ معنًى؛ قال ﷺ: «كلُّ أمتي معافًى إلَّا المُجاهِرون، وإنَّ من المُجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبحُ وقد ستَره اللهُ فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد باتَ يستره ربُّه، ويُصبح يَكْشِفُ سِترَ الله عنه». رواه أبو هريرة، خرَّجه البخاري[٥]. وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ من حكمة لقمان أرجَحَ من عشرة آلاف باب[٦]. ورُويَ أنه دخل على داودَ عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليَّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسألَه، فأدركَتْه الحكمةُ فسكت، فلما أتمَّها لبِسَها وقال: نِعْمَ لُبوسُ الحربِ أنتِ. فقال: الصمتُ حكمة، وقليلٌ فاعِلُه. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيتَ حكيماً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أي مفسِّرة، أي: قلنا له: اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب، والفعل داخلٌ في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٤ ، وأحمد في الزهد ص ٦٥ ، والطبري ٣٨/ ٥٤٨ .

(٢) سلف ١/ ٢٨٧ .

(٣) سلف ١٢/ ٨٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧ .

(٥) في صحيحه (٦٠٦٩)، وهو في صحيح مسلم (٢٩٩٠).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٣ .

(٧) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

صلتها، كما حكى سيبويه: كتبتُ إليه أن قُمْ. إلَّا أن هذا الوجه عنده بعيد[١]. وقال الزجَّاج: المعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمة لأَنْ يشكر الله تعالى[٢]. وقيل: أي: بأنِ اشكُرْ لله تعالى فشكر، فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعتُه فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغةً ومعنًى في «البقرة»[٣] وغيرها. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من يُطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأنَّ نفع الثواب عائدٌ إليه. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: كفر النعم فلم يوحِّد الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي: محمود[٤]. وقال يحيى بن سلاَّم: «غَنِيٌّ» عن خلقه «حَمِيدٌ» في فعله[٥]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال السُّهَيْليُّ: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقُتَبيّ[٦]. وقال الكلبي: مشكم. وقيل: أنعم. حكاه النقَّاش[٧].

وذكر القُشيريُّ أنَّ ابنَه وامرأَته كانا كافرين، فما زال يعِظُهما حتى أسلما. قلت: ودلَّ على هذا قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم»[٨] وغيره عن عبد الله قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنُّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ . وكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٦٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .

(٣) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .

(٦) التعريف والإعلام ص ١٣٤ ، وهو في المعارف لابن قتيبة ص ٥٥ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .

(٨) (١٢٤) ، وقد سلف ٨/ ٤٤٥ .

بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

واختُلِفَ في قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لمَّا نزلت: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أشفقَ أصحابُ رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكنَ إشفاقُهم، وإنما يسكن إشفاقُهم بأن يكون خبراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاقُ بأن يذكرَ اللهُ ذلك عن عبدٍ قد وصفَه بالحكمة والسَّداد[1].

و«إذ» في موضع نصبٍ بمعنى اذكر. وقال الزجَّاج في كتابه في القرآن: إنَّ «إذ» في موضع نصبٍ بـ «آتينا» والمعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ إذ قال. النحَّاس: وأحسبه غلطاً؛ لأنَّ في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يَٰبُنَيِّ﴾ بكسر الياء؛ لأنَّها دالَّةٌ على الياء المحذوفة، ومَنْ فتحَها فلِخفَّة الفتحة عنده[2]، وقد مضى في «هود»[3] القولُ في هذا. وقوله: «يا بني» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنَّما هو على وجه الترقيق، كما يقُال للرجل: يا أُخيَّ، وللصبي: هو كُوَيْس.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراضٌ بين أثناء

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٨٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/١٩٦.

(٣) ١١/١٢٣، ووقع في النسخ الخطية: يوسف.

وصيَّة لقمان. وقيل: إنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه؛ أخبر الله به عنه، أي: قال لقمان لابنه[١]: لا تُشرِك بالله ولا تُطِعْ في الشرك والديك، فإنَّ الله وصَّى بهما في طاعتهما ممَّا لا يكون شركاً ومعصيةً لله تعالى. وقيل: أي: وإذ قال لقمان لابنه، فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصيَّنا الإنسان بوالديه، أي: قلنا له: اشكُرْ لله، وقلنا له: ووصَّينا الإنسان. وقيل: وإذا قال لقمان لابنه: لا تُشرك، ونحن وصَّينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنَه. ذكر هذه الأقوال القشيريُّ. والصحيح أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وَقَّاص، كما تقدَّم في «العنكبوت»[٢]، وعليه جماعة المفسرين.

وجملةُ هذا الباب أنَّ طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرةٍ ولا في ترك فريضةٍ على الأعيان، وتلزم طاعتهُما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أنَّ هذا أقوى من الندب، لكن يُعلَّلُ بخوف هلكةٍ عليها، ونحوه مما يُبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعَتْه أمُّه من شهود العِشاء شفقةً فلا يُطِعْها[٣].

الثانية ـ لمَّا خصَّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرَّضاع حصلَ لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبهَ ذلكَ قولَه ﷺ حين قال له رجلٌ: من أَبَرُّ؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أبوك» فجعل له الرُّبعَ من المَبَرَّة كما في هذه الآية[٤]، وقد مضى هذا كلُّه في «سبحان»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨، وزاد المسير ٦/ ٣٢٠.

(٢) ١٦/ ٣٣٩-٣٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨.

(٥) ١٣/ ٥٢ - ٥٣.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملَتْه في بطنها وهي تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعِيفةُ الخِلقة، ثم يُضْعِفها الحمل[١]. وقرأ عيسى الثَّقفيّ: «وَهَناً على وَهَن» بفتح الهاء فيهما، ورُويت عن أبي عمرو، وهما بمعنًى واحد[٢]. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذِلِ من ناهٍ فيزْجُرَها ... إنَّ العواذِلَ فيها الأَيْنُ والوَهَنُ[٣]

يقال: وَهَن يَهِنُ، ووَهُنَ يَوْهَنُ، ووَهِنَ يَهِنُ، مثلُ وَرِمَ يَرِمُ[٤].

وانتصب «وَهْناً» على المصدر، ذكره القشيري. النحَّاس[٥]: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر، أي: حملته بضعفٍ على ضعف.

وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ»، وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان، أي: وفصاله في انقضاء عامين، والمقصود من الفصام الفطام، فعبَّر بغايته ونهايته[٦]. ويقال: انفصلَ عن كذا أي: تميَّز، وبه سُمِّيَ الفَصِيلُ.

الرابعة ـ الناسُ مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدَّدتْ فرقةٌ بالعام لا زيادةَ ولا نقص. وقالت فرقةٌ: العامان وما اتَّصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متَّصلَ الرضاع. وقالت فرقة: إنَّ

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٥٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٧ ، والشاذة ص ١١٦ - ١١٧ ، والمشهور عن أبي عمرو بمثل قراءة العامة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٩ ، وقراءة «وفصله» في المحتسب٢/ ١٦٧ عن الحسن ويعقوب وأبي رجاء والجحدري وقتادة، وفي الشاذة ص ١١٦ عن الجحدري. وزاد في زاد المسير نسبتها إلى طلحة بن مصرف.

فُطمَ الصبيّ قبل العامين وتركَ اللبن، فإنَّ ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرِّم[١]؛ وقد مضى هذا في «البقرة»[٢] مستوفًى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ «أن» في موضع نصبٍ في قول الزجّاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحّاس: وأجوَدُ منه أن تكون «أن» مفسِّرة، والمعنى قلنا له: أنِ اشكُرْ لي ولوالديك[٣]. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية[٤]. وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما[٥].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد بيَّنَّا أنَّ هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمَّا أسلم، وأنَّ أمَّه ـ وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أُميَّة ـ حلفت ألَّا تأكل؛ كما تقدَّم في الآية قبلها.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف[٦]، أي: مصاحِباً معروفاً؛ يقال: صاحبتُه مُصاحبةً ومُصاحَباً. و«مَعْرُوفاً» أي: ما يَحْسُن[٧].

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ .

(٢) ٤/ ١٠٦ - ١١١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٣٥ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩١ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٦ .

وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق؛ وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق للنبيِّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتُها ـ وقيل: أمُّها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُها؟ قال: «نعم». وراغبة قيل: معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبةٌ في الصِّلة، وما كانت لِتقْدَم على أسماء لولا حاجتُها. ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أسد، وأمُّ عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان، قديمةُ الإسلام[1].

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و«أَنَابَ» معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقَّاش أنَّ المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إنَّ أبا بكرٍ لمَّا اسلمَ أتاه سعدٌ وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزُّبير فقالوا: آمنتَ؟ قال: نعم. فنزلت فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] فلمَّا سمعَها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨][2]. وقيل: الذي أناب النبيُّ ﷺ[3]. وقال ابن عباس: ولمَّا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر، فلم يبقَ منهم مشركٌ إلا عُتبة.

ثم توعَّد عزَّ وجلَّ بِبَعثِ مَن في القبور والرجوع إليه للجزاءِ والتوقيفِ على صغيرِ الأعمال وكبيرِها[4].

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ. وهذا القول من لقمان إنَّما قُصِدَ به إعلامُ ابنِه

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٩ ، والحديث سلف ٦/ ١٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٤٩ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٠ ، ونسبه إلى ابن السائب.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٤٩ .

بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنَه أن يفهَمَه؛ لأنَّ الخردلَةَ يقال: إنَّ الحِسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا؛ إذ لا تُرجِّحُ ميزاناً[١]. أي: لو كان للإنسان رزقٌ مثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقَها إلى مَنْ هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرزق حتى تشتغِلَ به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليَّ.

قلت: ومن هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «لا تُكثِرْ هَمَّكَ، ما يُقَدَّرُ يكون، وما تُرْزَقُ يأتيك»[٢]. وقد نطقتْ هذه الآية بأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، سبحانه لا شريكَ له. ورُوِيَ أنَّ ابنَ لقمان سأل أباه عن الحبَّةِ تقع في سُفل البحر أيعلَمُها الله؟ فراجعه لقمانُ بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات، أي: إن تَكُ الحسنةُ أو الخطيئةُ مثقالَ حبةٍ يأتِ بها الله، أي: لا تفوتُ الإنسانَ المقدَّرَ وقوعُها منه. وبهذا المعنى يتحصَّل في الموعظة ترجيةٌ وتخويفٌ مضافٌ ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأوّل ليس فيه ترجيةٌ ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارةٌ تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما يزِنُه على جهة المماثلة قَدْرُ حبة. ومما يؤيِّد قولَ من قال: هي من الجواهر، قراءةُ عبد الكريم الجَزَري «فتِكِنَّ» بكسر الكاف وشدِّ النون، من الكِنِّ الذي هو الشيء المُغطَّى. وقرأ جمهور القُرَّاء: «إنْ تَكُ» بالتاء من فوق «مِثْقَالَ» بالنصب على خبر كان، واسمُها مضمرٌ تقديره: مسألتك، على ما رُوي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني[٣]، ويدلُّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه: يا أبتِ إن عملتُ الخطيئةَ حيث لا يراني أحدٌ كيف يعلمُها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٠٦)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١٠٨٠) عن مالك بن عبد الله المعافري أن رسول الله ﷺ... فذكره. إسناده منقطع.

(٣) من قوله: وقد نطقت هذه الآية... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠، وما بين حاصرتين منه.

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية[١]. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل.

والضمير في «إِنَّهَا» ضمير القصة، كقولك: إنها هندٌ قائمةٌ، أي: القصة إنها إن تَكُ مثقالَ حبة. والبصريون يُجيزون: إنها زيدٌ ضربَتْه؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يُجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا[٢].

وقرأ نافع: «مِثقالُ» بالرفع[٣]، وعلى هذا «تكُ» يرجع إلى معنى خردلة، أي: إن تَكُ حبةٌ من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فِعلاً فيه علامةُ التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنثٍ هو منه[٤]؛ لأنَّ مثقالَ الحبة من الخردل إمَّا سيئة أو حسنة، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنَّث وإن كان المِثْلُ مذكراً؛ لأنه أراد الحسنات، وهذا كقول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رِماحٌ تسفَّهَتْ ... أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ[٥]

و«تَكُ» ها هنا بمعنى تقع، فلا تقتضي خبراً.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام: المبالغةُ والانتهاء في التفهيم، أي: أنَّ قدرتَه تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرةٍ وما يكون في السماء والأرض[٦]. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرَضين السبع وعليها الأرض[٧]. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت[٨]. وقال السُّدِّي: هي صخرةٌ ليست في

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤ .

(٣) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٥٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .

(٥) قائله ذو الرمة، وقد سلف ١/ ٣١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .

(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٥٦ عن عبد الله بن الحارث، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٣٧ .

السماوات والأرض[١]، بل هي وراءَ سبع أَرَضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال: ﴿صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْيَةٌ عن قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يُقال: قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيدٌ، كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصَّى ابنَه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يُريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع[٢]. ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها   فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

في أبياتٍ تقدَّم في «البقرة»[٣] ذِكرُها.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نَالَكَ ضرر، فهو إشعارٌ بأن المغيِّر يؤذَى أحياناً، وهذا القَدْرُ على جهة النَّدبِ والقوَّة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا[٤]، وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «آل عمران» و«المائدة»[٥]. وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها،

---

(١) زاد المسير ٦/ ٣٢١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٣) ٢/ ٥٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٥) ٥/ ٧٣ و٨/ ١٠٥ - ١٠٦.

وألَّا يخرج من الجزَع إلى معصية الله عزَّ وجلَّ[١]. وهذا قولٌ حسنٌ لأنه يعمُّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره. وقيل: إنَّ إقامةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من عزم الأمور، أي: ممَّا عزمَه اللهُ وأمرَ به. قاله ابن جُريج. ويَحتمل أن يريد أنَّ ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جُريج أصوب[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن: «تصاعر» بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: «تُصَعِّر»[٣]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «تُصْعر» بسكون الصاد[٤]، والمعنى متقارب. والصَّعَر: الميل، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهرُ صعري، بعد أن قمتُ صعرَه. ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغلبي[٥]:

وكنا إذا الجبَّار صَعَّرَ خدَّهُ أقمنا له من مَيْلِهِ فَتقوَّمِ

وأنشده الطبري: «فتقوَّمَا». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأنَّ قافيةَ الشعر مخفوضة. وفي بيتٍ آخر:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ بقسمه الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ دون قول ابن عباس.

(٣) ينظر السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٦ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ ، وزاد المسير ٦/ ٣٢٢ ونسبها أيضاً إلى أبي بن كعب وأبي رجاء وابن السميفع.

(٥) كما في الشعر والشعراء ص ١٣ .

أقمنا له من خَدِّهِ المُتصعِّرِ[(١)]

قال الهروي: «ولا تُصاعِرْ» أي: لا تُعرِضْ عنهم تكبُّراً عليهم؛ يقال: أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذا أصابه داء يَلْوي منه عنقَه. ثم يُقال للمتكبِّر: فيه صَعَرٌ وصَيَدٌ، فمعنى: «لا تُصَعِّر» أي: لا تُلزِمْ خدَّكَ الصَّعَر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمانٌ ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر» والأصعر: المُعرِضُ بوجهِه كِبْراً، وأراد رُذالةَ الناس الذين لا دينَ لهم. وفي الحديث: «كُلُّ صعَّارٍ ملعونٌ» أي: كلُّ ذي أُبَّهةٍ وكِبْرٍ.

الثانية - معنى الآية: ولا تُمِلْ خدَّكَ للناس كِبْراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة[(٢)]. وقيل: هو أن تلويَ شِدقَكَ إذا ذُكِرَ الرجلُ عندك كأنك تحتقره[(٣)]، فالمعنى: أقبِلْ عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدَّثكَ أصغرُهم فأصغِ إليه حتى يُكمِلَ حديثَه، وكذلك كان النبيُّ ﷺ يفعل[(٤)].

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغضوا، ولا تَدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاث»[(٥)]. فالتدابرُ: الإعراضُ وتركُ الكلام والسلامُ ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر؛ لأنَّ مَنْ أبغضْتَه أعرضْتَ عنه وولَّيتَه دُبُرَك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببتَه أقبلتَ عليه بوجهك، وواجهتَه لتسُرَّه ويَسُرَّك، فمعنى التدابر موجودٌ فيمن صَعَّر خدَّه، وبه فسَّر مجاهدُ الآية. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: قوله: «ولا تُصاعِرْ خَدَّكَ للنَّاسِ» كأنه نهى أن يُذِلَّ نفسَه من غير حاجة، ونحو ذلك رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ليسَ للإنسان أن يُذِلَّ نفسَه»[(٦)].

---

(١) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٩ عن أبي الجوزاء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٥.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٠٧٣)، والبخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٦) سلف ٥/ ٧٤ - ٧٥.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مُتبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال[١]، وقد مضى في «سبحان»[٢]. وهو النشاط والمشي فَرَحاً في غير شغلٍ وفي غير حاجة. وأهلُ هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء، فالمَرِحُ مختالٌ في مشيته[٣]. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزْدي، عن غُضيف بن الحارث قال: أتيتُ بيتَ المقدس أنا وعبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعتُه يقول: إنَّ القبرَ يُكلِّمُ العبدَ إذا وُضِعَ فيه فيقول: يا ابنَ آدمَ ما غَرَّك بي؟! ألم تعلم أني بيتُ الوَّحدة؟! ألم تعلم أني بيتُ الظُّلمة؟! ألم تعلم أني بيتُ الحق؟! يا ابن آدم ما غَرَّكَ بي؟ لقد كنتَ تمشي حولي فَدَّاداً. قال ابن عائذ: قلتُ لغُضيف: ما الفدَّادُ يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مِشيتِكَ يا ابن أخي أحياناً[٤]. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مالٍ كثيرٍ وذا خُيلاء[٥]. وقال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[٦]. والفخور: هو الذي يُعدِّدُ ما أُعطِيَ، ولا يشكر اللهَ تعالى. قاله مجاهد[٧]. وفي اللفظة الفخرُ بالنسب وغير ذلك[٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لـمَّا نهاه عن الخُلُق الذميم رسَمَ له

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٢) ١٣/ ٨٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٤٥ من طريق يحيى بن جابر، به.

(٥) غريب الحديث ١/ ٢٠٤.

(٦) أخرجه أحمد (٥٣٥١)، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر ﵄.

(٧) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٦٢.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء[١]، أي: لا تَدِبَّ دبيبَ المُتَماوِتين، ولا تَثِبْ وثبَ الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: «سرعةُ المشي تُذهِبُ بهاءَ المؤمن». فأما ما رُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعةَ المرتفعةَ عن دبيب المتماوِت، والله أعلم[٢]. وقد مدح اللهُ سبحانه مَنْ هذه صفته حسبما تقدَّم بيانُه في «الفرقان»[٣].

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقُصْ منه[٤]، أي: لا تتكلف رفع الصوت وخُذْ منه ما تحتاج إليه، فإنَّ الجهرَ بأكثر من الحاجة تكلُّفٌ يؤذي. والمراد بذلك كلِّه التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذِّنٍ تكلَّف رفْعَ الأذان بأكثَرَ من طاقته: لقد خشيتُ أن ينشقَّ مُرَيْطاؤك. والمؤذِّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر. والمُرَيْطاء: ما بين السُّرَّة إلى العانة[٥].

الثالثة - قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبحُها وأوحشُها؛ ومنه: أتانا بوجهٍ منكر[٦]. والحمارُ مَثَلٌ في الذَّمِّ البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقُه، ومن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٤ ، والحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر، وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك، وكذبه غير واحد.

وأخرجه ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، وهو متروك. وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح بن سليمان الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) ١٥/ ٤٦٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩ .

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩ .

استفحاشِهم لذكره مجرَّداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجريَ ذِكْرُ الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذلُّلاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة ـ في الآية دليلٌ على تعريف قُبحِ رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية[٢]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتُم نهيقَ الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنَّها رأتْ شيطاناً»[٣]. وقد رُوِيَ: أنه ما صاح حمارٌ ولا نبحَ كلبٌ إلَّا أن يرى شيطاناً[٤]. وقال سفيان الثَّوري: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلَّا نهيق الحمير. وقال عطاء: نهيقُ الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة[٥].

الخامسة ـ وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم[٦]، أو بترك الصياح جملةً؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغيرِ ذلك[٧]، فمن كان منهم أشدَّ صوتاً كان أعزَّ، ومن كان أخفضَ كان أذلَّ[٨]، حتى قال شاعرهم:

جَهِيرُ الكلامِ جهيرُ العُطاس جَهِيرُ الرُّواء جهيرُ النَّغَمْ

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٤، والرُّجلة: فعل الرجل الذي لا دابة له. تهذيب اللغة ١١/ ٣٢.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٤.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٨٢٦٨).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٤١.

وَيَعْدُو على الأَيْنَ عَدْوَى الظَّليم ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ[(١)]

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: لو أنَّ شيئاً يُهابُ لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثَلِ سواء[(٢)].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحَّد الصوتَ وإن كان مضافاً إلى الجماعة؛ لأنَّه مصدرٌ، والمصدر يدلُّ على الكثرة، وهو مصدرُ صاتَ يَصُوتُ صَوْتاً، فهو صائت. ويُقال: صوَّت تصويتاً فهو مُصوِّتٌ. ورجل صاتٌ أي: شديد الصوت، بمعنى صائت[(٣)]، كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ، أي: كثير المال والنوال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ نِعمَه على بني آدم، وأنه سخَّر لهم «ما في السَّماواتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وملائكةٍ تحوطُهم وتجرُّ إليهم منافعهم[(٤)]. «وما في الأرض» عامٌّ في الجبال والأشجار والثمار وما لا يُحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملَها وأتمَّها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: «وأَصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأنَّ حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ ، والشعر للراجز العماني كما في البيان والتبيين ١/ ١٢٦ ؛ قال الجاحظ: الأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لقمم الجسم، وإن جسمه لَعمم، إذا كان تاماً.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤١ .

(٣) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٢٣ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

سُفْلِها إلى عُلوِّها فتردُّها صاداً. والنِّعَم: جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر بفتح الدال[١]، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون: «نِعمةً» على الإفراد[٢]، والإفراد يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وهي قراءة ابن عباس من وجوهٍ صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام[٣]؛ قال النبيُّ ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنةُ ما سترَ عليك من سيِّئ عملِك»[٤]. النحَّاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: يُدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عزَّ وجلَّ على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمَّا كان الإسلامُ يؤول أمرُه إلى الجنة سُمِّيَ نعمة[٥]. وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل[٦]. وقال المُحاسبي: الظاهرة: نِعَمُ الدنيا، والباطنة: نِعَمُ العُقْبى. وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرءُ في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع اللهُ تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوَرْديُّ[٧] في هذا أقوالاً تسعةً، كلُّها ترجِعُ إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تقدَّم معناها في «الحج»[٨] وغيرِها. نزت في يهوديٍّ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربِّكَ، مِن أيِّ شيءٍ هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذَتْه. قاله مجاهد[٩]. وقد مضى هذا في «الرعد»[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ ، وقراءة «وأصبغ» شاذة.
(٢) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٧ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .
(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٢ موقوفاً على ابن عباس ﷺ.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ بنحوه.
(٧) في النكت والعيون ٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٨) ١٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧ .
(٩) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ .
(١٠) ١٢/ ٣٥ .

وقيل: إنها نزلت في النَّضر بن الحارث، كان يقول: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. قاله ابن عباس[١]. ﴿يُجَادِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حُجَّة[٢] ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نيِّرٌ بيِّن، إلا الشيطان فيما يُلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يتبعونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأنَّ العبادةَ من غير إحسانٍ ولا معرفةِ القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]. وفي حديث جبريل قال: فأخبِرْني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك»[٣]. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقد مضى في «البقرة»[٤]. وقد قرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسُّلَمِيُّ وعبدا لله بن مسلم بن يسار: «وَمَنْ يُسَلِّم»[٥]. النحَّاس: و«يُسلِم» في هذا أعرف، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ومعنى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عزَّ وجلَّ،[٦] ويكون «يُسلِّم» على التكثير، إلَّا أنَّ المستعملَ في سلَّمتُ أنه بمعنى دفعتُ؛

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ لكن نسبه إلى أبي مالك.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣.

(٣) سلف ٢/ ١٣١.

(٤) ٤/ ٢٨٤.

(٥) الشاذة ص ١١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٣ عن أبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن مسلم، والكشاف ٣/ ٢٣٥ عن علي بن أبي طالب، وفي زاد المسير ٦/ ٣٢٥ عن أبي عبد الرحمن وأبي العالية وقتادة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧.

يقال: سلَّمتُ في الحنطة، وقد يُقال: أسلمتُ. الزمخشريُّ[١]: قرأ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «وَمَنْ يُسَلِّم» بالتشديد؛ يقال: أسلِمْ أمرَكَ وسلِّمْ أمرَكَ إلى الله تعالى، فإن قلتَ: ماله عُدِّيَ بإلى، وقد عدَّى باللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]؟ قلتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاتُه ونفسُه سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه معَ إلى راجعٌ إلى أنه سلَّم إليه نفسَه كما يُسلِّم المتاعَ إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكيل عليه والتفويض إليه.[٢]

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ﴾ أي: نجازيهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نُبقيهم في الدنيا مدَّةً قليلةً يتمتَّعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نُلجئهم ونسوقهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ «مَنْ» يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: «كُفْرُهُ» ثم قال: «مَرْجِعُهُمْ» وما بعده على المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي: هم يعترفون بأنَّ الله خالقهم فلِمَ يعبدون غيره؟! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينظرون ولا يتدبَّرون. ﴿لِلَّهِ مَا

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٣٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤ .

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكاً وخلقاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: الغنيُّ عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرَهم لينفعهم. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

لمَّا احتجَّ على المشركين بما احتجَّ بيَّن أن معاني كلامِه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهايةَ لها. وقال القَفَّال: لمَّا ذكر أنه سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأنه أسبغَ النِّعم نبَّه على أنَّ الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحارَ مداداً، فكُتِبَ بها عجائبُ صُنْعِ الله الدالَّةِ على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القُشَيْرِيُّ: فردَّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى، والمخلوق لا بُدَّ له من نهاية، فإذا نُفيتِ النهايةُ عن مقدوراته فهو نفيُ النهاية عما يُقَدَّر في المستقبل على إيجاده، فأمَّا ما حصره الوجودُ وعدَّه فلا بُدَّ من تناهيه، والقديمُ لا نهايةَ له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى «كَلِمَاتُ اللهِ» في آخر «الكهف». وقال أبو عليٍّ: المرادُ بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحوٌ ممَّا قاله القَفَّال، وإنَّما الغرضُ الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غيرُ متناهية، وإنما قرَّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غايةُ ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية يدلُّ على أن المُرادَ بالكلمات الكلامُ القديم.

قال ابن عباس: إنَّ سببَ هذه الآية أنَّ اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراةَ فيها كلامُ الله وأحكامُه، وعندك أنها تبيانُ كلِّ شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراةُ قليلٌ من كثير» ونزلت هذه الآية، والآية مدنية[1]. قال أبو جعفر النحَّاس[2]: فقد تبيَّنَ أنَّ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢.

الكلماتِ ها هنا يُرادُ بها العلمُ وحقائقُ الأشياء؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ عَلِم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالقٌ في السماوات والأرض من كلِّ شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذَّرِّ، وعلم الأجناس كلَّها وما فيها من شعرةٍ وعضوٍ، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرَّف فيه من ضروب الطَّعم واللون، فلو سَمَّى كلَّ دابةٍ وحدَها، وسَمَّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوَّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كلِّ زمان، وبيَّنَ كلَّ شجرةٍ وحدَها وما تفرَّعت إليه، وقدَّر ما يَيبسُ من ذلك في كلِّ زمان، ثم كتب البيان على كلِّ واحدٍ منها ما أحاط الله جلَّ ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيَّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ لكان البيانُ عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفَّال، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. وقال قومٌ: إنَّ قريشاً قالت: سيتِمُّ هذا الكلامُ لمحمدٍ وينحسر، فنزلت. وقال السُّدِّي: قالت قريشٌ: ما أكثرَ كلام محمد! فنزلت[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال، كأنه قال: والبحرُ هذه حالُه. كذا قدَّرها سيبويه. وقال بعض النَّحويين: هو عطفٌ على «أنَّ» لأنها في موضع رفعٍ بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على «ما» وهي اسمُ «أنَّ»[٢]. وقيل: أي: ولو أنَّ البحر يمدُّه أي: يزيدُ فيه[٣]. وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «يُمِدُّه» من أمدَّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضَه بعضاً[٤]، كما تقول: مدَّ النيلُ الخليجَ، أي: زادَ فيه[٥]. وأمدَّ الشيءُ ما ليس

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) المصدر السابق، وكلام سيبويه في الكتاب ٢/ ١٤٤، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٩، وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

منه[١]. وقد مضى هذا في «البقرة» و«آل عمران»[٢]. وقرأ جعفر بن محمد: «والبحرُ مِدادُه»[٣]. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم أيضاً[٥]. وقال أبو عبيدة[٦]: البحر ها هنا الماءُ العذبُ الذي يُنبِتُ الأقلامَ، وأمَّا الماءُ الملح فلا يُنبِتُ الأقلامَ.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال الضحَّاك: المعنى: ما ابتداءُ خلقكم جميعاً إلَّا كخلقِ نفسٍ واحدة، وما بَعثُكم يومَ القيامة إلَّا كبعثِ نفسٍ واحدة. قال النحَّاس: وهكذا قدَّره النَّحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٧] [يوسف: ٨٢]. وقال مجاهد: لأنَّه يقول للقليل والكثير: كن فيكون[٨]. ونزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي الأشدين[٩] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى قد خلقَنا أطواراً، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عِظاماً، ثم تقول: إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) ١/ ٣١٦ - ٣١٧ و٥/ ٣٠٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، وهي قراءة شاذة.

(٤) عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

(٥) معنى العزيز سلف ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، ومعنى الحكيم سلف ١/ ٤٢٩.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٢٨.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٢.

(٩) في (م): الأسدين.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «الحج» و«آل عمران»[(١)]. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما بالطُّلوع والأُفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأُفوله لا يَعْدوه ولا يَقْصر عنه[(٢)]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَنْ قدر على هذه الأشياء فلا بُدَّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالمٌ بأعمالكم.

وقراءة العامَّة «تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ ونصر بن عاصم والدُّوريُّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: فعلَ اللهُ تعالى ذلك لتعلموا وتُقِرُّوا ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي الشيطان. قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ العليُّ في مكانته، الكبيرُ في سلطانه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِى﴾ في موضع الخبر. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ

---

(١) في النسخ الخطية: الحج والأنعام. وقد سلف ١٤/٤٣٨ - ٤٣٩ و٥/٨٥ - ٨٦.

(٢) النكت والعيون ٤/٣٤٦.

(٣) الشاذة ص ١١٧ من رواية عباس الدوري عن أبي عمرو، والمشهور عن أبي عمرو مثل قراءة العامة.

(٤) النكت والعيون ٤/٣٤٦.

﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه.

وقرأ ابن هُرْمُز: «بِنعماتِ الله»[١] جمع نعمة، وهو جمع السلامة، وكان الأصلُ تحريك العين فأُسكنت.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: ليريكم جَرْيَ السفن. قاله يحيى بن سلاَّم. وقال ابن شجرة: «مِنْ آياتِهِ» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقَّاش: ما يرزقهم اللهُ منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدُّعاء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّارٌ لقضائه، شكورٌ على نعمائه[٢]. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأنَّ الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان[٣]. والآية: العلامة، والعلامةُ لا تستبينُ في صدر كلِّ مؤمن، إنما تستبينُ لمن صبر على البلاء، وشكر على الرخاء. قال الشعبيُّ: الصبرُ نصفُ الإيمان، والشكرُ نصفُ الإيمان، واليقينُ الإيمان كلُّه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٤] وقال عليه السلام: «الإيمانُ نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسَّحاب ـ وقاله قتادة ـ جمع ظُلَّة؛ شبَّه الموجَ بها؛ لكبرها وارتفاعها[٦]. قال النابغة في وصف بحر:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٠ ، والشاذة ص ١١٧ ونسبها أيضاً للأعمش.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٥ .

(٤) من قوله: قال الشعبي.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

(٥) سلف ١٢/ ١٠٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٥ دون قول قتادة، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٤٧ .

يـمـاشـيـهـنَّ أخـضـرُ ذو ظـلالٍ   عـلـى حـافـاتـهِ فِـلَـقُ الـدِّنـانِ[1]

وإنما شبَّه الموجَ وهو واحد بالظُّلِّ وهو جمع؛ لأنَّ الموجَ يأتي شيئاً بعد شيءٍ ويركبُ بعضُه بعضاً كالظُّلل[2]. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يُجْمَع لأنه مصدر. وأصلُه من الحركة والازدحام، ومنه: ماجَ البحر، والناس يموجون. قال كعب[3]:

فـجـئـنـا إلـى مـوجٍ مـن الـبـحـر وَسْـطُـهُ   أحـابـيـشُ مـنـهـا حـاسِـرٌ ومُـقـنَّـعُ

وقرأ محمد ابن الحنفية: «مَوْجٌ كالظِّلال» جمع ظِلّ[4]. ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ موحِّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه. وقد تقدَّم. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ يعني من البحر[5]. ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾ قال ابن عباس: مُوفٍ بما عاهدَ عليه الله في البحر[6]. النقاش يعني: عدلَ في العهد، وفَى في البَرِّ بما عاهد الله عليه في البحر. وقال الحسن: «مُقْتَصِدٌ» مؤمنٌ متمسِّكٌ بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: «مُقْتَصِدٌ» في القول، مضمِرٌ للكفر[7]. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصدٌ ومنهم كافر. ودلَّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختَّار: الغدار. والخَتْرُ: أسوأ الغدر[8]. قال عمرو بن معدِ يكرِب:

فـإنَّـكَ لـو رأيـتَ أبـا عُـمـيـرٍ   مـلأتَ يـديـكَ مـن غـدْرٍ وخَـتْـرِ

وقال الأعشى:

---

(١) مجاز القرآن ٢/١٢٩ ، وقال: ويروى: يعارضهن. قلنا: وكذلك هو في ديوان النابغة - وهو الجعدي - ص ١٦٣ ، ووقع في النسخ الخطية: وغاشيهنَّ. والدِّنان جمع دَنّ: وهو وعاء ضخمٌ للخمر ونحوها. المعجم الوسيط (دنن).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠ .

(٣) وهو ابن مالك في ديوانه ص ١٨٢ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ .

(٥) النكت والعيون ٤/٣٤٨ ، وقد سلف ما أشار إليه المصنف ١٠/ ٤٧٥ .

(٦) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٧) النكت والعيون ٤/٣٤٨ .

(٨) تهذيب اللغة ٧/ ٢٩٤ .

بالأبْلَقِ الفَرْدِ من تَيْماءَ منزِلُهُ حِصنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ خَتَّارِ

قال الجوهري: الخَتْرُ الغدر؛ يقال: خترَه فهو ختَّار[1]. الماورديُّ: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: خَتَرَ يَخْتُرُ ويَخْتِرُ - بالضم والكسر - خَتْراً. ذكره القُشَيريُّ. وجحدُ الآيات إنكارُ أعيانها. والجَحدُ بالآيات إنكارُ دلائلها.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن، أي: خافوه ووحِّدوه.[2] ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تقدَّم معنى «يَجْزِي» في البقرة[3] وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم»[4]. وقال: «من ابتُلي بشيءٍ من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له حجاباً من النار»[5]. قيل له: المعنيُّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنبَ ولده، ولا مولودٌ ذنبَ والده، ولا يؤاخَذُ أحدُهما عن الآخر. والمعنيُّ بالأخبار أنَّ ثوابَ الصبرِ على الموت والإحسانِ إلى البنات يحجبُ العبدَ عن النار، ويكون الولدُ سابقاً له إلى الجنة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث[6] ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تخدعنَّكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتَّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي

---

(١) الصحاح (ختر).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ .

(٣) ٢/ ٧٥ - ٧٦ .

(٤) سلف ٤/ ١٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٠٦٠)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦ .

سورة الملائكة(١) والحديد(٢) بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهدٍ وغيره(٣)، وهو الذي يغرُّ الخلقَ ويُمنِّيهم الدنيا ويُلهيهم عن الآخرة، وفي سورة «النساء» [الآية: ١٢٠]: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْفَع بضمِّ الغين(٤)، أي: لا تغترُّوا. كأنه مصدرُ غرَّ يَغُرُّ غُروراً. قال سعيد بن جُبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنَّى المغفرة(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

زعم الفرَّاء أنَّ هذا معنى النفي، أي: ما يعلمه أحدٌ إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحَّاس: وإنَّما صارَ فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنَّه ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: أنَّها هذه(٦). قلت: قد ذكرنا في سورة «الأنعام» حديثَ ابن عمر في هذا، خرَّجه البخاري(٧). وفي حديث جبريل عليه السلام قال: أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل» هُنَّ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلى اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال: «صدقت». لفظ أبي داود الطيالسيّ(٨). وقال عبد الله بن

(١) يعني سورة فاطر الآية (٥).

(٢) الآية (١٤).

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٧٢ عن سماك، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ عن سماك وأبي حيوة، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٠ .

(٧) في صحيحه (٤٦٩٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١ .

(٨) في مسنده (٢١) ، وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

مسعود: كلُّ شيءٍ أوتي نبيُّكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.. الآية إلى آخرها[١]. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمُها إلا الله تعالى، ولا يعلمُها مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل[٢]. فمنِ ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إنَّ الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إيَّاهم. والمرادُ إبطالُ كونِ الكَهنة والمنجِّمين ومن يستسقي بالأنواء، وقد يُعرَفُ بطول التجارب أشياءُ من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك، حسبما تقدَّم ذِكرُه في الأنعام[٣]. وقد تختلف التجربةُ وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أنَّ يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئتَ نبَّأتُكَ نجمَ ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموتُ حتى تعمى، وأنا لا يحول عليَّ الحولُ حتى أموت. قال: فأين موتُكَ يا يهودِيُّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدقَ الله ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ فرجعَ ابنُ عباس فوجدَ ابنَه محموماً، وماتَ بعد عشرة أيام. وماتَ اليهوديُّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليُّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجَبُ الأحاديث. وقال مقاتل: إنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ من أهل البادية اسمُه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ امرأتي حُبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ، وقد علمتُ ما علمتُ اليوم فأخبرني ماذا أعملُ غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ذكره القُشَيْرِيُّ والماوَرْدِيُّ[٤]. وروى أبو المَلِيح، عن أبي عَزَّة الهُذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ الله تعالى قَبْضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جعلَ له إليها حاجةً فلم ينتهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الله

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٥٩).

(٢) زاد المسير ٦/ ٣٣١ .

(٣) ٨/ ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٣٥١ .

عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ذكره الماورديُّ[١]، وخرَّجه ابن ماجه[٢] من حديث ابن مسعود بمعناه. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣] مستوفًى.

وقراءة العامة: «وَيُنَزِّلُ» مُشدَّداً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخفَّفاً[٤]. وقرأ أُبَيُّ بن كَعْب: «بِأَيَّةِ أَرْضٍ»[٥] الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ». قال الفرَّاء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ[٦]. وقيل: أراد بالأرض المكان فذكَّر؛ قال الشاعر:

فــلا مُــزْنــةٌ وَدَقَــتْ ودْقَــهــا ... ولا أرضَ أبــقَــلَ إبــقــالَــهــا[٧]

وقال الأخفش: يجوز: مررتُ بجاريةٍ أيِّ جاريةٍ، وأيَّة جارية[٨]. وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث كُلٍّ في قولهم: كُلَّتُهُنَّ[٩]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ «خَبِيرٌ» نعتٌ لـ«عليم» أو خبرٌ بعد خبر[١٠]. والله تعالى أعلم.

تم الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السابع عشر، ويبدأ بتفسير سورة السجدة

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٠ ، وأخرجه أحمد (١٥٥٣٩) ، والترمذي (٢١٤٧).

(٢) في سننه (٤٢٦٣).

(٣) ص ٤ - ٧١ .

(٤) السبعة ص ١٦٤ - ١٦٥ ، والتيسير ص ٧٥ .

(٥) زاد المسير ٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ عن أُبي بن كعب وابن مسعود وابن أبي عبلة، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠ .

(٧) قائله عامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١ .

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٩ بنحوه.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٣٩ ، وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٠٧ .

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٩٠ .

فهرس الجزء السادس عشر